The Islamic University–Gaza
Research and Postgraduate Affairs
Faculty of Ossoul Ed-deen
Master of Creed and Contemporary Doctrines

الجامعة الإسلامية- غزة
شؤون البحث العلمي والدراسات العليا
كلية أصول الدين
ماجستير العقيدة والمذاهب المعاصرة

القضايا العقدية

في سورة آل عمران

Creed Issues in Surah Al-Imran

إعداد الطالبة:

لندا كمال محمود السوسي

إشراف الدكتور:

نسيم شحدة ياسين

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في العقيدة الإسلامية من قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية – غزة

محرم/1439هـ – سبتمبر/2017 م

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

القضايا العقدية
في سورة آل عمران
Creed Issues in Surah Al-Imran

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	**لندا كمال محمود السوسي**	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:		التاريخ:



الجامعة الإسلامية-غزة
The Islamic University of Gaza



عمادة البحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref:

التاريخ: 2017/09/25م Date:

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحثة/ **لندا كمال محمود السوسي** لنيل درجة الماجستير في **كلية *أصول الدين*/ قسم العقيدة الإسلامية** وموضوعها:

القضايا العقدية في سورة آل عمران

وبعد المناقشة التي تمت اليوم الاثنين 05 محرم 1439هـ، الموافق 2017/09/25م الساعة الواحدة ظهراً في قاعة مبنى اللحيدان. اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

د. نسيم شحدة ياسين	**مشرفاً و رئيساً**	....
د. أحمد جابر العمصي	**مناقشاً داخلياً**	....
د. عدنان أحمد البرديني	**مناقشاً خارجياً**	....



وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحثة درجة الماجستير في **كلية *أصول الدين*/ قسم العقيدة الإسلامية**.

واللجنة إذ تمنحها هذه الدرجة فإنها توصيها بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمها في خدمة دينها ووطنها.

والله ولي التوفيق ،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. مازن اسماعيل هنية



+97082644400 +97082644800 public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps iugaza iugaza mediaiug iugaza
P.O Box 108, Rimal,Gaza,Palestine ص.ب 108 الرمال . غزة . فلسطين

ملخص الدراسة باللغة العربية

الحمد لله حمداً كثيراً، والصلاة والسلام على رسول الهدى محمد ﷺ، وبعد...

إن البحث في كتاب الله من أشرف العلوم، وبيان العقيدة الصحيحة من أعظم الواجبات، والمتدبر للقرآن لا يجد سورة تخلو من العقيدة وبيانها، وخاصة سورة آل عمران، التي تضمنت الكثير من القضايا العقدية؛ لذا كانت دراستها والبحث فيها، وقد قُسمت الدراسة إلى مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول، وخاتمة.

أما المقدمة فقد تناولتْ أهمية الموضوع وسبب اختياره، ومنهج البحث وطريقته، والدراسات السابقة، أما التمهيد فقد تم الحديث فيه عن تعريف العقيدة وأهميتها، وضرورة الاهتمام بها، وتعريف عام بالسورة، ومجمل القضايا العقدية التي شملتها السورة.

وقُسم الفصل الأول (الإلهيات في سورة آل عمران)، إلى أربعة مباحث، الأول: عن تعريف التوحيد لغة واصطلاحاً، وأنواعه عند أهل السنة والجماعة، والثاني: عن دلائل التوحيد ونواقضه، والثالث: عن عقيدة القضاء والقدر، والرابع: عن عقيدة الولاء والبراء.

وقُسم الفصل الثاني (النبوات والكتب السماوية في سورة آل عمران)، إلى خمسة مباحث، الأول: عن تعريف النبي والرسول لغة واصطلاحاً، والفرق بينهما، والثاني: عن وجوب الإيمان بهم، وأن النبوة اصطفاء، ومحصورة في الرجال، وعن بعض الشروط الواجب توافرها فيهم، وبيان بعض وظائفهم، والثالث: عن الأنبياء والرسل المذكورون في السورة، والرابع: بيان موقف أهل الكتاب من الأنبياء والرسل، والخامس: عن وجوب الإيمان بالكتب السماوية.

أما الفصل الثالث (الغيبيات في سورة آل عمران)، فَقُسم إلى ثلاثة مباحث، الأول: عن تعريف الملائكة لغة واصطلاحاً، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة فيهم، وبعض وظائفهم، ونفي عبادتهم، وثمرات الإيمان بهم، والثاني: عن تعريف الشيطان لغة واصطلاحاً، وبعض أعماله، وطرق الوقاية منه، والثالث: عن اليوم الآخر ومعناه، وبعض أسمائه، والحكمة من وجوده، والحياة البرزخية، ومظاهر اليوم الآخر، والجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، وثمرات الإيمان باليوم الآخر.

وفي الخاتمة ذكرتُ أهم النتائج والتوصيات، ثم الفهارس العامة للبحث.

Abstract

All Praise is due to Allah, and may His peace and blessings be upon the Prophet of guidance Mohammed. To proceed:

Studying the Book of Allah is one of the most noble studies, and clarifying the true creed is one of the greatest duties. This is because almost each surah in the Noble Quran has discussed the matters of Islamic creed, especially Surah Al-Imran. Thus, this study aims to highlight the creed issues mentioned in Surah Al-Imran. This study is divided into an introduction, preface, three chapters, and a conclusion.

The introduction discussed the importance of the topic, the reason for its selection, the methodology of the research and its method, and the previous studies. The preface presented the definition of Islamic creed, its importance, and the need to pay attention to it. This is in addition to a general introduction of Surah Al-Imran and an overview on the issues of Islamic creed mentioned in it.

The first chapter entitled “the divine issues in Surah Al-Imran” included four topics. The first topic was about the linguistic and applied definition of monotheism, Tawheed, and its types as perceived by Ahl As-Sunnah wal-Jama’ah. The second topic was about the signs of Tawheed and its nullifiers. The third topic was about the creed of fate and destiny. The fourth topic was about the creed of loyalty and disavowal.

The second chapter entitled “Prophethood and heavenly books in Surah Al-Imran” included five topics. The first topic was about the linguistic and applied definition of the Prophet and the Messenger, and the difference between them. The second topic was about the obligation to believe in them, the fact that they were men selected by Allah, some of the prophethood conditions, and some of the prophet’s duties. The third topic was about the prophets and messengers mentioned in Surah Al-Imran. The fourth topic was about the belief of Ahl al-Kitab in Allah’s prophets and messengers. The fifth topic was about the obligation to believe in the heavenly books.

The third chapter entitled “The unseen world in Surah Al-Imran” included three topics. The first topic was about the linguistic and applied definition of the angels, the belief of Ahl As-Sunnah wal-Jama’ah in them, some of their duties, prohibition of worshipping angels, and the benefits of the belief in angels. The second topic was about the linguistic and applied definition Satan, some of his deeds, and the ways of seeking protection from him. The third topic was about the Final Day including its meaning, names, the rational of its existence, life in grave, its aspects and events, paradise and its blessings, hellfire and its torture, and the benefits of belief in the Final Day.

The conclusion included the most important results and recommendations, and the general indexes of the research.

الإهداء

إلى من أرجو من الله أن يشفّعه فيَّ يوم القيامة، ويسعدني بصحبته في الآخرة، قدوتي رسول الله ﷺ إيماناً وتسليماً وتصديقاً.

إلى نبع الوفاء، روح العطاء، رمز الحنان... إلى من غرست في نفسي كل معاني الحب، والخير، والفضيلة... والدتي الحبيبة حفظها الله.

إلى من يكد ويتعب، وأحسن تربيتي، وحباني بدعائه ورضاه... والدي الحبيب حفظه الله.

إلى رمز المحبة والنقاء والعطاء... إلى من ساندني في كل لحظة... زوجي البر، حفظه الله.

إلى والدة زوجي الحبيبة، حفظها الله، وإلى روح والد زوجي الطاهرة – رحمه الله تعالى –.

إلى الغوالي على فؤادي، أحباب الروح، مهجة الحياة وسرورها... أبنائي: أنس، زكي، مرام، ميار، حفظهم الله ورعاهم.

إلى من نبض القلب بحبهم ... جدي وجدتي العزيزين، وإخواني الأفاضل، وأختي الغالية، حفظهم الله جميعاً.

إلى كل من علمني حرفاً، وأعطاني مما أعطاه الله علماً... معلميَّ وأساتذتي الكرام، أئمة الهدى، حفظهم الله أينما كانوا.

إلى المجاهدين والمرابطين والشهداء...

إلى كل من له حق علي من آل وصحب، إلى جميع المسلمين والمسلمات. إليهم جميعاً أهدي ثمرة جهدي

راجية من الله تعالى التوفيق والقبول والسداد.

شكرٌ وتقديرٌ

أخرّ لله ساجدة شكراً وعرفاناً، امتناناً وفضلاً، حمداً وتمجيداً، أن جعلني من أهل الإسلام، ثم أكرمني بطلب العلم الشرعي، فله المحامد كلها أن يسر لي طريق العلم والهداية والتوفيق، ويسر لي إتمام هذا البحث وأقدرني وأعانني عليه، فالشكر – ابتداءً وانتهاءً – لله الكريم الوهاب.

ثم عملاً بقول النبي ﷺ: "**مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ اللَّهَ**"[(1)]، أتقدم بخالص الشكر والتقدير لفضيلة الدكتور نسيم شحدة ياسين – حفظه الله – لتفضله بقبول الإشراف على هذه الرسالة، ولما أولاني إياه من المعونة والنصح والتوجيه، ولما غمرني به بالصبر علي في سبيل إتمام هذا البحث، سائلة المولى ﷻ أن يجزيه خير الجزاء، ويجعل ذلك كله في ميزان حسناته.

كما أتقدم بعظيم الشكر والتقدير لكل من عضوي لجنة المناقشة الفاضلين: فضيلة الدكتور: أحمد جابر العمصي– حفظه الله –، وفضيلة الدكتور: عدنان أحمد البرديني– حفظه الله –، اللذين تكرما بقبول مناقشة هذه الرسالة، وبذلا جهداً لإثراءها وتحسينها، فجزاهما الله عني خير الجزاء.

وجزيل الشكر والعرفان للصرح العلمي الشامخ، الجامعة الإسلامية، حاضنة العلم والعلماء، والمكتبة المركزية وكافة موظفيها، وأتوجه بخالص الشكر والامتنان لعمادة الدراسات العليا، وكلية أصول الدين، وقسمها "العقيدة والمذاهب المعاصرة"، ممثلاً بأساتذته الكرام، الذين غرسوا فينا حب طلب العلم، وزودونا من العلم النافع الذي به سعادة الدنيا والآخرة، فجزاهم الله خير الجزاء ورفعهم إلى أعلى الدرجات.

والشكر موصول لمن له الفضل علي بعد الله تعالى، ألا وهم: أمي الحبيبة التي لن أستطيع، مهما شكرتها، أن أوفيها حقها، لما بذلته لي من تقديم الحب والعطاء، والدعاء لي بالخير دوماً، ومساندتي في تربية أبنائي ورعايتهم أثناء غيابي لتلقي العلم وحضور مجالسه، فلولاها – بعد ربي – لما استطعت الوصول إلى هذه المرحلة التعليمية، فجزاها الله خير الجزاء، وجعل ذلك رصيداً في ميزان أعمالها إلى يوم القيامة، وأتوجه بالشكر والتقدير لوالدي الغالي الذي غمرني بدعمه، ودعائه، ورضاه علي لكي أقطف ثمار هذا النجاح، والشكر والعرفان لزوجي، الذي طالما كان سنداً وعوناً لي، الذي لم يأل جهداً في مساعدتي ودعمي في سبيل إكمال دراستي في طلب العلم الشرعي، فجزاه الله عني كل خير.

وأتوجه بالشكر والاحترام للأستاذة أسماء أحمد الملفوح، وللأستاذ سهيل أسعد أبو زهير لما بذله من جهد في تدقيق هذا البحث، وضبط قواعده اللغوية، وللأستاذ نزار عيد الصيرفي لما قام بمهمة التنسيق وحسن إخراج هذا البحث بأبهى الصور.

والشكر كل الشكر لمن خصني بالدعاء في ظهر الغيب، ولكل من له يد في إعانتي ونصحي لإتمام هذا البحث، فجزاهم الله عني كل خير.

---

(1) [الترمذي: سنن الترمذي، البر والصلة/ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، 339/4: رقم الحديث 1954]، وقال الألباني: إنه صحيح.

فهرس المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[آل عمران: 102].

أما بعد:

إن أفضل ما يقدمه العبد لربه تسخير نفسه لخدمة كتاب الله تعالى، وخدمة سنة نبيه ﷺ، فهذه الأعمال هي الباقيات الصاحات التي ينتفع الإنسان بها بعد مماته، حيث قال رسول الله ﷺ: "**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**"(1)، وانطلاقاً من هذا الإيمان العميق أحببت طلب العلم الشرعي، الذي هو أشرف العلوم على الإطلاق، فشرف العلم بشرف المعلوم، ولقد تم – بعون الله وتوفيقه – اختيار موضوع يتناول البحث في سورة من سور القرآن الكريم الذي هو بعنوان: **(القضايا العقدية في سورة آل عمران)**، فقضايا العقيدة من المسائل المهمة التي عني علماء المسلمين بتأصيلها وتقريرها، هذه العقيدة التي بعث الله بها رسله وأنزل كتبه، وأوجبها على جميع خلقه، فهي تعنى بسلامة فكر الإنسان وشأنه كله، فلا يستقيم الدين إلا بسلامة الاعتقاد وصحة العمل، وذلك بالتمسك بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح.

من أجل ذلك ستعرض الباحثة – إن شاء الله تعالى – في هذه الرسالة البحث في قضايا العقيدة، التي تتضمن: الإلهيات، والنبوات، والكتب السماوية، والغيبيات من خلال السورة الكريمة، سائلة المولى ﷻ الإخلاص والقبول والسداد.

أهمية الموضوع وسبب اختياره:

تبرز أهمية الموضوع في النقاط التالية:

1- إن هذا البحث يتناول أشرف الكتب، كتاب الله تعالى، وأن الاشتغال بفهمه، وتدبره، وتحليل موضوعاته ودراستها يعد قربة إلى الله تعالى.

---

(1) [مسلم: صحيح مسلم، الوصية/ما يلحق الإنسان من الثواب بعد مماته، ص692: رقم الحديث 1631].

2- يتعلق هذا البحث في أهم جانب من جوانب الدين الإسلامي، ألا وهو جانب العقيدة، الذي هو أهم علوم الدين.

3- إن من المعهود أن العقيدة تغلب على السور المكية وتميزها؛ لذلك كان من أسباب اختيار هذا البحث إبراز الجوانب العقدية في سورة مدنية، سورة آل عمران.

4- تضمنت السورة معظم القضايا العقدية مما حث الباحثة على جمع هذه القضايا في كتاب واحد، وهي: (الإلهيات، النبوات والكتب، الغيبيات).

5- شمول السورة أركان الإيمان الستة.

6- رغبة الباحثة في المشاركة في سلسلة القضايا العقدية في القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية.

منهج البحث:

اعتمدت الباحثة في هذا البحث على المنهج الاستقرائي التحليلي؛ لأنه من أنسب مناهج البحث العلمي لهذه الموضوعات، فقد جَمَعْتُ القضايا المتعلقة بالعقيدة في سورة آل عمران، ومن ثم قمت بدراستها دراسة تحليلية.

طريقة البحث:

أولاً: في دراسة المسائل:

1- جمع الآيات التي تتضمن القضايا العقدية في هذه السورة، وتوزيعها حسب موضوعات البحث.

2- نقل كلام المفسرين في تفسير الآية وما تدل عليه.

3- ربط الآيات العقدية بآيات من سور أخرى، كلما دعت الحاجة؛ لتحقيق الفائدة.

4- الاستعانة بكتب العقيدة في تأصيل المسائل العقدية في السورة، وفق منهج أهل السنة والجماعة.

5- إذا كانت الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد كثيرة، تم الاكتفاء ببعضها بما يؤدي الغرض.

6- ربط الآيات بأحاديث العقيدة من السنة النبوية الصحيحة، إن وجد.

7- ذكر أقوال العلماء المعتمدين في المسائل العقدية المذكورة في السورة، إن توفرت.

8- ترجمة الأعلام المغمورة في الرسالة.

9- بيان المعاني والمصطلحات الغريبة.

ثانياً: منهج التوثيق:

1- توثيق المراجع والمصادر بذكر اسم عائلة المؤلف أو اسم الشهرة، وإذا كان للكتاب مؤلفان يذكر اسم عائلة المؤلفين، أما إذا كان للكتاب مجموعة مؤلفين فيذكر اسم عائلة المؤلف الأول و"آخرون"، ثم عنوان الكتاب أو جزء منه يدل عليه، فالجزء، ورقم الصفحة داخل قوسين.

2- في حال كان اسم العائلة متشابهاً لأكثر من مصدر أو مرجع فإنه يشار في الحاشية: ذكر اسم العائلة، ثم الاسم الأول – اسم المؤلف –، وعنوان الكتاب، والجزء، ورقم الصفحة داخل قوسين.

3- في حال أخذت المعلومة من مصادر عديدة وكانت موثقة في هامش واحد، وكان هناك مرجعان أو مصدران أو أكثر لمؤلف واحد في الهامش نفسه، فتستخدم كلمة المؤلف نفسه، ثم ذكر عنوان الكتاب، فالجزء، ورقم الصفحة داخل قوسين.

4- في حال كان الاقتباسان من مصدر أو مرجع واحد دون مصدر فاصل بينهما، وفي الصفحة نفسها – الحاشية نفسها – الاقتباس مأخوذ من صفحة أو صفحات مختلفة عن المصدر السابق تستخدم كلمة المصدر أو المرجع السابق، أما في تكرار ذلك لثلاث مرات فأكثر، فتستخدم كلمة المرجع نفسه، وفي هاتين الحالتين لا يذكر اسم المؤلف، ثم يوضع فاصلة، ثم رقم الجزء إن اختلف، وإن لم يختلف لا يذكر، ثم رقم الصفحة بدون قوسين.

5- عزو الآيات القرآنية إلى سورها وذكر اسم السورة ورقم الآية في متن البحث، أما إذا كانت الآية داخل نص مقتبس فإنه تم الإشارة إلى اسم السورة ورقم الآية في الحاشية، وكتابة الآيات القرآنية وفق الرسم العثماني بين هلالين بهذا الشكل ﴿ ﴾.

6- عزو الأحاديث إلى مظانها الصحيحة، ونقل الحكم عليها ما لم يكن الحديث في الصحيحين أو في أحدهما، والحكم عليها يكون غالباً حكم الألباني، وبعضها حكم الأرنؤوط أو محمد فؤاد عبد الباقي.

7- وضع فهارس للآيات، والأحاديث، والمراجع، والموضوعات.

الدراسات السابقة:

من خلال الاطلاع والبحث تبين أن هناك بعض الرسائل التي كتبت حول سورة آل عمران، منها:

- **(معالم الجماعة المسلمة في سورة آل عمران)**، رسالة ماجستير تقدم بها الباحث أحمد عايش حبيب، في قسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية، سنة 1422هـ – 2002م.
- **(نظام سور: الفاتحة والبقرة وآل عمران)**، رسالة دكتوراة تقدم بها الباحث محمد عناية الله محمد هداية الله، في قسم القرآن وعلومه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، سنة 1407هـ – 1986م.
- **(تحقيق ودراسة سورتي آل عمران والنساء من تفسير ابن كمال باشا)** رسالة ماجستير تقدمت بها الباحثة أمل إسماعيل صالح يوسف بالجامعة الأردنية، سنة 1416هـ – 1995م.
- **(سورة آل عمران دراسة بلاغية)** رسالة دكتوراة تقدم بها الباحث عبد العزيز الدريهم، كلية اللغة العربية في قسم البلاغة والنقد بجامعة أم القرى، سنة 1422هـ – 2002م.

وبهذا، ومن خلال البحث والاطلاع تبين أن سورة آل عمران لم يتم دراستها من قبل الباحثين من الناحية العقدية في جميع القضايا الواردة فيها: (الإلهيات، النبوات، الكتب، الغيبيات) – وذلك فيما أعلم–.

خطة البحث:

وتشمل مقدمةً، وتمهيداً، وثلاثة فصول، وخاتمةً وفهارس، على النحو التالي:

المقدمة:

وتشمل أهمية الموضوع وسبب اختياره، ومنهج البحث وطريقته، والدراسات السابقة.

التمهيد، (وفيه أربع مسائل):

أولاً: تعريف العقيدة.

ثانياً: أهمية العقيدة وضرورة الاهتمام بها.

ثالثاً: تعريف عام بسورة آل عمران.

رابعاً: القضايا العقدية التي شملتها سورة آل عمران (إجمالاً).

المبحث الثاني: الشيطان في سورة آل عمران.

المطلب الأول: تعريف الشيطان لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: أعمال الشيطان.

المطلب الثالث: طرق الوقاية من الشيطان.

المبحث الثالث: اليوم الآخر في سورة آل عمران.

المطلب الأول: معنى الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الثاني: أسماء اليوم الآخر في سورة آل عمران.

المطلب الثالث: الحكمة من اليوم الآخر.

المطلب الرابع: الحياة البرزخية.

المطلب الخامس: مظاهر اليوم الآخر، وأحوال الناس فيه.

المطلب السادس: الجنة ونعيمها.

المطلب السابع: النار وجحيمها.

المطلب الثامن: ثمرات الإيمان باليوم الآخر.

الخاتمة: تشمل أهم النتائج والتوصيات.

المصادر والمراجع.

الفهارس: تشمل خمسة فهارس، هي:

1 – فهرس الآيات القرآنية.

2 – فهرس الأحاديث النبوية.

3 – فهرس الأعلام المترجم لها.

التمهيد

أولاً: تعريف العقيدة.

أ – العقيدة لغةً:

العين، والقاف، والدال أصل واحد، يدل على الشد والوثوق، وإليه ترجع كل فروع الباب، والعقد نقيض الحل، وعقدة النكاح وكل شيء أي: وجوبه وإبرامه، وعقد المرء قلبه على شيء أي: أنه لزمه فلا ينزع عنه[1].

ب – العقيدة اصطلاحاً:

وردت تعريفات عديدة للعقيدة في الاصطلاح، وجميعها تدور حول المعنى نفسه وما يقاربه، وهو الاعتقاد الجازم الذي لا يقبل الشك والريبة، ومن هذه التعريفات ما يلي:

قال السفاريني في تعريفه للعقيدة إنها: "حكم الذهن الجازم، فإن كان موافقاً للواقع فهو صحيح، وإلا فهو فاسد"[2].

وهي: "الأمور التي يجب أن يصدق بها قلبك وتطمئن إليها نفسك، وتكون يقيناً عندك، لا يمازجه ريب، ولا يخالطه شك"[3]، وهي: "ما يقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل"[4]، وهي: "التصديق بالشيء والجزم به دون شك أو ريبة"[5].

ج – العقيدة الإسلامية:

العقيدة الإسلامية هي: "الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره، وما أجمع عليه سلف الأمة، والتسليم لله تعالى في الحكم والأمر والقدر والشرع، ولرسوله ﷺ بالطاعة والتحكيم والاتباع"[6].

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج86/4)، وابن منظور، لسان العرب (ج296/3).

(2) السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج60/1).

(3) حسن البنا، العقائد (ضمن مجموعة الرسائل) (ص395).

(4) الجرجاني، التعريفات (ص152).

(5) السيد سابق، العقائد الإسلامية (ص9).

(6) العقل، مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة (ص6).

ومن خلال ما سبق يتبين مدى الارتباط الواضح لكل من المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة العقيدة، التي تفيد اللزوم والتصديق، والاعتقاد بالأمور من غير شك ولا ريبة، وأن العقيدة الإسلامية تتعلق بالجانب العلمي من الدين، المتمثل بأركان عقيدته، فقد سأل جبريل عليه السلام نبينا محمداً ﷺ في الحديث الطويل عن الإيمان فأجابه بقوله: "**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**"(1).

ثانياً: أهمية العقيدة وضرورة الاهتمام بها.

تبرز أهمية العقيدة وضرورة الاهتمام بها في النقاط التالية:

1- إن لكل بناء أساساً يقوم عليه، والدين الإسلامي يقوم على أساس متين هو العقيدة الإسلامية التي تنطلق من وحدانية الخالق ليكون أساساً لصحتها، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: 64]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا**﴾[الكهف: 110].

2- إن جميع الرسل أرسلوا بالدعوة للعقيدة الصحيحة، تلك العقيدة التي اتفقوا عليها جميعاً، ولم يختلفوا فيها وإن اختلفت شرائعهم، وهذا وإن دل فإنما يدل على أهميتها حيث قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ** ﴾ [النحل: 36]، وقال سبحانه:﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾[آل عمران: 19].

(1) [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، ص24: رقم الحديث 8].

3 – للعقيدة الإسلامية أهمية كبيرة، فقد قيل: "إن شرف العلوم بشرف المعلوم، وما دام الأمر كذلك فإن هذا العلم هو أهم العلوم وأشرفها، لأنه أساس الدين كله، بعقائده وشرائعه ونظمه، ومنزلة هذا العلم – من بقية العلوم – كمنزلة القلب من الجسم"[1].

4- إن أساس قبول الأعمال وأساس صحتها مشروط بصحة العقيدة المترسخة في قلب الإنسان، والمستقرة في نفسه، وإلا ذهبت أعماله هباء منثوراً، غير مقبولة عند الله؛ فهي الأساس الذي يقوم عليه الدين، حيث قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

5- ومما يبين لنا أهمية العقيدة أن الله سبحانه وتعالى قد أفرد لها مساحة واسعة من كتابه العزيز، فلا تكاد تخلو سورة من سوره إلا وتحدثت عنها، ومن تلك السور سورة آل عمران، وأن رسولنا محمداً ﷺ قضى ثلاث عشرة سنة وهو يدعو إليها، ويرسخها، ويثبتها في نفوس المسلمين.

6- استطاعت العقيدة الإسلامية أن توحد القلوب، وتؤلف بين النفوس، وتجمع الأمة على هدف واحد بمحاربة الشرك وأهله، ونصرة التوحيد وأهله، قال سبحانه: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

ومن خلال ما سبق يتبين لنا مدى أهمية العقيدة الإسلامية للإنسان، العقيدة التي منَّ الله علينا بها وأنار بها طريقنا، فبها النجاة من عذاب الله، والسعادة في الدارين، الدنيا والآخرة، وقد قال رسولنا ﷺ: "**مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**"[2].

فلذلك كان لا بد من المحافظة عليها ومن ضرورة الاهتمام بها بكافة الطرق والوسائل التي، منها:

1- العمل على نشر العقيدة الإسلامية وتأصيلها، وترسيخها في نفوس الناس، وتوضيحها كما جاءت في الكتاب والسنة والإيمان بها.

---

(1) الشريدة، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية (ص48).

(2) [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات مشركاً دخل النار، ص54: رقم الحديث 93].

2- غرس العقيدة الإسلامية في نفوس النشء وتأصيلها فيهم، فأطفال اليوم هم رجال المستقبل وحماة الدين، فلا بد من تربية الأجيال على العقيدة الإسلامية ومحبتها، والإيمان بها وتطبيقها، وجعلها نوراً للدرب الذي يسيرون عليه.

3- العمل على تصحيح المخالفات العقدية عند بعض الناس ممن يعتقد أو يقول بها، خاصة أنها تأصلت فيهم؛ لجهلهم بحقيقة العقيدة الإسلامية، وسوء فهمهم لها، وتقليدهم لهذه المخالفات من جيل إلى جيل من غير أن يعلموا أنها تؤدي إلى الشرك بالله، فكان لا بد من توضيحها لهم وبيان المعتقد الصحيح فيها.

4- محاربة أعداء الله ممن يحاولون طمس وتدمير العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين والترويج لمعتقداتهم الفاسدة والمحرفة؛ حتى يعتنقها أبناؤنا المسلمون، والعمل على استخدام الوسائل كافة لمحاربتهم، وإظهار الإسلام عليهم.

5- تخصيص كافة الإمكانات وتوجيهها للاهتمام بالعقيدة الإسلامية عن طريق: الوعظ والإرشاد للمسلمين، واستخدام وتذليل الوسائل الإعلامية كافة لنشر العقيدة الإسلامية، وإنشاء مكتبات إسلامية لترقى بعقول الأمة الإسلامية نحو الحق والصواب.

ثالثاً: تعريف عام بسورة آل عمران.

أ – أسماء السورة:

قال ابن عاشور: "سميت هذه السورة في كلام النبي ﷺ، وكلام الصحابة: سورة آل عمران"[(1)].

وقد سميت هذه السورة بأسماء عديدة، منها: الزهراء[(2)] وطَيْبَة[(3)]، كما اقتبست أسماء لها من أوصاف قد وصفت بها مما ورد في فضلها من الآثار والأخبار كتسميتها بالأمان، الكنز، المجادلة، وسورة الاستغفار[(4)].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج134/3).

(2) لقد أخذ العلماء اسم الزهراء مما ورد في صحيح مسلم من تسميتها والبقرة بالزهراوين – في حديث أبي أمامة الباهلي ﷺ كما سيأتي بيانه –. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج3/4)، وابن حيان، البحر المحيط في التفسير (ج9/3)، والألوسي، روح المعاني (ج71/2).

(3) اسمها في التوراة طَيْبَة. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج1/4)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج396/1)، نقلاً عن النَّقَّاش، والألوسي، روح المعاني (ج71/2)، نقلاً عن سعيد بن منصور، وابن حيان، البحر المحيط في التفسير (ج9/3).

(4) انظر: ابن حيان، البحر المحيط في التفسير (ج9/3)، والألوسي، روح المعاني (ج71/2)، والقاسمي، محاسن التأويل (ج253/2). ومما يدل على أن هذه الأسماء هي أوصاف قد وصفت بها السورة قول ابن عاشور: "ذكر الألوسي أنها تسمى: الأمان، والكنز، والمجادلة، وسورة الاستغفار. ولم أره لغيره، ولعله اقتبس ذلك من أوصاف وصفت بها هذه السورة مما ساقه القرطبي، في المسألة الثالثة والرابعة، من تفسير أول السورة – [القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج2/4 – 3)] –". ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج143/3).

ب – سبب التسمية:

ووجه تسميتها بآل عمران؛ ذكرها فضائل آل عمران، وهو عمران[1] والد مريم عليها السلام وآله[2].

قال صاحب كتاب (التفسير الوسيط للقرآن الكريم): "سميت بسورة آل عمران، لورود قصة آل عمران بها بصورة فيها شيء من التفصيل الذي لا يوجد في غيرها"[3].

كما ذكر جمال الدين القاسمي سبب تسمية سورة آل عمران بأسماء عديدة للأسباب التالية[4]:

– آل عمران وهو الاسم المشهور؛ لأن فيها اصطفاء آل عمران وهم: (عيسى ويحيى ومريم وأمها)، نزل فيهم منها ما لم ينزل في غيرها، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران: 33].

– وسميت بالزهراء؛ لأنها كشفت عما التبس على أهل الكتاب من شأن عيسى عليه السلام.

– وسميت بالأمان؛ لأن من تمسك بما فيها أمن من الغلط في شأنه.

– وسميت بالكنز؛ لتضمنها الأسرار العيسوية – أي: التي تتعلق بعيسى عليه السلام –.

– وسميت بالمجادلة، لنزول بضع وثمانين آية منها في مجادلة رسول الله ﷺ نصارى نجران.

– وسميت بسورة الاستغفار؛ لما فيها من قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: 17].

– وسميت طَيْبَة؛ لجمعها من أصناف الطيبين، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: 17].

ونخلص إلى أن اسم السورة في كلام النبي ﷺ وكلام الصحابة رضي الله عنهم هو سورة آل عمران – وهو الاسم المشهور –، وأن من العلماء من ذكر أسماء أخرى لها اقتبست من أوصاف قد وصفت بها، مثل: (الزهراء، طَيْبَة، الأمان، الكنز، المجادلة، وسورة الاستغفار).

ج – عدد آياتها:

عدد آياتها مائتان في عد الجمهور[5].

---

(1) هو عمران بن ياشهم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن أحزيق بن يوثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن أحزيهو بن يارم بن يهفاشاط بن أسابر بن أبيا بن رحبعم بن سليمان بن داود بن إيشا. انظر: الطبري، جامع البيان (329/328/6).

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج143/3).

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم (ج5/2).

(4) انظر: القاسمي، محاسن التأويل (ج253/2).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج144/3)، والألوسي، روح المعاني (ج71/2).

د – زمن نزولها:

تعد سورة آل عمران من السور المدنية، وهذا باتفاق علماء التفسير، حيث قال ابن عطية [(1)] والقرطبي: "هذه السورة مدنية بإجماع"[(2)]، وقال ابن كثير: "هي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران[(3)]"[(4)].

وهذه السورة نزلت بعد سورة البقرة، فقيل: إنها ثانية لسورة البقرة؛ لأن سورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة، وقيل: نزلت بالمدينة سورة المطففين أولاً ثم سورة البقرة ثم سورة آل عمران، ثم نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر، مما يدل على أن هذه السورة نزلت قبل بدر، وهذا مستبعد، إذ إن سورة

---

(1) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، أبو محمد، وهو المفسر الفقيه، الأندلسي، من أهل غرناطة، برع في الأحكام والحديث، وله شعر، تولى قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين، من مؤلفاته: كتاب (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، توفي بلورقة سنة 542هـ. انظر: الزركلي، الأعلام (ج282/3).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز (ج396/1)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج1/4).

(3) قصة وفد نجران: هم من النصارى، وقد وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة في السنة تسع من الهجرة، وفدوا في ستين راكباً، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلاً، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم، وأقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله ﷺ في عيسى ؑ، ويزعمون أنه ابن الله، وغيرها من الأقوال الشنيعة المضطربة، والنبي ﷺ يرد عليهم بالحجج والبراهين الساطعة، ولكنهم لم يستجيبوا للحق، فنزل فيهم صدر هذه السورة إلى بضع وثمانين آية، إلى أن انتهى أمرهم بأن دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، حيث قال تعالى:﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران: 60 – 61]، وأصل الابتهال الاجتهاد في الدعاء باللعن وغيره، والسبب في الوصول إلى هذه المرحلة التي هي أمر من الله لنبيه ﷺ أن يدعوهم إليها؛ أن وفد النصارى ما زال يجادل ويخاصم رغم بيان الحق وظهوره، فوصلوا إلى حالة من العناد تجاه العلم اليقيني، وبهذه الحالة لم يبق في مجادلتهم فائدة، فكانت مباهلتهم وملاعنتهم هي المخرج والفيصل من هذا الجدال الباطل، وذلك بأن يدعو كلا الفريقين الله ويبتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، وعندما دُعوا إلى ذلك تولوا وأعرضوا؛ لأنهم يعلمون أنهم على الباطل، فاللعنة ستحل عليهم لا محالة، وسيعاجلون بالعقوبة المذكورة، وانتهى بهم الأمر بتركهم المباهلة، وإقرارهم بدفع الجزية بدلاً من إسلامهم، منصرفين إلى بلادهم. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج4/4، 103 – 104)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج54/2)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص133).

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج5/2)، ونزول صدر هذه السورة إلى بضع وثمانين آية في وفد نجران قد ذكره العلماء في كتبهم واتفقوا عليه، ومن تلك المصادر: انظر: الواحدي، أسباب نزول القرآن (ص99– 100)، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن (ج4/4).

آل عمران اشتملت على التذكير بنصر المسلمين في بدر وذكر يوم أحد، ويجوز أن يكون بعض من آياتها نزل متأخراً[1].

كما تعد سورة آل عمران في عداد نزول سور القرآن الكريم: السورة الثامنة والأربعين[2].

هـ – فضل سورة آل عمران:

ورد في فضائل سورة آل عمران أحاديث كثيرة، منها:

- ما رواه الإمام مسلم عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ[3] الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ[4]، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ[5]، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**" قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة[6].
- ومن ذلك أيضاً حديث النواس بن سمعان الكلابي أنه سمع النبي ﷺ يقول: "**يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ**"، وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: "**كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ[7] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[8]، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا**"[9].

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج143/3– 144).

(2) انظر: المصدر السابق (ج144/3).

(3) للعلماء ثلاثة أقوال في تسمية سورة البقرة وآل عمران بالزهراوين: **الأول:** أنهما النيرتان فهو مأخوذ من الزهر والزهرة، فإما لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما أي من معانيهما، **والثاني:** لما يترتب على قراءتهما من النور التام يوم القيامة، **والثالث:** لأنهما اشتركتا فيما تضمنه اسم الله الأعظم. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج3/4).

(4) غمامتان: الغمامة هي السحابة، أي: من السحاب الملتف. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج443/12)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج3/4).

(5) غيايتان: إن الغياية هي ظل الشمس، وتكون بالغداة والعشي، وهي ظل السحابة، وكل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحاب وغبرة وظلمة ونحوها فهو غياية. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج144/15).

(6) [مسلم: صحيح مسلم، صلاة المسافرين وقصرها/فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، ص312: رقم الحديث 804].

(7) حزقان: الحزق والحزيقة هي الجماعة من كل شيء. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج47/10– 48).

(8) الطير الصواف: هي التي تصف أجنحتها ولا تحركها، وهي جمع صافة. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج194/9).

(9) [مسلم: صحيح مسلم، صلاة المسافرين وقصرها/فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، ص312: رقم الحديث 805].

- أن سورة آل عمران لها فضل عظيم، فهي من السبع الطوال، من أخذ بها فهو حَبْر – أي أنه عالم–[1]، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ مِنْ الْقُرْآنِ فَهُوَ حَبْرٌ**"[2].
- وعن ابن عباس رضي الله عنهما في حديثه أنه قال: "بت عند خالتي ميمونة، فقلت: لأنظرن إلى صلاة رسول الله ﷺ ...، ثم "**قَرَأَ الآيَاتِ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ آلِ عِمْرَانَ...**"[3]، وفيه بيان عن فضل العشر الأواخر من السورة.
- أن اسم الله الأعظم ورد فيها، حيث قال ﷺ: "**اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ** ﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾ **[سورة البقرة: 163] وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ** ﴿**اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ **[آل عمران: 2]**"[4]، واسم الله الأعظم له مميزات اختص بها عن باقي أسمائه، فعن بريدة الأسلمي أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، فقال ﷺ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**"[5].
- أن من قرأ سورة آل عمران فهو غني، فقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "**نِعْمَ كَنْزُ الصُّعْلُوكِ**[6] **سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ يَقُومُ بِهَا فِي آخِرِ اللَّيْلِ**"[7].

---

(1) انظر: [صهيب عبد الجبار، الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، 385/6].

(2) [أحمد: مسند أحمد، الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، 78/41: رقم الحديث 24531]، قال الألباني: الحديث حسن أو قريب. انظر: [الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، 385/5: رقم الحديث 2305]، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن. انظر: [صهيب عبد الجبار، الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، 385/6].

(3) [البخاري: صحيح البخاري، تفسير القرآن/الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، ويتفكرون في خلق السموات والأرض، 41/6: رقم الحديث 4570].

(4) [الترمذي: سنن الترمذي، الدعوات، 517/5: رقم الحديث 3478]، و[ابن ماجة: سنن ابن ماجة، الدعاء/اسم الله الأعظم، 1267/2: رقم الحديث 3855]، قال الألباني إنه: حسن.

(5) [المصدر السابق، سنن الترمذي، الدعوات/جامع الدعوات عن النبي ﷺ، 515/5: رقم الحديث 3475]، قال الألباني إنه: صحيح.

(6) الصُّعْلُوك: الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد، والجمع صعاليك، وكان النبي ﷺ يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين، أي: يطلب النصر بدعاء فقرائهم؛ تيمناً بهم، فهم الذين انكسرت خواطرهم، وإن دعاءهم أقرب للإجابة، وتأثير دعائهم يكون أكثر من عوام المؤمنين وأغنيائهم. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج455/10)، والمباركفوري، تحفة الأحوذي (ج291/5)، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: "**ابْغُونِي ضُعَفَاءَكُمْ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ**". [الترمذي: سنن الترمذي، الجهاد/ ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين، 206/4: رقم الحديث 1702]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني إنه: صحيح.

(7) [الدارمي: سنن الدارمي، فضائل القرآن/فضل آل عمران، 2139/4: رقم الحديث 3441]، قال الداراني: إسناده صحيح وهو موقوف على عبد الله.

- وفي فضلها قال مكحول: "**مَنْ قَرَأَ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ إِلَى اللَّيْلِ**"[1].

قال الإمام القرطبي: "هذه السورة ورد في فضلها آثار وأخبار، فمن ذلك ما جاء أنها أمان من الحيات، وكنز للصُّعْلُوك، وأنها تحاج عن قارئها في الآخرة... إلى غير ذلك"[2].

رابعاً: القضايا العقدية التي شملتها سورة آل عمران (إجمالاً).

إن سورة آل عمران من السور المدنية التي تضمنت مسائل التشريع والأحكام، والقصص والأخبار، كما تضمنت الجانب العقدي الذي هو جوهرها، فتميزت بتأكيدها على الأصول العقدية التي قررتها السور المكية: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

كما غلب على طابعها العام اهتمامها بالحديث عن أهل الكتاب ومعاتبتهم ومجادلتهم، ودعوتهم إلى دين الحق، حيث شغل حيزاً كبيراً منها بما يقارب أكثر من ثلث آياتها – كونها سورة مدنية –[3]، فتحدثت عن ضلالهم وجحودهم لأنبياء الله ورسله وما أنزل عليهم، ونقضهم العهود مع الله، فقال تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾[آل عمران: 187]، وأنها أبطلت مذهبهم بالحجج والبراهين الساطعة، فناظرتهم بالحق الذي هو من عند الله، قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[آل عمران: 70 – 71]، وصولاً بالهدف الأساس، وهو التسليم والخضوع لدين الله، المتمثل بالإسلام الذي لن يقبل الله سواه ودعوتهم إليه، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: 19]، قال سبحانه: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ** ﴾[آل عمران: 85]، وانتهت ببيان عناد أهل الكتاب وكفرهم بهذه الدعوة والحذر منهم، وسوء عاقبتهم في الدنيا والآخرة، إلا طائفة منهم قد أثنى الله عليهم، وهم

---

(1) [الدارمي: سنن الدارمي ، سنن الدارمي، فضائل القرآن/فضل آل عمران، 2139/4: رقم الحديث 3440]، قال الداراني: إسناده صحيح إلى مكحول وهو موقوف عليه.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج2/4)، بتصرف يسير.

(3) يدل على ذلك قول الإمام ابن كثير، "هي مدنية؛ لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران". ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (ج5/2)، وقد تم ذكره سابقاً.

الذين خضعوا لله تعالى وآمنوا بأنبيائه ورسله عليهم السلام وما أنزل عليهم، فقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]، وقال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: 113-115].

وعن مجمل القضايا العقدية التي شملتها سورة آل عمران، فقد شملت معظم الأصول العقدية، بحيث أكدت على جميع أركان الإيمان الستة، وذلك كما يلي:

1- في مقام الإيمان بالله تعالى تضمنت الآيات الكثيرة التي أثبتت وحدانيته تعالى في ربوبيته كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: 6]، وقوله: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران: 189]، وفي ألوهيته واستحقاقه وحده العبادة دون سواه كقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: 18]، وهي من أعظم ما ورد في هذا النوع من التوحيد، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: 64]، وفي إثبات أسمائه الحسنى وصفاته العلى كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: 2]، وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 26]، فسبحانه متصف بصفات الكمال، ومنزه عن كل ما لا يليق به، ومن ذلك تنزهه عما نسبته اليهود إليه من الفقر – مقالة السوء – وأثبتوا لأنفسهم الغنى، بل سبحانه هو الغني وحده دون سواه، مالك الملك، إليه ترجع كل الأمور، له ميراث السماوات والأرض كلها.

2 – كما بينت السورة أن لله ملائكة طائعين الله ما أمرهم، لهم وظائف وأعمال مكلفون بها، وأنهم عباد مكرمون، ليس لهم شيء من خصائص الربوبية والألوهية، بل هم متصفون بصفات العبودية، عاملون بأمر الله على ما أقدرهم عليه، قائمون على طاعة الله وعبادته، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ

﴿لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾[آل عمران: 124]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 80].

3 – لقد تعرضت السورة للحديث عن الكتب التي أنزلها الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: 3 – 4]، مبتدئة بالقرآن الكريم الذي تضمن خلاصة التعاليم الإلهية التي تضمنتها التوراة والإنجيل، بل وجميع ما أنزل الله حيث جاء مصدقاً لجميع الكتب، وأنه جاء رقيباً عليها، يقر ما فيها من حق، ويثبت ما دخل عليها من تحريف وتبديل، كإثبات تحريف أهل الكتاب لكتبهم المنزلة عليهم، وأنه ناسخ لجميع الكتب السابقة له، فوجب الإيمان به واتباعه، مع الإيمان بجميع الكتب المنزلة التي صدق بها القرآن وهي الأصول الأولى غير المحرفة، كما بينت الحكمة من إنزال هذه الكتب، التي تتمثل في هداية البشر واستقامتهم، وتحدثت عن عاقبة المكذبين للكتب المتمثلة في هلاكهم وخسرانهم خسراناً مبيناً في الدنيا والآخرة.

4 – كما بينت السورة أن لله رسلاً قد اصطفاهم سبحانه واجتباهم؛ لهداية الناس إلى طريق الحق، وأكدت على وجوب الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله عليهم السلام مع عدم التفرقة بهم، فمن كفر برسول واحد فهو كافر بجميع الرسل، وأن لهم أسمى الصفات والخصال العظيمة، وأنه لا بد من توافر شروط فيهم تؤهلهم لمقام النبوة، التي هي اصطفاء من الله، وأنها للرجال دون النساء، وأن الله أوكل لهم وظائف ومهاماً وأيدهم بآيات عظيمة، ونصرهم والمؤمنين على أعداء الدين، ولقد ذكرت السورة عدداً من الأنبياء والرسل، مبينة مدى إيمانهم العميق بالله ﷻ وامتثالهم لأوامر بارئهم، وبعض ملامح من دعوتهم لأقوامهم.

5 – وتحدثت السورة عن اليوم الآخر، ووجوب الإيمان به وأنه حق لا ريب فيه، مبتدئة بأول مرحلة بعد الموت وهي الحياة البرزخية، وأنه حياة يحياها جميع العباد، المؤمن منهم والكافر بلا استثناء، كما أثبتت الحياة المحققة في البرزخ لصنف من الناس وهم الشهداء، وتعرضت السورة لبعض أحداث اليوم الآخر ومظاهره: كالحشر والحساب والجزاء، وبينت بعض أحوال الناس فيه: (الكفار، عصاة المؤمنين، الأتقياء)، وبينت بعض الحكم من اليوم الآخر وثمراته، وانتهت بدار

القرار: الجنة أو النار، فأثبتت أن الجنة هي دار النعيم، التي أعدها الله لعباده الصالحين، فلا يدخلها إلا عباد الله الأطهار أصحاب الهمم العالية، وأنها درجات أهلها متفاوتون فيها، وأنها عظيمة السعة، وأن فيها أصنافاً من النعيم، كما أثبتت أن النار هي دار جحيم وعذاب أعدها الله للكافرين، وأنها دركات وأهلها متفاوتون فيها كل حسب آثامه وذنوبه، وأن عذابها عظيم.

6 – كما أثبتت السورة آيات عديدة في القضاء والقدر، متضمنة مراتبه الأربعة (العلم، الكتابة، المشيئة، الخلق)، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[آل عمران: 5] التي تثبت مرتبة العلم، وقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: 53]، التي تدل على مرتبة الكتابة، وقوله: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران: 47] التي تضمنت مرتبتي المشيئة والخلق، وتناولت السورة قضية مهمة تمس عقيدة الإنسان وعالجتها، وهي تجنب الاعتراض على قدر الله بحرف التمني (لو) – كما سيأتي بيانه [(1)]–، وبينت بعض ثمرات الإيمان بهذا الركن القويم.

7 – وتحدثت السورة عن عقيدة الولاء والبراء التي هي من أصول العقيدة الإسلامية، وهي الولاء لله ورسوله ﷺ والمؤمنون، والبراء من الكفر وأهله، حيث أقرت السورة هذه العقيدة المهمة، مبينة أهميتها وأدلتها من خلال السورة، فقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾[آل عمران: 28].

8 – ذكرت السورة بعض الآيات التي أثبتت وجود الشيطان، وبيان بعض أعماله اللعينة، كما بينت بعض طرق الوقاية منه، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: 175]، وقوله: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[آل عمران: 36].

ونخلص إلى أن سورة آل عمران شملت معظم قضايا العقيدة، وأكدت على جميع أركان الإيمان الستة ودلت عليها بالآيات الكثيرة، وتضمنت مجادلة أهل الكتاب ومعاتبتهم، فبينت فسادهم

---

(1) انظر: (ص109) من هذا البحث.

وانحرافهم وضلالهم عن دين الحق، كما أنها تضمنت الدلالة على نواقض التوحيد وهي: (الكفر، والشرك، والفسق، والنفاق، والظلم) – كما سيأتي بيانه[1] –.

يقول صاحب كتاب (دراسات قرآنية) في سورة آل عمران، وموضوعها الرئيس: "هذه السورة، على طولها، مشغولة بموضوع واحد من البدء إلى النهاية، هو معركة لا إله إلا الله... إنها معركة الوجود كله بالنسبة للقلب المؤمن، الذي امتلأ بحقيقة لا إله إلا الله. إن هذا القلب الذي أقر بلا إله إلا الله، واستقرت فيه حقيقة الألوهية وحقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، لا يمكن أن يهدأ أو يستقر كما تستقر القلوب الخاوية.. إلا أن يرى هذه الحقيقة الربانية قد استقرت وتمكنت في هذه الأرض. وإنه لواجد للا إله إلا الله أعداء كثيرين في الأرض، يحاربونها لكي لا تستقر! يحاربونها بكل وسائل الحرب، الحسية والمعنوية، والمادية والروحية... فماذا يفعل المؤمن إزاء هذا كله؟! إن هذه السورة كلها متخصصة في هذا الموضوع! إنها تحدث المؤمن عن طبيعة المعركة ومجالاتها، وعن أعداء لا إله إلا الله ودوافعهم لهذه العداوة، وعن الوسائل التي يتخذونها ضده وضد دعوته، وعن واجبه إزاء هذا كله.. حديثاً مستفيضاً يستغرق مائتي آية كاملة هي كل آيات السورة.. ويجول به جولات واسعة ما بين الدنيا والآخرة.. ما بين المتاع المقعد عن الجهاد في الدنيا والمتاع المكافئ على الجهاد في الآخرة.. ما بين اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين وهم الأعداء الأربعة الذين يكرهون الإسلام ويحاربونه... ما بين القضاء والقدر ومسئولية البشر... ما بين قصص الماضي وقصص الحاضر.. وما بين الأرض والسماء!"[2].

---

(1) انظر: (ص67) من هذا البحث.

(2) محمد قطب، دراسات قرآنية (ص322)، بتصرف يسير.

الفصل الأول

الإلـهيات في سورة آل عمران

المبحث الأول

التوحيد وأنواعه

إن لكل بناء أسس وقواعد، وأساس هذا الدين التوحيد، وكما قال الإمام ابن القيم أنه: "أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وذروة سنامه، وقطب رحاه"[(1)].

والتوحيد أعظم ما أمرنا الله ﷻ به، الذي لأجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب السماوية، فدعا به جميع الرسل عليهم السلام أقوامهم من أولهم إلى آخرهم، حيث قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: 25].

ولقد استغرقت دعوة نبينا محمد ﷺ للتوحيد ثلاثة عشر عاماً، وهو يعلمهم كتاب الله وسنته الشريفة، ويرسخها في قلوب المسلمين، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

وقال الإمام ابن تيمية: "التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب"[(2)].

ولقد شملت سورة آل عمران أدلة كثيرة للتوحيد بأنواعه كافة، حيث كان لب موضوعها يتحدث عن التوحيد، فكان لا بد من تعريف التوحيد، وبيان أنواعه قبل الخوض في دلائل التوحيد ونواقضه في السورة.

المطلب الأول: تعريف التوحيد لغةً واصطلاحاً.

التوحيد لغةً:

"الواو، والحاء، والدال، أصل واحد، يدل على الانفراد من ذلك الوحدة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيه مثله"[(3)]، والواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير[(4)].

"والتوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له، والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحد"[(5)].

---

(1) ابن القيم، مدارج السالكين (ج449/3).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج154/1).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج90/6– 91).

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج450/3 – 451).

(5) الهروي، تهذيب اللغة (ج125/5).

التوحيد اصطلاحاً:

التوحيد: "إفراد المعبود بالعبادة وحده ذاتاً وصفة وأفعالاً، فلا تقبل ذاته الانقسام بوجه، ولا تشبه صفاته الصفات ولا تنفك عن الذات، ولا يدخل أفعاله الاشتراك، فهو الخالق دون سواه"[1].

أي بمعنى: الاعتقاد بتفرد الله وحده لا شريك له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته .

وعرفه الجرجاني بأنه: "تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الأفهام، ويتخيل في الأوهام والأذهان"[2]، وهو: "نفي الكفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله، ونفي الشريك في ربوبيته، وعبادته ﷻ"[3].

فالتوحيد أساس الإيمان بالله ﷻ، وهو اللبنة الأولى التي يجب على العبد الاعتقاد بها والقصد والطلب لها، كما أنه أول دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم.

المطلب الثاني: أنواع التوحيد عند أهل السنة والجماعة.

التوحيد عند أهل السنة والجماعة: نوعان باعتبار ما يجب على العبد المؤمن الموحد، وثلاثة أنواع باعتبار متعلق التوحيد.

أولاً: التوحيد باعتبار ما يجب على العبد الموحد[4].

هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب السماوية، وهو نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة.

1 – التوحيد في الإثبات والمعرفة:

هو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي، الذي يتضمن إثبات صفات الكمال لله تعالى، وتنزيهه عن التشبيه، والتمثيل، والتحريف، والتعطيل، والتكييف، فهو منزه عن صفات النقص، أي أنه إثبات لحقيقة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك، كما أخبر به سبحانه عن نفسه في كتابه، وكما أخبر به رسوله ﷺ، وهذا النوع من التوحيد يختص بإقرار القلب والاعتقاد، وقول اللسان وإقراره، ويتضمن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

---

(1) السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج57/1).

(2) الجرجاني، التعريفات (ص73).

(3) الجزائري، عقيدة المؤمن (ص53).

(4) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين (ج48/1)، وابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص 89)، والحكمي، معارج القبول (ج98/1).

وسمي هذا النوع بالتوحيد العلمي؛ لتعلقه بالأخبار المعروفة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، والقرآن الكريم قد بيَّن هذا النوع من التوحيد بكثرة، كما جاء في أول سورة آل عمران وسورة الإخلاص بكمالها وغير ذلك.

2 – التوحيد في الطلب والقصد والإرادة:

هو: "عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضا به رباً وإلهاً ووليا، أن لا يجعل له عدلاً في شيء من الأشياء"(1)، وهذا النوع من التوحيد يختص بأفعال الجوارح والقلوب، ويتضمن توحيد الألوهية.

وسمي هذا النوع بذلك؛ لتعلقه بالقصد والإرادة، وقد بيَّن القرآن الكريم هذا النوع في كثير من الآيات، وذلك مثل ما تضمنت به سورة الكافرون، وكما جاء في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64].

ثانياً: التوحيد باعتبار متعلقه.

إن توحيد الله تعالى يتضمن ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وكما قال الشيخ ابن عبد الوهاب(2): "وسمي دين الإسلام توحيدًا؛ لأن مبناه على أن الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء، والمرسلين الذين جاؤوا به من عند الله، وهي متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر، فمن أتى بنوع منها ولم يأت بالآخر، فما ذاك إلا أنه لم يأت به على وجه الكمال المطلوب"(3).

---

(1) حافظ الحكمي، معارج القبول (ج98/1).

(2) هو سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، من آل الشيخ، كان من فقهاء أهل نجد، وهو من حفدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولد بالدرعية، برع في التفسير، والحديث، والفقه، من مؤلفاته: (تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد)، و(أوثق عرى الإيمان)، وتوفي سنة 1233هـ. انظر: الزركلي، الأعلام (ج129/3).

(3) ابن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد (ص17).

ولقد عرف هذا التقسيم لأنواع التوحيد بالاستقراء من نصوص الكتاب والسنة، وذلك يتضح بأول سورة في القرآن الكريم، وآخر سورة منه؛ فإن كلاً منهما يشمل أنواع التوحيد الثلاثة[1].

وسيتم الحديث عن كل نوع من أنواع التوحيد الثلاثة باعتبار متعلقه، وذلك بالتعريف لغةً واصطلاحاً لكل نوع حتى تتضح الأمور بشكل أفضل، ويكون مدخلاً يستفاد منه فيما بعد في المبحث التالي لهذا البحث، وذلك كما يلي:

1- توحيد الربوبية:

أ- لغةً:

الربوبية: مأخوذة من لفظ الرب، ويطلق على المالك، والسيد، والمدبر، والمربي، والقيم، والمنعم، والرب: هو الله تعالى، فهو رب كل شيء ومليكه، وصاحبه المستحق لذلك وحده، فله الربوبية على جميع خلقه، وعلم ربوبي: نسبة إلى الرب[2].

والرب لا يطلق غير مضاف إلا على الله، وإذا أطلق على غيره أضيف، فكلمة الرب لا تطق على المخلوق إلا مقيدة مثل: رب البيت، رب الأسرة، رب الإبل، وهكذا...، وفي هذا يقول الرازي: "والرب اسم من أسماء الله تعالى ولا يقال في غيره إلا بإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك"[3].

وبهذا يتبين أن كلمة الرب لها معان كثيرة، فلا يمكن حصرها في معنى واحد فهي تأتي بمعنى المالك المدبر، وتأتي بمعنى السيد المطاع، وتأتي بمعنى المربي القائم بالتربية، وتأتي بمعنى المصلح للشيء، ومن خلال النظر لهذه المعاني نجد أنها تدور حول مفهوم تولي الأعلى للأدنى بالرعاية، وبفهم المصطلح اللغوي لكلمة الرب نستطيع فهم معاني آيات القرآن الكريم بوضوح.

ب- اصطلاحاً:

توحيد الربوبية هو: "الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت النافع الضار المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك"[4].

---

(1) انظر: الشوكاني، شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص10).

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج399/1)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط (ج87/1).

(3) الرازي، مختار الصحاح (ج1/ 116).

(4) ابن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد (ج17/1).

وبمعنى إجمالي هو: "الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء، ولا رب غيره"[1]، فهو: اعتقاد العبد أن الله هو الرب المتفرد بالخلق، والرزق، والتدبير، الذي ربى جميع خلقه بالنعم، وربى خواص خلقه وهم الأنبياء ومن تبعهم بالعقائد الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة[2].

2 – توحيد الألوهية:

أ– لغةً:

قال ابن فارس[3]: "الهمزة، واللام، والهاء، أصل واحد، وهو التعبد. فالإله الله تعالى، وسمي بذلك لأنه معبود، ويقال: تأله الرجل: إذا تعبد"[4].

ب– اصطلاحاً:

لقد وردت تعريفات عديدة في توحيد الألوهية كلها تصب في معنى واحد، وهو: الاعتقاد بأن الله تعالى وحده المستحق لجميع أنواع العبادة لا شريك له، ومن تلك التعريفات ما يلي:

أن توحيد الألوهية هو: "الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الإله الحق، ولا إله غيره، وإفراده سبحانه بالعبادة" [5]، وهو: "استحقاقه سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له"[6].

وهو: "العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين وإفراده وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين لله وحده"[7].

وهذا التوحيد هو الذي بعث الله به الرسل، ودعا كل رسول أمته لعبادة الله وحده لا شريك له، مما أدى إلى الخصومة من أقوامهم وتكذيبهم لهم، فنجدهم يقرون بتوحيد الربوبية ويشركون في توحيد الألوهية، باتخاذهم آلهة يعبدونها مع الله، فالمشركون من قريش كانوا يرفضون دعوة رسولنا المصطفى محمد ﷺ؛ لأن فيها هدماً لكل ما يدينون به من عبادة الأصنام.

---

(1) ياسين: محمد، الإيمان (ص15).

(2) انظر: السلمان، الأسئلة والأجوبة الأصولية (ص11 – 12).

(3) هو أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، وهو: الإمام، العلامة، اللغوي، المحدث، فهو يعد من أئمة اللغة والأدب، وكان بصيراً بفقه مالك، وله تصانيف كثيرة، منها: كتاب (مقاييس اللغة)، و(المجمل)، و(اللامات)، و(متخير الألفاظ)، كما أن له شعراً ونظماً حسناً، وتوفي بالري سنة 395هـ. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج103/17 – 106)، والزركلي، الأعلام (ج193/1).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج127/1).

(5) ياسين: محمد، الإيمان (ص21).

(6) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص78).

(7) السلمان، الأسئلة والأجوبة الأصولية (ص12).

وإن الطريق الفطري لإثبات توحيد الألوهية هو الاستدلال على توحيد الربوبية، فمن أقر بأن الله رب خالق، مالك، مدبر، فعليه إفراده سبحانه بجميع أنواع العبادة لا شريك له فيها.

3 – توحيد الأسماء والصفات:

أ- الأسماء والصفات لغةً:

- **الأسماء لغة:**

الاسم: "ما يعرف به الشيء ويستدل عليه"[1]، وهو: "ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة"[2]، "وهو الذي به رفع ذكر المسمى فيعرف به "[3].

والاسم مشتق من السمو، ويدل على الرفعة والعلو[4]، وقيل: "الاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل"[5]، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [سورة البقرة: 31]، أي: أنه علمه أسماء الجواهر والأعراض كلها[6].

- **الصفات لغةً:**

الواو، والصاد، والفاء، أصل واحد، يدل على تحلية الشيء، والصفة هي: الأمارة التي تلزم الشيء[7].

والصفة هي: "الحالة التي يكون عليها الشيء، من حليته ونعته، كالسواد والبياض والعلم والجهل"[8].

ب – توحيد الأسماء والصفات اصطلاحاً:

توحيد الأسماء والصفات هو: إثبات كل ما أثبته الله تعالى لنفسه، وأثبته له رسوله ﷺ، من الأسماء والصفات على وجه يليق بكماله وجلاله، من غير تكييف، أو تمثيل، أو تحريف، أو تأويل، أو تعطيل، وتنزيهه سبحانه عن كل ما لا يليق به[9].

---

(1) مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ج452/1).

(2) الجرجاني، التعريفات (ص24).

(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز (ج264/3).

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج397/14).

(5) الكفوي، الكليات (ص83).

(6) انظر: المصدر السابق، ص83.

(7) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج115/6).

(8) مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ج1037/2).

(9) انظر: الشوكاني، شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص9).

وهو: "الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ متصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص، وأنه متفرد بهذا عن جميع الكائنات"[1].

فيتعين على العبد الإيمان بأن الله ﷻ متصف بجميع صفات الكمال وأسماء الجلال، ومنزه عن جميع صفات النقص، وذلك بأن يثبت ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ، من الأسماء والصفات من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، فقد جمع في هذه الآية بين الإثبات والتنزيه، فالإثبات متمثل في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، والتنزيه متمثل في قوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، فالله تعالى له سمع لا كسمع أحد، وله بصر لا كبصر أحد، وفي مثل هذا يقال في كل ما أثبته الله لنفسه وأخبر به رسوله ﷺ[2].

(1) ياسين: محمد، الإيمان (ص27).

(2) انظر: الشوكاني، شرح الصدور في تحريم رفع القبور (ص9).

المبحث الثاني

دلائل التوحيد في سورة آل عمران ونواقضه

لقد تضمنت معظم سور القرآن الكريم لأنواع التوحيد ونواقضه، فلا تكاد تخلو سورة إلا وقد تحدثت عن التوحيد ودعت إليه، فالقرآن الكريم إما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته، وإما دعوة إلى عبادته وحده دون سواه وتفرده سبحانه بذلك، وإما بيان لحقوق التوحيد ومكملاته بأمر أو نهي أو إلزام بطاعته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما يترتب عليه من سعادتهم وفوزهم في الدنيا والآخرة، وإما خبر عن جزاء أهل الشرك وعقابهم ومصيرهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة[1].

ومن هذه السور سورة آل عمران موضوع البحث، فكانت معظم آياتها متضمنة وداعية له، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]، فقد أمر الله ﷻ نبيه محمد ﷺ بتبليغ كلمة التوحيد والدعوة إليها.

وفي هذا المبحث أربعة مطالب، ثلاثة مطالب تناولت دلائل التوحيد بأنواعه الثلاثة، وهي: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، والمطلب الرابع تناول نواقض التوحيد في السورة.

المطلب الأول: دلائل توحيد الربوبية.

لقد ذكر الله ﷻ في سورة آل عمران الكثير من دلائل توحيد الربوبية، فبين سبحانه أنه هو الخالق وحده لا شريك له، فقد خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الليل والنهار وجعلهما يتعاقبان، وخلق الإنسان وأنعم عليه النعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، وهو الرزاق الذي يرزق من يشاء بغير حساب، وهو المتفرد بالملك المتصرف به كيف يشاء، وهو عالم الغيب وحده لا شريك له، وهو القادر وحده على الموت والحياة، كما أنه ناصر المؤمنين ومؤيدهم وحده دون سواه.

وبيان وجه الدلالة على ربوبية الخالق ﷻ لتلك الأدلة على النحو التالي:

---

(1) انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص89).

1 - الخلق:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[آل عمران: 190]، فقد أمرنا الله ﷻ بالنظر والتفكر والاستدلال في آياته؛ لأنها لا تصدر إلا عن حي قيوم، مريد قادر على الخلق، ألا وهو رب العالمين، فقد خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الليل والنهار وجعلهما متعاقبين كل له دوره ونظامه.

فأدخل الليل في النهار، وأدخل النهار في الليل، وأخذ من طول أحدهما وزاده في قصر الآخر؛ ليعتدلا، وأخذ من أحدهما للآخر؛ ليتفاوتا ثم يعتدلا وهكذا، وقد قال تعالى: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ﴾[آل عمران: 27][(1)].

وللإمام ابن القيم في معنى هذه الآية قولان:

"أحدهما: إن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: إنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة، وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر"[(2)].

ولا تناقض بين القولين، فكلاهما صواب، وهذه السنن الكونية إن دلت فإنها تدل على حكمته سبحانه، وربوبيته وحده لا شريك له.

ومن قدرته تعالى على الخلق – أيضاً – أنه يخرج الحي من الميت والعكس، حيث قال تعالى: ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ [آل عمران: 27]، فيخرج الحبة من الزرع، والزرع من الحبة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء[(3)].

ومن دلائل ربوبيته سبحانه خلقه للإنسان، فقد خلقه من تراب، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59]، وهو الذي

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج29/2).

(2) ابن القيم، مفتاح دار السعادة (ج209/1–210).

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج29/2).

صوره في الأرحام كما يشاء، حيث قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[آل عمران: 6]، فخلق الذكر والأنثى، والحسن والقبيح، الشقي والسعيد[1].

ومن ربوبيته وعظمة قدرته في خلق الإنسان أنه خلقه من غير أب ولا أم، كخلقه آدم عليه السلام، وخلقه من أب وأم كخلقه لسائر بني آدم، وخلقه من أم بلا أب كخلقه عيسى عليه السلام حيث صوره في رحم أمه مريم عليها السلام، فقال تعالى على لسانها:﴿ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران: 47]، وكل ذلك بمشيئته تعالى وبأمره، فالله القادر الفعال لما يريد، يخلق ما يشاء كيف يشاء.

يقول الإمام الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ ﴾ "ينشئ ما يشاء ويوجده، ويخرجه من حال العدم إلى حال الوجود، ولن يقدر على ذلك غير الله الواحد القهار. وإنما يعني بذلك، أن له تدبير السموات والأرض وما بينهما وتصريفه، وإفنائه وإعدامه، وإيجاد ما يشاء مما هو غير موجود ولا منشأ"[2].

2 – الرزق:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [آل عمران: 27]، "أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحتسب ولا يكتسب"[3].

وقال سبحانه: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37].

والرزق هو ما ينتفع منه الإنسان، فيطلق على الطعام والثمار والخيرات، وذلك مثل ما ورد في شأن رزق مريم عليها السلام بقوله تعالى:﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗا ﴾، ويطلق على ما هو أعم من

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج6/2).

(2) الطبري، جامع البيان (ج149/10).

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص126).

ذلك مما ينتفع به، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾[سبأ: 24][1].

والله سبحانه وتعالى هو الرزاق، المتكفل برزق جميع مخلوقاته، يرزق من يشاء بغير حساب وحده لا شريك له في ذلك، وهذا من دلائل ربوبيته تعالى على خلقه.

3 – إفراد الله ﷻ وحده بعلم الغيب:

يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾[آل عمران: 179].

إن الله ﷻ يعلم الغيب وحده لا شريك له في ذلك، ولقد استأثر الله بعلم الغيب واختص به دون سواه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً[2].

وقال أيضاً: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[الأنعام: 59]، وقال سبحانه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[النمل: 65]، فكل تلك الأدلة ونحوها تدل على ربوبيته تعالى على خلقه وتفرده بعلم الغيب وحده.

4– إفراد الله سبحانه وتعالى بالملك، وتصرفه به كيف يشاء:

يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[آل عمران: 180]، ويقول أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: 189].

إن هذه الآيات دلائل على ربوبية الله ﷻ، فقد بينت أن الله تعالى هو مالك الملك، وهو الذي ترد إليه جميع الأملاك، بحيث ينقلب العباد من الدنيا وما معهم من درهم ولا دينار، وكل ذلك يرجع إليه سبحانه، يرثه الله وهو خير الوارثين، وهو مالك السماوات والأرض وما بينهما، من سائر أصناف المخلوقات، يتصرف فيهم بكمال قدرته كما يشاء وكيف يشاء، فلا يمتنع عليه منهم أحد ولا يعجزه[3].

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج215/3).

(2) انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص249).

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص158، 161).

وقال سبحانه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران: 26].

وهذه الآية تفيد المعنى ذاته بأن الله هو مالك الملك الذي لا شريك له في ذلك، فهو مالك العباد وما ملكوا، وهو المتصرف في خلقه الفعال لما يريد.

يقول الشيخ السعدي(1): "﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ ﴾أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك"(2).

والله ﷻ هو المتصرف في ملكه، فيعطي الملك لمن يشاء ويهبه، وينزع الملك ممن يشاء من خلقه، فله الأمر في ذلك كله، وأيضاً يعز من يشاء من عباده، ويذل من يشاء ممن ليس من أهل طاعته، فبيده الخير القادر على كل شيء، فهو رب كل شيء ومليكه.

والتاريخ على مر عصوره شهد ما يحقق من معاني هذه الآية الكريمة، التي تثبت ربوبية الله تعالى على خلقه، وإلاّ فكيف أعز الله رسله وعباده المؤمنين، وأذل أعيان الكفار ممن امتلكوا السلطان في الدنيا ومن تبعهم، وكم من مالك لملك نزع منه، وكم من حاكم ظالم أذله الله لظلمه، وكم من مؤمن آتاه الله الملك وأعزه بفضله، فقد قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾[آل عمران: 109].

5- الحياة والموت من الله ﷻ:

وحتى يتم تحقيق الربوبية لا بد من الاعتقاد الجازم بأن سبب الحياة والموت من الله ﷻ، وأن الموت إنما بقضاء الله وقدره، وأنه مكتوب في اللوح المحفوظ عنده تعالى، وكل ذلك بإذنه ومشيئته سبحانه، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[آل عمران: 145]، فآجال النفوس جميعها بإذن الله وقدره، ومن تحتم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير

---

(1) هو عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ولد في عنيزة القصيم بنجد، وهو مفسر، محدث، فقيه، أصولي، متكلم واعظ، ومن أشهر مؤلفاته الكثيرة: كتاب (تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن)، و(تيسير اللطيف المنان في خلاصة مقاصد القرآن)، توفي سنة 1376هـ. انظر: كحالة، معجم المؤلفين (ج13/396 – 397).

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص126).

سبب، ومن أراد الله تعالى له البقاء بقي حتى لو أتى من الأسباب كل سبب، فلا يضره ذلك قبل بلوغ أجله[1]، فموعد الأجل بأمر من الله سبحانه، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[الأعراف: 34]، فالإنسان لا يستطيع الهروب من الموت ودفعه، ولقد تحدى الله تعالى الكفار والمنافقين في كل زمان ومكان عن درء الموت ورده عن أنفسهم، فقال تعالى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: 168]، وهذا إنما يؤكد قضية لا ريب فيها وهي أن الحياة والموت بيد الله ﷻ وحده دون سواه، وأنه لا يقدر أحد من العالمين درء الموت عن نفسه بأي حال من الأحوال.

ولقد أخبر الله تعالى المؤمنين حقيقة مهمة، هي أن انتفاء أسباب وقوع الموت لا يدفع الموت عن الإنسان، حيث قال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران: 154].

فالمنافقون كعادتهم في كل زمان ومكان يثبطون من عزائم الذين آمنوا الذين امتثلوا لأمر الله في الجهاد في سبيله، ويظنون بالله غير الحق بقولهم الباطل على قضاء الله وقدره، وذلك بدفع الموت إذا ما انتفت أسبابه، ولكن الله تعالى يرد عليهم من فوق سبع سماوات لإبطال قولهم هذا، بأن الموت متحقق لا محالة للذين كتب عليهم ذلك، حتى لو احتموا في بيوتهم التي هي أبعد شيء عن مظان القتل، والأسباب وإن عظمت فإنما تنفع إذا لم يعارضها قدر الله، وأما إذا عارضها لم تنفع شيئاً، فالموت والحياة من الله سبحانه وتعالى[2]، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[آل عمران: 156]، "أي: بيده الخلق وإليه يرجع الأمر، ولا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره، ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه إلا بقضائه وقدره"[3]، فالقدرة على الإحياء

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص 150).

(2) انظر: المصدر السابق (ص 153).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/147).

والإماتة من خصائص ربوبيته تعالى، وهي من صفات الرب سبحانه الذي بيده ذلك كله، فالحياة والموت منه سبحانه.

6 – النصر من عند الله ﷻ:

لقد تحدثت سورة آل عمران في آياتها عن هذا المعنى، ألا وهو أن النصر من عنده سبحانه وحده لا شريك له في ذلك، حيث قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران: 160].

فبيَّن الله ﷻ أنه الناصر لعباده المؤمنين وحده دون سواه، فهو الذي يمدهم بمعونته ونصره على أعدائهم، وأنه لا مغالب لله تعالى، ولا ناصر لهم بعده، ولقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاعتماد والتوكل عليه وحده؛ فهو توحيد محصل للمقصود، وأما الاعتماد على غيره فهو شرك غير نافع لصاحبه(1).

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[آل عمران: 126]، وفي هذه الآية الكريمة لفت لأنظار المؤمنين لقضية مهمة، ولعقيدة لا بد من الإيمان بها، وهي عدم إحالة النصر لأي سبب من الأسباب مهما كانت قوته وأهميته، فالله سبحانه وتعالى يخبرنا ويعظنا بعدم إحالة النصر على الملائكة التي هي بشرى للمؤمنين، ولا على الجند مهما بلغت قوتهم وعددهم، ولا على العتاد مهما كان نوعه وقوته؛ لأن النصر إنما هو من عند الله وحده، ولو شاء النصر على أعدائه لتحقق النصر بدونهم، فالعز والحكم له سبحانه(2).

وقال المولى ﷻ: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾[آل عمران: 13]، فالنصر من عنده تعالى، وتأييده لهذا النصر مختص لعباده المؤمنين، وهذه هي سنة الله في خلقه، يؤيد بنصره من يشاء، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذنه تعالى، فالله ناصر من ينصره، وخاذل من عاداه وكفر به.

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص154).

(2) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج503/1).

المطلب الثاني: دلائل توحيد الألوهية.

يعتبر توحيد الألوهية من أهم أنواع التوحيد؛ فهو الفارق المميز بين الموحدين والمشركين، وقد كان معظم أقوام الرسل يشركون بهذا النوع من التوحيد، فعبدوا آلهة أخرى غير الله، وأشركوا به في العبادة، والتوكل، والدعاء، وغيرها من محققات التوحيد ومكملاته، التي لا تنبغي أن تكون لغير الله تعالى، فمن كان موحداً لربه كان لزاماً عليه أن يحقق توحيد ألوهيته، فكل منهما مترتب على الآخر.

قال الإمام ابن القيم: "فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلا له. وهنا افترق الناس، وصاروا فريقين: فريقاً مشركين في السعير، وفريقا موحدين في الجنة. فالإلهية هي التي فرقتهم، كما أن الربوبية هي التي جمعتهم"(1).

ولقد ورد الكثير من دلائل توحيد الألوهية في سورة آل عمران، التي تعتبر من الدلائل الواضحة الجلية المحققة لهذا النوع من التوحيد، من استحقاق للعبادة والتوكل والإنابة والخضوع والتسليم، وغير ذلك من مقتضيات توحيد الألوهية التي لا تنبغي أن تكون إلا لله الواحد القهار.

وبيان تلك الأدلة ووجه دلالتها على النحو التالي:

1 – شهادة الله على نفسه، وملائكته، وأولو العلم بألوهيته تعالى:

من أعظم ما ورد على توحيد الألوهية في السورة شهادة الله ﷻ على نفسه بوحدانيته وألوهيته، فقال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[آل عمران: 18]، فسبحانه قد شهد – وكفى به شهيداً – وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم أنه لا إله إلا هو، أي: أنه المتفرد بالألوهية وحده دون سواه، ثم قرن شهادة خواص خلقه من الملائكة وأولي العلم بشهادته، وهذا تقرير منه تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له(2).

---

(1) ابن القيم، مدارج السالكين (ج58/1).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج24/2)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص124).

وإن أقوال المفسرين قد تنوعت في بيان معنى لفظ (شهد)، فمنهم من فسرها أنها بمعنى: الحكم والقضاء، أي: أن الله ﷻ قضى وحكم وألزم الخلق بالتوحيد وأمرهم به، ومنهم من فسرها أنها بمعنى: الإخبار، والإعلام، والبيان، فقالت طائفة إن معنى شهادة الله: الإخبار والإعلام، وأما معنى شهادة الملائكة وأولو العلم فالإقرار، فجميع هذه الأقوال وما في معناها صحيح[1].

فالشهادة قد تضمنت مرتبتين: إحداهما: تكلم الشاهد وهو الله ﷻ وذكره لما شهد في نفسه به، وهي أول مراتب الشهادة وأعظمها. والثانية: إعلامه وإخباره لغيره بما شهد به[2].

قال الإمام ابن تيمية: "وإذا كانت شهادة الله تتضمن بيانه للعباد ودلالته لهم وتعريفهم بما شهد به لنفسه، فلا بد أن يعرفهم أنه شهد، فإن هذه الشهادة أعظم الشهادات، وإلا فلو شهد شهادة لم يتمكن من العلم بها لم ينتفع بذلك ولم تقم عليهم حجة بتلك الشهادة، كما أن المخلوق إذا كانت عنده شهادة لم يبينها بل كتمها لم ينتفع أحد بها ولم تقم بها حجة"[3].

فألوهيته سبحانه قد شهد عليها بنفسه، وهي أول مراتب الشهادة وأعظمها، وكفى به شهيداً، كما شهد عليها خواص خلقه وصفوتهم، ألا وهم الملائكة وأولوا العلم، وفي هذا دلالة على عظمة الأمر المشهود عليه ووجوب الإيمان به.

2 - إفراد الله تعالى بالعبادة وحده دون سواه:

العبادة في اللغة بمعنى: الطاعة والانقياد مع الخضوع والتذلل، ومنه الطريق المعبد إذا كان مذللاً[4].

أما في الاصطلاح فهي: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"[5]، وهي: "فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه"[6].

وعن إفراد الله بالعبادة وحده دون سواه فقد تحدثت السورة عن ذلك، حيث أوجب سبحانه على عباده أن يخصوه بالعبادة وأن يفردوه بها، فهو المستحق لها بجميع أنواعها وحده دون سواه، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ

---

(1) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج168/14).

(2) انظر: المصدر السابق، (ج170/14).

(3)ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج186/14).

(4) انظر: الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح (ص198)، وابن منظور، لسان العرب (ج273/3).

(5) ابن تيمية، العبودية (ص44)، وابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج149/10).

(6) الجرجاني، التعريفات (ص146).

﴿شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

في هذه الآية خطاب موجه لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم، حيث أمر الله نبيه محمداً ﷺ بإبلاغ كلمة التوحيد التي بعث الله تعالى بها جميع الرسل عليهم السلام التي اتفقوا عليها من أولهم إلى آخرهم، ألا وهي عبادة الله وحده دون سواه، والتبرؤ من كل معبود سواه، فلا معبود بحق إلا الله، ولا طاعة ولا تعظيم إلا له، ويتعين لتحقيق عبادته تعالى عدم الإشراك به، وعدم طاعة أي مخلوق في معصية الخالق[1].

وقال سبحانه – أيضاً – على لسان عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[آل عمران: 51].

قال الشيخ السعدي في هذه الآية إنه: "استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعما ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة"[2]، وفيه بيان – أيضاً – أن نبي الله عيسى عليه السلام إنما هو مربوب مثلهم، وأنه سواء معهم في العبودية، مما يترتب عليه إبطال قول النصارى بتأليه عيسى، فهو عبد من عباد الله اصطفاه الله بالرسالة والنبوة، وقد دعا إلى توحيد الله في ربوبيته وألوهيته كدعوة جميع الأنبياء والرسل، فالله واحد لا شريك له في ألوهيته، وهو المألوه المعبود حقاً دون سواه.

3 – إفراد الله بالخوف منه وحده والتوكل عليه:

إن من توحيد الله وعبادته التوكل عليه، والرجاء له، والخوف منه، وفي تحقيق ذلك يخلص العبد من الشرك[3]، فقد أمرنا سبحانه بإفراده بالخوف منه وحده والتوكل عليه، حيث قال تعالى في السورة: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: 173–175]، ففي هذه

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/55–56).

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص131).

(3) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج1/53).

الآية دلالة على وجوب الخوف من الله وحده دون سواه؛ حيث قرن سبحانه مخافته وحده بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فإن ذلك من لوازم الإيمان، وعلامة وقدر هذا الإيمان مترتب على مقدار خوف العبد من الله[1].

قال الإمام ابن تيمية: "بعض الناس يقول يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك وهذا كلام ساقط لا يجوز؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً لا من يخاف الله ولا من لا يخاف الله؛ فإن من لا يخاف الله أخس وأذل أن يُخاف فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان"[2].

وإن من ثمرات مخافته سبحانه وخشيته وحده دون سواه زيادة الإيمان به، وتحقيق التوكل عليه حق توكله، فإن "التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات"[3]، وإن العبد إذا عزم على أمر من الأمور كان لزاماً عليه التوكل على الله وحده لا شريك له؛ حتى يحقق توحيد الله في ألوهيته، وينال محبته سبحانه، فيكون ذلك مفتاح سعادة له في الدارين الدنيا والآخرة، ولقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[آل عمران: 159-160].

4 - إفراد الله تعالى بالدعاء، والذكر له وحده دون غيره:

ومن مقتضيات تحقيق ألوهيته تعالى، التي لا تتم إلا بها، إفراده سبحانه بالدعاء والذكر واختصاصه به، حيث قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: 135].

فمن صفات العبد المؤمن ذكره لله تعالى على الدوام في جميع الأحوال، وبجميع أنواع الذكر بالقلب والقول أو بهما معاً، والتوجه إليه سبحانه بالدعاء وإفراده به دون سواه، وها هي المؤمنة الطائعة لربها أم مريم عليهما السلام تدعو الله ﷻ وتخصه به وحده بأن يعيذ ابنتها وذريتها

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص157).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج14/206).

(3) المصدر السابق (ج7/16).

من الشيطان الرجيم، حيث قال تعالى على لسانها: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[آل عمران: 36]، فالتوجه إلى الله بالاستعاذة لا يكون إلا لله وحده دون سواه.

كما قال سبحانه على لسان المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾[آل عمران: 8]، وقال – أيضاً –: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: 193].

5 – الاستسلام بالخضوع والطاعة لله وحده من خلال الإيمان:

لقد أفادت سورة آل عمران في آياتها عن هذا المعنى ودلت عليه دلالة واضحة، حيث قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 20].

في الآية خطاب لنبينا المصطفى محمد ﷺ في شأن محاجة أهل الكتاب ومخاصمتهم له في الدين، حيث أمره الله بأن يسلم وجهه له ومن تبعه من المؤمنين، وينقادوا ويخضعوا له بجميع جوارحهم، وقد خص الوجه بالذكر؛ لأنه أكرم الجوارح فإذا خضع الوجه خضعت جميع الجوارح تبعاً له[1].

كما أمره بإبلاغ كلمة التوحيد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب، والخضوع والاستسلام له وحده لا شريك له، فإن أسلموا لذلك فقد اهتدوا إلى طريق الحق والصواب، وإن أعرضوا وتولوا فهذا شأنهم واختيارهم، وما على الرسول إلا البلاغ.

ولقد جاء في السورة – أيضاً – قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: 52 – 53].

---

(1) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج422/1).

وذلك عندما استشعر عيسى عليه السلام من قومه التصميم على الكفر والاستمرار به، استنصر لدينه ودعوته؛ ليميز المؤمن من الكافر، فقام الحواريون وهم أنصار الله لنصرته، وخضعوا لله وانقادوا لأمر رسوله، وشهدوا بتوحيد الله تعالى وتصديق رسوله من خلال إيمانهم الراسخ والعميق، متوجهين ومنيبين لله وحده لا شريك له[1].

وفي هذا المعنى قال سبحانه على لسان المؤمنين: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ ﴾ [آل عمران: 193]، إذ ينبغي على المؤمن الصادق في إيمانه التوجه والإنابة إلى بارئه، والخضوع والاستسلام له سبحانه، وطاعته بما أمر به، وإفراده وحده دون سواه بذلك؛ ليتم تحقيق توحيد ألوهيته تعالى على أكمل وجه.

وقال تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[آل عمران: 43]، حيث أمرها سبحانه بالقنوت أي دوام الطاعة له في خضوع وخشوع، كما أمرها بالسجود والركوع مع الراكعين، ولقد خص السجود والركوع في ذلك؛ لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع له، ومريم عليها السلام هي أهل لطاعته تعالى والتزامها لأوامر خالقها[2].

وبذلك تتجلى وحدانية الله تعالى في ألوهيته بأبهى صورها وأوضحها من خلال سورة آل عمران.

المطلب الثالث: دلائل توحيد الأسماء والصفات.

إن توحيد الأسماء والصفات، كما ذكرنا سابقاً، إثبات لكل ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ على وجه يليق به سبحانه، فهو متصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص[3]، كما قال الله ﷻ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى: 11].

ولقد ذكر الإمام ابن القيم في أسماء الله ﷻ وصفاته وأفعاله كلاماً تخشع القلوب به لبارئها العظيم عند سماعه حيث قال: "أسماؤه كلها أسماء مدح وحمد وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى،

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج45/2)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص131- 132).

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص130).

(3) سبق تعريفه: (ص27) من هذا البحث.

وصفاته كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل، كل شيء من مخلوقاته دال عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه"(1).

وورد في سورة آل عمران الكثير من الأسماء الحسنى والصفات العلى التي سمى الله بها نفسه واتصف بها سبحانه، فهي إحدى السور القرآنية الزاخرة والمستفيضة بدلائل توحيد الأسماء والصفات، فقد تميزت بكثرة آياتها وطولها، التي بلغت مائتي آية والتي تضمنت الكثير من الدلائل التي أكثر من أن تحصى.

والحديث عن أسماء الله وصفاته أمر عظيم؛ خاصة أنه متعلق برب العزة جل وعلا، فشرف العلم بشرف المعلوم، كما أن البحث بأسماء الله وصفاته العلى أمر مستفيض يفوق كل الأبحاث بيانه، وفي هذه السورة الكريمة سيتم ذكر بعض الأسماء والصفات لتكون دلائل على هذا النوع من التوحيد – توحيد الأسماء والصفات –، ومن تلك الدلائل ما يلي:

أولاً: الأسماء الحسنى لله ﷻ الواردة في السورة.

1 – الله ﷻ:

لفظ الجلالة (الله) أصله في اللغة من (أله)، حيث قال ابن فارس: "الهمزة واللام والهاء أصل واحد، وهو التعبد. فالإله الله تعالى، وسمي بذلك لأنه معبود"(2)، فالله هو: "المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال"(3)، وهو: "اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه"(4).

قال الإمام ابن القيم: "واسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً، تؤلهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته، المتضمنين لكمال الملك والحمد"(5).

ولفظ الجلالة (الله) يعد الاسم الأكثر ذكراً في القرآن الكريم، ولقد ذكر في سورة آل عمران نحو مائتين وعشر مرة، حيث ورد مائتي مرة بلفظ الله وبالله، وبلفظ لله أربع مرات، وبلفظ إله خمس مرات، ومرة واحدة بلفظ اللهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 31]، وقوله سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(1) ابن القيم، مدارج السالكين (ج144/1).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (127/1).

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص945).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج102/1).

(5) ابن القيم، مدارج السالكين (ج56/1).

﴿ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران:179]، وقوله: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: 20]،﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 62]، وقوله:﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 26].

ولقد أخبر الرسول ﷺ بالأحاديث العديدة أن لله اسماً أعظم له مميزات اختص بها عن باقي أسمائه سبحانه، منها: ما ورد عن بريدة الأسلمي أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ"، فقال ﷺ: "**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**"[(1)]، كما ورد تحديد آيتي سورة البقرة وآل عمران قد ورد فيهما اسم الله الأعظم، حيث قال ﷺ: "**اسْمُ اللَّهِ الأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ** ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ **[سورة البقرة: 163] وَفَاتِحَةِ آلِ عِمْرَانَ** ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ **[آل عمران: 2]**"[(2)]، وتعددت آراء العلماء في تحديد هذا الاسم، ولكن الراجح أن اسم الجلالة (الله) هو الاسم الأعظم من خلال النظر والمقارنة بين النصوص – والله أعلم – لنظائر منها[(3)]:

- أن لفظ الجلالة (الله) هو الاسم الوحيد الذي جاء في جميع النصوص التي قال الرسول ﷺ عنها أن اسم الله الأعظم ورد فيها.
- وأن هذا الاسم كما ذكرنا أنه أكثر الأسماء وروداً في القرآن الكريم، حيث تكرر ذكره بما يفوق كثيراً مقارنة بتكرار أي اسم آخر له سبحانه.
- وأن هذا الاسم لم يتسم به غيره سبحانه، ولقد قال الإمام القرطبي في هذا الصدد: "(الله) هذا الاسم أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها، حتى قال بعض العلماء: إنه اسم الله الأعظم ولم يتسم به غيره؛ لذلك لم يثن ولم يجمع"[(4)].

---

(1) سبق تخريجه: (ص15) من هذا البحث.

(2) سبق تخريجه: (ص15) من هذا البحث.

(3) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين (ج 55/1 – 56)، والأشقر، العقيدة في الله (ص231 – 233)، والهلاوي، ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها (ص14)، والأشقر، أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة (ص89 – 90).

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج102/1).

- كما أن هذا الاسم قد تضمن من المعاني العظيمة كثيراً، فهو الأصل في الأسماء الحسنى لله تبارك وتعالى والصفات العلى المستلزم لها والدال عليها، حيث أضيفت جميع أسمائه الحسنى إلى هذا الاسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[الأعراف: 180] فيقال: الرحمن والرحيم، والقدوس، والسلام، والعزيز، والحكيم من أسماء الله، ولا يقال الله من أسماء الرحمن أو العزيز أو الحكيم ونحو ذلك، فإن اسم الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى.

وبهذا تتبين الدلالة على تفاضل أسماء الله تبارك وتعالى، وذلك بثبوت أن اسماً من أسمائه سبحانه قد اختص بالأعظمية وحده دون سائر الأسماء الحسنى، علماً بأن كل أسمائه سبحانه طيبة وعظيمة، فلا يعتري أياً منها نقص على الإطلاق بأي حال من الأحوال، فكلها أسماء كمال وتعظيم بما يليق بجلاله سبحانه، إلا أن له اسماً من بين أسمائه الكثيرة هو أعظمها وأجلها وهو لفظ الجلالة (الله)، وذلك كما دلت عليه النظائر والدلائل(1).

قال صاحب كتاب (أسماء الله وصفاته): "أسماؤه تبارك وتعالى متفاضلة، أسماء الله كلها حسنى، وصفاته كاملة عليا، وأسماؤه – تبارك وتعالى – متضمنة لصفاته، وبعض أسماء الله أفضل من بعض، وبعض صفاته أفضل من بعض"(2)، وقال الإمام ابن تيمية: "فتفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات... إن الصفة الواحدة قد تتفاضل، فالأمر بمأمور يكون أكمل من الأمر بمأمور آخر، والرضا عن النبيين أعظم من الرضا عمن دونهم والرحمة لهم أكمل من الرحمة لغيرهم، وتكليم الله لبعض عباده أكمل من تكليمه لبعض، وكذلك سائر هذا الباب. كما أن أسماءه وصفاته متنوعة فهي – أيضاً – متفاضلة كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع العقل وإنما شبهة من منع تفاضلها من جنس شبهة من منع تعددها، وذلك يرجع إلى نفي الصفات"(3).

ولقد أجاد صاحب كتاب (شأن الدعاء) في التحدث عن هذا الاسم العظيم – الله – وتميزه، وتفرد الخالق تبارك وتعالى بالتسمية به دون غيره، حيث قال: "إنه أشهر أسماء الرب – تعالى – وأعلاها محلاً في الذكر، والدعاء؛ وكذلك جعل أمام سائر الأسماء، وخصت به كلمة الإخلاص، ووقعت به الشهادة؛ فصار شعار الإيمان، وهو اسم ممنوع، لم يتسم به أحد، قد قبض الله عنه الألسن؛ فلم يُدع به شيء سواه، وقد كاد يتعاطاه المشركون اسماً لبعض أصنامهم التي كانوا يعبدونها، فصرفه الله – تعالى – إلى "اللات" صيانة لهذا الاسم، وذباً عنه"(4).

---

(1) انظر: الأشقر، أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة (ص86 – 88).

(2) المرجع السابق (ص86).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج212/17)، بتصرف يسير.

(4) الخطابي، شأن الدعاء (ص30–31).

ومما يتميز به هذا الاسم العظيم أنه إذا دخل عليه النداء لا تحذف الألف واللام فيقال: يا الله، إذ ينطق بحروفه كاملة بخلاف سائر أسمائه سبحانه فإنه إذا دخل النداء على أي اسم منها تحذف الألف واللام فيقال: يا رحمن أو يا رحيم...، ولا يقال يا الرحمن أو يا الرحيم، وكأن الألف واللام جزء لا يتجزأ من لفظ الجلالة (الله)، فالألف واللام لا يسقطان عنه أبداً، وفي هذا دلالة على أن المعرفة ملازمة لله جل جلاله لا تزول وإن زال الوجود كله[1].

2 – الرب:

لقد ورد اسم (الرب) في سورة آل عمران بألفاظ متعددة مثل: ربي أو رب – بحذف الياء – ربك، ربنا، ربكم، ربه، ربها، ربهم نحو خمسة وثلاثين مرة، كقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: 38 –43]، وقوله سبحانه:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: 133]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 147].

ويأتي اسم الرب وحده، نحو ما جاء في الآيات السابقة، وتارة يأتي مضافاً كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، وقوله سبحانه: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: 17][2].

والرب معناه: المالك، والخالق، والمتصرف، والمدبر، والمصلح وقد تم تعريف لفظ الرب سابقاً[3]، و"اسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه، والقادر عليه،

---

(1) انظر: نوفل، أسماء الله الحسنى (ص42).

(2) انظر: السقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص171).

(3) انظر: الزجاجي، اشتقاق أسماء الله (ص32)، والسقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص171)، وقد تم تعريف الرب والربوبية لغةً. (ص25) من هذا البحث.

لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له في قبضته، وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء، وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو"[1].

قال الإمام الطبري: "الرب في كلام العرب منصرف على معان: فالسيد المطاع فيها يدعى رباً... والرجل المصلح للشيء يدعى رباً... والمالك للشيء يدعى ربه. وقد يتصرف – أيضاً – معنى "الرب" في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة. فربنا جل ثناؤه: السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر"[2].

3 – العزيز:

من أسماء الله الحسنى (العزيز)، ولقد ورد ذكره في القرآن الكريم اثنتين وتسعين مرة[3]، أما في سورة آل عمران فقد ورد خمس مرات منها: قوله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: 4]، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

والعزيز أصله في اللغة من (عز) بمعنى: الشدة والقوة وما يضاهيهما من الغلبة والقهر[4]، والعرب في كلامها ترجع العز إلى ثلاثة وجوه، **الأول:** بمعنى الغلبة، **والثاني:** بمعنى الشدة والقوة، **والثالث:** أن يكون بمعنى نفاسة القدر أي: أنه لا يعادله شيء، فلا مثل له ولا نظير[5]، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم:

"وهو العزيز فلن يرام جنابه	**أنى يرام جناب ذي السلطان**
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	**يغلبه شيء هذه صفتان**
وهو العزيز بقوة هي وصفه	**فالعز حينئذ ثلاث معان**
وهي التي كملت له سبحانه	**من كل وجه عادم النقصان"** [6]

---

(1) ابن القيم، مدارج السالكين (ج1/58).

(2) الطبري، جامع البيان (ج1/141 – 142)، بتصرف يسير.

(3) انظر: النجدي، النهج الأسمى (ص135).

(4) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج4/38).

(5) انظر: الخطابي، شأن الدعاء (ص47 – 48).

(6) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص205).

فالعزيز هو الممتنع الذي لا يغلبه شيء، فهو القوي الغالب على كل شيء، وقيل: هو الذي ليس كمثله شيء[1]، فهو الذي لا مثيل له، ولا غنى عنه، ولا سبيل إليه[2].

وقال الشيخ السعدي في تفسيره: "(العزيز) الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته"[3].

وقال الإمام ابن القيم: "وهو أنه سبحانه العزيز الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمال عزته حكم على العبد وقضى عليه، بأن قلب قلبه وصرف إرادته على ما يشاء، وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم، وهذا من كمال العزة؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله، وغاية المخلوق أن يتصرف في بدنك وظاهرك، وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة. فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه، وتمكن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له؛ لأنه يصير مع الله لا مع نفسه. ومن معرفة عزته في قضائه: أن يعرف أنه مدبر مقهور، ناصيته بيد غيره، لا عصمة له إلا بعصمته، ولا توفيق له إلا بمعونته، فهو ذليل حقير، في قبضة عزيز حميد. ومن شهود عزته – أيضاً – في قضائه: أن يشهد أن الكمال والحمد، والغناء التام، والعزة كلها لله، وأن العبد نفسه أولى بالتقصير والذم، والعيب والظلم والحاجة، وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهوده لعزة الله وكماله، وحمده وغناه، وكذلك بالعكس، فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة"[4].

4 – الوهاب:

إن من أسماء الله الحسنى اسم (الوهاب) ولقد ورد في القرآن الكريم ذكره ثلاث مرات[5]، وكان الموضع الأول الذي ذكر فيه هذا الاسم في سورة آل عمران، حيث ذكر مرة واحدة وهو في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: 8]، "أي: لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك

(1) انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج64/1).

(2) انظر: نوفل، أسماء الله الحسنى (ص65).

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص946).

(4) ابن القيم، مدارج السالكين (ج222/1).

(5) لقد ورد اسم (الوهاب) في القرآن الكريم ثلاث مرات، وذلك في سورة آل عمران التي ورد فيها مرة واحدة في الآية الثامنة، وفي سورة ص التي ورد فيها هذا الاسم مرتين، مرة في الآية التاسعة وورد مرة أخرى في الآية الخامسة والثلاثين. انظر: النجدي، النهج الأسمى (ص187).

وعافنا مما ابتليت به الزائغين... ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات"[1].

والوهاب أصله من الهبة وهي: العطية الخالية عن الأعواض والأغراض، فإن كثرت سمي صاحبها وهاباً، وهو من أبنية المبالغة، والله تعالى هو الوهاب الواهب المنعم على العباد، فكل ما وهب له من الولد وغيره فهو موهوب منه سبحانه، فلا يتصور الجود والعطاء والهبة حقيقة إلا من الله تعالى، فهو الذي يعطي كل ما يحتاج بلا عوض ولا غرض عاجل أو آجل[2].

فاسم (الوهاب) بمعنى: أنه هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استثابة، وأما الواهب فهو كل من وهب شيئاً من عرض الدنيا لصاحبه، والواهب لا يستحق أن يسمى وهاباً أو يقترن به إلا من تصرفت مواهبه في أنواع العطايا وكثرت نوافله ودامت، وذلك لا يكون إلا من الله الوهاب؛ لأنه لا يوجد من الخلق من يهب الهبة دون عوض ولا غرض، ومن لم يكن له أي عوض أو غرض فإن له عوضاً وغرضاً في السماء، كما أن المخلوقين إنما يملكون أن يهبوا مالاً أو نوالاً في حال دون حال، وفي شيء دون أشياء، فالشفاء، والولد، والهدى والضلال، والعافية والبلاء وغير ذلك لا يقدر عليه إلا الله الوهاب فهو مالكه جميعاً دون انتظار لثناء، فهو الذي يهب ويعطي بلا حساب فتبارك الله ﷻ وتقدست أسماؤه[3].

ولقد قال الإمام ابن القيم في اسم الله (الوهاب) في نونيته:

"وكـــذلك الوهـــاب مـــن أســـمائه	**فـــانظر مواهبـــه مـــدى الأزمـــان**
أهـل السـموات العلـى والأرض عـن	**تلــك المواهــب لــيس ينفكــان"[4]**

5 – العليم:

لقد ورد اسم (العليم) في القرآن الكريم في مائة وسبعة وخمسين موضعاً[5]، أما في سورة آل عمران فقد ورد تسع مرات، ومن ذلك قوله تعالى حكاية على لسان امرأة آل عمران: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35]، "(العليم) لما أنوي في نفسي وأريد، لا يخفى عليك سرّ أمري وعلانيته"[6]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص122).

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج803/1)، والغزالي، المقصد الأسنى (ص77).

(3) انظر: الخطابي، شأن الدعاء (ص53)، ونوفل، أسماء الله الحسنى (ص81).

(4) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص210).

(5) انظر: النجدي، النهج الأسمى (ص213).

(6) الطبري، جامع البيان (ج330/6).

﴿ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [آل عمران: 73]، أي: "عليم بمن يستأهل أن يؤتيه فضله ويدل على علمه بذلك ما يظهر من آثار إرادته وقدرته الجارية على وفق علمه متى ظهر للناس ما أودعه الله من فضائل في بعض خلقه"[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: 154]، أي: "والله ذو علم بالذي في صدور خلقه من خير وشر، وإيمان وكفر، لا يخفى عليه شيء من أمورهم، سرائرها علانيتها، وهو لجميع ذلك حافظ، حتى يجازي جميعهم جزاءهم على قدر استحقاقهم"[2].

فالعليم في حق الله تعالى هو: "العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق"[3]، وهو: "العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولما يكن بعد قبل أن يكون، لم يزل عالماً ولا يزال عالماً بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى، أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها دقيقها وجليلها على أتم الإمكان"[4].

ولفظ عليم على وزن فعيل، وهو من أبنية المبالغة، والعليم هو الذي يتصف بصفة العلم، والعلم نقيض الجهل، ويجوز أن يطلق على الإنسان الذي علمه الله علماً من العلوم عليم، وذلك كما قال نبي الله يوسف عليه السلام للملك: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: 55][5]، ولكن البشر وإن وصفوا بالعلم فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع معين من المعلومات دون نوع، كما أنه قد يوجد فيهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فتخلف علمهم جهلاً، ويعقب ذكرهم نسياناً، ولكن علم الله تبارك وتعالى علم حقيقة وكمال، لا يشاركه فيه أحد من خلقه مهما بلغت منزلته ومكانته، فلا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ويعلمهم به، فهو وحده دون سواه الذي يحيط بكل شيء علماً، ويكفي أن ما يتكلم به من علمه سبحانه لو قدر أن البحر – يمده من بعده سبعة أبحر – ليكون مداداً لكلماته مما يعلمه لنفدت البحار قبل أن تنفد كلماته، فنسبة علوم الخلائق إلى علمه تعالى كنسبة قدرتهم إلى قدرته، وغناهم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج284/3).

(2) الطبري، جامع البيان (ج325/7).

(3) الخطابي، شأن الدعاء (ص57).

(4) ابن منظور، لسان العرب (ج416/12).

(5) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج110/4)، وابن منظور، لسان العرب (ج416/12)، وابن القيم، شفاء العليل (ص382).

إلى غناه، وحكمتهم إلى حكمته، فإن علومهم تضمحل وتتلاشى كما يضمحل ضوء السراج الضعيف في عين الشمس[1].

قال الإمام الغزالي: "للعبد حظ من وصف العليم لا يكاد يخفى، ولكن يفارق علمه علم الله تعالى في الخواص الثلاث: أحدها: في المعلومات وكثرته؛ فإن معلومات العبد وإن اتسعت فهي محصورة في قلة؛ فأنى يناسب ما لا نهاية له؟! الثاني: أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ الغاية التي لا يمكن وراءها، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق. ولا تنكرن تفاوت درجات الكشف؛ فإن البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر، وفرق بين ما يتضح في وقت الإسفار وبين ما يتضح وقت ضحوة النهار. والثالث: أن علم الله تعالى غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه. وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها"[2].

فعلم الله تعالى ليس كعلم الآدميين، فسبحانه يعلم الأشياء على حقائقها بغير استدلال ولا سبب، وهو عالم الغيب والشهادة وحده لا شريك له، فسبحان الله العليم جل وعلا علواً كبيراً[3].

ولقد قال الإمام ابن القيم:

"وهو العليم أحاط علماً بالذي	**في الكون من سر ومن إعلان**
وبكل شيء علمه سبحانه	**فهو المحيط وليس ذا نسيان**
وكذاك يعلم ما يكون غدا وما	**قد كان والموجود في ذا الآن**
وكذاك أمر لم يكن لو	**كان كيف يكون ذا إمكان"[4]**

ومعنى اسم (العليم) الذي هو من أسماء الله الحسنى أنه: "العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق"[5]، وهو: "العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولما يكن بعد قبل أن يكون، لم يزل عالماً ولا يزال عالماً بما كان وما يكون، ولا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى، أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها دقيقها وجليلها على أتم الإمكان"[6].

ولفظ عليم على وزن فعيل، وهو من أبنية المبالغة، والعليم هو الذي يتصف بصفة العلم، والعلم نقيض الجهل، ويجوز أن يطلق على الإنسان الذي علمه الله علماً من العلوم عليم، وذلك

---

(1) انظر: الخطابي، شأن الدعاء (ص57)، والداخل، المرتبع الأسنى (ص447).

(2) الغزالي، المقصد الأسنى (ص81).

(3) انظر: الزجاجي، اشتقاق أسماء الله (ص52).

(4) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص204).

(5) الخطابي، شأن الدعاء (ص57).

(6) ابن منظور، لسان العرب (ج416/12).

كمـــا قـــال نبـــي الله يوســـف عليه السلام للملـــك: ﴿ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: 55][1]، ولكن البشر وإن وصفوا بالعلم فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع معين من المعلومات دون نوع، كما أنه قد يوجد فيهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فتخلف علمهم جهلاً، ويعقب ذكرهم نسياناً، ولكن علم الله تبارك وتعالى علم حقيقة وكمال، لا يشاركه فيه أحد من خلقه مهما بلغت منزلته ومكانته، فلا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء أن يطلعهم عليه ويعلمهم به، فهو وحده دون سواه الذي يحيط بكل شيء علماً، ويكفي أن ما يتكلم به من علمه سبحانه لو قدر أن البحر – يمده من بعده سبعة أبحر – ليكون مداداً لكلماته مما يعلمه لنفدت البحار قبل أن تنفد كلماته، فنسبة علوم الخلائق إلى علمه تعالى كنسبة قدرتهم إلى قدرته، وغناهم إلى غناه، وحكمتهم إلى حكمته، فإن علومهم تضمحل وتتلاشى كما يضمحل ضوء السراج الضعيف في عين الشمس[2].

قال الإمام الغزالي: "للعبد حظ من وصف العليم لا يكاد يخفى، ولكن يفارق علمه علم الله تعالى في الخواص الثلاث: أحدها: في المعلومات وكثرته؛ فإن معلومات العبد وإن اتسعت فهي محصورة في قلة؛ فأنى يناسب ما لا نهاية له؟! الثاني: أن كشفه وإن اتضح فلا يبلغ الغاية التي لا يمكن وراءها، بل تكون مشاهدته للأشياء كأنه يراها من وراء ستر رقيق. ولا تنكرن تفاوت درجات الكشف؛ فإن البصيرة الباطنة كالبصر الظاهر، وفرق بين ما يتضح في وقت الإسفار وبين ما يتضح وقت ضحوة النهار. والثالث: أن علم الله تعالى غير مستفاد من الأشياء، بل الأشياء مستفادة منه. وعلم العبد بالأشياء تابع للأشياء وحاصل بها"[3].

فعلم الله تعالى ليس كعلم الآدميين، فسبحانه يعلم الأشياء على حقائقها بغير استدلال ولا سبب، وهو عالم الغيب والشهادة وحده لا شريك له، فسبحان الله العليم جل وعلا علواً كبيراً[4].

6 – السميع:

قال ابن منظور[5]: "السميع: من صفاته ﷻ، وأسمائه، لا يعزب عن إدراكه مسموع، وإن

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج110/4)، وابن منظور، لسان العرب (ج416/12)، وابن القيم، شفاء العليل (ص382).

(2) انظر: الخطابي، شأن الدعاء (ص57)، والداخل، المرتبع الأسنى (ص447).

(3) الغزالي، المقصد الأسنى (ص81).

(4) انظر: الزجاجي، اشتقاق أسماء الله (ص52).

(5) هو محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور، الإمام اللغوي الحجة، صاحب كتاب (لسان العرب) الذي جمع فيه أمهات كتب اللغة، ومن كتبه أيضاً: (مختار الأغاني)، و(نثار الأزهار في الليل والنهار) في مجال الأدب وغيرها من الكتب، وقيل: إنه ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وله شعر رقيق، توفي في مصر سنة 711هـ. انظر: الزركلي، الأعلام (ج108/7).

خفي، فهو يسمع بغير جارحة. وفعيل: من أبنية المبالغة"[1]، وقال الإمام ابن القيم: "السميع الذي له السمع"[2]، ولقد ورد في القرآن الكريم اسم (السميع) خمساً وأربعين مرة[3]، وأما في سورة آل عمران فقد ورد أربع مرات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤ إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 33 – 35]، فقوله تعالى: "والله سميع عليم" أي: سميع لأقوال العباد، عليم بضمائرهم وما يصدر منهم من أفعال، والله سبحانه إنما يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، أما قوله تعالى حكاية على لسان امرأة عمران: "إنك أنت السميع العليم" أي: إنك أنت السميع لتضرعي ودعائي وندائي –بمعنى القبول والإجابة–، العليم بما في قلبي من السرائر [4].

وقال تعالى – أيضاً –: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران: 38]، أي: قابله[5]، "فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه سميع لكل مسموع"[6]، ونظيره ما روي عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَرْبَعِ: مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ**"[7]، والمقصود من الدعاء الذي لا يُسمع أي: من دعاء لا يستجاب، ومن ذلك أيضاً قول المصلي عند الرفع من الركوع: "**سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ**"[8]، أي بمعنى: قبل الله حمد من حمده[9].

ومن خلال هذه الأدلة وغيرها يتبين أن السمع في حق الله ﷻ يراد به إدراك الأصوات، ويراد به فهم المعنى، كما يراد به القبول والإجابة[10]، فالسميع بمعنى: السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة،

---

(1) ابن منظور، لسان العرب (ج164/8).
(2) ابن القيم، شفاء العليل (ص382).
(3) انظر: النجدي، النهج الأسمى (ص225).
(4) انظر: الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج201/8 – 203).
(5) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج72/4).
(6) الداخل، المرتبع الأسنى (ص442).
(7) [النسائي: سنن النسائي، الاستعاذة/الاستعاذة من نفس لا تشبع، 263/8: رقم الحديث 5467]، قال الألباني إنه: صحيح.
(8) [البخاري: صحيح البخاري، الأذان/إنما جعل الإمام ليؤتم به، 139/1: رقم الحديث 689].
(9) انظر: الخطابي، شأن الدعاء (ص59).
(10) انظر: ابن القيم، مفتاح دار السعادة (ج79/1).

وهو الذي يسمع السر والنجوى، سواء عنده الجهر والخفوت، والنطق والسكوت[1]، و"السميع الذي يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم من إلحاح الملحين في سؤاله"[2]، والسميع لدعاء خلقه وحديثهم في كل أحوالهم، عند تفرقهم واجتماعهم، واختلاف ألسنتهم ولغاتهم، فسبحانه يعلم ما في قلب القائل قبل أن ينطق به، كما أن عند عجز القائل عن التعبير عن مراده فإن الله يعلمه ويعطيه الذي في قلبه[3]، وهذا إن دل فإنه يدل على الله ﷻ السميع الذي ليس كسمعه أحد من مخلوقاته أبداً، وكما قال ﷻ عن نفسه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وقال الإمام ابن القيم في اسم الله (السميع):

"وهو السميع يسمع ويرى كل ما	**في الكون من سر ومن إعلان**
ولكل صوت منه سمع حاضر	**فالسر والإعلان مستويان**
والسمع منه واسع الأصوات لا	**يخفى عليه بعيدها والداني"[4]**

7 – البصير:

ومن أسمائه ﷻ (البصير) الذي ورد في القرآن الكريم نحو اثنتين وأربعين مرة[5]، وأما في سورة آل عمران فقد ورد هذا الاسم ثلاث مرات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 20]، وقوله: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 163].

قال الإمام الألوسي: "والله بصير بالعباد أي خبير بهم وبأحوالهم وأفعالهم"[6]، وقال الإمام الطبري: "يعني جل ثناؤه بقوله: (والله بصير بما يعملون)، والله ذو إبصار بما يعملون، لا يخفي عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ ذاكر، حتى يذيقهم بها العقاب جزاءها. وأصل "بصير" "مبصر" من قول القائل: "أبصرت فأنا مبصر"، ولكن صرف إلى "فعيل"، كما

(1) انظر: الخطابي، شأن الدعاء (ص59).

(2) ابن القيم، إغاثة اللهفان (ج3/1).

(3) انظر: النجدي، النهج الأسمى (ص231).

(4) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص203 – 204).

(5) انظر: النجدي، النهج الأسمى (ص235).

(6) الألوسي، روح المعاني (ج98/2).

صرف "مسمع" إلى "سميع"، و"عذاب مؤلم" إلى "أليم"، "ومبدع السموات" إلى بديع، وما أشبه ذلك"[1].

"والبصير الذي له البصر"[2]، والله البصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها، ظاهرها وخفيها بغير جارحة، فالبصر عبارة في حقه عن الصفة التي ينكشف بها كما نعوت المبصرات[3]، فالبصير هو المبصر ويقال – أيضاً – البصير هو العالم بخفيات الأمور[4].

فسبحانه جل وعلا هو الذي يبصر كل شيء وإن دق وصغر، فيبصر ما تحت الأرضين السبع وما فوق السماوات السبع، وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة[5].

قال الإمام ابن القيم:

"وهو البصير يرى دبيب النملة الس — وداء تحت الصخر والصوان

ويرى مجاري القوت في أعضائها — ويرى نياط عروقها بعيان

ويرى خيانات العيون بلحظها — ويرى كذاك تقلب الأجفان"[6]

ومن خلال معنى اسم (البصير) في حق الله تعالى يتبين أن يكون له معنيان[7]:

الأول: بمعنى المبصر أي أن له بصر يرى به سبحانه وتعالى.

والثاني: أن الله ﷻ ذو البصيرة بالأشياء العالم الخبير بها.

فإن سأل سائل أنه إذا كان اسم (البصير) معناه عالم بالأشياء خبير بها أي: بمعنى عليم فما وجه وصفه سبحانه بذلك والمعنى واحد، وإلا اقتصر على أحد اللفظين دون الآخر ما دام المعنى واحد في حقه؟

فالجواب: إن اسم (البصير) ليس بمعنى العليم فقط، بل يتعدى معناه وجوهاً، وإذا كان بمعنى عليم – مثلاً – فإن هذا جائز وموجود في كلام العرب من اختلاف اللفظتين لمعنى واحد، فكذلك يكون البصير والعليم بمعنى واحد بلفظتين مختلفتين إذا أريد بالبصير معنى العليم، وعلى

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج2/376 – 377).

(2) ابن القيم، شفاء العليل (ص382).

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج4/64).

(4) انظر: الخطابي، شأن الدعاء (ص60 – 61).

(5) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص946).

(6) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص204).

(7) انظر: النجدي، النهج الأسمى (ص237).

هذا فإنه لا تعارض بين المعاني المحتملة لاسم (البصير)، فمن وجوهه أن يكون من نعوت المبالغة في أن المبصرات لا تخفى عليه، فإذا قصد به هذا الوجه لم يتعلق بمفعول بل يكون من طريق مدح الذات، ومن وجوهه – أيضاً – أن يكون بمعنى المبصر للأشياء المدرك لها، أو يكون عالماً بخفايا الأمور خبيراً بها، وكل ذلك أوجه سائغة في اللغة جائز أن يوصف الله تعالى بها جميعها[1].

كانت هذه دارسة لبعض الأسماء الحسنى لله تعالى الواردة في سورة آل عمران، التي تعد دلائل لإثبات توحيد الأسماء والصفات في السورة، وهناك غيرها من الأسماء الحسنى مثل: اسم (الحي) و(القيوم) حيث قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: 2]، واسم (الحكيم) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 62]، واسم (الواسع) وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 73]، واسم (الغفور) و(الحليم)، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 155].

ثانياً: الصفات العلى لله ﷻ الواردة في السورة.

من المهم ذكره قبل الخوض في ذكر بعض صفاته سبحانه في السورة الكريمة أن أسماء الله تبارك وتعالى يشتق منها صفات، فالأسماء متضمنة للصفات، والصفات مستلزمة للأسماء، فالاسم يشمل وصفاً لله ﷻ سواء دل على صفة أو أكثر، وليس الوصف يشتق منه اسم له سبحانه، فالعليم، والقدير، والسميع، والبصير، والرحيم يشتق منه صفات العلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والرحمة وكذلك بقية الأسماء وليس العكس، فصفاته سبحانه كالإرادة والمجيء وغيرها لا يشتق منها أسماء كاسم المريد والجائي ونحوه فهذا لا يجوز، فالأسماء هي أوصاف دالة على صفات كماله سبحانه[2]، وكما قال الإمام ابن القيم:

"أسماؤه أوصاف مدح كلها مشتقة قد حمّلت لمعان"[3]

(1) انظر: الزجاجي، اشتقاق أسماء الله (ص65 – 67).

(2) انظر: عبد الرحمن آل الشيخ، فتح المجيد (ص13)، والأشقر، أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة (ص84)، وعاشور، دراسات في الأسماء والصفات (ص10 – 11).

(3) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص216).

وأما الصفات فتنقسم إلى قسمين[1]:

1 – **الصفات الذاتية:** وهي الصفات التي لا تنفك عن الله تعالى أي: عن ذاته، بل هي لازمة لم يزل ولا يزال متصفاً بها، ومثال الصفات الذاتية: الحياة، والعلم، والقدرة، والحكمة، والعزة، والسمع، والبصر، والوجه، والعين، واليد، والقدم، والإصبع.

2 – **الصفات الفعلية:** وهي الصفات التي يفعلها سبحانه، التي تتعلق بالمشيئة والقدرة، إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها، ومثال الصفات الفعلية: الاستواء، والنزول، والإتيان، والإحياء والإماتة، والضحك، والرضا، والغضب، والسخط، والكره، والحب.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كصفة الكلام، فهي صفة ذاتية؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته سبحانه، يتكلم متى شاء وبما شاء[2].

ولقد تضمنت السورة الكثير من الصفات العلى، وسيتم ذكر البعض منها لتكون دلائل على توحيد الأسماء والصفات في السورة:

1 – صفة القدرة:

إن صفة القدرة هي من الصفات العظيمة التي اتصف بها سبحانه، وهي: "صفة ذاتية ثابتة لله ﷻ بالكتاب والسنة، ومن أسمائه تعالى: (القادر) و(القدير) و(المقتدر)"[3].

والقدرة صفة وجودية من شأنها أن يكون لها أثر، وذلك كإيجاد الأشياء الممكنة، أو عدمها، أو التصرف بالموجودات بجمعها، أو تفريقها، أو تحويلها ونحوه، وقدرته تعالى هي قدرة كاملة منزه عن الشبه والمثل، متعلقة بجميع الممكنات، غير مستمدة من شيء، فهي من صفات الألوهية، وقد جاء في المأثور من أسماء الله الحسنى أن تسعة من الأسماء تعود إلى معنى تحقق صفة القدرة الكاملة لله تعالى، وهي: (القوي، المتين، القادر، المقتدر، الواجد – في أحد معانيه–، العزيز، المقيت – في أحد معانيه –، مالك الملك، الملك، والوارث)[4]، وورد من هذه الأسماء في السورة اسمان هما: العزيز، ومالك الملك.

ولقد دلت السورة على هذه الصفة المشتقة من اسم (القدير) في أربعة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن

---

(1) انظر: ابن عثيمين، القواعد المثلى (ص25)، والسلمان، مختصر الأسئلة والأجوبة (ص30 – 31).

(2) انظر: ابن عثيمين، القواعد المثلى (ص25).

(3) السقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص275).

(4) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص160 – 161)، وللاستزادة في شرح هذه الأسماء وأن معناها يحقق صفة القدرة ويعود إليه، ينظر: المصدر نفسه، (ص161 – 165).

﴿تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: 26]، وقوله: "إنك على كل شيء قدير" أي: "لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتك وقدرتك"[1]، وقوله سبحانه: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: 29]، "فإنه يعني: والله قدير على معاجلتكم بالعقوبة على موالاتكم إياهم على المؤمنين، وعلى ما يشاء من الأمور كلها، لا يتعذر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه شيء طلبه"[2]، فلا يقدر على المقدورات غيره سبحانه بسلطانه وقدرته[3].

كما دلت السنة الشريفة على هذه الصفة في العديد من الأحاديث، ومن ذلك ما روي عن عثمان بن أبي العاص الثقفي، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم فقال له رسول الله ﷺ: "**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**"[4].

قال صاحب كتاب (شأن الدعاء): "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور، وقد يكون القادر بمعنى المقدِّر للشيء، يقال: قدَّرت الشيء وقَدَرْتُه بمعنى واحد كقوله: ﴿فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 23] أي: نعم المقدرون... المقتدر: هو التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء ولا يحتجز عنه بمنعة وقوة، ووزنه مفتعل من القدرة إلا أن الاقتدار أبلغ وأعم لأنه يقتضي الإطلاق"[5].

فالله ﷻ هو القادر على كل شيء المتصف بالقدرة الكاملة وحده لا شريك له، فحري بعباده أن يرجعوا إليه في كل شيء مهما صغر الأمر أو كبر، وأن يسألوه حوائجهم فهو الأقدر الذي لا يعظم عليه مطلب، وأن يتوكلوا عليه على الدوام، لينالوا طريق السعادة والقوة والفلاح.

2 – صفة الحكمة:

وهي صفة ذاتية من صفات الله تعالى المشتقة من اسم (الحكيم)[6]، والحكيم: ذو الحكمة، والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، فيقال لمن يحسن ويتقن دقائق الصناعات:

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص126).

(2) الطبري، جامع البيان (ج318/6)، بتصرف يسير.

(3) انظر: المصدر السابق (ج301/6).

(4) [مسلم: صحيح مسلم، السلام، استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء، ص941 – 942: رقم الحديث 2202].

(5) الخطابي، شأن الدعاء (ص85 – 86)، بتصرف يسير.

(6) انظر: السقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص137).

حكيم[1]. والله تعالى الحكيم هو: "الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، فلا يقع منه عبث ولا باطل، بل كل ما يخلقه أو يأمر به فهو تابع لحكمته. وقيل: هو من فعيل بمعنى مُفْعِل، ومعناه: المحكم للأشياء، من الإحكام: وهو الإتقان، فلا يقع في خلقه تفاوت ولا فطور، ولا يقع في تدبيره خلل أو اضطراب"[2]، وهو: المحكم لخلق الأشياء، والمعنى: إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها، فسبحانه لا يخلق شيئاً عبثاً[3]، "فاسم (الحكيم) من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله، ووضعه الأشياء في موضعها، وإيقاعها على أحسن الوجوه، فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه، وسائر أسمائه الحسنى"[4].

قال الإمام ابن القيم: "فإنه سبحانه الحكيم الخبير الذي يضع الأشياء مواضعها. وينزلها منازلها اللائقة بها. فلا يضع الشيء في غير موضعه. ولا ينزله غير منزله، التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته. فلا يضع الحرمان والمنع موضع العطاء والفضل. ولا الفضل والعطاء موضع الحرمان والمنع. ولا الثواب موضع العقاب، ولا العقاب موضع الثواب، ولا الخفض موضع الرفع، ولا الرفع موضع الخفض، ولا العز مكان الذل، ولا الذل مكان العز، ولا يأمر بما ينبغي النهي عنه، ولا ينهى عما ينبغي الأمر به. فهو أعلم حيث يجعل رسالته. وأعلم بمن يصلح لقبولها. ويشكره على انتهائها إليه ووصولها. وأعلم بمن لا يصلح لذلك ولا يستأهله. وأحكم من أن يمنعها أهلها. وأن يضعها عند غير أهلها"[5].

فالله ﷻ حكيم؛ لإتقان أفعاله، واتساقها، وانتظامها، وتعلق بعضها ببعض. كما يكون الحكيم بمعنى العليم؛ لأن الفاعل للأشياء المتقنة المحكمة يثبت عقلاً بأنه لا يجوز أن يكون جاهلاً بها، فيكون الحكيم – على هذا – بتأويل المبالغة في الوصف بالعلم والحكمة[6].

ولقد دلت سورة آل عمران على إثبات صفة الحكمة لله ﷻ في العديد من المواضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 6]، "أي: هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام"[7]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

(1) انظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (ج419/1).
(2) هراس، شرح العقيدة الواسطية (ص91).
(3) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين (ج333/3)، والخطابي، شأن الدعاء (ص73).
(4) ابن القيم، مدارج السالكين (ج55/1)، بتصرف يسير.
(5) المصدر السابق (ج191/2).
(6) انظر: الزجاجي، اشتقاق أسماء الله (ص60).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج6/2).

[آل عمران: 126]، فسبحانه هو الحكيم في تدبيره الأمر على خير السنن، فيهدي لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء، ويصرف عنهما من يشاء، فالله يبشر المؤمنين بنصرهم على أعدائهم، إن التزموا طاعة الله ورسوله، وصبروا لجهاد الكفار أعداء الدين[1].

3 – سريع الحساب:

من صفات الله ﷻ أنه سريع الحساب، وهي صفة فعلية ثابتة بنصوص الكتاب والسنة[2].

قال ابن فارس: "السين والراء والعين أصل صحيح يدل على خلاف البطء. فالسريع: خلاف البطيء"[3]، ومعنى السريع في صفاته تعالى: أنه سريع الحساب لعباده، وأن أفعاله تسرع فلا يبطئ منها شيء عما أراد سبحانه؛ لأنه بغير مباشرة ولا علاج، ولا كلفة وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له (كن فيكون)، وعلى هذا المعنى قد وجهته اللغة. والله أعلم وأحكم[4].

ولقد وردت هذه الصفة في حق الله تعالى مرتين في السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: 19]، وقوله سبحانه: ﴿ **وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: 199].

ومما جاء في السنة المطهرة أن رسول الله ﷺ قال: "**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشِبْرٍ، تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ، تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ أَتَيْتُهُ بِأَسْرَعَ**"[5].

قال الإمام الطبري: "وإنما وصف جل ثناؤه نفسه بسرعة الحساب؛ لأنه جل ذكره يحصي ما يحصي من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكر ولا روية، فعل العجزة الضعفة من الخلق، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما، ثم هو مجاز عباده على كل ذلك؛ فلذلك امتدح نفسه جل ذكره بسرعة الحساب، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمثل، فيحتاج في حسابه إلى عقد كف أو وعي صدر"[6].

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج191/7 – 192)، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج93/4).

(2) انظر: السقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص199).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج152/3).

(4) انظر: الزجاجي، اشتقاق أسماء الله (ص127).

(5) [مسلم: صحيح مسلم، الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار/الحث على ذكر الله تعالى، ص1120: رقم الحديث 2675].

(6) الطبري، جامع البيان (ج207/4 – 208).

فالمقصود من أن الله يتصف بسرعة الحساب: أي أنه سبحانه لا حاجة له إلى عد وإحصاء، ولا إلى عقد، ولا إلى إعمال فكر، فكل ذلك إبطاء، والله جل وعلا منزه عن ذلك، أو أنه سريع المجازاة للعباد على أعمالهم، أو سريع بمجيء يوم الحساب، وكل هذه المعاني متحققة في حقه تعالى ولا تعارض بينها[1].

وإذا ما عرف العبد أن الله تعالى سريع الحساب، وأن أفعاله تسرع فلا يبطئ منها شيء عما أراد سبحانه، كان حرياً به أن يأخذ لنفسه الأسباب في تخفيف الحساب بالأعمال الصالحة، وأن يحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب يوم الحساب، وأن يتق الله في أقواله وأفعاله وسكناته لينال رضا الله وعفوه في الدنيا والآخرة.

4 – صفة الانتقام من الكفار:

لقد دلت السورة على صفة انتقام الله من الكفار في موضع واحد من آياتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران:4]. فالله ذو انتقام ممن كذب بآياته وجحدها بعد ثبوتها عليه وخالف أنبياءه ورسله، فهو بعزته ينفذ سننه فينتقم ممن خالفها بسلطانه الذي لا يعارض[2].

أما من السنة النبوية فقد وردت الأدلة على هذه الصفة، منها: أن رسول الله ﷺ قال: "**احْتَجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الجَنَّةُ: يَدْخُلُنِي الضُّعَفَاءُ وَالمَسَاكِينُ، وَقَالَتِ النَّارُ: يَدْخُلُنِي الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ، فَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي أَنْتَقِمُ بِكِ مِمَّنْ شِئْتُ، وَقَالَ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ شِئْتُ**"[3].

فالله تعالى يوصف بأنه (ذو انتقام)، وأنه ينتقم من الكفار المجرمين، وهذه الصفة من الصفات الفعلية له سبحانه الثابتة بنصوص الكتاب والسنة، علماً بأن (المنتقم) ليس من أسماء الله تعالى[4]، وقال الإمام ابن تيمية بهذا الصدد: "اسم "المنتقم" ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي ﷺ وإنما جاء في القرآن مقيداً كقوله تعالى ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[السجدة: 22] وقوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[إبراهيم: 47] الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج435/2).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج6/2)، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج133/3).

(3) [الترمذي: سنن الترمذي، صفة الجنة/ما جاء في احتجاج الجنة والنار، 694/4: رقم الحديث 2561]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني إنه: حسن صحيح.

(4) انظر: السقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص74).

المنتقم فذكر في سياقه (البر التواب المنتقم العفو الرؤوف) ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي ﷺ"[1].

والانتقام في حق الله تعالى من النقمة وهي: السطوة والسلطة والتمعن في العقوبة لمن شاء ممن يستحق ذلك، لا بمعنى التشفي بالعقوبة؛ لأنه محال وقوعه من الله – تعالى –[2].

"والانتقام: افتعال من نقم ينقم إذا بلغت به الكراهة حد السخط"[3]، والله تعالى "هو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكل بالجناة، ويشدد العقاب على الطغاة. وذلك بعد الإعذار والإنذار، وبعد التمكن والإمهال، وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة؛ فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية، فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة"[4].

وقال الإمام ابن القيم:

"وحـــديث إفـــراد اســـم منـــتقم فمـــو ... قـــوف كمـــا قـــد قـــال ذو العرفـــان

مـــا جـــاء فـــي القـــرآن غيـــر مقيـــد ... بـــالمجرمين وجـــا بـــذو نوعـــان"[5]

وبناء عليه يتبين أنه لا يجوز أن تطلق صفة الانتقام على الله وتكون مطلقة، كأن يقال: من صفات الله الانتقام، أو يتسم سبحانه بالمنتقم، فإن مثل هذا غير جائز في الشرع ولم يرد في النصوص الصحيحة، بل الوارد في نصوص الكتاب والسنة بأن هذه الصفة تنسب إلى الله تعالى مقيدة كما تم ذكره من قوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: 22]، أو أن يضاف حرف (ذو) إلى هذه الصفة كما جاء في السورة في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾[آل عمران: 4]، وهذا من باب التأدب مع الله تعالى وتنزيهه من كل نقص فلا يتوهم السامع بما لا يليق بجلالته سبحانه.

5 – صفة العفو:

ومن الصفات العظيمة التي يتصف بها المولى ﷻ صفة العفو، وهي صفة فعلية ثابتة بنصوص الكتاب والسنة، والعفو وزنه فعول من العفو، وهو بناء المبالغة، والمعنى: الصفح عن الذنوب، وترك مجازاة المسيء، وهي مشتقة من اسم الله (العفو)[6]، والله العفو أي: "هو الذي يمحو

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج96/8).

(2) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج133/3).

(3) الخطابي، شأن الدعاء (ص90).

(4) الغزالي، المقصد الأسنى (ص124).

(5) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص215).

(6) الخطابي، شأن الدعاء (ص90)، والسقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص254).

السيئات، ويتجاوز عن المعاصي. وهو قريب من الغفور، ولكنه أبلغ منه؛ فإن الغفران ينبئ عن الستر، والعفو ينبئ عن العفو، والمحو أبلغ من الستر"[1].

قال الإمام ابن القيم:

"**وهـو العفـو فعفـوه وسـع الـورى لـولاه غـار الأرض بالسـكان**"[2]

ولقد دلت السورة على صفة العفو لله تعالى في موضعين من آياتها:

- **الموضع الأول:**

قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾[آل عمران: 152].

يقول الإمام الطبري: "يعني بقوله جل ثناؤه: "ولقد عفا عنكم"، ولقد عفا الله أيها المخالفون أمر رسول الله ﷺ، والتاركون طاعته فيما تقدم به إليكم من لزوم الموضع الذي أمركم بلزومه عنكم، فصفح لكم من عقوبة ذنبكم الذي أتيتموه، عما هو أعظم مما عاقبكم به من هزيمة أعدائكم إياكم، وصرف وجوهكم عنهم، إذ لم يستأصل جمعكم"[3].

- **الموضع الثاني:**

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: 155]، ففي هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى عن حال المسلمين يوم أحد من فرارهم – إلا قلة منهم –، وأن الشيطان قد استزلهم وسوَّل لهم وتمكن منهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم بلحظة ضعف تخللها ذنب ومعصية، ولو التزموا طاعة الله ورسوله ﷺ بما أمروا به لما تمكن الشيطان من استزلالهم، ولكن الله سبحانه قد وفقهم للتوبة والاستغفار والإنابة إليه، فعفا الله عنهم وتاب عليهم وصفح عن ذنوبهم، وتجاوز عن سيئاتهم، كيف لا؟ والله العفو، الغفور، الحليم، فلله الحمد على إحسانه[4].

(1) الغزالي، المقصد الأسنى (ص124).
(2) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص207).
(3) الطبري، جامع البيان (ج7/298).
(4) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص153).

وقال الإمام الطبري: ""ولقد عفا الله عنهم"، يقول: ولقد تجاوز الله عن عقوبة ذنوبهم فصفح لهم عنه "إن الله غفور"، يعني به: مغط على ذنوب من آمن به واتبع رسوله، بعفوه عن عقوبته إياهم عليها. "حليم" يعني أنه ذو أناة لا يعجل على من عصاه وخالف أمره بالنقمة"[1].

كما يجوز إجراء هذا اللفظ على المخلوقين، فقد دلت السورة على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 134]، فكل من استحق عقوبة وتم تركه من العافي ولم يعاقبه عليها فقد عفا عنه عفواً[2].

فحري بكل مؤمن يعلم بأن الله هو العفو على الإطلاق ليس كمثله شيء أن يبادر بالعفو ويتصف ويتخلق به حتى يدخل في مدح الله وثنائه له كما جاء في الآية السابقة، والنصوص في الكتاب والسنة مليئة في هذا الباب.

6 – صفة الصدق:

إن الصدق من الصفات الذاتية لله تعالى، التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة[3]، وهي راجعة إلى معنى كلامه؛ إذ الصدق ما تضمنه كلامه فهو سبحانه المتكلم به[4]، والصدق نقيض الكذب، وهو أصل يدل على قوة في الشيء قولاً، وغيره، وقد سمي بذلك لقوته في نفسه، ولأن الكذب لا قوة له وهو باطل، وأصل هذا من قولهم شيء صدق أي: صلب[5]، "وهو الإبانة عما يخبر به على ما كان"[6]، أي: أنه الصادق في خبره الذي لا تكذيب له، والله تعالى صادق في كل ما أخبر به عباده، وصادق في وعده وعهده لهم، وأوفى به[7]، وذلك كما قال تعالى في السورة: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [آل عمران: 152].

ففي هذه الآية إثبات الصدق في حق الله تعالى وأنه من صفاته العلى، فقد صدق الله وعده للمسلمين بأحد وعوده التي وعدهم إياها على لسان رسوله ﷺ، ومضمون هذا الوعد أمر الرماة بالثبات في أماكنهم في القتال وإن رأوا هزيمة أعدائهم، حيث وعدهم النبي ﷺ بالنصر إن انتهوا إلى أمره، وبالفعل بدأت تظهر بشارات النصر في بداية المعركة ودليله قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ ﴾، يعني: حين تقتلونهم، وفي هذا دلالة على وفاء الله بعهده وصدق

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج7/327).

(2) انظر: البارودي، أسماء الله الحسنى وصفاته العلى (ص342).

(3) انظر: السقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة (ص221).

(4) انظر: البارودي، أسماء الله الحسنى وصفاته العلى (ص273).

(5) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج3/339)، وابن منظور، لسان العرب (ج10/193).

(6) الجرجاني، التعريفات (ص132).

(7) انظر: الزجاجي، اشتقاق أسماء الله (ص168 – 169).

وعده بالنصر على عدوهم وقد كانوا ملتزمين ما أمروا به، ولكن كان منهم ما كان بمخالفتهم الأوامر من ترك أماكنهم أول ما رأوا أن الهزيمة قد لحقت بعدوهم، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فبذنوبهم التي مكنت الشيطان من استزلالهم فقدوا وعد الله تعالى لهم من النصر المحقق[1].

كما دلت السورة في موضع آخر على هذه الصفة وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 95]، أي: أن الله ﷻ صادق فيما أنزل وأخبر به وفيما شرعه في القرآن، فكل ما أخبر به سبحانه أو أمر به فهو صدق منه لا مرية فيه، ومن ذلك ما أمر به سبحانه من اتباع ملة إبراهيم عليه السلام التي شرعها الله في القرآن الكريم على لسان محمد ﷺ، فإن هذا هو الحق الذي لا ريب فيه ولا شك، وهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها، ثم أثبت سبحانه أن ملة نبيه إبراهيم عليه السلام غير ما افترى به أهل الكتاب، فهو لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، بل كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين، وفي هذا تعريض بكذبهم وافترائهم، فهم يحرمون على أنفسهم الطيبات وما أحله الله لإبراهيم عليه السلام ومن تبعه، وزاغوا عن الحق فأثبتوا لله الولد والشريك – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً –، وبعد كل هذا الضلال يزعمون أنهم على ملته! وهو بريء منهم ومن افتراءاتهم فما كان يدعو إلا إلى التوحيد، والبراءة عن كل معبود سوى الله تعالى، وهو الذي بعث به محمد [2]ﷺ.

والسنة النبوية مليئة بالأحاديث التي تثبت أن صفة الصدق من صفاته سبحانه وتعالى، وكفى بالنبي ﷺ أنه كان إذا قفل[3] كبر ثلاثاً، ثم يقول: "**صَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ**"[4]، كما يجب على كل مكلف أن يؤمن بأنه لا أحد أصدق من الله على الإطلاق، وأن الصدق من عنده سبحانه، فحري به – المكلف – أن يكون صادقاً في جميع أقواله وأفعاله لينال الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة.

7 – صفة المحبة:

إن الحب والمحبة في اللغة بمعنى اللزوم والثبات[5]، والمحبة صفة ذاتية لا تنفك عن ذاته تعالى، وهي صفة فعلية اختيارية؛ لتعلقها بمشيئته واختياره سبحانه، أي: بمعنى يحب إذا شاء

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج281/7 – 287)، وقد سبق الكلام في هذه الآية في الصفحة السابقة من صفة العفو.

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج77/2)، والقاسمي، محاسن التأويل (ج355/2).

(3) قفل: من القفول أي: الرجوع من سفر ونحوه. انظر: العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (ج132/10).

(4) [البخاري: صحيح البخاري، الجهاد والسير/ما يقول إذا رجع من الغزو، 76/4: رقم الحديث 3084].

(5) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج26/2).

ومتى شاء[1]، وقال الإمام ابن القيم: "وجميع طرق الأدلة – عقلاً ونقلاً وفطرة، وقياساً واعتباراً، وذوقاً ووجداً – تدل على إثبات محبة العبد لربه، والرب لعبده"[2].

قال شارح الطحاوية: "تثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة، وهي الخلة... والمحبة قد ثبتت لغيره. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 76]"[3]، وقال الإمام ابن تيمية: "فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين: أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين ومحبتهم له... وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام"[4].

فالله سبحانه وصف نفسه بهذه الصفة، كما هو ثابت بالنصوص على وجه الحقيقة، بما يليق بجلاله سبحانه، وقد قال شارح الطحاوية: "ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب، والرضا، والعداوة، والولاية، والحب، والبغض، ونحو ذلك من الصفات، التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى"[5].

ولقد تضمنت سورة آل عمران العديد من الدلائل التي تثبت صفة المحبة الإلهية، وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]، قال الشيخ السعدي: "هذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى؛ لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها – على تقدير وجودها – غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص"[6].

---

(1) انظر: السقاف، صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة، والرقب، صفة المحبة الإلهية إثباتها (ص80).

(2) ابن القيم، مدارج السالكين (ج20/3).

(3) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص164 – 165)، بتصرف يسير.

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج354/2).

(5) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص463 – 464).

(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص128).

ومن الدلائل – أيضاً – قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 76]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 146]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159].

والسنة النبوية مليئة بالأحاديث الكثيرة التي تثبت صفة المحبة لله تعالى، ومن ذلك: قول رسول الله ﷺ: "**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ**"(1).

وقوله ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**"(2).

وقوله ﷺ: "**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا عَسَلَهُ**". قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا عَسَلَهُ؟ قَالَ: "**يُوَفِّقُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا بَيْنَ يَدَيْ أَجَلِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ جِيرَانُهُ**" أَوْ قَالَ: "**مَنْ حَوْلَهُ**"(3).

فقد أثبتت هذه الأحاديث الشريفة وغيرها أن محبة الله للعبد تعود عليه بالثمرات العظيمة في الدنيا والآخرة، منها: أنه إذا أحب الله عبده أحبه أهل سماواته، ووضع له القبول في الأرض فيملك حب قلوب الناس له، فينال محبة أهل السماء والأرض، وكما قال الإمام ابن كثير: "قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ"(4)، ومن ثمرات محبته سبحانه لعبده – أيضاً – أن يستجيب لدعائه، ويميته على عمل صالح يكون سبباً في دخوله الجنة. ولهذا وغيره حري بكل عبد أن يحرص كل الحرص على تحصيل محبة الله، وذلك بالإيمان والإخلاص لله تعالى، والسير على المنهج الرباني وإقامته، والاستزادة من الخيرات والأعمال الصالحة، فكل ذلك وغيره أسباب لتحصيل محبة الله تعالى، ومفتاح السعادة والنجاة في الدارين الدنيا والآخرة.

كانت هذه بعض الصفات التي اتصف بها الله تعالى الواردة في سورة آل عمران، التي هي دلائل على توحيد الأسماء والصفات في السورة، وهناك غيرها العديد من الصفات العلى مثل:

---

(1) [البخاري: صحيح البخاري، بدء الخلق/ذكر الملائكة، 111/4: رقم الحديث 3209].

(2) [المصدر السابق، الرقاق/التواضع، 105/8: رقم الحديث 6502].

(3) [الحاكم: المستدرك على الصحيحين، الجنائز، 490/1: رقم الحديث 1258]، و[الألباني: صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان، 209/2: رقم الحديث 1528] بلفظ مشابه وقال إنه: صحيح.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج32/2).

صفة التوبة، حيث قال تعالى:﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 128]، وصفة الرحمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: 107]، وصفة الأخذ، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187]، وصفة الغضب في قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: 112].

وخير ختام لهذا المطلب الدعاء الوارد في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: 8]، اجعلنا اللهم من أهل طاعتك، واجعلنا ممن تحبهم وترضى عنهم يا رحمن، يا ودود، يا ذا العرش المجيد.

المطلب الرابع: نواقض التوحيد في ضوء سورة آل عمران.

أرسل الله تعالى الرسل والأنبياء عليهم السلام بالعقيدة الصافية، يدعون الناس للتوحيد الخالص، توحيد الله في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وما يضاد ذلك التوحيد ويخالفه فهو من النواقض؛ لذا كان لا بد من بيان تلك النواقض؛ حتى يتحقق التوحيد على أكمل وجه، ويكون العبد بعيداً عن الوقوع في الشرك، مما يؤدي إلى النجاة والفوز في الدنيا والآخرة.

وقبل الخوض في بيان نواقض التوحيد في السورة والتفصيل في ذلك، لا بد من تعريف الناقض لغةً واصطلاحاً.

تعريف الناقض لغةً:

النقض: نقض في البناء والحبل والعهد، ونقض القول: الكلام بما يتناقض ويخالف معناه[1]، وغيره ضد الإبرام، والنقض: إفساد ما أبرمت من عقد وبناء، والنقض: اسم البناء المنقوض إذا تهدم[2].

(1) انظر: الجوهري وعطار، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (ج1110/3).
(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج242/7).

تعريف الناقض اصطلاحاً:

إن الناقض في الاصطلاح هو: "الاعتقاد والقول والفعل المكفر، الذي ينتفي به إيمان العبد ويزول، ويخرجه من دائرة الإسلام والإيمان إلى حظيرة الكفر، والعياذ بالله. وفي المصطلح الفقهي عند الفقهاء؛ يطلق اسم المرتد على الذي ينقض إيمانه بهذه المكفرات الثلاث"[(1)]، أي: ما يكفر اعتقاداً وقولاً وفعلاً.

وعرفه الجرجاني بأنه: "بيان تخلف الحكم المدعى ثبوته أو نفيه عن دليل المعلل الدال عليه في بعض من الصور"[(2)].

فينبغي على المؤمن اجتناب تلك النواقض؛ لخطورتها البالغة؛ لأن الوقوع بها يخرج المرء من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعياذ بالله، فكان لا بد على كل مسلم معرفة تلك النواقض والحذر منها أشد الحذر.

ولقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن أسباب الخروج من الإسلام، بعد الدخول فيه، تندرج تحت قاعدة عامة تحكم ما يكفر من الاعتقادات والأقوال والأفعال، وهذا ما يسمى بنواقض التوحيد، وقد عبر عن هذه القاعدة الإمام الطحاوي[(3)] قائلاً: "ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين... ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله... ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه"[(4)(5)].

أما عن بيان هذه القاعدة فقد قال صاحب كتاب (الإيمان): "إن الشارع قد جعل للإيمان والإسلام مدخلاً وباباً يدخل منه، وهو كما علمت: الإقرار والتصديق بالشهادتين، فمن ولج إلى الإسلام من هذا الباب، فإنه لا يخرج إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره

---

(1) الأثري، الإيمان (ج1/232).

(2) الجرجاني، التعريفات (ص245).

(3) هو أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، الإمام، العلامة، الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها، الملقب بأبي جعفر، ولد في (طحا) من صعيد مصر، وبرز في علم الحديث وفي الفقه، كان على مذهب الإمام الشافعي، ثم تحول على المذهب الحنفي، حتى انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، وله مؤلفات كثيرة، منها: كتاب (شرح معاني الآثار)، و(الشفعة)، و(المحاضر والسجلات)، و(أحكام القرآن)، و (المختصر في الفقه)، توفي بالقاهرة في ذي القعدة سنة 321هـ. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج15/27 – 29)، والزركلي، الأعلام (ج1/206)، وكحالة، معجم المؤلفين (ج2/107).

(4) الطحاوي، متن الطحاوية (ص56، 60 – 61)، بتصرف يسير.

(5) انظر: ياسين: محمد، الإيمان (ص99).

السابق وتصديقه بالشهادتين. وقد علمت – فيما تقدم – أن معنى شهادة (أن لا إله إلا الله) توحيد الله في ربوبيته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، وتوحيده في ألوهيته، وعدم توجه الإنسان بالعبادة إلى غيره سبحانه. وأن معنى شهادة (محمد رسول الله) الإقرار والتصديق بكل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من الشرائع، وما أخبر به من أمور الغيب، وأنه من عند ربه ﷻ، والاعتراف له بجميع أخلاق وصفات النبوة، من صدق وأمانة وفطانة وتبليغ وعصمة وغير ذلك. وبعد هذا فإن من قال قولاً أو فعل فعلاً يدل على إنكار شيء مما تقدم يكون قد نقض إقراره السابق بالشهادتين، وخرج من دين الله سبحانه، فإن كان قوله أو فعله مطابقاً لحقيقة نيته واعتقاده كان كافراً في الدنيا والآخرة؛ فيعامل بأحكام الكفار في الدنيا، وتطبق عليه أحكام الردة، التي من أهمها الاستتابة، ثم القتل إن لم يتب. ويكون من المخلدين في نار جهنم إن مات على هذه الحال"[1].

فالأمور التي تكون سبباً في الخروج من دين الإسلام هي نواقض للتوحيد، وإن هذه النواقض كثيرة ومتنوعة أكثر من أن تحصى، كما أنها متداخلة فيما بينها؛ فلذلك تنوعت طريقة تقسيم العلماء في البحث فيها، فمنهم من تكلم عن النواقض الرئيسية للتوحيد، كل على حدة كالكفر، والشرك، والظلم، والفسق، والسحر وغيرها، وبين علاقة كل ناقض من هذه النواقض بما ينقض من أنواع التوحيد، وهذا ما تم اتباعه في هذا المطلب، ومنهم من تناول نواقض كل نوع من أنواع التوحيد بشكل منفصل، كالبحث في نواقض توحيد الربوبية، أو نواقض توحيد الألوهية، أو نواقض توحيد الأسماء والصفات، أو نواقض عموم الدين – وهو التشريع الإلهي الذي يتمثل في أوامر الله ونواهيه – وهي التي تكون بالاعتقاد والقول والعمل. كما سمى العلماء نواقض التوحيد مسميات عديدة كنواقض الإيمان، أو نواقض الإسلام، أو نواقض لا إله إلا الله، وتعدد تلك المسميات إنما يدل على أهمية دراسة هذه النواقض ومدى اهتمام العلماء في البحث فيها؛ لخطورتها والحذر منها اعتقاداً، وقولاً، وعملاً[2].

ولقد تضمنت سورة آل عمران بعض هذه النواقض، منها:

---

(1) ياسين: محمد، الإيمان (ص99).

(2) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص716 – 723)، وياسين: محمد، الإيمان (ص100 – 105)، والأثري، الإيمان (ص285 – 293).

أولاً: الكفر.

أ – الكفر لغة:

"الكاف، والفاء، والراء، أصل صحيح يدل على معنى واحد، يفيد الستر والتغطية. يقال لمن غطي درعه بثوب: قد كفَ درعه، والمُكَفِّر: الرجل المتغطي بسلاحه"[1].

والكفر نقيض الإيمان وضده[2]، وقد وصف الليل بالكافر؛ لأنه يستر الأشخاص، ووصف الزارع كافراً، لأنه يستر ويغطي البذور في الأرض بالتراب، وذلك كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: 20]، وهذا الوصف ليس باسم لهما كما قال بعض أهل اللغة[3].

وعن سبب تسمية الكافر بهذا الاسم؛ أن الكافر لما دعاه الله إلى التوحيد دعاه إلى نعمة، وأحبها له إذا أجابه إلى ما دعاه إليه، فلما أبى دعوته كان كافراً بنعمة الله، أي: مغطياً لها بإبائه ورفضه[4].

ب – الكفر اصطلاحاً:

وردت تعريفات عديدة للكفر، كلها تدور حول معنى واحد، ألا وهو الجحود، والتكذيب، والإنكار، فهو نقيض الإيمان وضده، ومن تلك التعريفات ما يلي:

أن الكفر: "عدم الإيمان بالله ورسله، سواء أكان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب أو إعراض عن هذا كله، حسداً أو كبراً أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، وإن كان الكافر المكذب أعظم كفراً وكذلك حسداً مع استيقان صدق الرسل"[5]، فهو: "الاعتقاد والقول والعمل المنافي للإيمان، وهو على شعب، ومراتب متفاوتة"[6].

قال الإمام ابن القيم عن الكفر إنه: "جحد ما علم أن الرسول جاء به، سواء أكان من المسائل التي تسمونها علمية أو عملية، فمن جحد ما جاء به الرسول ﷺ بعد معرفته بأنه جاء به

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج191/5).

(2) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ج470/1).

(3) انظر: الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص714).

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج146/5).

(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج335/12)، بتصرف يسير.

(6) الأثري، الإيمان (ص242).

فهو كافر في دق الدين وجله"[1]، وقال الإمام ابن تيمية: "وإنما يكون الكفر بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه، مثل كفر فرعون واليهود ونحوهم"[2].

فالكفر: هو عدم الإيمان بالله ﷻ، أو بما جاء به رسوله ﷺ من التشريع، أو إنكار وتكذيب لأي شيء من ذلك، كالإيمان ببعض أمور الدين وأحكامه دون بعض، بل ومجرد الشك أو الريبة، أو التوقف والإعراض، أو الكبر والحسد، أو بغض للرسول وعدم متابعته، أو اتباع الأهواء الصادة عن اتباع حكم الله تعالى، وهو يقع باعتقاد القلب، والفعل، والقول، والظن، والترك[3].

والكفر في الشرع نوعان: كفر أكبر وكفر أصغر، والنصوص عندما تذكر مصطلح الكفر فإنه يراد منه تارة الكفر الأكبر وهو المخرج من الملة، والموجب للخلود في النار، وهو على خمسة أنواع: (كفر إنكار وتكذيب، وكفر إباء واستكبار مع التصديق، وكفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر النفاق)، وتارة أخرى يراد منه الكفر الأصغر الذي هو دونه، وهو الكفر العملي غير المخرج من الملة، والموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود في النار، ويمكن وصف الكفر الأصغر بأنه لا يصل إلى حد الكفر الأكبر وما يتبعه من أحكام، أي: كفر دون كفر، فمن أصول أهل السنة والجماعة أن صاحبه غير تام الإيمان كما أنه لا تسلب عنه صفة الإسلام من جهة أخرى، فإنه يمكن أن يجتمع في العبد بعض شعب الإيمان وبعض شعب الكفر أو النفاق التي لا تنافي أصل الإيمان وحقيقته، ودليله قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾[آل عمران: 167]، فالكفر شعب ومراتب متفاوتة كما هو الحال في الإيمان، والمعاصي والذنوب كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان، ورغم أن الكفر شعب ومراتب إلا أنه لا يستخف بأدنى مراتبه وهو الكفر الأصغر؛ لأنه ذريعة ووسيلة للوقوع في الكفر الأكبر – والعياذ بالله –[4].

ج – الكفر في ضوء سورة آل عمران:

إن الدين الذي ارتضاه الله تعالى لعباده هو الإسلام، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]، فسبحانه قد خلق الناس جميعاً على فطرة الإسلام، فعن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: "**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من**

---

(1) ابن القيم، مختصر الصواعق المرسلة (ص596)، بتصرف يسير.

(2) ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل (ج242/1).

(3) انظر: الأثري، الإيمان (ص243).

(4) انظر: ابن القيم، مدارج السالكين (ج344/1 – 346)، والأثري، الإيمان (ص244 – 249).

جدعاء" ثم يقرأ أبو هريرة ﵁ ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[الروم: 30][1]، والكفر إنما هو عارض تسبب الإنسان به، وهو أحد نواقض التوحيد الخطيرة، التي تؤدي بالمرء إلى الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

ولقد تعرضت سورة آل عمران إلى الحديث عن الكفر في آياتها من جوانب عديدة، أهمها:

1 – أن عبادة غير الله تنقض توحيد الألوهية، وتخرج المرء من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر، فلا معبود بحق إلا الله تعالى، فالعبادة لا تنبغي إلا لله وحده دون سواه، والتوجه بها إلى غيره أو مشاركة أحد معه فيها تنقض توحيده في ألوهيته، حيث قال تعالى:﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 79– 80]، فقد نفى الله تعالى عبادة أحد غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، فالتوجه بالعبادة لمخلوق سوى الله يؤدي إلى الكفر – والعياذ بالله –، والله ﷻ لا يأمر بالكفر ولا يرضاه لعباده، ولقد أرسل جميع الأنبياء عليهم السلام بالتوحيد الخالص، فلم يدَّعِ أحدهم العبادة لنفسه، فهم مبرؤون منزهون عن ذلك، فسبحانه المتفرد في ألوهيته، المستحق للعبادة وحده دون سواه.

2 – أن الله سبحانه وتعالى قد أثبت لنفسه أسماء وصفات جاءت في الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 119]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[آل عمران: 156]، كما نفى عن نفسه كل ما لا يليق به من صفات النقص والعجز مما يعتري مخلوقاته كالموت، والسِّنة، والنوم، والغفلة، والفقر، والظلم وغيرها مما يتنزه الله تعالى عنه من مثل هذه الصفات، كقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ [آل عمران: 99]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران: 108]، فصفات الله تعالى كلها صفات كمال لا نقص فيها بأي وجه من الوجوه، فمن أنكر، أو جحد، أو نفى، أو تنَقَّص لشيء مما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، وكذلك من أثبت لله شيئاً نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ، فقد كفر ويترتب على ذلك أن كفر الصفات نوعان: كفر نفي وكفر إثبات[2]، ولقد تعرضت السورة لأحد

---

(1) [البخاري: صحيح البخاري، الجنائز/إذا أسلم الصبي فمات، هل يصلى عليه، وهل يعرض على الصبي الإسلام، 95/2: رقم الحديث 1359].

(2) انظر: ياسين: محمد، الإيمان (ص101).

هذين النوعين وهو كفر الإثبات؛ حيث قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181]، وهذه هي مقالة السوء من الكفار خاصة اليهود؛ حيث نسبوا لله صفات نقص وهي الفقر، ونسبوا لأنفسهم الغنى من دون الله، وأن الله يفتقر لخلقه – تنزه الله عن ذلك –، ومقالة الكفر هذه صدرت من أفواههم عندما نزلت آية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [سورة البقرة: 245]؛ حيث إنهم قالوا: إنما يستقرض الفقير من الغني[1]، ومثل هذا القول يؤدي بصاحبه إلى الكفر، كما أن فيه تحريفاً لكلام الله ﷻ، وهذا كله من نواقض توحيد الأسماء والصفات.

3 – أن الافتراء والكذب على الله ومغالطة الحق الذي جاء في الكتب السماوية من نواقض التوحيد، كقول اليهود بأن عذابهم في النار إنما يكون لأيام معدودات – أي أن عذابهم قليل –؛ حيث قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 24]، فكيف يدعي هؤلاء مدة عذابهم؟ بل ويعللون ذلك بأنهم أبناء الله وأحباؤه – تنزه الله عن ذلك–، فهذا هو الكفر بعينه الذي يحكم على صاحبه العذاب الشديد في النار والخلود فيها، ومثل هذه الافتراءات والأباطيل على الله إنما هي من نواقض التوحيد التي تدخل صاحبها في دائرة الكفر، فيكون عند الله كافراً[2].

كما بينت السورة الآثار المترتبة على الكفر في الدنيا والآخرة، وتفصيل ذلك على النحو التالي:

1 – حبوط عمل الكافرين في الدنيا والآخرة:

إن من الآثار المترتبة على الكفر حبوط وبطلان العمل لمن يكفر في الدنيا والآخرة؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: 21 – 22]، فبينت الآيات جحود أهل الكتاب وتكذيبهم، وكفرهم بآيات الله، وارتكابهم الآثام والمحرمات بقتلهم الأنبياء، وكل من فعل فعلهم من الكفر والجحود لله ورسله فهو كافر؛ إذ إنه يترتب على كفره العذاب في الآخرة، وبطلان

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج444/7)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج548/1).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج293/6)، والرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج180/7).

وحبوط عمله في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يكون بعدم قبوله، وفي الآخرة بأن لا يجازى عليه ولا يحسب له، بحيث تكون أعماله عليه هباءً منثوراً[1].

وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85]، فسبحانه قد أخبر عن عاقبة من يسلك طريق الكفر ويبتغي غير دين الإسلام الذي شرعه الله لعباده بأنه لن يقبل منه بحبوط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين.

ولقد قالت طائفة من السلف عندما نزلت هذه الآية، إن اليهود والنصارى قالوا بأنهم مسلمون، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[آل عمران: 97]، فرفضوا الحج وكفروا به، فبين الله لهم ولمن سلك مسلكهم في الكفر بالله، وبأوامره وبآياته، أنه كافر عند الله، والله غني عن العالمين، وكفى بالله عدم قبول أعمالهم وإحباطها، والخسران المبين في الدنيا والآخرة[2].

2 – العذاب الشديد للكافرين في الدنيا والآخرة:

إن من الآثار المترتبة على الكفر العذاب الشديد في الدنيا والآخرة؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[آل عمران: 4]، وقال –أيضاً–: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: 56].

فقد أفادت الآيات وقوع العذاب الشديد لمن يكفر بالله وآياته ورسله في الدنيا والآخرة، وأما عذاب الدنيا فهو عذابهم فيما يصيبهم من القوارع والعقوبات المشاهدة، والقتل، والسبي، والذل، ونحو ذلك من ألوان العذاب الدنيوي، وأما عذاب الآخرة فهو العذاب الأعظم والأشد انتقاماً، وهو العذاب في نار جهنم الذي لا دافع ولا ناصر لهم منه جزاءً ونكالاً لهم على كفرهم[3].

ومما ورد في سورة آل عمران من أمثلة العذاب الدنيوي للكافرين: نصر الله تعالى للمؤمنين على الكافرين وتأييده لهم به حتى ولو قل عددهم أو عتادهم، وذلك مثل ما حصل في غزوة بدر؛

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج27/2)، والبغوي، معالم التنزيل (ص119).

(2) انظر: ابن تيمية، دقائق التفسير (ج336/1).

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص132).

حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾ [آل عمـــران: 126 – 127]، وغيرها الكثير من المواطن التي تؤكد تأييد الله ﷻ لعباده المؤمنين بنصره لهم في كل زمان ومكان، فقــال تعــالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ [آل عمران: 13]، وقوله تعالى: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [آل عمـــــــران: 151]، فالهزيمة، والإكبات، والخيبة، وإلقاء الرعب في قلوب الكافرين هي من ألوان العذاب الدنيوي.

كما أن الكافرين لن يعجزوا الله بكفرهم، فكفرهم مردود عليهم بالهلاك وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران: 176 – 178]، فمن يسارع في الكفر ويستبدله بالإيمان فإنه لن يضر الله شيئاً، وأن إملاءه لهم بتأخير آجالهم وما يصدر منهم من الكفر ليس خيراً لهم، بل هو شر لهم؛ لاكتسابهم المزيد من المعاصي والذنوب التي تؤدي بهم للعقاب والعذاب الأليم[1].

3– عدم استحقاق الهداية للكافرين بعد الإيمان:

يقـول الله تعـالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج243/7).

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[آل عمران: 86 – 89].

فقد دلت الآيات على عدم استحقاق الكافرين للهداية بعد الإيمان وحرمانهم منها، واستحقاقهم اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين، ووقوع العذاب عليهم والخلود فيه، وهذا العقاب الرباني إنما هو عدل منه سبحانه؛ لاستبدالهم الكفر بالإيمان وارتدادهم إلى ظلمة الشرك بعدما قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم من الرسول ﷺ، ولكنه سبحانه قد استثنى منهم من تاب وأناب إليه وآمن إيماناً خالصاً، وهذا من باب لطفه وبره ورحمته على عباده(1).

4 – عدم قبول توبة الذين كفروا بعد الإيمان عند مماتهم:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: 90 – 91].

في هذه الآيات يخبرنا المولى ﷻ أنه من كفر بعد إيمانه، وازداد في هذا الكفر والطغيان، واستمر عليه إلى الممات، وتمادى في غيه وضلاله، أنه لا تُقبل له توبة عند مماته، ومثل أولئك: الكافرون، لا يوفقون للتوبة؛ لأنهم في طغيانهم يعمهون، فهم خرجوا عن منهج الحق إلى طريق الغي والضلال، فكان عقابهم أن قطع الله عليهم أسباب رحمته، ورفض التوبة منهم جزاءً لهم على كفرهم بعدما قامت عليهم الحجج والبراهين، فالتوبة غير مقبولة عند الممات في مثل تلك الحالة؛ لأن الوقت قد فات ومضى على ذلك، فلا تفيد توبتهم حينئذ ولا تقبل، قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[النساء: 18]، وهؤلاء الكفار الذين ماتوا وهم على تلك الحالة من الكفر، فإن لهم سوء العاقبة من الهلاك والعذاب الأليم في نار جهنم، فبئس الشراء شراؤهم، ولا ناصر لهم من عذاب الله ولا دافع عنهم، حتى لو أنفق أحدهم ملء الأرض ذهباً بوزن ما بها من جبال أو تلال أو رمال وغير ذلك مما عليها، ليفتدي بها عن نفسه من العذاب، فإن ذلك لن ينفعه ولن يجيره من عقاب الله أبداً (2)، فعن أنس ﷺ قال: قال رسول

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج71/2).

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص137)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/72–73).

اللهﷺ: "... **يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، شَرُّ مَنْزِلٍ، فَيَقُولُ لَهُ: أَتَفْتَدِي مِنْهُ بِطِلَاعِ الْأَرْضِ ذَهَبًا؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، نَعَمْ، فَيَقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ، فَلَمْ تَفْعَلْ فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ**"(1).

ثانياً: الشرك.

أ – الشرك لغةً:

الشرك في معناه اللغوي المقارنة وخلاف الانفراد، أي: أن يكون الشيء بين اثنين بحيث لا ينفرد أحدهما بأخذه دون الآخر، فكل منهما أصبح شريكاً للآخر(2)، والشرك: هو النصيب واعتقاد تعدد الآلهة، والشركة هي عقد يبرم بين اثنين أو أكثر للقيام بعمل مشترك(3).

ويبين ابن منظور: الشِّرْكَةُ والشَّرِكة سواء وهي مخالطة الشريكين، فيقال: اشتركنا أي: بمعنى تشاركنا، وقد اشترك الرجلان وتشاركا وشارك أحدهما الآخر، والشريك المشارك، والشرك كالشريك، والجمع أشراك وشركاء(4).

ب – الشرك اصطلاحاً:

الشرك في الاصطلاح: "اتخاذ الند مع الله تعالى؛ سواء أكان هذا الند في الربوبية أم في الألوهية أو الأسماء والصفات"(5).

وهو: اتخاذ العبد غير الله، وجعله نداً من دونه، مساوياً به في المحبة، والخوف، والخشية، والرجاء وغير ذلك من الواجبات التي لا تنبغي إلا أن تكون لله وحده، ويتبعه على غير مرضاة الله، ويطيعه في معصية الله، ويشركه في عبادة الله بصرف بعضها، قل أو كثر، لغير الله تعالى، كائناً من كان من نبي أو ولي أو ملك أو قبر أو جني أو شجر أو حجر أو غيره(6).

---

(1) [أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، 102/20: رقم الحديث 13162]، وقال الأرنؤوط وآخرون: إن إسناده صحيح على شرط مسلم.

(2) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج265/3).

(3) انظر: مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ص480).

(4) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج448/10).

(5) الأثري، الإيمان (ص235).

(6) انظر: حافظ الحكمي، معارج القبول (ج483/2،457).

قال الإمام ابن القيم: "حقيقة الشرك: التشبه بالخالق وتشبيه المخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة"[1]، وقال أيضاً: "أما في جانب التشبه به: فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى إطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء، وتعليق القلب به خوفاً ورجاءً والتجاءً واستعانةً، فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته، وهو حقيق بأن يهينه غاية الهوان، ويذله غاية الذل، ويجعله تحت أقدام خلقه"[2].

ج – الشرك في ضوء سورة آل عمران:

إن الذي ينافي التوحيد ويضاده الشرك، فهو أحد نواقض التوحيد؛ لأن فيه تشبيه المخلوق بالخالق في خصائصه المتعلقة بربوبيته تعالى، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته؛ لذا فهو أعظم الذنوب وأفظعها، فسبحانه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: 116]، وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: سألت رسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: "**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّـهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**"[3]، فإثبات الشريك لله تعالى يعد شركاً، حتى لو لم يساوه مع الله أي: دونه في العلم والقدرة وغيرها مما تفرد به سبحانه؛ إذ لا يشترط مساواة الشريك لله حتى يصبح شركاً[4].

ولقد وصف الشرك بأنه ظلم عظيم، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: 13]، وفي هذا الصدد يقول الإمام ابن تيمية: "والله تعالى يعظم ما هو عظيم؛ إما لعظمة سببه أو لعظمته. فإنه وصف بعض الخير بأنه عظيم. ووصف بعض الشر بأنه عظيم فقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾... وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾"[5].

والشرك في الشرع نوعان: شرك أكبر: وهو بمعنى الكفر الأكبر، فيجعل مع الله رباً آخر يشاركه في خصائصه سواء المتعلقة بربوبيته أو ألوهيته، كشرك النصارى الذين جعلوا مع الله

---

(1) ابن القيم، الجواب الكافي (ص136)، بتصرف يسير.
(2) المصدر السابق، ص137.
(3) [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده، ص52: رقم الحديث 86].
(4) انظر: الأشقر، العقيدة في الله (ص286 – 287).
(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج123/6).

أنداداً، وجعلوه ثالث ثلاثة – تنزه الله عن ذلك وتعالى –، وهذا النوع في غاية الخطورة؛ إذ يحبط الأعمال جميعها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، ويخرج صاحبه من دائرة الإسلام إلى ظلمة الشرك التي من عواقبها تحريم الجنة عليه والخلود في نار جهنم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: 72]، وأما النوع الثاني فهو الشرك الأصغر: وهو ما جاء في النصوص الشرعية من تسمية بعض الذنوب شركاً، ولكنه لم يصل إلى درجة الشرك الأكبر، بل هو ذريعة إليه ووسيلة للوقوع فيه، كعدم الإخلاص لله تعالى في العبادة، والشرك بالله في الألفاظ كالحلف بغير الله وغيره، وهذا النوع لا يخرج صاحبه من دائرة الإسلام، ولا ينفي عنه أصل الإيمان، ولكن ينافي كمال الإيمان الواجب، ولا يغفر لصاحبه إلا بالتوبة، وإذا مات على شركه هذا ولم يتب منه، فإنه يكون تحت المشيئة، وأمره ومرجعه إلى الله تعالى، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، كما أنه لو عذب فإنه لا يخلد في النار، وتناله شفاعة الشافعين يوم القيامة بإذن الله(1).

ولقد تحدثت سورة آل عمران في بعض آياتها عن الشرك، وذلك كما يلي:

1 – أن التوحيد هو الفيصل بين أهل الإيمان وأهل الشرك، والذي ينافي التوحيد ويضاده الشرك، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]، فقد تضمنت الآية إثبات كلمة التوحيد – لا إله إلا الله – ولوازمها، بعبادة الله وحده دون سواه وعدم الإشراك به، وعدم اتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، التي أعلاها مرتبة اعتقاد الألوهية في أحد غير الله، كما فعل النصارى في تأليههم عيسى ابن مريم، وأدناها في المرتبة طاعتهم لرؤسائهم ورجال الدين من الأحبار والرهبان في كل ما أمروا به في معصية الله، ومن يتول عن هذه اللوازم فإنما نقض التوحيد وكان من المشركين(2).

قال الإمام ابن تيمية: "الكلمة: أصل العقيدة. فإن الاعتقاد هو الكلمة التي يعتقدها المرء وأطيب الكلام والعقائد: كلمة التوحيد واعتقاد أن لا إله إلا الله. وأخبث الكلام والعقائد: كلمة الشرك

(1) انظر: الأشقر، العقيدة في الله (ص286 – 288).

(2) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج1/449).

وهو اتخاذ إله مع الله. فإن ذلك باطل لا حقيقة له؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[1] فكان كلما بحث الباحث وعمل العامل على هذه الكلمات والعقائد الخبيثة لا يزداد إلا ضلالاً وبعداً عن الحق"[2].

2 – أن الله تعالى قد أمر بوحدانيته في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، ومن يشرك في أي شيء منها فقد نقض التوحيد، ولا يكون التوجه إلا لله وحده دون سواه في جميع خصائصه، ولا ينازعه فيها أحد من خلقه كائناً من كان لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فقد قال تعالى مخاطباً نبيه المصطفى ﷺ: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 128]، أي: " ليس إليك، يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إلي والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضى فيهم وأحكم بالذي أشاء، من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم الكبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي"[3].

ولقد بينت السورة توحيده سبحانه وحده وعدم الإشراك به في أي شيء من خصائصه أتم بيان، فالسورة زاخرة بالدلائل التي تفيد بذلك، منها: أن جميع العبادات والطاعات لا تكون إلا لله وحده دون سواه، وهو توحيد الله في ألوهيته، كالتوكل فلا يكون إلا لله وحده دون سواه، حيث قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران: 22]، وكالخوف فلا يكون إلا منه سبحانه وحده، فقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 175]، إذ جعل سبحانه الخوف منه وحده شرطاً في صحة الإيمان، وأيضاً لا تكون الاستعاذة إلا به وحده، فقال تعالى: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: 36]، وأنه لا تموت نفس إلا بإذن الله وحده؛ لأنها من خصائص ربوبيته سبحانه، قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ [آل عمران: 145]، وأنه سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، له الأمر في ذلك وحده دون سواه؛ لأنها من خصائص توحيده

---

(1) ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: 26].

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج74/4).

(3) الطبري، جامع البيان (ج194/7)، بتصرف يسير.

فــي أســمائه وصــفاته، قــال تعــالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 129]، فهذا إنما هو الإخلاص في التوحيد، وما عداه من اعتقاد، أو قول، أو فعل مخالف للعقيدة الصافية فهو الشرك بعينه الذي يؤدي بصاحبه إلى نقض توحيده.

3 – أن للشرك آثاراً وعواقب كثيرة في الدنيا والآخرة، ومن ذلك ما ورد في السورة من أثر من الآثار الدنيوية والأخروية المترتبة على الشرك الذي هو رديف الكفر، فقد أشرك الكفار في وحدانية الله، قــال تعــالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، فإلقاء الرعب نوع من أنواع العقاب الدنيوي للشرك، وقد قال ابن منظور: "الرعب: الفزع والخوف... وفي الحديث: "**نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ**"(1)؛ كان أعداء النبي ﷺ قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر، هابوه وفزعوا منه"(2)، وأما العقاب الأعظم فهو في الآخرة فهو العذاب في نار جهنم، وهذا هو مأواهم ومستقرهم جزاءً نكالاً لهم على سوء عملهم من الشرك بالله.

قال الشيخ السعدي في هذه الآية: "ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن، فمن ثم كان المشرك مرعوباً من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذه حاله في الدنيا، وأما في الآخرة فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه وليس لهم منها خروج، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم"(3).

فبإشراكهم قد ظلموا أنفسهم، وهذا ما يفيد – كما ذكر – أن الشرك ظلم عظيم، كما أن عقاب الله لهم في الدنيا والآخرة عدل من الله؛ فإنهم يستحقون تلك العقوبات الربانية بسبب أعمال السوء التي ارتكبوها في الحياة الدنيا، كالشرك بالله الذي هو من أعظم الذنوب، وإيذاء المؤمنين، قال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ

---

(1) [البخاري: صحيح البخاري، التيمم/قول الله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة: 6]، 74/1: رقم الحديث 335].

(2) ابن منظور، لسان العرب (ج420/1).

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص151)، بتصرف يسير.

﴿ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[آل عمران: 186]، فالآية الكريمة تضمنت عملاً من أعمال المشركين وهو إيذاء الذين آمنوا والإضرار بهم بالقول، وأن هذا الأذى الصادر منهم قد وصف بالكثير، أي: أنه خارج عن الحد الذي تحتمله النفوس في الغالب، كالطعن فيهم، وفي الرسول ﷺ، وما أنزل عليه من الكتاب[1]، وهذا من أفحش الأعمال وأخبثها، وبهذا استحق المشركون الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: الفسق.

أ – الفسق لغةً:

قال ابن فارس: "الفاء، والسين، والقاف كلمة واحدة، وهي الفسق، وهو الخروج عن الطاعة"[2].

والفسق الخروج عن القصد والأمر، فالفسق: هو العصيان والترك لأوامر الله ﷻ والخروج عن طريق الحق، وقيل: الفسوق الخروج عن الدين، وكذلك الميل إلى المعصية، كما فسق إبليس اللعين عن أمر ربه، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ ﴾[الكهف: 50]، وقد يكون الفسوق شركاً ويكون إثماً، وسمي العاصي فاسقاً، والفسق: الفجور، ويقال الفواسق من النساء: أي الفواجر، وتقول العرب: فسقت الرطبة عن قشرها، وسميت الفأرة فويسقة تصغير فاسقة؛ لخروجها من جحرها على الناس وإفسادها[3].

ب – الفسق اصطلاحاً:

الفسق في عرف الاستعمال الشرعي هو: "العصيان وترك أمر الله تعالى، والخروج عن طاعته، وعن طريق الحق"[4]، وعرفه الإمام القرطبي بأنه: "الخروج من طاعة الله ﷻ، فقد يقع على من خرج بكفر وعلى من خرج بعصيان"[5]، وقال الإمام ابن تيمية بأن: "الفسق يكون تارة بترك الفرائض وتارة بفعل المحرمات"[6].

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص160)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (ج190/4).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج502/4).

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج308/10).

(4) الأثري، الإيمان (ص240).

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج246/1).

(6) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج251/7).

ويتبين مما سبق أن تعريف الفسق في الاصطلاح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتعريفه في اللغة، ففي المعنى اللغوي يدور الفسق حول معنى الخروج، والترك، والميل، وأما في الاصطلاح فيحدِّد لهذه المعاني إطاراً شرعياً، ليصبح معناه الخروج عن طاعة الله، ومخالفة أوامره وعصيانه، والخروج عن طريق الحق.

ج – الفسق في ضوء سورة آل عمران:

يعد الفسق ناقضاً من نواقض التوحيد، وإن خطره على العبد لكبير، فلا يقع به إلا من تهاون في حدود الله وشرعه؛ لذا حري بالعبد أن لا ينقض إيمانه به، وأن يكون حريصاً أشد الحرص على ملازمة أوامر الله واتباعها بحذافيرها، والابتعاد عن نواهيه كل البعد واجتنابها؛ كي لا يلحقه ما هو لاحق بأهل الفسق والعصيان.

والفسق في الشرع نوعان، الأول: فسق أكبر وهو رديف الكفر الأكبر، والشرك الأكبر الذي يخرج صاحبه من دائرة الإسلام، وينفي عنه مطلق الإيمان، ويخلده في النار إذا مات وهو على حاله ولم يتب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55]، والثاني: فسق أصغر وهو رديف الكفر الأصغر، والشرك الأصغر، هو عمل الذنوب الكبائر التي سماها الله تعالى ورسوله فسقاً، وكفراً، وظلماً، وهذا النوع هو فسق دون فسق، بمعنى أنه اقتراف الذنوب والمعاصي التي هي دون الكفر، فهو المعصية التي لا تنفي عن صاحبها أصل الإيمان أو مطلقه بفسوقه، ولا تسلبه صفة الإسلام، ولكنه لا يوصف بالإيمان التام، فيكون مؤمناً ناقص الإيمان، أو مؤمناً بإيمانه، فاسقاً بكبيرته، فلا يعطى الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6]، حيث سمي الكاذب فاسقاً مع عدم خروجه من الدين بالكلية، ولم ينف عنه الإيمان مطلقاً، ولم يمنع من جريان أحكام المؤمنين عليه(1).

وبهذا يتبين أن الفسق أعم من الكفر؛ بحيث يشمل الكفر وما دونه من المعاصي الكبائر منها والصغائر، فيطلق على كل كافر فاسق، وليس على كل فاسق كافر، وأنه إذا أطلق الفسق

---

(1) انظر: حافظ الحكمي، معارج القبول (ج1017/3)، والأثري، الإيمان (ص241).

فيراد به أحياناً الكفر المخرج من الإسلام، بحيث يخص الفسق بالكفر، كما يراد به أحياناً الذنوب والمعاصي التي هي دون الكفر؛ بحسب درجة المعصية، وحال العاصي نفسه[1].

يقول صاحب كتاب (معارج القبول في هذا الصدد): "إن فاسق أهل الملة لا يكفر بذنب دون الشرك إلا إذا استحله وأنه تحت المشيئة، وأن التوبة مقبولة ما لم يغرغر...

وَالْفَاسِـــقُ الْمِلِّـــيُّ ذُو الْعِصْـــيَانِ	**لَـمْ يُنْـفَ عَنْـهُ مُطْلَــقُ الْإِيمَـانِ**
لَكِـــنْ بِقَـــدْرِ الْفِسْـــقِ وَالْمَعَاصِـــي	**إِيمَانُـــهُ مَـــا زَالَ فِـــي انْتِقَـــاصِ**
وَلَا نَقُـــولُ إِنَّـــهُ فِـــي النَّـــارِ	**مُخَلَّـــدٌ، بَـــلْ أَمْـــرُهُ للبـــاري**
تحـــت مشـــيئة الْإِلَـــهِ النَّافِـــذَهْ	**إِنْ شَـا عَفَـا عَنْـهُ وَإِنْ شَـا آخَـذَهْ**
بِقَـــدْرِ ذَنْبِـــهِ، وَإِلَـــى الْجِنَـــانِ	**يُخْـرَجُ إِنْ مَـاتَ عَلَـى الْإِيمَـانِ"[2]**

أما عن دلالة سورة آل عمران للفسق، فقد دلت عليه في موضعين من آياتها:

- **الموضع الأول:**

وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [آل عمران: 81–82]، حيث تحدثت الآية الأولى – من هاتين الآيتين – عن ركن من أركان الإيمان الذي لا يصح الإيمان إلا به، وهو الإيمان بأنبياء الله ورسله، فقد أخذ سبحانه الميثاق والعهد من أنبيائه عليهم السلام بتصديق بعضهم بعضاً، وأخذ الأنبياء على أممهم هذا الميثاق – أيضاً – من تصديق أنبياء الله ورسله ومتابعتهم، النبي تلو النبي، وصولاً بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ونصرته، ثم جاءت الآية الثانية لتفصل الأمر وتميز أهل الإيمان والطاعة من أهل الفسق والعصيان، بأن من أعرض وتولى عن الإيمان بهذا الركن القويم – بتصديق أنبياء الله ومتابعتهم ونصرتهم –، ونكث عهده وميثاقه بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون، وهذا هو حكم الله تعالى فيهم بأنهم فاسقون، أي: خارجون من دين الله وطاعة ربهم، وبفسقهم – الفسق الأكبر – قد نقضوا التوحيد، فاستحقوا العذاب في النار والخلود فيها من غير انقطاع ولا نهاية[3].

---

(1) انظر: الألوسي، روح المعاني (ج130/11)، والأثري، الإيمان (ص240).

(2) حافظ الحكمي، معارج القبول (ج41/1)، بتصرف يسير.

(3) انظر: الطبري، جامع البيان (ج557/6 – 562).

- **الموضع الثاني:**

وذلك في قول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[آل عمران: 110]، فقد تحدثت الآية عن أمرين: الأول: إثبات الخيرية التي فرضها الله تعالى لأمة محمد ﷺ، وأن من يأخذ بحظه منها من عمل الشروط المذكورة من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله حق الإيمان، أما الأمر الثاني: فهو متعلق بأهل الكتاب، حيث أخبر سبحانه أنهم لو آمنوا بالنبي ﷺ واعتنقوا الدين الإسلامي لكان خيراً لهم؛ لتحصيلهم الخير الكثير والفضل العظيم، فالإيمان بهذا الدين يتحصل المرء لأجله صفة الخيرية إذا ما صدق إيمانه وحسن عمله، وكل من لم يؤمن به وتولى عنه فقد فاتته الخيرات العظيمة، كما خسر الخسران المبين في الدنيا والآخرة وكان من الفاسقين، الخارجين عن طاعة الله وأوامره، ولقد اختتمت الآية بشهادة المولى من فوق سبع سماوات بأن منهم المؤمنون ومنهم الفاسقون، ولكن سبحانه قد حكم أن أكثرهم الفاسقون[1]، وهؤلاء الفساق في فسقهم – الفسق الأكبر – الذي يؤدي بهم إلى الخلود في نار جهنم من جنس فسق العدو اللعين إبليس الذي ارتكبه، حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: 50].

فالخيبة كل الخيبة والهوان لمن لم يؤمن وتمادى في عناده وكبره كما فعل أكثر أهل الكتاب ومن تبعهم في الفسق والكفر، الذين نقضوا توحيد الله باعتقاداتهم وأقوالهم وأعمالهم المنافية للإيمان، فمثل هؤلاء كالأنعام بل هم أضل؛ لما يفوتهم من الخير والفلاح في العاجل والآجل.

رابعاً: النفاق:

أ – النفاق لغةً:

أصل النفاق من مادة (نفق)، والنون، والفاء، والقاف أصلان صحيحان، يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، وأما الآخر فيدل على إخفاء شيء وإغماضه، ومتى حصل الكلام فيهما تقاربا، فالأول: نفقت الدابة نفوقاً أي: ماتت، ونفق السعر نفاقاً أي: أنه يمضي فلا يكسد ولا يقف، والأصل الآخر النفق: وهو سرب في الأرض له مخلص إلى مكان، والنافقاء: موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق، أي: خرج، ومنه اشتقاق النفاق، لأن صاحبه يبطن خلاف ما يظهر، فكأن الإيمان يخرج منه، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء،

---

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج489/1 – 490)، والرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج326/8)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج173/4).

ويمكن أن الأصل في الباب واحد وهو الخروج، وقيل: سمي المنافق منافقاً للنفق وهو السرب في الأرض[1].

قال ابن منظور: "النفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر... وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه وإن كان أصله في اللغة معروفاً"[2].

ب – النفاق اصطلاحاً:

إن النفاق في الاصطلاح بمعنى: "إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب"[3]، وقال السفاريني: "(المنافقة) من النفاق وهو إبطان الكفر وإظهار الإيمان"[4]، فالنفاق في الدين: "هو ستر الرجل كفره بقلبه وإظهاره إيمانه بلسانه فهو منافق وراجع الإيمان"[5]، وهو: "إظهار متابعة ما جاء به الرسول ﷺ مع إبائه وجحده بالقلب، فهو مظهر للإيمان ومبطن للكفر"[6].

ج – النفاق في ضوء سورة آل عمران:

النفاق وجه واحد لعملتين، فصاحبه يظهر الإيمان والإسلام والخير، مع إسراره الكفر وإبطانه، ففيه مخالفة الباطن للظاهر، بحيث يكون إظهار القول باللسان أو الفعل، بخلاف ما في القلب من الاعتقاد، فيخالف المنافق قوله فعله، وسره جهره؛ فهو يدخل الإسلام من باب، ويخرج من باب آخر، ويدخل في الإيمان ظاهراً، ويخرج منه باطناً، ومثل هذا الداء يعتبر ناقضاً للتوحيد[7].

والنفاق في الشرع نوعان، فهو كالكفر، والشرك، والفسق، والظلم على درجات ومراتب، أي أنه نفاق دون نفاق، نفاق ينقل عن الملة ويكون صاحبه خالداً مخلداً في الدرك الأسفل من النار إذا مات عليه، وهذا هو النفاق الأكبر ويسمى بالنفاق الاعتقادي، وأما النوع الثاني: فهو النفاق الأصغر ويسمى بالنفاق العملي، كما في قوله ﷺ: "**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**"[8]، وهذا النوع من النفاق لا ينقل ولا يخرج صاحبه من الملة، ولكن الشرع

---

(1) انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج156/9)، وابن فارس، مقاييس اللغة (ج454/5 – 455).

(2) ابن منظور، لسان العرب (ج359/10)، بتصرف يسير.

(3) الجرجاني، التعريفات (ص245).

(4) السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج392/1).

(5) البركتي، التعريفات الفقهية (ص230).

(6) الأثري، الإيمان (ص253).

(7) انظر: المرجع السابق (ص253 – 254).

(8) [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/بيان خصال المنافق، ص45: رقم الحديث 59].

ينفي عنه اسم الإيمان؛ لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، مع عدم نفيه عنه مطلق الإيمان، ولا مسمى الإسلام، فهذا النوع هو مقدمة ووسيلة للنفاق الأكبر لمن سلكه وتعمق به، حيث قال الإمام ابن القيم: "فهذا نفاق عمل قد يجتمع مع أصل الإيمان، ولكن إذا استحكم وكمل، فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شيء منها، فهذا لا يكون إلا منافقاً خالصاً"[1]، وصاحب النفاق الأصغر يؤدي بصاحبه إلى العذاب في النار كسائر المعاصي، من غير خلود فيها، كما تناله شفاعة الشافعين يوم القيامة بإذن الله[2].

والنفاق إذا أطلق في القرآن الكريم فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان، والمناقض للتوحيد، فهو بخلاف الكفر فإنه يأتي أحياناً بمعنى الكفر الأصغر، وكذلك الظلم، والفسق، والشرك، أما في السنة الشريفة فقد ورد النفاق الأصغر تحديداً وبياناً له[3].

ولا يخفى على أحد خطورة النفاق وأهله وآثاره الوخيمة على الفرد والأمة الإسلامية، فالمنافقون بكفرهم الباطن يتوهم المرء بأنهم أفضل من الكافرين حالاً؛ من حيث تعلقهم ودخولهم في مسمى الإسلام، ولكنهم في الحقيقة أسوأ من الكفار وأخبث شراً منهم؛ لإبطانهم الكفر وإظهارهم الإيمان والإسلام للمؤمنين، وفي هذا كذب، وخداع، ومداهنة للمؤمنين، على عكس الكفار الذين يعلنون كفرهم فيكون المسلمون في غاية الحذر والتيقظ منهم، أما المنافقون فيستترون بخبثهم وكفرهم وراء ستار الإسلام، وفي هذا إيقاع للمسلمين؛ ولا يستطيع المرء معرفة ما تبطنه السرائر والقلوب، فبكل سهولة يقع المسلمون في شرهم ومكرهم؛ لإظهارهم غير ما يبطنون، ولهذا كان عذاب المنافقين – أصحاب النفاق الأكبر – أشد عذاباً من الكفار؛ لأنهم زادوا على كفرهم الخديعة والإيقاع بالإسلام وأهله، فاستحقوا العقوبة العظيمة التي أعدها الله لهم عدلاً منه سبحانه، حيث قال المولى ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 145].

أما ما ورد في سورة آل عمران عن النفاق وأهله، فذلك كما يلي:

1 – أن الله تعالى قد حذر المنافقين تحذيراً شديداً من نفاقهم، وبين لهم أنهم مهما أخفوا كفرهم وخدعوا الذين آمنوا فإن الله يعلمه، فسبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 29]، وفي هذا عبرة وعظة لمن خاف واتقى، فهذا الخطاب

---

(1) ابن القيم، الصلاة وحكم تاركها (ص41).

(2) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج7/524)، وابن القيم، الصلاة وحكم تاركها (ص40 – 41)، والأثري، الإيمان (ص257 – 259).

(3) انظر: الأثري، الإيمان (ص258).

الرباني لو استشعر به المنافقون لما ظلوا على نفاقهم أبداً، ولوجلت قلوبهم خيفة من بارئهم الذي بما يعملون محيط، ولكن كفرهم وحقدهم قد طغى عليهم، فقست قلوبهم المريضة وعميت أبصارهم عن طريق الهداية والرشاد، ونقضوا التوحيد بإبطانهم الكفر في قلوبهم، فاستحقوا الهلاك والوعيد في الدنيا والآخرة.

2 – أن من صفات المنافقين وأعمالهم التي ذكرتها السورة ما يلي:

أ – الظن بالله غير الحق، وعدم الثقة بأمره:

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا**﴾ [آل عمران: 154].

في هذه الآية الكريمة كشف للصفة الرئيسية التي تقوم عليها نفوس المنافقين المريضة ألا وهي الظن بالله الظنون الكاذبة، ظن الجاهلية من أهل الشرك بالله، شكاً في أمر الله، وتكذيباً لنبيهﷺ، ومحسبة منهم أن الله خاذل الإسلام وأهله وَمُعْلٍ عليه أهل الكفر به، ولأجل هذا نجد أنه لا همَّ لهم غير أنفسهم، والتعلق بالحياة في هذه الدنيا، والخوف من المنية ولقائها، فيحذرون على أنفسهم من القتل أشد حذر، فالجبن صفتهم والخذلان للحق ديدنهم، فهم أهل الشك والريبة في أمر الله، يقولون: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا[1]، ولكن المولى ﷻ رد عليهم في الآية نفسها تعقيباً على قولهم وظنهم الباطل، بقوله: ﴿**قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ**﴾[آل عمران: 154].

يقول الإمام الطبري في رد الله عليهم: "يعني بذلك جل ثناؤه: قل، يا محمد، للذين وصفت لك صفتهم من المنافقين: لو كنتم في بيوتكم لم تشهدوا مع المؤمنين مشهدهم، ولم تحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين، فيظهر للمؤمنين ما كنتم تخفونه من نفاقكم، وتكتمونه من شككم في دينكم "لبرز الذين كتب عليهم القتل"، يقول: لظهر للموضع الذي كتب عليه مصرعه فيه، من قد كتب عليه القتل منهم، ولخرج من بيته إليه حتى يصرع في الموضع الذي كتب عليه أن يصرع فيه... وليختبر الله الذي في صدوركم من الشك، فيميزكم – بما يظهره للمؤمنين من نفاقكم – من المؤمنين"[2].

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج320/7).

(2) الطبري، جامع البيان (ج324/7 – 325)، بتصرف يسير.

وفي مثل هذا الصدد قال صاحب كتاب (روح المعاني): "لو كنتم أيها المنافقون في بيوتكم ومنازلكم بالمدينة ولم تخرجوا للقتال بجملتكم لبرز، أي لخرج لسبب من الأسباب الداعية إلى البروز، الذين كتب في اللوح المحفوظ أو قدر في سابق علم الله تعالى عليهم القتل في تلك المعركة إلى مضاجعهم، أي مصارعهم التي علم الله تعالى وقدر قتلهم فيها وقتلوا هناك البتة، فإن قضاء الله تعالى لا يرد وحكمه لا يعقب، وفيه من المبالغة في رد مقالتهم الباطلة ما لا يخفى"[1].

ب – نشر الإشاعات وإحداث الفتنة:

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: 156].

لقد أثبتت الآية خبث المنافقين في كل زمان ومكان وما يحدثونه في صفوف المسلمين من البلبلة بإطلاق الإشاعات ونشرها بينهم؛ كي يزعزعوا المسلمين في عقيدتهم بالله والإيمان بقدره وقضائه، وإدخال الحزن والأسى واليأس في قلوبهم، وكل هذا من أجل الإخلال بالصف المسلم وتفرقته، فها هم المنافقون يبثون الحزن والهم في قلوب ذوي الشهداء ومن ماتوا في سفر ونحوه، بالاعتراض على قدر الله مستخدمين حرف التمني (لو) – سيتم الحديث عنه لاحقاً بمطلب خاص[2] – الذي لا يجدي نفعاً ولا تدفع قدراً، بأنهم لو بقوا مع ذويهم ولم يخرجوا للغزو أو السفر ونحوه ما ماتوا، ومثل هذا الفعل الخبيث لن يفلح أبداً إذا ما واجه أولئك المنافقون مؤمنين قد آمنوا حق الإيمان، وبعقيدتهم راسخون في القضاء والقدر، المتمثلة في قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ثم ينقلب السحر على الساحر؛ بأن يجعل الله إشاعات المنافقين حسرة في قلوبهم، فمهما علوا وطغوا في فتنتهم للمؤمنين فإن الله لبالمرصاد، وإنه سبحانه يشفي صدور الذين آمنوا بإكرامه لهم وفضله العظيم المتمثل في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[آل عمران: 157].

---

(1) الألوسي، روح المعاني (ج309/2).

(2) انظر: (ص109) من هذا البحث.

يقول الإمام الطبري: "يخاطب جل ثناؤه عباده المؤمنين، يقول لهم: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في شك من أن الأمور كلها بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة، كما شك المنافقون في ذلك، ولكن جاهدوا في سبيل الله وقاتلوا أعداء الله، على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحانت وفاته. ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن موتاً في سبيل الله وقتلاً في الله، خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها ورغيد عيشها، الذي من أجله يتثاقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو"[1].

ج – التخلف عن القتال، وحبهم بأن يُحمدوا بما لم يفعلوا:

يقول الله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: 167].

لقد أخبرت الآية عن صفة من صفات المنافقين التي يعرف من خلالها نفاقهم وهي التخلف عن قتال العدو، فهم يبطنون للإسلام الشر والشماتة، ويتشبثون بالحياة الدنيا ويتثاقلون إليها؛ فالدنيا هي أكبر همهم وقصدهم، ولقاء العدو وقتاله هو من أهم المواطن الذي يظهر فيها المنافقون، ويميز أهل الإيمان من أهل النفاق، فأهل الإيمان هم الذين يتسابقون ويلتحقون في صفوف المجاهدين، تاركين الدنيا وما فيها من أجل نيل الشهادة، وأما أهل النفاق فإن سباقهم يختلف اختلافاً كبيراً عنهم، فسباقهم يكون للتخلف عن القتال، والانسحاب من الصفوف، مقدمين الأعذار الكاذبة والحجج الواهية، فهذا طبعهم في كل زمان ومكان، كمشهد غزوة أحد فقد خرج المسلمون بصحبة رسول الله ﷺ نحو الألف رجل للقاء المشركين وقتالهم، ولكن المنافقين أعداء الدين انسحبوا بثلث الجيش، حيث حرضوا المسلمين ببث كلامهم المسموم فيهم؛ لتثبيطهم عن الجهاد، فقام بعض المسلمين باتباعهم لردهم في الصفوف، وأن مثل هذا الفعل الصادر منهم لا يليق بالرجل المسلم الذي يدافع عن دينه ولا بالرجل العربي صاحب النخوة والشجاعة الذي يدافع عن أهله وماله، ورغم ذلك فإنه لم يجد نفعاً معهم بالتزام عقيدة الإسلام المجسدة في الجهاد في سبيل الله المتمثلة في قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولا حتى خصال العرب في قتالهم وذودهم عن الأهل والعشيرة المتمثلة في قوله: ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا۟﴾، وكأنه مقطع عربي خارج عن موضوع الدين، وهو الاستدعاء إلى القتال حمية، ويحتمل أن يكون قصد المسلمين من الدفع إنما هو تقديم المساعدة

(1) الطبري، جامع البيان (ج337/7).

ولو بالقليل كالتواجد في ميدان القتال، وتكثير السواد حتى ولو لم يقاتلوا معهم، فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدو وقمعه، خاصة أنه لم ينفع معهم استثارتهم من الناحية الدينية، فتوجهوا بالعرض عليهم بوجه يحثهم ويبعث فيهم الأنفة، أي قتالاً للدفاع عن الحوزة، ورغم هذا كله إلا أنه كانت إجابتهم تحمل فيها رائحة النفاق المتمثلة في قوله: ﴿قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾، أي: ما نرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتال لجئناكم وكنا معكم، وهذا هو تصديق قوله تعالى فيهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (آل عمران: 167)[1].

وإن الأقبح في صفاتهم حبهم بأن يُحمدوا بما لم يفعوا، حيث قال الله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188][2]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ: "أَنَّ رِجَالًا مِنَ المُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، وَحَلَفُوا وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا"، فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا ... ﴾"[3].

---

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج539/1)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج266/4 – 267)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج160/2).

(2) هذه الآية الكريمة للعلماء فيها توجيهان، **الأول:** أنها نزلت في أهل الكتاب، فهناك مناسبة في السياق بدلالة الآية التي قبلها التي كانت تتحدث عنهم، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[آل عمران: 187]، بكتمانهم لما ائتمنهم الله عليه من الكتاب لتبيينه للناس وعدم كتمانه، يكتمونه، ويقولون غير الحق ماضين في الكذب والخداع، والأفظع من ذلك أنهم يطلبون أن يحمدوا على بيانهم الكاذب وردهم المفتري، **أما التوجيه الثاني:** فهو ما تم الحديث عنه في متن الصفحة بأن المراد من هذه الآية المنافقون، ففي سياق السورة حديث عن المنافقين يصلح أن تلحق به هذه الآية، وعلى كل الأحوال فلا تعارض في المسألة؛ فنزول آية بعينها في مسألة بعينها في الغالب ليست قطعية في هذا، فكثيراً ما يكون الذي وقع هو الاستشهاد بالآية على حادثة بعينها فيروى أنها نزلت فيها، أو أن تكون الآية منطبقة على الحادثة فيقال كذلك: إنها نزلت فيها، ومن ثم لا يجزم في الروايتين بقول، فلا تنافيَ في ذلك. انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (ج542/1)، وقال الإمام القرطبي: "والحديث الأول خلاف مقتضى الحديث الثاني. ويحتمل أن يكون نزولها على السببين لاجتماعهما في زمن واحد، فكانت جواباً للفريقين. والله أعلم". القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج306/4 – 307)، كما ينظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج552/1).

(3) [البخاري، صحيح البخاري، تفسير القرآن/﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا ﴾، 40/6: رقم الحديث 4567].

قال الإمام ابن كثير: "يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا"[1]، فقد قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قِلَّةً**"[2].

وقال سيد قطب[3]: "وهي تصور نموذجاً من الناس يوجد على عهد الرسول ﷺ ويوجد في كل جماعة. نموذج الرجال الذين يعجزون عن احتمال تبعة الرأي، وتكاليف العقيدة، فيقعدون متخلفين عن الكفاح. فإن غُلب المكافحون وهزموا رفعوا هم رؤوسهم وشمخوا بأنوفهم، ونسبوا إلى أنفسهم التعقل والحصافة والأناة.. أما إذا انتصر المكافحون وغنموا، فإن أصحابنا هؤلاء يتظاهرون بأنهم كانوا من مؤيدي خطتهم وينتحلون لأنفسهم يداً في النصر، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا! إنه نموذج من نماذج البشرية يقتات الجبنَ والادعاءَ"[4].

وفي هذا عظة للمؤمنين – أيضاً – بأن لا يسلكوا مسلكهم في مثل هذه الصفة الذميمة، فالإصرار على القبائح والفرح بها، واعتبارها حسنة إنما هو تلبيس وتضليل قد توعد الله لصاحبه، فالنظر إلى الأعمال، ومراقبتها، وتحسينها، والإخلاص فيها لوجه الله هي السبيل للنجاة، والفوز الكبير بالجنان.

يقول صاحب كتاب (محاسن التأويل): "هذه الآية، وإن كانت محمولة على الكفار لما تقدم، ففيها ترهيب للمؤمنين عما ذم عليه أهلها من الإصرار على القبائح والفرح بها ومحبة المدح بما عرا عنه من الفضائل. ويدخل في ذلك المراؤون المتكثرون بما لم يعطوا... فليحذر من يأتي بما لا ينبغي ويفرح به ثم يتوقع من الناس أن يصفوه بسداد السيرة واستقامة الطريقة والزهد والإقبال على الله تعالى"[5].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج181/2).

(2) [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/غلظ تحريم قتل الإنسان، وأن من قتل نفسه بشيء عذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، ص59: رقم الحديث 110].

(3) هو سيد قطب بن إبراهيم، المفكر الإسلامي المصري، ولد في قرية موشا في أسيوط، تخرج من كلية دار العلوم بالقاهرة، وعمل في جريدة الأهرام، وكتب في مجلتي (الرسالة) و (الثقافة)، وعين مدرساً للعربية، ثم موظفاً في ديوان وزارة المعارف، ثم مراقباً فنياً للوزارة، وانضم إلى الإخوان المسلمين، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم وسجن معهم، فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه، إلى أن صدر الأمر بإعدامه، فأعدم سنة 1387هـ – 1967م، وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة، منها: (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، و(مشاهد القيامة في القرآن)، و(في ظلال القرآن). انظر: الزركلي، الأعلام (ج147/3 – 148).

(4) سيد قطب، في ظلال القرآن (ج542/1).

(5) القاسمي، محاسن التأويل (ج478/2 – 479).

د – الكيد والخديعة للإسلام وأهله:

ويتمثل ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [آل عمران: 72].

إن المنافقين لا يقتصر أصلهم قبل دخول الإسلام على الشرك، بل منهم أصحاب الكتب السماوية، فها هم أهل الكتاب يكيدون للإسلام كيداً، ويعملون على زعزعة العقيدة في نفوس المسلمين، فهم لا يألون جهداً في التآمر على الإسلام، فقد عرفوا بذلك منذ فجر الدعوة، حيث أخبرت الآية أن طائفة من اليهود من أحبارهم ذهبت إلى خديعة المسلمين بإظهار الإيمان للرسول ﷺ أول النهار والكفر به في آخره، فكان قولهم هذا إنما أمر بالنفاق، فالمسلون وغيرهم من الناس متى شاهدوا فعلهم الخبيث، قالوا: هذا التكذيب والكفر بعد الإيمان ليس لأجل الحسد والعناد، وإلا لما آمنوا به في أول الأمر، بل لأنهم انكشفت لهم حقيقة في الأمر فيشكون في الدين الإسلامي، ويرجعون عن الإيمان، وبالتالي يلقون شبهة لضعفة المسلمين في صحة نبوته ﷺ والطعن في دينه، خاصة أن الأحبار يظن بهم العلم وجودة النظر والاطلاع على الكتاب القديم، وبهذا النفاق وإظهار الوفاق للمسلمين يتم لهم ما أبطنوا وأرادوا من التشكيك في أمر هذا الدين(1).

وفي الآية السابقة الذكر لطائف وعبر، منها: أن له سبحانه بإخباره عن هذه الحيلة التي تواطأ عليها أهل الكتاب إعجازاً غيبياً؛ حيث كانت هذه الحيلة مخفية بين أصحابها – المنافقين – بحيث لم يطلعوا عليها أحداً، فجاء القرآن الكريم ليكشفهم ويفضح كيدهم الذي كادوه، كما أن إطلاع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لها أثر في قلوبهم، ولولا هذا الإخبار منه

---

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج1/453 – 454)، والرازي، مفاتيح الغيب (ج8/257 – 258)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج4/111)، وهذه الآية – آية آل عمران الثانية والسبعون – التي نحن بصددها قد وجهها جماعة من المفسرين بتوجيه آخر نقله أصحاب التفاسير في كتبهم، ومنهم الإمام الرازي حيث قال: "الاحتمال الثاني: أن يكون قوله آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره... حملوه على أمر القبلة وذكروا فيه وجهين، **الأول**: قال ابن عباس: وجه النهار أوله، وهو صلاة الصبح واكفروا آخره: يعني صلاة الظهر، وتقريره أنه ﷺ كان يصلي إلى بيت المقدس بعد أن قدم المدينة ففرح اليهود بذلك وطمعوا أن يكون منهم، فلما حوله الله إلى الكعبة كان ذلك عند صلاة الظهر قال كعب بن الأشرف وغيره آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعني آمنوا بالقبلة التي صلى إليها صلاة الصبح فهي الحق، واكفروا بالقبلة التي صلى إليها صلاة الظهر، وهي آخر النهار... **الثاني**: إنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم، فقال بعضهم لبعض صلوا إلى الكعبة في أول النهار، ثم اكفروا بهذه القبلة في آخر النهار وصلوا إلى الصخرة لعلهم يقولون إن أهل الكتاب أصحاب العلم فلولا أنهم عرفوا بطلان هذه القبلة لما تركوها فحينئذ يرجعون عن هذه القبلة". الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج8/258)، بتصرف يسير.

سبحانه لربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من ضعف إيمانهم، كما أن في هذا الإخبار الرباني، الذي ترتب عليه افتضاح أمر الكائدين للإسلام، رادعاً لهم ولغيرهم في الإقدام على مثل هذا الفعل الخبيث[1].

فمن سنة الله في عباده المؤمنين أن ينصرهم على خصومهم في الدين من المنافقين وغيرهم، فسبحانه يوجه الذين آمنوا ببرهانه الساطع للنجاة من خبث المنافقين وكيدهم، وينقي الجماعة المسلمة من درنهم؛ كي تكون كلمة الذين آمنوا العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، إعلاءً للدين ورفعاً لراية الحق، مهما طال طغيان النفاق وامتد فإن الله راده ومحبطه، وكما قال سبحانه: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: 179]، والخبيث هو المنافق المستتر بالكفر والمبطن له على خلاف ما يعلن ويظهر[2].

وقال تعالى – أيضاً –: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 139]، وفي هذا ردع وترهيب لكل منافق تسول له نفسه بالكيد للإسلام وأهله، وأنه وفعله الخبيث لفي زوال، فالله سبحانه وتعالى لبالمرصاد، يبطل كيد من كاد لدينه ورسله، ويجعله مردوداً عليه، وكفى بقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: 150].

ولقد حكم المولى ﷻ على المنافقين أنهم أقرب للكفر من الإيمان، حيث قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران: 167]، "أي بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظن أنهم مسلمون، فصاروا أقرب إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق"[3].

ولقد أعد الله تعالى للمنافقين العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقد قال تعالى فيهم: ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 188]، أي: "فلا تظنهم بمنجاة من

---

(1) انظر: الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج8/258).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج7/424).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج4/267).

عذاب الله الذي أعده لأعدائه في الدنيا من الخسف والمسخ والرجف والقتل، وما أشبه ذلك من عقاب الله، ولا هم ببعيد منه... ولهم عذاب في الآخرة – أيضاً – مؤلم، مع الذي لهم في الدنيا معجل"[1]، ومعلوم أن عذاب الآخرة أقوى وأشد، ففي الآخرة هم في الدرك الأسفل من النار، كما قال سبحانه: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا** ﴾ [النساء: 145].

وفي نصح الأمة الإسلامية وتذكيرها بالإطار الشرعي الذي حدده الإسلام في كيفية التعامل مع المنافقين كلام من أبلغ ما يكون، كلام يحافظ على وحدة صفوف الأمة الإسلامية، ويدفع كل الفتن والمهالك عنها، كلام يوضح خطى السير في الطريق الحق بما يختص بشأنهم؛ حتى لا يقع المسلمون في الزلل، إذ لا يعلم البواطن والخفايا إلا الله وحده دون سواه، وليس لنا في الحكم على الأشياء إلا ظواهرها، وهذا الكلام إنما هو صادر من خير العلماء، الذي لا توفيه الكلمات مهما طالت حقه وقدره، ألا وهو شيخ الإسلام ابن تيمية ورفعه في أعلى الدرجات – حيث قال: "ونمسك عن عقوبة المنافق في الدين وإن كان في الدرك الأسفل من النار. وهذا لأن الأصل أن تكون العقوبة من فعل الله تعالى فإنه الذي يجزي الناس على أعمالهم في الآخرة وقد يجزيهم – أيضاً – في الدنيا. وأما نحن فعقوبتنا للعباد بقدر ما يحصل به أداء الواجبات وترك المحرمات بحسب إمكاننا"، وكما قال المصطفى ﷺ: "**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**"[2].

خامساً: الظلم.

أ – الظلم لغةً:

قال ابن فارس: " الظاء، واللام، والميم أصلان صحيحان، أحدهما خلاف الضياء والنور، والآخر وضع الشيء غير موضعه تعدياً"[3]، فيترتب على أحد المعنيين – وهو المراد معناه كناقض من نواقض التوحيد – أن أصل الظلم الجور ومجاوزة الحد، كما أنه الميل عن القصد، فتقول العرب: الزم هذا الصوب ولا تظلم عنه، أي: لا تجرْ عنه، ويقال: ظَلَمَه يَظْلِمُهُ ظَلْماً وظُلْماً ومَظْلِمةً، فالظلم مصدر حقيقي، والظلمة: المانعون أهل الحقوق حقوقهم، ويقال: ما ظلمك عن

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج7/472)، بتصرف يسير.

(2) [البخاري، صحيح البخاري، الإيمان/﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: 5]، 14/1: رقم الحديث: 25].

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج3/468).

كذا، أي: ما منعك، وقيل: الظلمة في المعاملة، والظلامة: ما تظلمه، وهي المظلمة، وهي اسم لما أخذ منك، فالظلامة اسم مظلمتك التي تطلبها عند الظالم، وأردت ظلامه ومظالمته، أي: ظلمه[1].

ب – الظلم اصطلاحاً:

قال الجرجاني في تعريفه للظلم بأنه: "التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد"[2]، وقال صاحب كتاب (الكليات) – أيضاً – بأنه: "وضع الشيء في غير موضعه؛ والتصرف في حق الغير؛ ومجاوزة حد الشارع"[3].

وقال صاحب كتاب (الإيمان): "الظلم: هو وضع الشيء في غير موضعه؛ فمن عبد غير الله – سبحانه وتعالى – فقد وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وهذا من أعظم الظلم"[4]، وبهذا المفهوم يتبين أن الظلم هو أحد نواقض التوحيد لا محالة.

وعن الفرق بين الظلم والجور: "أن الجور خلاف الاستقامة في الحكم. وفي السيرة السلطانية تقول جار الحاكم في حكمه والسلطان في سيرته إذا فارق الاستقامة في ذلك، والظلم ضرر لا يستحق ولا يعقب عوضاً سواء أكان من سلطان أو حاكم أو غيرهما. ألا ترى أن خيانة الدانق والدرهم تسمى ظلماً ولا تسمى جوراً فإن أخذ ذلك على وجه القهر أو الميل سمي جوراً، وهذا واضح، وأصل الظلم نقصان الحق والجور: العدول عن الحق، من قولنا جار عن الطريق إذا عدل عنه وخولف بين النقيضين فقيل في نقيض الظلم الإنصاف وهو إعطاء الحق على التمام وفي نقيض الجور العدل وهو العدول بالفعل إلى الحق"[5].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهنا قاعدة شريفة ينبغي التفطن إليها: وهو أن ما عاد من الذنوب بإضرار الغير في دينه ودنياه فعقوبتنا له في الدنيا أكبر، وأما ما عاد من الذنوب بمضرة الإنسان في نفسه فقد تكون عقوبته في الآخرة أشد وإن كنا نحن لا نعاقبه في الدنيا. وإضرار العبد في دينه ودنياه هو ظلم الناس؛ فالظلم للغير يستحق صاحبه العقوبة في الدنيا لا محالة لكف ظلم الناس بعضهم عن بعض، ثم هو نوعان: أحدهما: منع ما يجب لهم من الحقوق وهو التفريط. والثاني: فعل ما يضر بهم وهو العدوان"[6].

---

(1) انظر، الهروي، تهذيب اللغة (ج274/14 – 277)، وابن منظور، لسان العرب (ج373/12 – 375).

(2) الجرجاني، التعريفات (ص144).

(3) الكفوي، الكليات (ص594).

(4) الأثري، الإيمان (ص236).

(5) العسكري، الفروق اللغوية (ص231)، بتصرف يسير.

(6) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج373/10)، بتصرف يسير.

ومما سبق يتبين مدى الارتباط الوثيق لكل من التعريفين اللغوي والاصطلاحي للظلم، ففي اللغة: الظلم يعود على معان هي: وضع الشيء في غير موضعه، والجور وتجاوز الحد، والميل عن الحق والقصد، وكذلك التعريف الاصطلاحي قد أفاد بهذه المعاني مع تحديدها بإطار الشرع لها، فهو: وضع الشيء في غير موضعه ومجاوزة حد الشارع، والتعدي عن الحق إلى الباطل.

ج – الظلم في ضوء سورة آل عمران:

إن الظلم هو أحد نواقض التوحيد، كيف لا؟ وقد قال الله تعالى عن نفسه: ﴿**وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ**﴾ [آل عمران: 108]، فلا يقع منه سبحانه ظلم لأحد من عباده فهو منزه عنه، كما حرمه على عباده، فعن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: "**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...**"[1]، ففي ارتكابه خسارة عظيمة وكفى بقول الله ﷻ: ﴿**وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ**﴾[آل عمران: 57].

قال الإمام ابن تيمية: "قد دل الكتاب والسنة على أن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة وكان حقاً عليه نصر المؤمنين وكان حقاً عليه أن يجزي المطيعين وأنه حرم الظلم على نفسه، فهو سبحانه الذي حرم بنفسه على نفسه الظلم، كما أنه هو الذي كتب بنفسه على نفسه الرحمة، لا يمكن أن يكون غيره محرماً عليه أو موجباً عليه فضلاً عن أن يعلم ذلك بعقل أو غيره، وإذا كان كذلك فهذا الظلم الذي حرمه على نفسه هو ظلم بلا ريب، وهو أمر ممكن مقدور عليه وهو سبحانه يتركه مع قدرته عليه بمشيئته واختياره لأنه عادل ليس بظالم"[2]، كما تحدث معلقاً عن الحديث سابق الذكر، حيث قال بخصوصه: "ينبغي أن يعرف أن هذا الحديث شريف القدر عظيم المنزلة... قد تضمن من قواعد الدين العظيمة في العلوم والأعمال والأصول والفروع؛ فإن تلك الجملة الأولى وهي قوله: "**حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي**" يتضمن جل مسائل الصفات والقدر إذا أعطيت حقها من التفسير، وإنما ذكرنا فيها ما لا بد من التنبيه عليه من أوائل النكت الجامعة. وأما هذه الجملة الثانية وهي قوله: "**وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا**" فإنها تجمع الدين كله؛ فإن ما نهى الله عنه راجع إلى الظلم وكل ما أمر به راجع إلى العدل"[3].

---

(1) [مسلم، صحيح مسلم، البر والصلة والآداب/تحريم الظلم، ص1084: رقم الحديث 2577].

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج156/18).

(3) المصدر السابق، (ج156/18 – 157)، بتصرف يسير.

وبهذا يتبين أن ارتكاب كل ما نهى الله تعالى عنه أو رسوله ﷺ فإن سببه الظلم الذي يؤدي بصاحبه إلى نقض توحيده – والعياذ بالله –.

والظلم إذا أطلق فمراده في الشرع نوعان – كما هو الحال في كل نواقض التوحيد –، الأول: الظلم الأكبر الذي هو رديف الكفر والشرك الأكبر، الذي يؤدي بصاحبه إلى الخروج من دائرة الإسلام إذا مات عليه ولم يتب منه، كما يخلده في نار جهنم، فقد قال الله تعالى في هذا النوع: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، فالظلم المقصود في الآية الشرك بالله، وهذا ما فسرته الآية الكريمة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، وقوله تعالى في السورة: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، فالإشراك بالله يدخل في الظلم الأكبر، وأما الثاني: فهو الظلم الأصغر، الذي هو رديف الكفر الأصغر والشرك الأصغر، الذي لا يخرج صاحبه من دائرة الإسلام، ولا يخلده في النار، بل هو ذنوب ومعاصٍ يعذب صاحبها في النار من غير خلود، وهو تحت المشيئة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فهو المعصية التي لا تنفي عن صاحبها أصل الإيمان أو مطلقه، ولا تسلبه صفة الإسلام، ولكنه لا يوصف بالإيمان التام، وهو ذريعة ووسيلة للوصول للظلم الأكبر، فالحذر أشد الحذر منه، والآيات أكثر من أن تحصى في هذا النوع – الظلم الأصغر –، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]، فالظلم على درجات ومراتب، فهو ظلم دون ظلم، ويفسره الحديث الذي جاء

عن رسول الله ﷺ، حيث قال: "**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...**"[1]، ولكل نوع ما يخصه من الأحكام، فالظلم الأكبر ينافي الإيمان جميعه وينقضه، والظلم الأصغر مناف لكماله[2].

يقول صاحب كتاب (معارج القبول): "ليس كل فسق يكون كفراً، ولا كل ما سمي كفراً وظلماً يكون مخرجاً من الملة حتى ينظر إلى لوازمه وملزوماته؛ وذلك لأن كلاً من الكفر والظلم والفسوق والنفاق جاءت في النصوص على قسمين: أكبر يخرج من الملة لمنافاته أصل الدين بالكلية. وأصغر ينقص الإيمان وينافي الملة ولا يخرج صاحبه منه. فكفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسوق دون فسوق. ونفاق دون نفاق"[3].

ومن الجوانب التي تضمنتها سورة آل عمران في حديثها عن الظلم ما يلي:

1 – أن السورة قد تضمنت ذكر ذنوب عظيمة هي من نوع الظلم الأكبر، وذلك كما يلي:

- **الظلم بمعنى تحريف الكتب السماوية:**

وذلك في قوله تعالى: ﴿ **كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٣ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: 93 – 94]، حيث أفادت الآيات تحريف أهل الكتاب لكتبهم، فقد ادعى اليهود في كل ما حرموه على أنفسهم من الأشياء أن التحريم لها إنما بأمر الله الذي جاء بالتوراة، فأكذبهم الله ورد عليهم ما ادعوه من أن جميع الطعام كان حلاً لهم، إلا ما حرم إسرائيل – نبي الله يعقوب – على نفسه خاصة، ولم يرد به ولده من التحريم عليهم، فلما استنوا هم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، كما أنه ليس في التوراة من الزوائد التي يدعون أن الله حرمها[4]، وفي فعلهم وادعائهم هذا افتراء على الله، ومن يفعل مثل هذا الجرم فإنه قد أدخل نفسه في أعلى درجات الظلم وهو الظلم الأكبر، الذي يخرج صاحبه من دائرة التوحيد إلى دائرة الكفر، ويخلده في النار خالداً مخلداً فيها إن مات وهو على هذه الحال ولم يتب.

---

(1) [مسلم، صحيح مسلم، البر والصلة والآداب/تحريم الظلم، ص1085: رقم الحديث 2578].

(2) انظر: حافظ الحكمي، معارج القبول (ج405/2)، (ج828/2)، (ج1018/3 – 1019)، والأثري، الإيمان (ص258).

(3) حافظ الحكمي، معارج القبول (ج1018/3 – 1019).

(4) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج472/1).

- **الظلم بمعنى الشرك:**

وذلك قول الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، فإن الظلم يأتي بمعنى الشرك بالله واتخاذ الأنداد الذي هو من أعظم الذنوب التي لا يغفرها الله لمن لم يتب، فمن عبد غير الله فقد وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها، وهذا من أعظم الظلم، والشرك يندرج تحت الظلم الأكبر الذي يؤدي بصاحبه إلى الخروج من الملة، والخلود في النار، فبسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم(1).

2 – أن السورة قد تحدثت عن ظلم النفس، وآثاره الوخيمة على صاحبها، حيث قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 117]، فقد أثبتت الآية أن من آثار الظلم وعواقبه هلاك المرء وخسرانه خسراناً مبيناً، ومن تلك العواقب إحباط ثواب أعماله وإبطال أجرها، وهذا ليس بظلم منه سبحانه – تنزه عن ذلك – وقد قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]، بل سببها ظلمهم لأنفسهم في كفرهم بالله، حيث ضربت الآية مثلاً وهو أن إنفاق الكافرين أموالهم في وجوه الخير مهما بلغوا من الإنفاق فهو كالريح الباردة التي تهلك الزرع، فهل تكون الريح الباردة لها أثر حسن وطيب على الزرع يوماً! وكذلك هي حال الكفار فبظلمهم أنفسهم في كفرهم بالله فإن من آثاره إحباط أعمالهم وكأنها لم تكن، فلن ينتفعوا بتلك الأعمال أبداً لوجود علة الكفر القائمة، وتلك الإنفاقات إنما هي إلا هباء منثوراً عليهم(2).

ومن آثار الظلم أيضاً الواردة في السورة الخزي والإهانة يوم القيامة أمام الخلائق أجمعين، ودخول النار والعذاب فيها، فلا يجيرهم من عذاب الله أحد، وما لهم من أنصار يدفعون عنهم ما هم فيه، حيث قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: 192]، وقال الله ﷻ فيهم: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، "وبئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم باكتسابهم ما أوجب لها عقاب الله النار"(3).

---

(1) انظر: الأثري، الإيمان (ص236)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص151).

(2) انظر: الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج8/336).

(3) الطبري، جامع البيان (ج7/279).

3 – أن السورة قد تحدثت عن الوقاية من داء الظلم وعلاجه، فعن الوقاية من الوقوع في الظلم سبيله هو لزوم قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، فتقوى الله هو السبيل الوحيد للنجاة من الوقوع في الظلم، فإذا ما اتقى العبد ربه بالتزام أوامره واجتناب نواهيه، فإن ذلك هو الحصن الحصين من اقترافه، ولكن إذا ما وقع العبد في الزلل وأصيب بداء الظلم فليس له إلا الدواء الشافي الكافي الذي منَّ الله به على عباده المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: 135 – 136]، ففي هذه الآية الكريمة ثناء الله تعالى على العبد الذي لا يصر على ذنوبه ومعاصيه، ويذكر الله ويستغفر لذنبه؛ حتى لا يظلم نفسه، فحري بكل مسلم البعد كل البعد عن الذنوب حتى لا يقع بنفسه في الظلم، فالظلم لا يقتصر على ظلم الغير من سلب للحقوق وغيره، بل إن في مقارفته للذنوب والمعاصي ظلم للنفس وتعريضها للهلاك في الدنيا والآخرة.

وفي الفرق بين الفاحشة وظلم النفس أمور، الأول: أن الفاحشة ما يكون فعله كاملاً في القبح، أما ظلم النفس فهو أي ذنب كان مما يؤاخذ الإنسان به، والثاني: أن الفاحشة إشارة إلى كبائر الذنوب، كما تطلق على كل معصية، وقد كثر اختصاصها بالزنا، أما ظلم النفس فهو إشارة للصغائر أي ما دون الكبائر، وفي كليهما يجب الاستغفار منهما، ودليل الاستغفار من الصغيرة أن النبي ﷺ كان مأموراً بالاستغفار، كما في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: 19]، وما كان استغفاره دالاً على الصغائر، بل إنما على ترك الأفضل[1].

ونخلص مما سبق أن نواقض التوحيد التي تحدثت عنها سورة آل عمران هي: الكفر، والشرك، والفسق، والنفاق، والظلم، وأنها على درجات ومراتب، فسق دون فسق، وظلم دون ظلم وهكذا في بقية النواقض، وأنها في الشرع تصنف في نوعين أعلاها يسمى أكبر وأدناها يسمى أصغر، وأن النوع الأكبر يخرج صاحبة من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر، ويخلده في النار، ولا تنفعه شفاعة الشافعين يوم القيامة، وهذا يكون إن مات وهو على هذه الحال ولم يتب، وأن أهل النفاق الأكبر يفوق عذابهم جميعهم، فهم في الدرك الأسفل من النار، وأما النوع الأصغر فهو دون الأكبر، فهو لا يخرج صاحبه من دائرة الإسلام، فلا تسلب عنه صفة الإسلام ولكنه غير تام الإيمان، كما تجري عليه

---

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج510/1)، والرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج368/9)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج210/4).

أحكام المسلمين، وهذا النوع يعذب صاحبه في النار على ذنوبه ومعاصيه، ولكنه لا يخلد فيها، ويكون تحت المشيئة إن شاء الله عذبه وإن شاء غفر له، وتناله شفاعة الشافعين وتنفعه بإذن الله يوم القيامة، كما أن النوع هو ذريعة ووسيلة للوصول للنوع الأكبر – والعياذ بالله –، وأن هذه النواقض تؤدي بصاحبها إلى الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث

القضاء والقدر في سورة آل عمران

إن الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره أحد أركان العقيدة الإسلامية، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، فالإيمان به واجب، والرضا به فريضة، ومن أنكره وكفر به فقد خرج من دين الله ﷻ؛ لأنه قد أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، فعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: **"لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ"**(1).

والقدر أمر محجوب عنا، فهو الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وهو سر الله تعالى في خلقه الذي لم يطلع عليه أحداً من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل(2)، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ**﴾[آل عمران: 179].

قال الإمام ابن القيم: "إثبات القدر أساس التوحيد"(3)، والنصوص الدالة في إثبات القضاء والقدر لله سبحانه وتعالى أكثر من أن تحصى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ**﴾[آل عمران: 47]، وقوله: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا**﴾ [آل عمران: 145]، وقوله سبحانه: ﴿**وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [آل عمران: 166].

والقضاء والقدر علم واسع لا توفيه الدراسة في مبحث فحسب، فهو علم مترامي الأطراف؛ إذ إنه أحد أصول العقيدة الإسلامية، ولكن سنتناول ما تضمنته سورة آل عمران في القضاء والقدر من خلال آياتها، حيث قسمت الباحثة هذا المبحث إلى أربعة مطالب سائلين المولى ﷻ القبول والسداد في ذلك بإذنه تعالى.

---

(1) [الترمذي: سنن الترمذي، القدر/ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، 451/4: رقم الحديث 2144]، قال الألباني: إنه صحيح.

(2) انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص249).

(3) ابن القيم، شفاء العليل (ص65).

المطلب الأول: تعريف القضاء والقدر لغةً واصطلاحاً.

أولاً: تعريف القضاء لغةً واصطلاحاً.

1-القضاء لغةً:

القضاء هو الحكم، وأصله من القطع والفصل، وقضى يقضي قضاء فهو قاض إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والانتهاء منه فهو بمعنى الخلق[1]، والقضاء فصل الأمر بالقول أو الفعل، وكل منهما على وجهين: إلهي وبشري[2].

2-القضاء اصطلاحاً:

القضاء في الاصطلاح هو: "ما قضى به الله سبحانه وتعالى في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير"[3]، "وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق"[4]، وكما قال سبحانه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]، "أي: أتمهن وفرغ من خلقهن"[5].

ثانياً: تعريف القدر لغةً واصطلاحاً.

1-القدر لغةً:

قال ابن فارس: "القاف، والدال، والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته. فالقدر: مبلغ كل شيء. يقال: قدره كذا، أي مبلغه. وكذلك القدر. وقدرت الشيء أقدره وأقدره من التقدير، وقدرته أقدره. والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها"[6]، وهو: القضاء الموفق، فإذا وافق الشيء الشيء نقول جاءه قدره[7]، والتقدير على وجوه من المعاني، منها: التروية والتفكير في تسوية أمر ما وتهيئته[8].

---

(1) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج186/16).

(2) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ج674/1).

(3) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطية (ج188/2).

(4) المصدر السابق (ج357/1).

(5) البغوي، معالم التنزيل (ج127/4).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج62/5).

(7) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج74/5).

(8) انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج41/9).

2- القدر اصطلاحاً:

القدر في معناه الاصطلاحي هو: "علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها"[1]، وهو: "تعلق الإرادة الذاتية بالأشياء في أوقاتها الخاصة، فتعليق كل حال من أحوال الأعيان بزمان وعين وسبب معين عبارة عن القدر"[2].

فالقدر يراد به أن الله تعالى قد علم مقادير الأشياء وأزمانها في الأزل، ثم أوجدها بقدرته ومشيئته على وفق ما علمه منها، وأنها قد كتبت في اللوح المحفوظ قبل إحداثها[3].

ثالثاً: القضاء والقدر اصطلاحاً.

من أشمل التعريفات التي وردت في القضاء والقدر، التي جمعت مراتبه أنه هو: "ما سبق العلم وجرى به القلم، مما هو كائن للأبد، وأنه – عز وجل – قدر مقادير الخلائق وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم – سبحانه وتعالى – أنها ستقع في أوقات معلومة عنده – تعالى –، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها"[4].

فالقدر هو علم الله بمقادير الأشياء قبل كونها كيف ستكون بعد أن تكون، والقضاء هو خلقها وإيجادها في أوقاتها وعلى صفاتها على حسب ما قدرها سبحانه، وقال **ابن الأثير**[5]: "المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق... فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما، فقد رام هدم البناء ونقضه"[6].

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (ج118/1).

(2) الجرجاني: التعريفات (ص174).

(3) انظر: هراس، شرح العقيدة الواسطية (ص65).

(4) السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج348/1).

(5) هو أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، ابن الأثير، مجد الدين، القاضي، الرئيس، العلامة، البارع، الأوحد، البليغ، المحدث اللغوي الأصولي، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، في أحد الربيعين سنة 544هـ، أصيب بالنقرس فبطلت حركة يديه ورجليه، ولازمه هذا المرض إلى أن توفي، وقيل: إن تصانيفه كلها ألفها في زمن مرضه، فكان يملي على طلبته وهم يعينونه بالنسخ والمراجعة، من أشهر مؤلفاته: كتاب (النهاية) في غريب الحديث، و(جامع الأصول في أحاديث الرسول)، توفي سنة 606هـ، وهو أخو ابن الأثير المؤرخ صاحب كتاب (الكامل)، وابن الأثير الكاتب صاحب كتاب (المثل السائر). انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج488/21 – 491)، والزركلي، الأعلام (ج272/5 – 273).

(6) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (ج78/4).

المطلب الثاني: مراتب الإيمان بالقضاء والقدر في سورة آل عمران.

للقضاء والقدر أربع مراتب لا يتم إيمان المسلم إلا بها[1]:

المرتبة الأولى: الإيمان بأن الله عليم بكل شيء قبل وقوعه.

المرتبة الثانية: الإيمان بأن الله قد كتب كل شيء في اللوح المحفوظ.

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة لكل شيء.

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن الله خالق كل شيء ومليكه.

أولاً: مرتبة العلم.

اتفق الرسل عليهم السلام وجميع الصحابة ومن تبعهم من أمة محمد ﷺ على هذه المرتبة[2]، وهي الإيمان بأن الله تعالى يعلم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أزلاً وأبداً، بما في ذلك أفعاله وأفعال خلقه قبل أن يخلقهم، عالماً لأقوالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم، وآجالهم، وحركاتهم، وسكناتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فعلمه محيط بكل شيء بما كان، وما هو كائن، وما سيكون، لو كان كيف يكون[3].

ومن الأدلة على هذه المرتبة في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: 5]، وهذه الآية دليل على عموم علم الله تعالى الشامل لكل شيء، فهو يعلم غيب السماوات والأرض، فلا يخفى عليه شيء من ذلك، وقوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾[آل عمران: 120] فيه دلالة واضحة على إحاطته سبحانه بكل شيء فهو عالم به، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[آل عمران: 154]، أي: أنه سبحانه عليم بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر[4]، ومما دل على مرتبة العلم – أيضاً – أن من أسماء الله تعالى العليم[5]؛ حيث قال تعالى:﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 121].

---

(1) انظر: ابن القيم، شفاء العليل (ص29).

(2) انظر: المصدر السابق، ص29.

(3) انظر: الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم (ص353).

(4) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج146/2).

(5) قد سبق التحدث عن اسم الله (العليم) والتعريف به: (ص48) من هذا البحث.

ثانياً: مرتبة الكتابة.

أجمع الصحابة والتابعون وأهل السنة والجماعة على هذه المرتبة، وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق به علمه من مقادير الخلائق كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، مكتوب في اللوح المحفوظ جملة وتفصيلاً من غير تفريط فيه(1).

ويقول ابن القيم في هذه المرتبة: "دل القرآن على أن الرب تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله فكتب في اللوح أفعاله وكلامه فتبت يدا أبي لهب في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب"(2).

ودلالة هذه المرتبة في سورة آل عمران واضحة جلية، حيث قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[آل عمران: 145]، تدل هذه الآية الكريمة على كتابة الله تعالى آجال النفوس، فقد كتب لكل نفس خلقها أجلاً لا يقدر أحد على تقديمه، أو تأخيره، أو تغييره، فكل ذلك بقضائه وقدره سبحانه(3)، وأيضاً مما دل على مرتبة الكتابة في السورة قول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾[آل عمران: 53]، هذه الآية تبين قول الحواريين بأنهم قد آمنوا بما أنزل في كتاب الله ﷻ، وما أظهر من حكمه، واتبعوا رسولهم عيسى عليه السلام، ودعاءهم بأن يكتبهم الله مع الشاهدين وهي أمة محمد ﷺ، وقيل: أن يكتبهم مع الذين شهدوا لأنبياء الله تعالى بالصدق(4).

ومن الأدلة التي وردت في السنة النبوية على هذه المرتبة، ما ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء**"(5).

ثالثاً: مرتبة المشيئة.

وهذه المرتبة دل عليها إجماع الرسل عليهم السلام، وجميع الكتب السماوية، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأدلة العقل(6)، وهي: "الإيمان بمشيئة الله تعالى وأنها عامة في كل شيء، فما وجد موجود، ولا عدم معدوم من صغير وكبير، وظاهر وباطن في السموات والأرض إلا بمشيئة

---

(1) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج3/148-149)، والصلابي، الوسطية في القرآن الكريم (ص 354).

(2) ابن القيم، شفاء العليل (ص41).

(3) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج1/518).

(4) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج4/98).

(5) [مسلم: صحيح مسلم، القدر/حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ص1110: رقم الحديث 2653].

(6) انظر: الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم (ص354).

الله ﷻ، سواء أكان ذلك من فعله تعالى أم من فعل مخلوقاته"[1]، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وما من حركة ولا سكون إلا بمشيئته، ولا يكون في ملكه إلا ما يشاء سبحانه[2].

والنصوص الدالة على مرتبة المشيئة كثيرة في السورة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾[آل عمران: 26]، وقوله: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾[آل عمران: 129]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ [آل عمران: 13]، وقوله:﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾[آل عمران: 179].

المرتبة الرابعة: الخلق.

هذه المرتبة قد اتفق عليها الرسل والكتب السماوية والفطر والعقول[3]، وهي: "الإيمان بأنَّ الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء فهو خالق كل عامل وعمله، وكل متحرك وحركته، وكل ساكن وسكونه، وما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا والله سبحانه وتعالى خالقها وخالق حركتها وسكونها، سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه"[4]؛ حيث إن جميع المخلوقات مخلوقة لله بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، وأن كل ما سوى الله مخلوق موجود من العدم[5].

ولقد دلت سورة آل عمران على هذه المرتبة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[آل عمران: 190]، وقال على لسان مريم عليها السلام: ﴿قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 47]، فعندما بشرتها الملائكة بأن الله ﷻ سيهب لها الولد وهو: عيسى عليه السلام، دهشت واستغربت من ذلك؛ حيث إنها لم يمسسها بشر، فكانت الإجابة: بأنه سبحانه قادر على ذلك، فالله يخلق ما يشاء، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، كما يشاء ويريد.

---

(1) ابن عثيمين، تقريب التدمرية (ص96)، بتصرف يسير.

(2) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج3/149).

(3) انظر: ابن القيم، شفاء العليل (ص49).

(4) حافظ الحكمي، معارج القبول (ج3/940).

(5) انظر: الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم (ص355)، بتصرف يسير.

فخالق هذا الكون العظيم، أقدر على أن يخلق عيسى ﷺ من غير أب، كيف لا؟ وإنه قد خلق آدم ﷺ من غير أب ولا أم، بلى: فهو الخلاق العظيم، القادر على خلق كل شيء، متى شاء وكيف شاء، فله الخلق والأمر سبحانه وتعالى.

وهذه هي المراتب الأربع للقضاء والقدر، التي دلت عليها سورة آل عمران، التي يجب على المسلم أن يؤمن بها جميعاً، فمن أخلَّ بواحدة منها لم يصح إيمانه.

المطلب الثالث: تجنب الاعتراض على قدر الله بحرف التمني (لو).

إن الإيمان بالقضاء والقدر أساس التوحيد، ولا عبرة لمن يلتفت ويندم على أمر قد قدر، فيتعين على المسلم الصادق في إيمانه التسليم بالقدر، وعدم الاعتراض عليه بحرف التمني (لو)(1).

ولقد تعرضت سورة آل عمران لبيان هذه المسألة المهمة المتعلقة في موضوع القضاء والقدر، وتجنب الاعتراض بها لما يترتب عليها من التعدي على قدر الله، والوقوع في مصائد الشيطان – والعياذ بالله –.

والاعتراض على قدر الله بحرف التمني (لو) لا يدفع قدراً، ولا يرد قضاء، ولكن للأسف نجد بعض الناس يعتقد بنفي القدر إذا ما انتفت أسبابه الواقعة، مستعملين حرف التمني (لو) في ذلك، وبعضهم تدرج في حديثه معتاداً على استعمالها ويجهل ما تؤول إليه (لو) من اعتراض على قدر الله.

ولذلك لا بد من توضيح بعض ما يتعلق بـ(لو)، ومتى يجوز استعمالها؟ ومتى يُنهى عنها؟

إن لحرف (لو) حالات، منها: ما يجوز استعماله في الكلام، ومنها ما يُنهى عن استعماله والاعتقاد به، وتفصيل استعماله على الوجوه التالية(2):

---

(1) (لو): حرف من حروف المعاني التي يمتنع بها الشيء، لامتناع غيره، ولو: حرف تقدير وهي على ستة أقسام:

– أن تكون مستعملة نحو: لو جاءني لأكرمته، وتفيد ثلاثة أمور: الشرطية، وتقييد الشرطية، والامتناع.

– أن تكون حرف شرط في المستقبل، مثل: (ولو تلتقي أصداؤنا بعد موتنا).

– أن تكون حرفاً مصدرياً، وذلك مثل قول الله تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: 9].

– أن تكون للتمني، مثل: لو تأتيني فتحدثني.

– أن تكون للعرض، مثل: لو تنزل عندنا فتصيب خيراً.

– أن تكون للتقليل: مثل: تصدقوا ولو بظلف محرق. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج471/15)، ومصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ج844/2).

(2) انظر: ابن عثيمين، مجموع وفتاوى ورسائل العثيمين (ج127/3–128).

الوجه الأول: أن يكون المراد من استعمال (لو) مجرد الخبر، فهذا لا بأس به، وذلك نحو أن نقول: لو زرتني لأكرمتك، أو لو علمت بك لجئت إليك، أو استعمال (لو) لتبين علماً نافعاً، كقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: 22][(1)].

الوجه الثاني: أن يكون القصد بها التمني، فإن تمنى بها خيرًا فهو مأجور بنيته، وإن تمنى بها غير ذلك فهو بحسب ما تمنى، فلو بهذا الوجه يجوز استعمالها؛ ولهذا قال النبي ﷺ: "**لاَ تَحَاسُدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَتْلُوهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا لَفَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، فَيَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ**"[(2)]، وقال رسول الله ﷺ: "**مَثَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ مَثَلُ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَعْمَلُ بِهِ فِي مَالِهِ يُنْفِقُهُ فِي حَقِّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يُؤْتِهِ مَالًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ مَالِ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ**" قال: قال رسول الله ﷺ: "**فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ**" "**وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يُؤْتِهِ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْبِطُ فِيهِ يُنْفِقُهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، وَرَجُلٌ لَمْ يُؤْتِهِ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ مِثْلُ هَذَا، عَمِلْتُ فِيهِ مِثْلَ الَّذِي يَعْمَلُ " قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَهُمَا فِي الْوِزْرِ سَوَاءٌ**""[(3)].

الوجه الثالث: أن يراد بها التحسر على ما فات ومضى، فهذا هو المنهي عنه؛ لأن ذلك لا يفيد شيئاً، وإنما يفتح عمل الشيطان، ففيه اعتراض على قدر الله وغيبه، فعن أبي هريرةﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**"[(4)]، فالنهي بـ(لو) محمول في هذا الحديث على استعمالها في التلهف على أمور الدنيا أو الاعتراض على قدر الله ﷻ، فيتعين على المسلم التسليم بقضائه وقدره بقول: قدر الله وما شاء فعل؛ لأنه لا يقدر على غير ذلك، وليتجه في

---

(1) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج347/18- 348)، وابن حجر، فتح الباري (ج228/13).

(2) [البخاري: صحيح البخاري، التوحيد/قول النبي ﷺ: "**رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ يَقُولُ: لَوْ أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا فَعَلْتُ كَمَا يَفْعَلُ**"، 154/9: رقم الحديث 7528].

(3) [أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند الشاميين، 552/29: رقم الحديث 18024]، وقال الأرنؤوط وآخرون: إنه حديث حسن.

(4) [مسلم: صحيح مسلم، القدر/في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ص1114: رقم الحديث 2664].

المستقبل إلى معالجة آثار ما ألمَّ به من القدر، وليعمل ويجتهد بدلاً من استعمال (لو) التي تفتح عمل الشيطان، ولا تجني ثماراً غير الخيبة والحزن والأسى والتحسر، مما لا فائدة منه ولا عبرة به.

ولقد نهى الله تعالى عن (لو) التي تفيد الالتفات على ما قد مضى وقُدِر في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها: ما جاء في سورة آل عمران حيث قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ [آل عمران: 156]، فقد نهى سبحانه المؤمنين بأن يكونوا مثل الذين كفروا من المنافقين، بالتشبه بقولهم لإخوانهم من أهل الكفر والنفاق، إذا خرجوا من بلادهم للسفر من أجل التجارة أو الغزو أو غير ذلك، وماتوا في سفرهم أو قُتِلوا في غزوهم، بأنهم لو أقاموا في بلادهم وأطاعوهم ما ماتوا وما قُتِلوا، فهذا القول مردود عليهم وحسرة في قلوبهم(1).

يقول الإمام ابن تيمية في الحكم على من يعترض على قدر الله ويلتفت إلى الأسباب المانعة لوقوع القدر: "فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع؛ فعلى العبد أن يكون قلبه معتمداً على الله لا على سبب من الأسباب"(2).

وقال تعالى: ﴿ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: 154].

فالمنافقون قد ظنوا بالله ظن أهل الجاهلية والشرك في أمر نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، لما حدث من أحداث في غزوة أحد، فقال بعضهم لبعض: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم يقتل رؤساؤنا وكبارنا، فكذبوا بالقدر واعترضوا عليه بحرف التمني (لو)، حيث

---

(1) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج525/1)، والطبري، جامع البيان (ج330/7- 332).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج528/8).

قالوا: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾، ولكن رد الله على مثل هذه الفئة أقوى وأشد، فقد قال سبحانه الذي بيده الإحياء والإماتة وحده دون سواه: ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ﴾أي: أن قضاء الله لا مرد له فالذي كتب وقضى عليه بالقتل سيصيبه ذلك حتى لو كان في بيته الذي هو أبعد شيء عن مظان القتل، فالأسباب –وإن عظمت– إنما تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر، أما إذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن يمضي ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من الموت والحياة(1).

وقال سبحانه – أيضاً –: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[آل عمران: 167 – 168].

فقد تضمنت الآيات صفة من الصفات المتأصلة عند المنافقين في كل زمان ومكان ألا وهي التخلف عن القتال، وزعزعة صفوف المسلمين بأقوالهم وأفعالهم المثبطة عن الجهاد في سبيل الله، بل والمخادعة والمداهنة في دين الله ومن ذلك قولهم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ﴾، فعندما يطلب من هذه الفئة الخروج للقتال في سبيل الله، أو حتى الذود عن الأهل والوطن الذي هو من الأمور المطلوبة، والتي تميز بها الإنسان العربي، إذ إنها قضية حمية وشجاعة مع كونها قضية عقدية، نجدهم يتهربون ويبررون لأنفسهم أسباباً واهية كقولهم السابق الذي بمعنى: إننا معكم ولكنا لن نأت معكم للقتال لعدم وجوده أصلاً ولو كان بالفعل لجئنا، ومثل هؤلاء قد وصفهم الله بأنهم أقرب للكفر من الإيمان، بل ويكذبون بقدر الله ويعترضون عليه بأن لو قعد الذين قاتلوا في الجهاد ما أصابهم القتل، ولكن الله جل وعلا يتحداهم بمقولتهم السوء بأن يدرؤوا ويدفعوا عن أنفسهم الموت إن كانوا صادقين، فإن قضاء الله وقدره نافذ ومتحقق لا محالة، وأن الحذر لا يغني عن القدر (2).

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص153)، والبغوي، معالم التنزيل (ج525/1).

(2) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج533/1).

ونخلص من خلال ما سبق أن حرف (لو) يأتي بمعان عديدة، منها ما هو جائز، ومنها ما هو منهي عنه – كما ذُكر –، وأن حرف التمني (لو) المنهي عن استعماله هو الذي إذا أطلق معارضاً للقدر باعتقاد أن المانع لو ارتفع لوقع خلاف المقدور، فهذا إنما حرف (لو) الذي يفتح عمل الشيطان ووساوسه، و(لو) التي نهى الله ورسوله ﷺ عن الاعتقاد أو القول بها، ومثالها: ما ورد في الأدلة السابقة من سورة آل عمران، والتي أكدت على قضية عقدية مهمة، هي تجنب الاعتراض على قدر الله بحرف التمني (لو)، وعدا ذلك – أي الحالة المنهي عنها –، فيجوز استعمالها في الكلام؛ لورود أحاديث عديدة وآيات قرآنية استعمل فيها حرف (لو).

ولقد بوب البخاري باباً سماه: "باب ما يجوز من اللو"[1] وأنها تجوز في بعض المواضع، حيث ذكر آية قرآنية وأحاديث عديدة في ذلك.

وبالتالي يجب على المسلم الاحتراز في استعمال حرف (لو)، فله أن يستخدمه فيما يجوز، وعليه تجنبه فيما قد نهي عنه؛ حتى لا يوقع العبد نفسه في الاعتراض على قدر الله، وعليه مراقبة أفعاله وأقواله، صغيرها وكبيرها، خفيها وظاهرها، وذلك في كل ركن من أركان العقيدة الإسلامية؛ حتى يكون إيمانه على أكمل وجه كما أمرنا الله تعالى ورسوله ﷺ.

المطلب الرابع: ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر.

للإيمان بالقضاء والقدر ثمرات طيبة ومتنوعة يجنيها المؤمن في الدنيا والآخرة إذا ما آمن به على الوجه الصحيح، ومن هذه الثمرات ما يلي:

1 – من أعظم ثمراته صحة إيمان العبد بتكامل أركانه، فهو أحد أركان الإيمان الستة الذي لا يتم الإيمان إلا بها[2]، وقد قال رسول الله ﷺ: "**لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**"[3].

2 – الإيمان بالقدر يغرس في نفس المؤمن حقائق الإيمان، فهو دائم الاستعانة بالله، والاعتماد والتوكل عليه تعالى عند فعل الأسباب، بحيث لا يعتمد على السبب نفسه؛ لأن كل شيء بقدره سبحانه؛ حيث قال رسول الله ﷺ: "**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي**

---

(1) البخاري: صحيح البخاري، (ج85/9).

(2) انظر: الفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ج301/1).

(3) سبق تخريجه: (ص103) من هذا البحث.

كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ"[1][2].

3 – ومن ثمراته أنه يربط العبد ويعلق قلبه بخالقه على الدوام، مستخدماً باب الدعاء والخوف والرجاء والتضرع لله ﷻ في كل وقت، حتى يوفقه لخيري الدنيا والآخرة ويدفع عنه كل سوء وبلاء.

4 – الإيمان بالقدر يورث طمأنينة القلب وراحة النفس، فالذي يؤمن بأن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن المكروه كائن لا محالة، ارتاحت نفسه، واطمأن قلبه، ورضي بقضاء ربه، فلا أحد أطيب عيشاً وأقوى طمأنينة وأريح نفساً ممن آمن بالقدر[3]، فقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**﴾ [آل عمران: 109].

5 – السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية، وأقداره الكونية والتسليم في ذلك كله لله تعالى، والرضا به مهما ألَّم بالعبد من مكاره وشدائد، فيؤمن بقدر الله تعالى الواقع، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[4]، وذلك امتثالاً لقوله تعالى:﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ** ﴾ [آل عمران: 156].

6 – أن يعرف العبد قدر نفسه، وذلك بطرد الإعجاب عند حصول المراد؛ لأن حصوله إنما تم بفضل الله ونعمته، فهو الذي قدر أسباب الخير والنجاح، وحده القادر على ذلك المستحق للشكر والحمد دون سواه[5].

7 – الاستقامة على منهج سواء في السراء أو الضراء، فطبيعة الإنسان فيه قصور وضعف لا يستقيم على منهج سواء إلا من آمن بالقدر، فالنعمة لا تبطره، والمصيبة لا تيئسه، فإن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر[6]، قال تعالى: ﴿**لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ**

(1) سبق تخريجه: (ص110) من هذا البحث.
(2) انظر: ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول (ص115).
(3) انظر: ابن عثيمين، عقيدة أهل السنة والجماعة (ص33).
(4) انظر: الصلابي، الوسطية في القرآن الكريم (ص366).
(5) ابن عثيمين، عقيدة أهل السنة والجماعة (ص34).
(6) انظر: الأشقر، القضاء والقدر (ص110).

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[آل عمران: 186].

8 – الإيمان بالقضاء والقدر من أكبر الدواعي التي تدعو المؤمن للعمل والاجتهاد والسعي لكل ما يرضي الله تعالى، وهو من أقوى الحوافز التي تدفعه لذلك، التي تجعله يقدم على عظائم الأمور بثبات وعزم[1].

9 – الإقدام والشجاعة على كثير من الأمور خاصة في موضوع الجهاد، فكم من جيش مسلم هزم الكفار بإيمانهم لعقيدة القضاء والقدر، والعمل بها على أرض الميدان، كيف لا؟ وقد أمرهم الله سبحانه وتعالى بالسعي والصبر والمصابرة، والمرابطة، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 200].

10 – الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تصيب المجتمعات، مثل رذيلة الحسد التي تنشر الحقد والعداوة والبغضاء بين الأفراد، فالرازق هو الله ﷻ يعطي من يشاء كيف يشاء ولا يسأل عما يفعل، ويمنح الملك والرئاسة لمن يشاء وكيف يشاء، وينزعها ممن يشاء سبحانه، فقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[آل عمران: 26]، فيأتي القضاء والقدر بدوره معالجاً وموضحاً لكثير من القضايا.

---

(1) انظر: ابن صالح المحمود، القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، (ص447).

المبحث الرابع

الولاء والبراء في سورة آل عمران

إن الولاء والبراء أصلان من أصول الإسلام، فهما مظهران من مظاهر الإخلاص لمحبة الله تعالى، ثم لأنبيائه عليهم السلام وللمؤمنين. والبراء يعد مظهراً من مظاهر الكراهية للباطل، والإيمان بالولاء والبراء شرط لصحة الإيمان، وقد حذرنا الله تعالى من موالاة الكافرين، وأخرج من يواليهم من دائرة الإسلام، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[آل عمران: 28].

ومن خصائص المجتمع المسلم أنه مجتمع يقوم على عقيدة الولاء والبراء، فيكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراء من كل من حادَّ الله ورسوله واتبع غير سبيل المؤمنين قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: 22]، مما يجعل المجتمع مترابطاً متماسكاً تسوده روابط المحبة والنصرة، وتحفظه من التحلل والذوبان في الهويات والمجتمعات الأخرى، حتى يؤدي رسالة الإسلام في الأرض على أكمل وجه، تلك الرسالة التي تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ودعوة الناس إلى الحق وإلى الطريق المستقيم قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[آل عمران: 110].

والمتأمل لحال فئة من المسلمين اليوم من غير تعيين أو تعميم؛ يرى الخضوع والهوان والذل لأعداء الله وموالاتهم على المسلمين، بل وأكثر من ذلك ألا وهو: معاداة المسلمين وعدم موالاتهم لأسباب كثيرة كالوصول للسلطة، والشهرة، وجمع الأموال بالباطل، وهذا زادهم في الدنيا، والعاقبة للمتقين، والله تعالى سيجازي كل من كان عوناً للشيطان ومن اتبع سبيله، فنصر الله تعالى وتمكينه للإسلام والمسلمين متحقق بإذن الله.

ولذلك كان لا بد من دراسة عقيدة الولاء والبراء والتأكيد عليها في هذا البحث لأهميته، حيث ذكرت هذه العقيدة في سور متعددة من القرآن الكريم، ومنها: سورة آل عمران موضوع البحث.

المطلب الأول: تعريف الولاء والبراء.

أولاً: تعريف الولاء والبراء لغةً.

1 – الولاء لغةً:

الولاء مشتق من (ولي)، والواو، واللام، والياء أصل صحيح يدل على القرب والدنو، وهذا القرب يشمل أموراً عديدة، منها: المكان، والنسبة، والدين، والعقيدة، والصداقة، والنصرة.

والولي هو: كل من ولي أمراً أو قام به، وهو اسم من أسماء الله الحسنى بمعنى: الناصر القائم بأمور الخلق، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 68]، والمولى يطلق على: الرب، والسيد، والمالك، والناصر، والمحب، والمعتق، والمنعم، والجار، والحليف، وابن العم، والعبد، والتابع، والصهر[1].

وعلى هذا يتبين أن الولاء لفظ دال على القرب والدنو، والمحبة، والنصرة والمتابعة، والطاعة.

2 – البراء لغةً:

البراء مشتق من مادة (برأ)، وللباء، والراء، والهمزة أصلان إليهما ترجع فروع الباب، أحدهما: بمعنى الخلق، ويقال برأ الله الخلق أي: أنه خلقهم فهو بارئ، فهو اسم من أسماء الله الحسنى وقد قال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [سورة البقرة: 54]، والثاني: بمعنى التباعد من الشيء ومزايلته، ومن ذلك: الْبُرْءُ: وهو السلامة من السقم، فيقال: برئت وبرأت، أي شفي المريض وتخلص مما فيه، والبراء مصدر يوصف به فقال تعالى: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: 26]، والبراءة: الإعذار والإنذار ومنه قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1]، وبراءة من فلان أي تباعد وتخلى عنه، ومن الدين والتهمة والعيب خلص، وبارأ: أي فاصله وفارقه ومنه بارأ الرجل امرأته أي أنه اتفق على الفراق، والبراء هي أول ليلة في الشهر، وليلة البراء هي ليلة يتبرأ القمر من الشمس[2].

وعلى هذا يتبين أن البراء بكل معانيه يطلق على: البعد والمفارقة، والتخلص، والتخلي، والعداوة، وهو خلاف الولاء.

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج141/6)، وابن منظور، لسان العرب (ج406/15)، ومصطفى وآخرون، المعجم الوسيط – (1058/2)، والراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ج885/1).

(2) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج236/1)، وابن منظور، لسان العرب (ج33/1)، ومصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (46/1).

ثانياً: تعريف الولاء والبراء اصطلاحاً.

1 – الولاء اصطلاحاً:

"وأصل الموالاة: الحب، وأصل المعاداة: البغض؛ وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة، كالنصرة، والأنس، والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك من الأعمال؛ والولي ضد العدو"[1].

قال الإمام ابن تيمية: "فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض"[2].

والولاء شرعاً هو: حب الله تعالى ورسوله ﷺ ودينه وأتباعه المسلمين ونصرتهم، والقرب من المسلمين بمودتهم، ومساعدتهم، ومناصرتهم على أعدائهم، والسكن معهم[3]، فهو: "محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرتهم"[4]؛ إذ إنه الحب والنصرة والتأييد لله ورسوله ﷺ ودين الإسلام وأهله، وبذل كل ما يمكن بذله في سبيل ذلك، متضمناً النفس، والمال، والجهد.

2– البراء اصطلاحاً:

البراء هو: " البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار"[5]، وهو: قطع الصلة مع الكفار بعدم محبتهم أو مناصرتهم أو تأييدهم، وعدم الإقامة في ديارهم إلا للضرورة[6]، وهو: بغض الكفر وأهله ومعاداتهم، ومجاهدتهم، والتبرؤ من كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان مادياً كالأصنام، أو معنوياً كالآراء والأهواء[7].

ومن خلال هذه التعريفات فإنه يمكن القول بأن البراء هو: الكره، والبغض، والعداوة، وعدم اتباع وتأييد كل ما يبغضه الله ورسوله ﷺ.

ومما سبق يتبين أن هناك ترابطاً وثيقاً بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لكل من مصطلح الولاء والبراء؛ حيث إن الولاء يتضمن معاني الحب، والقرب، والدنو، والتأييد، وأما البراء فإنه يتضمن معاني الكره، والبغض، والبعد، والمفارقة، والتخلي، والتخلص، وهذه المعاني اللغوية ترتبط

---

(1) علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية (ج325/2).

(2) ابن تيمية، العبودية (ج95/1).

(3) انظر: الشريف، الولاء والبراء بين الغلو والجفاء (ص3)، ونخبة من العلماء، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ج265/1).

(4) القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام (ص43).

(5) المرجع السابق (ص90).

(6) نخبة من العلماء، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة (ج265/1).

(7) انظر: الشريف، الولاء والبراء بين الغلو والجفاء (ص3).

ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الاصطلاحي وتحققه، إلا أن المعنى الاصطلاحي بتضمنه تلك المعاني فإنه يكون من خلال الإطار الشرعي، وذلك أن الولاء هو محبة كل ما يحبه الله ورسوله ﷺ والمؤمنون، والبراء بغض كل ما يبغضه الله ورسوله ﷺ والمؤمنون.

كما أن هناك تلازماً بين مفهوم الولاء والبراء، فكل منهما ملازم للآخر، فلا ولاء إلا ببراء، ولا حب لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين إلا بمعاداة كل من يعادي الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأن الولاء والبراء يكونان بالنوايا والأقوال والأفعال، وكما قال الإمام ابن تيمية: "محبة الله توجب المجاهدة في سبيله قطعاً فإن من أحب الله وأحبه الله أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى من يواليه الله وعادى من يعاديه الله"[1].

المطلب الثاني: أهمية الولاء والبراء.

تنبع أهمية عقيدة الولاء والبراء من كونها فريضة ربانية، ولا أدل على أهمية هذه العقيدة من اعتناء القرآن الكريم بتقريرها في سور متعددة من القرآن الكريم، وتأكيد الرسول ﷺ على الإيمان بها، ومن ذلك: أن النبي ﷺ كان يبايع أصحابه على تحقيق هذا الأصل العظيم، فعن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، اشترط علي. فقال: "**تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُصَلِّي الصَّلَاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَنْصَحُ لِلْمُسْلِمِ، وَتَبْرَأُ مِنَ الْكَافِرِ**"[2]، ومن هنا تبرز الأهمية البالغة للولاء والبراء في الإسلام لأمور عديدة، منها:

1 – ظهور العقيدة الصحيحة وبيانها، والفصل بين أهل الكفر وأهل الإسلام، فقد قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة: 4].

2 – الولاء من لوازم لا إله إلا الله وتحقيق لمعناها، وكما قال الإمام ابن تيمية: "إن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضي أن لا يحب إلا لله، ولا يبغض إلا لله، ولا يوالي إلا لله، ولا يعادي إلا لله، وأن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله"[3][4].

---

(1) ابن تيمية، قاعدة في المحبة (ص89).

(2) [أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكيين، 491/31: رقم الحديث 19153]، وقال الأرنؤوط وآخرون: إنه حديث صحيح.

(3) ابن تيمية، الاحتجاج بالقدر (ص62).

(4) انظر: القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام (ص44).

3 – الولاء والبراء ضرورة إيمانية وشرط لصحة الإيمان وقبوله، حيث قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]، فقد نهى سبحانه المؤمنين عن مباطنة وموالاة الكافرين وملازمتهم، حيث كان اليهود يباطنون بعض المسلمين؛ ليفتنوهم عن دينهم، بل ويتحالفون مع المنافقين ضد الإسلام وأهله، فأنزل الله تعالى هذه الآية؛ لتنهى المؤمنين عن موالاة الكفار[1]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 100 – 101][2]، وهذه الآية فيها فضح لأهل الكتاب لما يصدر منهم من أعمال خبيثة في شق الصف المسلم ووحدته، فجاء النهي الرباني عن طاعتهم؛ لأن أهل الكتاب يعملون على رد المؤمنين عن إيمانهم ليصبحوا كافرين، فجاء النهي ليحفظ على العبد دينه وإيمانه.

4 – إن من الولاء والبراء ما هو شطر العقيدة وركنها الثاني الذي لا تتم إلا به، وهو الكفر بالطاغوت، حيث قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [سورة البقرة: 256]، فلا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا كفر بالطاغوت الذي هو كل متبوع، أو مرغوب، أو مرهوب من دون الله، فقبول الإيمان والاستمساك بالعروة الوثقى مستلزم للكفر بالطاغوت[3].

---

(1) انظر: الواحدي، أسباب النزول (ص104 – 105).

(2) عن سبب نزول الآية المائة من آل عمران ما ذكره الواحدي: "عن عكرمة قال: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال من الجاهلية، فلما جاء الإسلام اصطلحوا وألف الله بين قلوبهم، وجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعراً قاله أحد الحيين في حربهم، فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال الحي الآخرون قد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، قال فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعا كما كانت، فنادى هؤلاء يا آل أوس، ونادى هؤلاء يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبي ﷺ، حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون إليه، فلما فرغ ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضا، وجثوا يبكون". الواحدي، أسباب النزول (ص119).

(3) انظر: القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام (ص45).

5 – إن عقيدة الولاء والبراء تحقق للعبد محبة خالقه له وغفران ذنوبه، ولا تتحقق محبته سبحانه إلا باتباع رسوله ﷺ وطاعته وموالاته، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 31–32]، وقال الإمام ابن تيمية في هذه الآية: "فاتباع سنة رسوله ﷺ واتباع شريعته باطناً وظاهراً موجب محبة الله، كما أن الجهاد في سبيله وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها"(1).

6 – الولاء والبراء سبب لحلاوة الإيمان، فعن أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**"(2).

7 – يعد الولاء والبراء أوثق عرى الإيمان؛ فعن البراء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**أَوْثَقُ عُرَى الْإِسْلَامِ الْحَبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّه**"(3).

8 – إن الولاء والبراء سبب للفوز بمرضاة الله، والنجاة من سخطه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: 149–150]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: 113]، وقال ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ**"(4).

9 – ومن أهمية الولاء والبراء – أيضاً – التأسي بالأنبياء والرسل عليهم السلام في تطبيقهم لهذه العقيدة، التي تعود على العبد بالأجر والثواب العظيم، حيث كانوا لا يتواطؤن مع أعداء الله مهما كانت صلة القرابة، فالقرابة هي قرابة الدين، وخير مثال لتحقيق هذه العقيدة الربانية نبي الله إبراهيم عليه السلام فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: 26–28]، كما ولنا الأسوة

---

(1) ابن تيمية، التحفة العراقية (ص76)، بتصرف يسير.

(2) [البخاري: صحيح البخاري، الإيمان/حلاوة الإيمان، 12/1: رقم الحديث 16].

(3) [ابن أبي شيبة: كتاب الإيمان، 42/1: رقم الحديث 110]، وبلفظ مشابه [الألباني: صحيح الجامع الصغير وزياداته، 403/1: رقم الحديث 2009]، وقال الألباني: إنه حديث حسن.

(4) [البخاري: صحيح البخاري، الرقاق/التواضع، 105/8: رقم الحديث 6502].

الحسنة في رسولنا ﷺ في جميع أقواله وأفعاله، ومن ذلك تحقيقه لعقيدة الولاء لله ودينه والبراء من الشرك وأهله، حيث قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: 21].

10 – وبتطبيق هذه العقيدة يحصل المؤمن على النعم والخيرات والسعادة في دنياه، ودليله قوله تعالى في حق نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: 49]؛ حيث إن الله قد أبدله بمن هو خير، فوهب له من الذرية الصالحة ليكونوا أنبياء الله، فاعتزال الكفار ومفارقتهم سبب لحصول المسلم على النعم.

11 – إن هذه العقيدة تمثل خط حماية للمسلمين سياسياً، فالولاء والبراء يوجب على المسلم موالاة ومناصرة الإسلام وأهله، والبراء ومعاداة الكفر وأهله، وعدم الاستعانة بالكفار بأي شكل كان، فطاعتهم هلاك وخسران، وهذا البراء بدوره يحقق الثمرات العظيمة للأمة الإسلامية في الحفاظ على أمنها وكيانها، فقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: 149].

12 – ومن أهمية الولاء والبراء أنها تحقق السلامة من الفتن ووقوع الفساد بين الناس؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: 73]، "أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وقعت الفتنة في الناس، وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمن بالكافر، فيقع بين الناس فساد منتشر طويل عريض"[1]، وهذا من أعظم المصائب التي تصيب الأمم وتهدمها، ولكن بتحقيق هذه العقيدة تتحقق العصمة للأمة الإسلامية من الهلاك، وهذا من باب الأخذ بالوقاية، ومعلوم عندنا جميعاً أن الوقاية خير من العلاج.

13 – وعقيدة الولاء والبراء لها أثر عظيم في الحياة الاجتماعية؛ إذ إنها سبب الألفة والإخاء بين أفراد الأمة الإسلامية، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[آل عمران: 103]، " أي:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج4/98)، بتصرف يسير.

فصرتم بنعمته وبرحمته وبدينه الإسلام، إخواناً في الدين والولاية بينكم"[1]، وأيضاً موالاة الله ورسوله والمؤمنين كفيلة لأن تجعل المجتمع المسلم متماسكاً قوياً في وجه الأعداء؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[المائدة: 56].

المطلب الثالث: أدلة الولاء والبراء في سورة آل عمران.

إن القرآن الكريم قد أكد على معتقد الولاء والبراء، الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، والبراءة من الكافرين، ولقد قدم أنبياء الله عليهم السلام أروع المواقف التي أثبتت إيمانهم بالولاء والبراء قولاً وفعلاً؛ ليبلغوا رسالات ربهم على أكمل وجه، ويكونوا أسوة حسنة للمؤمنين ولمن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ولقد زخرت سور القرآن الكريم بالتحدث عن هذه العقيدة الأصيلة، ومن هذه السور سورة آل عمران موضوع البحث، حيث تضمنت الأدلة في عقيدة الولاء والبراء وما يتبعها من أحكام، وذلك على النحو التالي:

أولاً: النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء، ونفي الإيمان عمن يواليهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: 28].

لقد نهى الله تعالى المؤمنين عن موالاة الكافرين باتخاذهم أولياء وأعواناً وأنصاراً، والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد وشدد في ذلك بإخراج من يواليهم من دائرة الإسلام ودخوله في الكفر، حيث قال سبحانه: ﴿ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾، أي: أن الله بريء منه، فموالاة الكفار تنافي الإيمان ولا تجتمع معه[2].

ولقد استثنى الله تعالى من هذا النهي التقية[3] حيث قال تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾، وذلك عندما يكون سلطان الأعداء أقوى، ويخاف المسلم على نفسه فله أن يظهر لهم الموالاة باللسان دفعاً عن نفسه أذاهم له، بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان، فقال تعالى:

---

(1) البغوي، معالم التنزيل (ج486/1)، بتصرف يسير.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج313/6).

(3) التقية: مصدر توقى، واتقى وتوقيت الشيء أي حذرته، فهي تأتي بمعنى الحذر والخوف. انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج402/15)، وقال ابن عباس عن التقية: "هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئناً بالإيمان، ولا يقتل ولا يأتي مأثماً". القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج57/4)، بتصرف يسير.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[النحل: 106]، ولكن عليه إضمار العداوة لهم، وعدم مشاركتهم على ما هم عليه من الكفر، وعدم إعانتهم على أذى مسلم بفعل قط[1].

قال الإمام القرطبي عن حكم العلماء للتقية: "أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان... أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة"[2]، وقال صاحب كتاب (معالم التنزيل): "التقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية... ثم هذا رخصة، فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم"[3].

وإن هذه الرخصة – التقية – لا تتنافى مع الموالاة، فقد قال الإمام ابن القيم: "معلوم أن التقاة ليست بموالاة ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية وليست التقية موالاة لهم"[4].

وبالتالي العمل بالتقية لا يتعارض مع مفهوم الولاء والبراء في الإسلام، فالقاعدة الأساسية هي النهي عن موالاة الكافرين، ووجوب معاداتهم والمجاهرة بذلك في كل حال، باستثناء التقية التي أباح بها الإسلام في الحالات الخاصة، ما دام أنه لم يلحق ضرراً بالإسلام والمسلمين.

فسبحانه قد نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء، ونفي الإيمان عمن يواليهم، ولكنه استثنى التقية من هذا النهي الرباني، وأن الولاء والبراء أصل من أصول الدين، له أهميته البالغة خاصة أنه سبحانه قد توعد بالوعيد الشديد لمن يتهاون فيه، ويتضح ذلك في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28].

ولكن لا بد من التنويه لأمر غاية في الأهمية وهو أن التقية رخصة قد أجازها الشرع في حالات وشروط خاصة – كما ذكرنا –، إذ إنه لا يمكن الأخذ بها دون مبررات، أو أن يتخذها المرء وسيلة للخداع والمداهنة، أو أن يجعل الدنية في دينه من أجل مصالح خاصة ونحو ذلك كما يفعل الشيعة الاثنا عشرية، إذ إنهم يتخذونها تمويهاً للأمور، ومخادعة لغيرهم خاصة مع أهل السنة والجماعة؛ ليبطنوا عقائدهم الخبيثة، ولا يقتصر الأخذ بها عندهم في كل الحالات والأوقات فحسب، بل هي عندهم دين وعقيدة من العقائد التي لا يتم إيمان مرء إلا بها، إذ هي عندهم أصل من

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج313/6).

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج182/10– 183)، بتصرف يسير.

(3) البغوي، معالم التنزيل (ج428/1)، بتصرف يسير.

(4) ابن القيم، بدائع الفوائد (ج69/3).

أصول الدين، وأفضل من سائر أركان الإسلام، فهي تمثل تسعة أعشار الدين، وباقي فرائض الدين تمثل العشر الباقي[1]، فقد أورد الكليني بسنده إلى أبي جعفر عليه السلام قوله: "التقية من ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له"[2]، فالتقية في المذهب الشيعي أصل ثابت مطرد، وليست حالة عارضة مؤقتة.

ثانياً: النهي عن اتخاذ بطانة من دون المؤمنين.

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: 118-120].

نزلت هذه الآيات في جماعة من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين، ويواصلون رجالاً من اليهود، كانت تجمعهم قبل الإسلام قرابة وصداقة وجوار وحلف وغير ذلك، فبقيت المودة بينهم، وأصبحوا يطلعونهم على أسرارهم، وما يضمرونه على أعدائهم، فنهاهم الله عن الركون إليهم، واتخاذهم بطانة[3] من دون المؤمنين، خوف الفتنة منهم[4]، نهاهم سبحانه عن مباطنة ومداهنة أعداء الله؛ إذ إنهم لا يقصرون بالفساد والشر والمكر لهذا الدين، كما يبين الله تعالى حقيقة مهمة ليلفت بها أنظار المؤمنين وهي أنهم مهما أحبوهم واتخذوهم بطانة لهم فإنهم لن يبادلوهم تلك المحبة إلا بالعداء لدين الله، فهم يحزنون بنزول الخير على المسلمين، ويفرحون بنزول الشدائد والمصائب عليهم، ومن كانت له مثل تلك الصفات فهو ليس أهلاً لأن يتخذ بطانة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**"[5]، فعلى المؤمن التحري في اتخاذ صاحبه واختياره؛ لأن الصحبة تؤثر في إصلاح أمره أو إفساده.

---

(1) انظر: الكليني، الكافي (ج2/217).

(2) المصدر السابق (ج2/217).

(3) البِطانة: خلاف الظهارة أي خلاف الظاهر وهي السريرة، وبطانة الرجل: خاصته، انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج13/55).

(4) انظر: الواحدي، أسباب نزول القرآن (ص123- 124).

(5) [الترمذي: سنن الترمذي، الزهد، 4/589: رقم الحديث 2378]، قال الألباني: إنه حديث حسن.

ولذلك يتعين على المسلم اتخاذ بطانته من المسلمين، فالمسلمون بعضهم أولياء بعض على الإطلاق، مهما حدث بينهم من خلافات أو منازعات، ولقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وليعلم أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه"[1]، وقال – أيضاً –: "فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه؛ فإن الظالم لا يقطع الموالاة الإيمانية"[2].

ثالثاً: وجوب موالاة الله ورسوله وطاعتهما، والنهي عن طاعة الكافرين.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: 149–150].

في هذه الآيات يحذر الله تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين من المنافقين والمشركين وموالاتهم؛ لأنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الكفر الذي عاقبته الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة، ويأمر الله ﷻ المؤمنين بطاعته وموالاته ووجوب ذلك، والاستعانة به والتوكل عليه، فهو المستحق وحده لأن يكون ولياً وناصراً، وهو خير الناصرين[3].

يقول الإمام ابن تيمية: "الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة فإنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه وسلطانه، كتابه فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أي صنف كان، ومن كان كافراً وجبت معاداته من أي صنف كان"[4].

رابعاً: تحذير الله تعالى المؤمنين من طاعة أهل الكتاب.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 100–101].

فقد حذر الله تعالى عباده المؤمنين عن طاعة طائفة من أهل الكتاب، الذين يحسدون المؤمنين بامتنان الله عليهم بالإسلام، وما منحهم الله به ببعث رسول الهدى محمد ﷺ خاتم الأنبياء

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج28/209).

(2) المصدر السابق (ج28/208).

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/131– 132)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص151).

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج28/228).

والمرسلين؛ حيث إنهم يحرصون على رد المؤمنين عن دينهم، فطاعتهم وموالاتهم تورث الضلال والكفر بعد الإيمان، فوجب على المسلم عدم طاعتهم وموالاتهم أو الاستعانة بهم في أي أمر من أمور المسلمين(1).

ومن خلال ما سبق فأنه يُحكم على كل من يوالي المشركين من دون المؤمنين ويناصرهم على المسلمين بحكم الله تعالى عليهم، ألا وهو الكفر، وخروج من يفعل ذلك من دائرة الإسلام، وأنه لاحقه الخسران في الدنيا والآخرة، ومن هنا تتبين الأهمية البالغة للولاء والبراء في الإسلام وخطورة التهاون به، فيتعين على المسلم الولاء لله ولرسوله ﷺ والمؤمنين، والبراء من الشرك وأهله.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج86/2).

الفصل الثانـي

النبوات والكتب السماويـة

في سورة آل عمران

المبحث الأول

وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، وبيان وظيفتهم

لقد منَّ الله على عباده أن بعث إليهم أنبياء ورسلاً؛ لهدايتهم إلى طريق النجاة، الذي فيه سعادة الدارين، فكانت الضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم: "فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، بهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير"(1).

وإن هذه المنة الإلهية لا بد من مقابلتها بالإيمان بهم جميعاً وتصديقهم، فهم سفراء الله وحملة وحيه الذين اصطفاهم واجتباهم إليه؛ حيث إنهم قد اتصفوا بأسمى الصفات التي أهلتهم للقيام بمهامهم التي كلفهم الله بها، التي من أعظمها وأشرفها تبليغ كلمة التوحيد، فتحملوا الصعاب والمشاق وقاموا بوظائفهم الموكلة إليهم على أكمل وجه؛ لتحقيق الهدف الذي أرسلهم الله من أجله.

---

(1) ابن القيم، زاد المعاد (ج1/68–69)، بتصرف يسير.

المطلب الأول: تعريف النبي والرسول لغةً واصطلاحاً.

أولاً: تعريف النبي والرسول لغةً.

أ – تعريف النبي لغةً:

جاء لفظ النبي في اللغة على وجهين: أحدهما مهموز، والآخر غير مهموز، فأما المهموز فهو مأخوذ من النبأ والإنباء، أي: أن الفعل يخبر عن حقيقتك لا مجرد القول، والنبي هو الذي أنبأ عن الله، وأما غير المهموز فهو مأخوذ من النبوة والنباوة، ويفيد الارتفاع من الأرض، ويدل على ارتفاع الشيء عن غيره أو تَنَحٍّ عنه، وذلك لارتفاع قدره ومنزلته وتشريفه على سائر الخلق، ولقد قالت العرب: النبي هو العلم من أعلام الأرض التي يُهتدى بها، ومنه اشتقاق النبي فهو أرفع خلق الله، كما يقولون: النبي هو الطريق[1].

فيتضح من ذلك أن لفظ النبوة في اللغة يفيد معاني متعددة، منها: الارتفاع عن الشيء وتميزه، والخبر المفيد البالغ الأهمية، والطريق الواضح البين.

ب – تعريف الرسول لغةً:

الراء، والسين، واللام أصل واحد، يفيد الانبعاث والامتداد[2]، ولقد جاء في اللغة أن الرسول: هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه، أخذاً من قولهم "جاءت الإبل رَسَلاً" أي أنها متتابعة، والرسول: بمعنى الرسالة، يؤنث ويذكر، وسمي الرسول رسولاً؛ لأنه صاحب رسالة، وأرسلت فلاناً في رسالة فهو مرسل ورسول، والجمع: أَرْسُل، ورُسُل، ورُسْل، ورُسَلاء، وقد يكون لفظ الرسول للواحد، والجمع، والمؤنث بلفظ واحد، ومثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: 16][3].

والإرسال في اللغة يفيد معاني مختلفة، من ذلك أنه يدل على: الإطلاق والتخلية، أو التسليط، أو مأخوذ من التوجيه، وبه فسر بإرسال الله ﷻ أنبياءه عليهم السلام وكأنه سبحانه قد وجههم لإنذار عباده[4].

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج384/5 – 385)، وابن منظور، لسان العرب (ج302/15).

(2) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج392/2).

(3) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج283/11 – 284).

(4) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ص1006)، والزبيدي، تاج العروس (ج72/29).

ثانياً: تعريف النبي والرسول اصطلاحاً.

النبي هو: إنسان ذكر حر أوحى الله تعالى إليه، ونبأه بأمره ونهيه وخبره، ويكون بعثه لتقرير شريعة من قبله، ينبئ ما أنبأه الله به، بحيث لا يلقى تكذيباً، كونه مبعوثاً ومرسلاً إلى قوم مؤمنين، وأما الرسول فهو: إنسان ذكر حر أوحى الله تعالى إليه بشرع ورسالة يبلغها للناس، فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، فيلقى تكذيباً منهم أو من بعضهم، كونه مبعوثاً ومرسلاً إلى قوم كافرين(1).

المطلب الثاني: وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، وعدم التفرقة بينهم.

المسألة الأولى: وجوب الإيمان بالرسل.

إن الإيمان بالأنبياء والرسل واجب من واجبات الدين، الذي لا يقوم إلا به، وهو أحد أركان الإيمان الستة، التي لا تصح عقيدة مؤمن ولا يكتمل إيمانه إلا بها، فقد قال تعالى: ﴿ **مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران:179]، ففي الآية أمر بوجوب الإيمان بالرسل، واقتران الإيمان بالله بالإيمان بالرسل فيه دلالة على الإلزام والوجوب، فمن لم يؤمن بالرسل لم يؤمن بالله حق الإيمان.

وقال رسولنا الكريم ﷺ عندما سئل عن الإيمان بأنه: "**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**"(2)، فهي الأركان التي يجب التصديق والإيمان بها، دون استثناء أو استبعاد أي ركن منها.

هذا وغيره من الأدلة التي لا تحصى، إنما هي دليل على وجوب الإيمان بالرسل أجمعين، وهو لازم من لوازم الإيمان.

ووجوب الإيمان بالأنبياء والرسل شمل – أيضاً – الأنبياء، وذلك بإيمان كل نبي بغيره من الأنبياء، سواء أكان قبله أو بعده، ومهما كان شأنه وتفضيله عند الله تعالى؛ لأنه سبحانه قد أمرهم بتصديق كل منهم الآخر، مهما بلغ أي مبلغ من العلم والنبوة، ومهما كملت رسالة أي منهم، فعليه الإيمان بالرسول الذي يأتي من بعده، فقد قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم**

---

(1) انظر: ابن تيمية، النبوات (ج714/2، 717)، والخميس، أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة (ص469). هذا التعريف استنباط من كلام الإمام ابن تيمية، أما عبارة (إنسان ذكر حر) التي هي من شروط النبوة، وذكرها في التعريف من باب الوصف والشرح، قد ذكرها صاحب كتاب (أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة) في تعريف كل من النبي والرسول اصطلاحاً، علماً بأنها من ضمن نقولاته عن العلماء في تعريفاتهم.

(2) سبق تخريجه: (ص9) من هذا البحث.

مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران: 81–82]، فهذا الميثاق بين الله وأنبيائه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام بالتصديق، والنصرة، والمتابعة لبعضهم البعض، حتى ولو بعث محمد ﷺ في حياة أي منهم، فإن عليهم الإيمان به ونصرته، فهم المقرون على ذلك، الممتثلون لأمر الله عز وجل، وحاشا خير خلق الله عن مخالفته[1].

قال الإمام ابن تيمية: "فالأنبياء يصدق متأخرهم متقدمهم، ويبشر متقدمهم بمتأخرِهم؛ كما بشر المسيح ومن قبله بمحمد، وكما صدق محمد جميع النبيين قبله... والأنبياء، وأتباعهم، كلهم مؤمنون، مسلمون، يعبدون الله وحده بما أمر، ويصدقون بجميع ما جاءت به الأنبياء"[2].

ولقد ذكر علماؤنا الأجلاء كلاماً قيماً في وجوب الإيمان بالرسل، وعبارات جميلة لها وقعها في النفوس، ومن ذلك قول شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية: "والإيمان بالنبوة أصل النجاة والسعادة. فمن لم يحقق هذا الباب اضطرب عليه باب الهدى والضلال، والإيمان والكفر، ولم يميز بين الخطأ والصواب"[3]، وقال أيضاً: "دلائل النبوة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر البين لكل أحد؛ كالحوادث المشهودة... فإن الخلق كلهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق والإقرار برسله"[4].

المسألة الثانية: عدم التفرقة بين الرسل.

إن من لوازم الإيمان بالرسل التصديق بهم جميعاً وعدم التفرقة بينهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84]، فقد أخبر الله تعالى بقضية عقدية مهمة ألا وهي جوب الإيمان بهم من غير استثناء لأحد منهم، حيث نهانا سبحانه عن التفريق بينهم، فبعد ذكره لبعض الأنبياء بأسمائهم ووجوب الإيمان بهم ضم حكمه هذا لباقي الأنبياء الذين بعثهم إلى عباده، وذلك بقوله: ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج67/2).

(2) ابن تيمية، النبوات (ج1088/2–1090)، بتصرف يسير.

(3) المصدر السابق (ج507/1).

(4) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج435/5).

قال الإمام الطبري: "والمؤمنون كلهم آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا يفرق الكل منهم بين أحد من رسله، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض، ولكنهم يصدقون بجميعهم، ويقرون أن ما جاؤوا به كان من عند الله، وأنهم دعوا إلى الله وإلى طاعته، ويخالفون في فعلهم ذلك اليهود الذين أقروا بموسى وكذبوا عيسى، والنصارى الذين أقروا بموسى وعيسى وكذبوا بمحمد ﷺ، وجحدوا نبوته، ومن أشبههم من الأمم الذين كذبوا بعض رسل الله، وأقروا ببعضهم"[1].

ولقد حكم الله ﷻ على كل من يؤمن ببعض الأنبياء ويكفر ببعض، حتى ولو كان الكفر بواحد منهم فقط أنه من الكافرين؛ لأن هذا من باب التفريق بينهم المنهي عنه، حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ [النساء: 150 – 151].

قال الإمام ابن تيمية: "وقد اتفق المسلمون على ما هو معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنه يجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين وبجميع ما أنزله الله من الكتب، فمن كفر بنبي واحد تعلم نبوته مثل إبراهيم ولوط وموسى وداود وسليمان ويونس وعيسى فهو كافر عند جميع المسلمين حكمه حكم الكفار وإن كان مرتداً، استتيب، فإن تاب وإلا قتل"[2].

والكفر برسول واحد هو كفر بجميع الرسل، ومعلوم أن كل أمة قد كذبت رسولها، حيث قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴾[آل عمران: 184]، فيترتب عليه أن تكذيب أي أمة لرسولها يعد تكذيباً لجميع الرسل؛ لأن الرسل من أولهم إلى آخرهم حملة رسالة واحدة، ودعاة إلى دين واحد، فوجب الإيمان بهم جميعاً[3].

ولقد توعد الله تعالى أهل الكتاب الذين فرقوا في الإيمان بأنبياء الله ورسله، ومن ذلك كتمانهم لنبوة محمد ﷺ وجحودها، رغم أخذ الله الميثاق والعهد عليهم باتباعه، ولكنهم اختاروا الدون واستبدلوه بما هو خير لهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى:﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج126/6)، بتصرف يسير.

(2) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج371/2).

(3) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص16).

﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: 187]، ومثل هذا الفعل ليس بغريب عليهم، بل هي عادتهم في رسل الله، فقد تبرأت اليهود من عيسى عليه السلام من قبل، فكانت عاقبتهم وعاقبة كل من يفرق في الإيمان ببعض رسل الله تعالى دون بعض الهلاك والخسران المبين.

المطلب الثالث: النبوة اصطفاء من الله، وهي للرجال دون النساء.

المسألة الأولى: النبوة اصطفاء من الله.

لقد اصطفى الله من عباده أنبياءَ ورسلاً، واجتباهم ليكونوا نبراساً يضيء طريق الحق للعباد، وأنبأهم من أنباء الغيب ما يشاء، وأطلعهم ما لم يطلع غيرهم منها بما يشاء، فقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: 179].

ومن رحمته سبحانه بعباده وكمال امتنانه عليهم أنه اصطفى لهم رسلاً بشراً من جنسهم؛ ليسهل مخاطبتهم وفهمهم وتلقيهم الدعوة ومجالستهم، دون أي حواجز كالخوف وغيره، فقد قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:164].

وإن النبوة منحة إلهية، واصطفاء رباني، لا يتحصل بالكسب والجد والاجتهاد، ولا بتكلف أنواع العبادات واقتحام أشق الطاعات، أو العمل على تأديب النفس، وتهذيبها، وتنقية الخواطر، وتطهير الأخلاق، ورياضة النفس والبدن، فإن ذلك كله لا سبيل فيه للنبوة بأي حال من الأحوال[1].

وإن هذا الاصطفاء إنما هو نابع من حكمته سبحانه، الذي يعلم الظاهر والباطن، والمؤهل لحمل رسالته، ولا يخفى علينا ما ورد ذكره في القرآن الكريم من أن مشركي قريش قد اعترضوا وطلبوا من الله أن تكون النبوة والرسالة لرجل عظيم المقدار، كبير في أعينهم، من إحدى القريتين، وهي مكة والطائف، فقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ

(1) انظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج267/2- 268).

يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[الزخرف: 31 – 32]، ولكن المولى ﷻ رد عليهم بأن هذا الأمر ليس مرجوعه وحكمه إليهم، بل مرده إلى الله تعالى وحده، فهو المقسم والمدبر لذلك كله دون سواه، فالنبوة هي اصطفاء واجتباء منه سبحانه، ومنة يتفضل بها على من يشاء من عباده[1].

المسألة الثانية: النبوة محصورة بالرجال دون النساء.

تقدم أن النبوة اصطفاء من الله تعالى، وأن المعلوم من الدين بالضرورة أن النبوة محصورة في الرجال من البشر خاصة دون النساء، ولكن هناك من توهم أن كل اصطفاء من الله تعالى هو النبوة، وقد ترتب على هذا القول مسائل شاذة، ومن تلك المسائل القول بجواز نبوة بعض النساء، حيث نقل أهل العلم اختلافهم معهم ونقضهم لما ادعوه، علماً بأن هذا الخلاف كان ضعيفاً؛ لمصادمته صريح الآيات القرآنية، علماً بأن هناك اتفاقاً عند الجميع في نفي حمل الرسالة عن المرأة؛ حيث إنه لم ينقل خلاف في ذلك، وإنما كان النزاع في مسألة جواز النبوة عند بعض النساء.

وممن قال بجواز نبوة النساء:

- الإمام ابن حزم[2] حيث قال: "وهذا أمر لا ينازعون فيه، ولم يدع أحد أن الله تعالى أرسل امرأة وإنما الكلام في النبوة دون الرسالة"[3]، وقال – أيضاً –: "فقد جاء في القرآن بأن الله ﷻ أرسل الملائكة إلى نساء فأخبروهن بوحي حق من الله تعالى فبشروا أم إسحاق بإسحاق... لا يمكن البتة أن يكون هذا الخطاب من ملك لغير نبي بوجه من الوجوه ووجدناه تعالى قد أرسل جبريل إلى مريم أم عيسى عليهما السلام يخاطبها... فهذه نبوة صحيحة... ووجدنا أم موسى عليهما

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج225/7– 226).

(2) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، الفارسي الأصل، الأندلسي القرطبي، أبو محمد، ولد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاث مائة، كان عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، وانتسب إلى مذهبه كثير من الناس في الأندلس يقال لهم "الحزْمية "، وكان ماهراً – أولاً – في الأدب، والأخبار، والشعر، وفي المنطق، وأجزاء الفلسفة، مما أدى إلى تأثره بها بشكل غير سليم، فترتب على ذلك أمور، منها: الأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث، ومن أشهر مؤلفاته: كتاب (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال)، و(الفصل في الملل والأهواء والنحل)، توفي سنة 456هـ. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (ج184/18 – 187)، والزركلي، الأعلام (ج254/4).

(3) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج12/5).

الصلاة والسلام قد أوحى الله إليها بإلقاء ولدها في اليم وأعلمها أنه سيرده إليها ويجعله نبياً مرسلاً فهذه نبوة لا شك فيها"[1].

- الإمام القرطبي حيث قال: "والصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين"[2].

ومن أبرز الأدلة التي استدلوا بها على نبوة النساء:

1 – أن الاصطفاء الوارد في حق بعض النساء كمريم عليها السلام إنما هو النبوة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ** ﴾ [آل عمران: 4].

2 – قول النبي ﷺ: "**كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ[3] عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ[4] عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**"[5].

حيث فسر الإمام ابن حزم والإمام القرطبي المقصود من الكمال المذكور في الحديث على أنه الرسالة والنبوة، علماً بأن الرسالة محصورة للرجال، وأما النبوة فقد شاركهم فيها بعض النساء[6].

---

(1) ا بن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، (ج13/5)، بتصرف يسير.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج83/4).

(3) قال العلماء في معنى قوله ﷺ:"**وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**": هو أن الثريد من كل طعام أفضل من المرق، فثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، والثريد الخالي من اللحم، أفضل من مرقه، فالمراد من الفضيلة هو نفعه، والشبع منه، وسهولة المساغ، وطعمه اللذيذ، وتمكن الإنسان من أخذ كفايته منه بسرعة، وغيرها من الفوائد، وهذا هو فضل الثريد على سائر الطعام، أما فضل عائشة على النساء، ليس فيه تصريح على تفضيلها على آسيا ومريم عليهما السلام، بل يحتمل أن يكون المراد هو تفضيلها على نساء هذه الأمة والله تعالى أعلم. انظر: النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ج199/15)، بتصرف يسير.

(4) أصل الثرد في اللغة: من الهشم، وما يهشم من الخبز ويبل بماء القدر وغيره يسمى ثريداً، والثرد يطلق عليه الفت، والثريد في الغالب لا يكون إلا من اللحم، انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج63/14)، وابن منظور، لسان العرب (ج102/3).

(5) [البخاري: صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء/قول الله تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ**﴾ [التحريم:11] – إلى قوله – ﴿**وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾ [التحريم:12]، 158/4: رقم الحديث 3411]، و[مسلم: صحيح مسلم، فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم/فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها، 1886/4: رقم الحديث 2431].

(6) انظر: ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج105/4)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج83/4)، ولقد بيَّن الإمام القرطبي ثبوت النبوة لمريم عليها السلام؛ لأنه قد أوحي إليها بواسطة الملك مثلها مثل ما أوحي لسائر الأنبياء، وأما نبوة آسية امرأة فرعون فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة، بل على صديقيتها وفضلها، والحاصل في هذا الأمر من خلال قوله هو ثبوت النبوة لبعض النساء وجوازها. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج83/4).

3– أن الله تعالى قد ذكر مريم عليها السلام مع الأنبياء عليهم السلام في زمرتهم في سورة مريم، ثم قال بعدها: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ [مريم: 58]، وفهموا أن لفظة النبيين الواردة في الآية الكريمة قد تضمنتها معهم، وأن ذلك قرينة دالة على نبوتها.

قال ابن حزم: "ووجدنا الله تعالى قد قال وقد ذكر من الأنبياء عليهم السلام في سورة كهيعص ذكر مريم في جملتهم... وهذا هو عموم لها معهم لا يجوز تخصيصها من جملتهم"(1).

4 – إرسال ملائكة لبعض النساء ومخاطبتهن مثل ما حدث مع مريم عليها السلام عندما خاطبتها الملائكة وأعلمتها بأمر كائن قبل أن يكون، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾[آل عمران:45]، حيث ذكروا أن هذا الإرسال مختص بالأنبياء، واستدلوا على ذلك بما حصل مع زكريا عليه السلام عندما دعا ربه بأن يهب له الذرية، حيث قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾[آل عمران:39]، كما أضافوا إلى ذلك كل من أوحى الله تعالى إليه بأمر وينبئه به دون وساطة أنها نبوة في حقه، وذلك مثل ما حدث مع أم موسى عليهما السلام عندما أوحى الله تعالى إليها بإلقاء ولدها في اليم، قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾[القصص:7]، وهذا الإيحاء عندهم هو النبوة لا الإلهام الذي هو طبيعة، كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... ﴾ [النحل: 68](2).

مناقشة الأدلة، والرد عليها:

أولاً: من المسلمات التي لا شك فيها أن أمر النبوة إنما هو محصور بالرجال من البشر دون النساء، والأدلة كثيرة في هذا الباب، منها قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء:7]، مع العلم أن هذا دليل يستدل به على أن النبوة والرسالة في البشر لا إلى الملائكة؛ لأنه قال بعدها: ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾[الأنبياء:8]، ولو كان المقصود مشاركة النساء للرجال في أمر النبوة

(1) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج13/5).

(2) انظر: المصدر السابق (ج12/5– 13).

لكانت الآية: وما أرسلنا قبلك إلا بشراً، أو وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ونساء، وتخصيص الرجال دون النساء في أمر النبوة والرسالة فيه دلالة واضحة على أنها محصورة بهم.

ثانياً: أن الاصطفاء في اللغة يدل على خلوص الشيء من كل شوب وكدر، فصفوة كل شيء خالصه وخيره، واصطفاء الله لعبده يكون بإيجاده إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره من العباد، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: 33]، ويكون بمعنى الاختيار والحكم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾ [الصافات:153][1]، أما في اصطلاح أهل العلم فإن حقيقته: افتعال من التصفية، فهو صفوة الشيء وخياره، وقد صفى الله من اصطفاهم من الأكدار[2].

وبالتالي نجد أن مفهوم الاصطفاء عام، فهو ليس خاص بالنبوة، بل للأنبياء وغيرهم، وقد ورد في الآية الكريمة أن الله اصطفى آدم ونوح عليهما السلام وهما من الأنبياء، واصطفى آل عمران الذين منهم الأنبياء، ومنهم من اصطفاهم الله ولم يكونوا أنبياء، وبذلك يتبين أن الاصطفاء لا يلزم منه النبوة ولا يشترط فيه ذلك، فليس من المعقول أن يكون كل فرد من آل عمران نبياً، ومثل ذلك ما ورد في حق صحابة رسول الله ﷺ أن الله قد اصطفاهم[3]، حيث قال تعالى عنهم: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [النمل:59]، فهم من صفوة العباد وخيارهم عند الله تعالى.

فسبحانه قد اصطفى الأنبياء وغيرهم من عباده الصالحين كآل عمران وصحابة رسول الله ﷺ، وبذلك بطل استدلال قولهم بأن الاصطفاء يلزم منه النبوة، الذي بنوا عليه جواز نبوة النساء، والقول بنبوة مريم عليها السلام .

ومريم عليها السلام عندما اصطفاها الله تعالى إنما هو من باب التكريم لها والثناء عليها لا النبوة، فهي الصديقة، القانتة، العابدة، الطاهرة، التي نشأت من بيت طاهر، من آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين، وتفردت على غيرها من النساء بمجيء النبي عيسى عليه السلام من غير

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج292/3)، وابن منظور، لسان العرب (ج462/14-463)، والزبيدي، تاج العروس (ج426/38-427).

(2) انظر: ابن القيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين (ج100/4)، وابن القيم، طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص188).

(3) لقد بيَّن ابن عباس في رواية أبي مالك إن المقصود بعباده الذين اصطفى في سورة النمل أصحاب رسول الله ﷺ، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر:32]، واصطفاؤهم إنما هو افتعال من التصفية، حيث صفاهم من الأكدار. انظر: ابن القيم، أعلام الموقعين عن رب العالمين (ج100/4).

أب، علـى غيـر عـادة البشـر، وامتثالهـا وخضـوعها لأمـر ربهـا، كـل هـذا وغيره يؤهلهـا لأن تكـون مصطفاة عند الله تعالى، فالاصطفاء يشترك فيه الرجال والنساء الذين هم أهل لذلك، أما النبوة فهي محصورة بالرجال دون النساء.

ثالثاً: إن حديث النبي ﷺ: "**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء: إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران...**"[1] الذي استدلوا بـه علـى جواز نبوة النسـاء، والقول بنبوة آسيا امرأة فرعون ومريم عليهما السلام مخالف لما عليه جمهور العلماء من عدم نبوتهما، بل هما صِدِّيقتان ووليتان من أولياء الله الصالحين، ولفظ الكمال المذكور في الحديث لا يلزم ثبوت النبوة في حقهما؛ لأن الكمال يطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه، فالمراد من ذلك بلوغهما النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، أي التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى، والتمسك بها[2]، كما أنه ورد في بعض الأحاديث النص على أن خديجة ﵂ من الكاملات، وهذا دليل على أن الكمال لها ولغيرها ليس بكمال النبوة[3].

والقائلون بنبوة آسيا امرأة فرعون ومريم عليهما السلام قد فهموا أن كمال البشر إنما هو في مقام النبوة، ولكن الكمال المذكور في الحديث السابق غير كمال الأنبياء، فالكمال في حقهن هو الصِدِّيقية، والظاهر أنهما كانتا خير نساء عصرهما[4].

كما أنـه لا يفهم من وصف الصديقية لهما أنـه النبوة؛ فقد أخبرنا سبحانه في حق مريم عليها السلام: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75]، وهذا من الأدلة الظاهرة على عدم نبوتها، وأن وصفها بالصديقة لا يلزم منه النبوة، فقد وصف الله تعالى ابنها عيسى ﵇ بالرسالة ووصفها بالصديقية في الآية نفسها، وهو أعلى مقام لها في الوصف القرآني، فدل هذا على أنها صديقة وليست نبية، ولو كانت نبية كما يزعمون

---

(1) سبق تخريجه: (ص136) من هذا البحث.

(2) انظر: ابن حجر، فتح الباري (ج447/6)، وشرح النووي (199/15).

(3) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص87).

(4) انظر: المناوي، زين الدين محمد. فيض القدير شرح الجامع الصغير (ج51/5). وقد قال المناوي عن الكمال: "كمال المرء في سبعة: العلم والحق والعدل والصواب الصدق والأدب والكمال، من هذه الخصال موجود في كثير من الرجال بفضل العقول وتفاوتها؛ لأن المعرفة تبع للعقل والنساء ناقصات عقل فعقلهن على النصف من الرجال؛ ولهذا عدلت شهادة اثنتين رجلاً (ولم يكمل) بضم الميم (من النساء إلا آسية) بنت مزاحم... (ومريم بنت عمران) أم عيسى فإنهما برزتا على الرجال لما أعطيتا من سلوك السبيل إلى الله". المرجع السابق، (ج51/5)، بتصرف يسير.

لقال عنها صديقة نبية، كما قال في حق إدريس عليه السلام إنه كان صديقاً نبياً في قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴾[مريم:56]، وهذا إنما يدل على عدم نبوتها[1].

رابعاً: إن الآية الكريمة التي استدلوا بها على نبوة مريم عليها السلام في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ ... ﴾ [مريم: 58]، حيث أدرجوا مريم عليها السلام في قائمة الأنبياء الذين أنعم الله عليهم، محتجين بذلك أن السورة قد تحدثت عنها وعن بعض الأنبياء قبل هذه الآية، فهذه ليست بقرينة قطعية، ولا تثبت نبوة بما هو ظني، فأمر النبوة لا بد له من دليل قطعي لثبوته.

خامساً: إن دليل إرسال ملائكة لبعض النساء ومخاطبتهن مثل ما حدث لسارة أم إسحاق، ومريم أم عيسى عليهما السلام، أو الوحي إليهن كما حدث مع أم موسى عليها السلام، وتفسيره على أنه النبوة في حقهن باطل لأمور، منها:

- أنه لم يرد دليل صريح من القرآن الكريم أو السنة النبوية على نبوة أحد من النساء، وقد حكى الإجماع بذلك، وأقر على عدم جوازه[2].
- إن خطاب الملائكة لبعض البشر لا يلزم منه النبوة، فقد ورد من القصص أن ملائكة قد تحدثت مع بعض البشر ولم يكونوا أنبياء، كالقصة التي سمعها أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "**إن ثلاثة في بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله عز وجل أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن...**"[3]، ولم يكن أحد من هؤلاء الثلاثة نبياً، وكذلك الحال عندما خاطبت الملائكة أم إسحاق ومريم عليهما السلام لم تكن نبوة في حقهن.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج158/3).

(2) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج396/4)، حيث قال الإمام ابن تيمية: "وقد ذكر القاضي أبو بكر والقاضي أبو يعلى وأبو المعالي وغيرهم: الإجماع على أنه ليس في النساء نبية والقرآن والسنة دلا على ذلك". المصدر السابق، ص396، وللاستزادة في أقوال العلماء ينظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج423/4)، وابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري (ج447/6).

(3) [البخاري: صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء/ما ذكر عن بني إسرائيل، 171/4: رقم الحديث 3464]. و[مسلم: صحيح مسلم، الزهد والرقائق، ص1233: رقم الحديث 2964].

إن معنى الوحي في اللغة له إطلاقات متعددة ومعانٍ كثيرة، فهو يأتي بمعنى: الإيماء والإشارة، مثل: تسمية إشارة زكريا عليه السلام إلى قومه وحياً، حيث قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم:11]، كما يأتي بمعنى: الكتابة والرسالة وغيرها، فالوحي هو كل ما ألقي إلى الغير حتى علمه، سواء أكان في خفاء أو غيره، ولكن الأصل فيه الإعلام في الخفاء؛ ولذلك صار الإلهام يسمى وحياً[1]، وذلك كوحي الله تعالى لأم موسى كما في قوله تعالى:﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ...﴾ [القصص:7]، أي: أنه "وحي جاءها من الله، فقذف في قلبها، وليس بوحي نبوة"[2]، وقد يكون وحي الله إلى أم موسى وغيرها ممن ثبت أنه قد أوحي إليه إنما وقع مناماً، ومن المعلوم أن الوحي ما يكون مناماً، وهذا يقع لغير الأنبياء، كما أنه لو كان لفظ الوحي المراد منه النبوة لما توقف الرسول ﷺ في نبوة ذي القرنين رغم إخبار القرآن عنه بأن الله أوحى إليه؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86][3].

وبالتالي يرد فهم القائلين بأن كل من أوحى الله ﷻ إليه بأمر منبئاً إياه دون واسطة أنه وحي النبوة، فوحيه سبحانه لأم موسى، ووحيه إلى النحل، ووحيه للحواريين وغيره ليس بوحي النبوة الذي أوحاه الله تعالى لأنبيائه؛ وبهذا لا تثبت النبوة في حق بعض النساء بحجة وحي الله إليهن.

وإن سأل سائل عن الحكمة من كون رسل الله وأنبيائه للرجال دون النساء، فذلك لحكم منها[4]:

1 – إن النبوة والرسالة ليست أولى للنساء؛ لبنائها على الظهور والدعوة، والتنقل في البلاد، ومواجهة المكذبين ومحاجتهم ومخاصمتهم، وإعداد العدة والعتاد وقيادة الجيوش، وكل هذا لا يناسب طبيعة المرأة من الناحية النفسية والجسدية، فهي لا تقوى على تحمل ذلك وإنما هذا يناسب الرجال وحدهم.

2 – إن نشر الدعوة وإبلاغ ما أمر الله به يقتضي مخاطبة الناس رجالاً ونساءً، ومقابلتهم سراً وعلانيةً، ومخاطبة الرجال ومقابلتهم بدوره لا يستقيم في حق النساء؛ لأن الأصل في حالهن الاستتار والبعد عن مخالطتهم عرفاً وشرعاً، وهذا من باب المحافظة عليهن من أي سوء.

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج93/6)، وابن منظور، لسان العرب (ج379/15).

(2) الطبري، جامع البيان (ج519/19)، وهو قول قتادة.

(3) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص86).

(4) انظر: المرجع السابق (ص ص82 – 83).

3 – إن الله تعالى قد جعل القوامة للرجال على النساء في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 34]، والرسالة والنبوة تقتضي أن تكون القوامة للرسول على من يتبعه؛ لأنه يأخذ دور الآمر الناهي، والحاكم القاضي، ولو كانت الموكلة بذلك امرأة لما استطاعت أن تقوم بهذه المهمة على الوجه الأكمل، ولاعترض الكثير واستنكف عن متابعتها وطاعتها؛ إذ إنها لا تتوفر بها مؤهلات القوامة، خاصة أن الرسول ﷺ أخبر أن النساء ناقصاتُ عقلٍ ودينٍ(1).

4 – أن النساء يطرأ عليهن ما يعطلهن عن كثير من الوظائف والمهام، كالحمل والولادة، والاعتناء بالأولاد وتربيتهم، وكل ذلك وغيره يعد معيقاً لهن عن القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها.

ومن خلال ما سبق تبين أن النبوة لا تتحصل بالكسب والاجتهاد، بل هي اصطفاء من الله تعالى، وأنها محصورة بالرجال خاصة دون النساء، وليس كما ذهب إليه ابن حزم وغيره مما نقل عنهم من جواز نبوة النساء؛ وذلك لمصادمتها لصريح الآيات القرآنية، ومخالفته لما عليه الإجماع، ثم إن هذا القول هو قول شاذ لا يجوز الأخذ به، فقال الإمام ابن تيمية: "فهذا قول شاذ لم يسبق إليه أحد من السلف. وأبو محمد مع كثرة علمه وتبحره وما يأتي به من الفوائد العظيمة: له من الأقوال المنكرة الشاذة ما يعجب منه كما يعجب مما يأتي به من الأقوال الحسنة الفائقة"(2).

---

(1) لقد قال رسول الله ﷺ: **"يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ، فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ جَزْلَةٌ: وَمَا لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ؟ قَالَ: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَغْلَبَ لِذِي لُبٍّ مِنْكُنَّ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ؟ قَالَ: " أَمَّا نُقْصَانُ الْعَقْلِ: فَشَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ تَعْدِلُ شَهَادَةَ رَجُلٍ فَهَذَا نُقْصَانُ الْعَقْلِ، وَتَمْكُثُ اللَّيَالِيَ مَا تُصَلِّي، وَتُفْطِرُ فِي رَمَضَانَ فَهَذَا نُقْصَانُ الدِّينِ"**. [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، ككفر النعمة والحقوق، ص49 – 50: رقم الحديث 79]، فوصف النساء بأنهن ناقصات عقل ودين ليس معناه نقيصة في حق المرأة أو إهانتها على الإطلاق، بل المقصود من نقصان عقلها هو النسيان وقلة الضبط إجمالاً وأما تفصيلاً فقد تكون امرأة أكثر عقلاً من كثير من الرجال، وأما نقصان الدين فهو ما يقع من النساء كترك الصلاة والصوم في زمن الحيض، وهذه العبادات التي هي من أهم أمور الدين يكون وقوعها من النساء أنقص مما يقع من الرجال. انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج67/2 – 68)، و[البخاري، صحيح البخاري، 68/1] من شرح وتعليق مصطفى ديب البغا.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج396/4).

المطلب الرابع: الشروط الواجب توافرها في الأنبياء والرسل .

إن أنبياء الله ورسله عباد قد اصطفاهم الله بالوحي إليهم؛ ليبلغوا عن الله تعالى شريعته وأحكامه لخلقه، فهم الذين حملوا مهمة الدعوة إلى الله وتحملوا مشاقها، وهم الأسوة الحسنة التي نقتدي بها، ونسير على خطاهم فيها ونهتدي بالهدى الذي بعثهم الله به، وهم الذين قادوا أممهم في تبليغ رسالات ربهم، من أجل هذا كله كان لا بد أن تتوافر شروط لرسل الله حتى يتحقق اصطفاء الله لهم، ويكونوا على مقدرة من تحمل رسالة الله وتبليغها، والقيام بمهامهم على أكمل وجه، لتحقيق الهدف الذي أرسلهم الله من أجله.

كما ينبغي الالتفات إلى أن وجود هذه الصفات والشروط لا تمنع من إصابتهم ما يصيب سائر البشر من الأكل والشرب، والنكاح وإنجاب الأولاد، والنوم، والنسيان – فيما لا علاقة له بتبليغ أمر الله –، وإصابتهم بالمرض – غير المنفر –، والابتلاءات، والموت، ووقوعهم بالخطأ في بعض الأمور الإنسانية التي تندرج في باب الاجتهاد المأذون به، مع التنويه لهذا الخطأ حتى لا يكون محل للتأسي به، فهم بشر لهم صفات يشتركون بها مع سائر الناس؛ لتحقيق مقتضى بشريتهم، إلا أن لهم صفات خاصة وثابتة تؤهلهم لمقام النبوة والرسالة(1).

وفي هذا المطلب سيتم بيان بعض الشروط الواجب توافرها في الرسل التي تضمنتها سورة آل عمران، وذلك كما يلي:

1 – البشرية:

من حكمة الله تعالى أن يرسل إلى البشر رسلاً من أنفسهم، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: 164]، وهذا من باب رحمته سبحانه على عباده بأن يكون الرسول من جنسهم، كي يتمكنوا من مخاطبتهم وفهمهم أمور دينهم دون أية حواجز، فطبيعة الرسل كطبيعة كل البشر، وإن اختصوا بخصائص تمكنهم لأن يكونوا في مقام النبوة والرسالة إلا أن هذا لا يتعارض مع بشريتهم، وكون الرسل من البشر فإن هذا أبلغ في التأسي والاقتداء بهم.

---

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص379، 391).

فمن تمام الحكمة الربانية أن يبعث الله إلى البشر رسولاً منهم، وأن تكون طبيعته كطبيعة سائر البشر؛ ليكون في دعوته وأفعاله وأخلاقه حجة عليهم، وليؤكد على استطاعة البشر لتطبيق أوامر الله واجتناب نواهيه[1].

ولقد تناولت سورة آل عمران بشرية الأنبياء والرسل من جانبين[2]:

أولاً: مقتضى بشرية الأنبياء والرسل:

إن مقتضى كون الأنبياء والرسل من البشر أن يتصفوا بالصفات التي لا تنفك البشرية عنها، ومن ذلك:

- أن الرسل والأنبياء يصيبهم ما يصيب البشر من أعراض، فهم يأكلون ويشربون، وينامون، ويتزوجون ويولد لهم الذرية، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ [الأنبياء: 7 – 8][3]، وقال سبحانه: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: 38 – 39].
- وإن الرسل والأنبياء يحل بهم ما يحل على البشر وهو الموت، فهو حاصل لهم شأنهم شأن سائر البشر، وحتى نبينا محمد ﷺ مثله مثل كل الأنبياء في الموت، فقد أخبرنا المولى ﷻ عن سنته في البشر: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 144 – 145].

---

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص392).

(2) لقد تم الاستفادة من عنونة وطريقة تقسيم هذا الموضوع من صاحب كتاب الرسل والرسالات. انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص68 – 72)، علماً بأن مضمون هذا الموضوع لم يقتصر معلوماته على هذا الكتاب بل شمل مراجع ومصادر أخرى.

(3) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص68 – 69).

- تعرض أنبياء الله ورسله للابتلاء والمشاق كما يتعرض سائر البشر، حيث قال تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران: 146 – 148]، فالأنبياء لا يتعرضون للابتلاء فحسب، بل هم أشد الناس ابتلاء، فهم الأكثر إيماناً وصبراً على ما يصيبهم، فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: "**الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**"[1][2].

- إن الأنبياء والرسل ليس فيهم شيء من خصائص الألوهية والربوبية، فمقتضى كونهم بشراً أنهم ليسوا بآلهة، بل هم عباد خاضعون لله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: 79 – 80]، وقال سبحانه مبيناً لنبيه محمد ﷺ: ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ** ﴾ [آل عمران: 128]، فلا شيء من أمر الخلق موكول لأحد بل مرجعه إلى الله ﷻ وحده دون سواه، فقال الإمام الطبري: "وتأويل قوله: "ليس لك من الأمر شيء"، ليس إليك، يا محمد، من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إلي والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم

---

(1) [الترمذي، سنن الترمذي، الزهد/ما جاء في الصبر على البلاء، 601/4، رقم الحديث 2398]، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وقال الألباني – أيضاً –: إنه حسن صحيح.

(2) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص70–71).

وأحكم بالذي أشاء، من التوبة على من كفر بي وعصاني وخالف أمري أو العذاب، إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم الكبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي"[1].

ثانياً: اتصاف الأنبياء والرسل بالكمال البشري:

لا شك في أن أنبياء الله ورسله خيرة الخلق يمثلون أعلى مراتب الكمال البشري وأكملها، ولا بد لمن اصطفاه الله واختاره لأن يكون في مقام النبوة والرسالة أن يكون أكمل الناس في الصفات الإنسانية، سواء أكان كمالاً في الخلقة أو في الخلق، أو كمالاً في تحقيق العبودية لله ﷻ، فهم أصفى البشر قلوباً وأتقاها، وأزكاهم أخلاقاً وأكملها، وبهذا كله كانوا مثالاً للكمال الإنساني في أفضل صوره وأكمل درجاته.

والحديث عن اتصاف أنبياء الله ورسله بالكمال البشري لا يوفيه هذا البحث حقه، فهو يفوق الذكر خاصة أنه يتحدث عن كمال خيرة البشر، كمالهم في كل ما يتعلق بالإنسان، ممثلاً الكمال الإنساني في كافة جوانبه، الذي لا يمكن تحقيقه وإيجاده إلا فيهم، وسنقتصر في ذكر ما أشارت إليه سورة آل عمران بخصوص كمالهم البشري الوارد فيها، وذلك كما يلي:

أ - **الكمال في الأخلاق.**

يقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: 159].

لقد تحدثت الآية الكريمة عن بعض أخلاق نبينا محمد ﷺ التي اتصف بها، وجبله الله تعالى عليها من الرحمة واللين والعفو، فقد طهره الله من القسوة والغلظة والفظاظة، فأخلاقه الحميدة التي يتعامل بها مع من حوله لها أثر بالغ في اتباع الناس له والإيمان به، بل وكان الرسول ﷺ يحتمل أذى من آذاه ويقابل ذلك بالعفو والتسامح عن من أساء في حقه، فلو جفا بهم وأغلظ عليهم لتركوه وانفضوا عنه، ولكنه كان قريباً رحيماً بالمؤمنين رءوفاً عليهم، يأخذ بمشورتهم ورأيهم فيما يحدث من أمور، فنال محبتهم وطاعتهم بهذه الأخلاق العظيمة[2].

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج194/7).

(2) انظر: المصدر السابق (ج341/7).

ولو لم يتصف رسل الله بأسمى صفات الكمال البشري لما انقاد الناس إليهم ولما اتبعوهم، فكان انتشار دعوة الله وتثبيتها في النفوس باتصاف رسله بالأخلاق الحميدة التي امتن الله بها عليهم، فكانوا مثالاً للكمال البشري في الأخلاق والفضائل.

ب - **أنهم خير الناس نسباً.**

لقد اصطفى الله أنبياءه ورسله من أصول وأنساب كريمة، فنوح عليه السلام من ذرية آدم عليه السلام، وجميع الأنبياء بعد نوح عليه السلام من ذريته، وجميع الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام من ذريته، فهم ذرية بعضها من بعض، يقول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: 33 – 34]، فهم خير الناس نسباً، فالله يصطفي لرسالته من كان خيار قومه في النسب، فكانت أقوامهم خيرها نسباً، وكانوا هم من خيار أقوامهم، فقد قال رسول الله ﷺ: "**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ، قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ القَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ**"[1]، وقال ﷺ: "**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**"[2][3].

2 – العصمة:

ينبغي قبل بيان صفة العصمة التي هي من الشروط الواجب توافرها في الأنبياء والرسل عليهم السلام التعريف بها في اللغة والاصطلاح.

- **العصمة لغة:**

العصمة في لغة العرب تأتي بمعنى: المنع، والإمساك، والملازمة، والحفظ، فالعاصم هو: المانع الحامي، والاعتصام هو: التمسك بالشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا** ﴾[آل عمران: 103]، وعصمة الله لعبده أي: أن يعصمه مما يوبقه، فعصمه يعصمه عصماً: أي منعه ووقاه، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية[4].

---

(1) [البخاري، صحيح البخاري، المناقب/صفة النبي ﷺ، 189/4، رقم الحديث 3557].

(2) [مسلم، صحيح مسلم، الفضائل/فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه قبل النبوة، ص973، رقم الحديث 2276].

(3) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص79)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج33/2).

(4) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج331/4)، وابن منظور، لسان العرب (ج403/12 – 404)، والراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص569 – 570).

- **العصمة اصطلاحاً:**

إن العصمة هي: "حفظ أوامر الله تعالى من مخالفتها، وحفظ نواهيه من الوقوع بها"[1]، وهي: "ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها"[2].

وعصمة الأنبياء: "حفظهم من النقائص وتخصيصهم بالكمالات النفيسة والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة"[3]، ونظيره: "حفظه إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية، ثم بالنصرة وبتثبت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: 67]"[4].

والحديث عن العصمة يندرج تحته أمور عديدة، منها: العصمة في التبليغ، والعصمة من الذنوب، ولقد دلت السورة ببعض الآيات التي تشير إلى هذين القسمين، ومن الجدير ذكره أن تقسيمات العلماء تنوعت في تصنيف الصفات الواجب توافرها في الرسل، فمثلاً منهم من أدرج صفة التبليغ في صفة العصمة واعتبرها متضمنة لها، ومنهم من جعلها صفة مستقلة عن صفة العصمة، ومنهم من ذكرهما كصفتين ولكنه أشار إلى ارتباطهما ببعض، والتنوع في التقسيم لا يعد اختلافاً، بل اجتهادات في طريقة التقسيم، إلا أن الذي عليه علماء التوحيد وقد أثبتوه لدى التحقيق، أن من الصفات كصفة التبليغ وصفة الصدق تعود وتندرج تحت صفة العصمة، وهي محل البحث، وهذا التقسيم قد اعتمدته في هذه الصفة[5].

قال صاحب كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها): "معنى العصمة، يتناول عصمة الرسول عن المعاصي الاعتقادية والقولية، والفعلية والخلقية، ويتناول – أيضاً – عصمة الرسول عن الكتمان والتحريف، والخطأ والغلط والنسيان فيما أمره الله بتبليغه للناس؛ لأنه لو لم يكن معصوماً عن ذلك لم يكن أهلاً للاصطفاء بالرسالة، ولأثَّر ذلك في أصل مهمة البعثة، ولانعدمت الثقة بما يبلغه عن الله من شرائع وأحكام"[6].

---

(1) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص382).

(2) الجرجاني، التعريفات (ص150).

(3) ابن حجر، فتح الباري (ج502/11).

(4) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص570).

(5) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص383 – 387)، والأشقر، الرسل والرسالات (ص95 – 105)، حيث أدرجت صفة التبليغ تحت صفة العصمة؛ لأنها مرتبطة ومتضمنة لها.

(6) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص383)، بتصرف يسير.

أولاً: العصمة في التبليغ.

لقد أجمعت الأمة الإسلامية واتفقت على عصمة الأنبياء والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – فيما يبلغون به عن الله ﷻ من الوحي، فلا يكتمون منه شيئاً ولا ينقصون أو يزيدون فيه، فهم معصومون من الله تعالى؛ حيث قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84]، بالإضافة إلى أنهم – أيضاً – معصومون من النسيان فيما يتعلق بالتبليغ والوحي، ودليله قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: 6][1]، كما يدل على عصمتهم في التبليغ شهادة الله تعالى لهم في قوله: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

فهم معصومون عن كل ما يخل بالتبليغ، ككتمان الرسالة والكذب في دعواها، أو الجهل بأي حكم أنزله الله عليهم، أو الشك فيه، أو التقصير في تبليغه، أو تصور الشيطان لهم في صورة ملك؛ لتلبيسه عليهم فيما يخص الرسالة – سواء أكان ذلك في أولها أو فيما بعدها –، أو يتسلط على خواطرهم بالوساوس، كما أنه يستحيل أن يصدر في حق الأنبياء عليهم السلام تعمد الكذب في أي خبر أخبروا به عن الله تعالى، أو تعمد بيان أي حكم شرعي على خلاف ما أنزل عليهم[2].

قال الإمام ابن تيمية: "الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة؛ ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه... وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة... والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتة فلا يستقر في ذلك خطأ باتفاق المسلمين"[3].

ولقد ورد في سورة آل عمران ما يشير إلى توجيهات الله تعالى لنبيه محمد ﷺ فيما يتعلق بصفة التبليغ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟

---

(1) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص95 – 96).

(2) انظر: عبد الغني عبد الخالق، حجية السنة (ص96).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج10/ 289 – 290)، بتصرف يسير.

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 20]، وقوله سبحانه: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: 12]، وهذه حال جميع الأنبياء والمرسلين من عصمتهم في التبليغ، التي يتحقق بها مقصود الرسالة.

ثانياً: العصمة من الذنوب.

لقد أجمعت الأمة الإسلامية على عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام من ارتكاب كبائر الذنوب[1] وما قبح من العيوب، وعدم صدورها منهم مطلقاً، سواء أكان قبل البعثة أو بعدها، وسواء كان عمداً أو سهواً[2]، فقد قال الإمام ابن تيمية: "القول بأن الأنبياء معصومون عن الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف... وهو – أيضاً – قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول"[3].

وأما صغائر الذنوب[4] فقد توسع العلماء في الحديث عنها، حيث قسموا الصغيرة إلى خسيسة وغير خسيسة وفرقوا بينهما، فالأولى: توجب الحكم على فاعلها بالخسة ودناءة الهمة، وسقوط المروءة، وذلك مثل: سرقة حبة أو لقمة، وهذا ممتنع وقوعه في حق الأنبياء عليهم السلام عمداً، وأما الثانية: فهي ما لا يوجب الحكم على فاعلها بالخسة كنظرة، أو كلمة سفه نادرة في حالة الغضب، وهذا النوع يجوز وقوعه في حقهم على جهة السهو والعمد من غير إصرار عليه، بحكم كونهم بشراً، ولكنهم معصومون من الإقرار عليها؛ حيث إن رحمة الله تتداركهم فينبههم إليها، ويوفقهم للتوبة والاستغفار منها، وهذا هو ما عليه جمهور العلماء[5].

---

(1) عرف الجرجاني الكبيرة بأنها: "هي ما كان حرامًا محضًا، شرعت عليه عقوبة محضة بنص قاطع في الدنيا والآخرة". الجرجاني، التعريفات (ص183).

(2) انظر: ابن بطال، شرح صحيح البخاري (ج10/439)، والأشقر، الرسل والرسالات (ص105).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج4/319)، بتصرف يسير.

(4) الصغيرة في اللغة هي: الذنب القليل، وجمعها صغائر. انظر: مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط (ج1/515).

(5) انظر: الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام (ج1/171)، وابن تيمية، منهاج السنة النبوية (ج1/472)، والشنقيطي، أضواء البيان (ج4/117 – 119)، وعبد الغني عبد الخالق، حجية السنة (ص125)، والأشقر، الرسل والرسالات (ص114).

قال الإمام ابن تيمية في حق الأنبياء عليهم السلام: "وعامة ما ينقل عن جمهور العلماء أنهم غير معصومين عن الإقرار على الصغائر ولا يقرون عليها ولا يقولون إنها لا تقع بحال"[(1)].

وقال صاحب كتاب (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن): "حاصل كلام الأصوليين في هذه المسألة: عصمتهم من الكفر وفي كل ما يتعلق بالتبليغ، ومن الكبائر وصغائر الخسة كسرقة لقمة وتطفيف حبة، وأن أكثر أهل الأصول على جواز وقوع الصغائر غير صغائر الخسة منهم"[(2)].

فجواز وقوع الأنبياء والرسل لصغائر الذنوب غير الخسيسة لا ينقص من قدرهم شيئاً، ولا يخل في عصمتهم التي هي من الشروط الواجب توافرها فيهم، فكونهم بشراً فهم معرضون للوقوع ببعض الزلات التي لا تتنافى أو تتعارض مع عصمتهم، فهم التوابون المستغفرون لله ﷻ على الدوام، وقد قال صاحب كتاب (الرسل والرسالات) كلمات غاية في الروعة لتكريم الأنبياء عليهم السلام وتوقيرهم: "هذه الصغائر التي تقع من الأنبياء لا يجوز أن تتخذ سبيلاً للطعن فيهم، والإزراء عليهم، فهي أمور صغيرة ومعدودة غفرها الله لهم، وتجاوز عنها، وطهرهم منها، وعلى المسلم أن يأخذ العبرة والعظة لنفسه من هذه، فإذا كان الرسل الكرام الذين اختارهم الله واصطفاهم عاتبهم الله ولامهم على أمور كهذه، فإنه يجب أن نكون على حذر وتخوف من ذنوبنا وآثامنا، وعلينا أن نتأسى بالرسل والأنبياء في المسارعة إلى التوبة والأوبة إلى الله، وكثرة التوجه إليه واستغفاره"[(3)].

ولقد تضمنت سورة آل عمران – في آياتها – دليلاً يشهد بعصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام من الذنوب، وأنه من الشروط والصفات التي يجب أن تتوافر فيهم؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران: 161].

فقد أثبتت الآية انتفاء صفة الغلول عن الأنبياء عليهم السلام، وأنها ممتنعة الوقوع في حقهم؛ لأنها من الكبائر، فالغلول والإغلال في اللغة: بمعنى الخيانة، إلا أن الغلول يكون في

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج4/320).

(2) الشنقيطي، أضواء البيان (ج4/119).

(3) الأشقر، الرسل والرسالات (ص114).

المغنم خاصة، والإغلال عام في كل شيء في المغانم وغيرها[1]، و"الغلول في المغنم أن يُخفى منه شيء فلا يرد إلى القسمة، وهو في معنى الخيانة: يقال غل في المغنم يغل غلولاً إذا أَخذ من الأموال المغنومة شيئاً على سبيل الاستغنام والانفراد به دون عامة الجيش الذين غنموا وقاتلوا عليه"[2]، وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾[3] أي: ما كان لنبي من الأنبياء أن يخون أصحابه فيما

---

(1) انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج22/8)، وابن منظور، لسان العرب (ج11/ 499 – 500)، والمطرزي، المغرب في ترتيب المعرب (ص344).

(2) ابن أبي نصر، تفسير غريب ما في الصحيحين (ص489).

(3) لقد تعددت آراء العلماء في تفسير قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ على آراء بأنها تحتمل معنيين، **الأول:** وهذا المعنى على القراءة بالبناء للفاعل: أي ما صح لنبي أن يخون شيئاً من المغنم، فيأخذه لنفسه من غير معرفة أصحابه، حيث أفادت الآية انتفاء صفة الغلول في حق الأنبياء عليهم السلام، فلا يصدر من الأنبياء الخيانة أبداً، ولا يكون نبياً من غل، وعلى هذا المعنى فإن الآية تدل على عصمة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب، كما فسروا كيفية نفي الغلول في حقهم على وجهين، أحدهما: عدم جواز خون الأنبياء عليهم السلام لأصحابهم، أي: ما غل نبي قط، والآخر: عدم الجواز في حق الأنبياء عليهم السلام بأن يقبلوا ويسمحوا بالغلول لأحد من أصحابهم أو أممهم، كأن يقسموا الفيء لطائفة دون طائفة مما يؤدي لحرمان الآخرين، وعلى الوجهين يستحيل صدور الغلول والخيانة من أحد الأنبياء أو حتى الرضا به لأحد من الناس، فهم المعصومون المبرؤون عن ذلك، وهذا المعنى قد رجحه الإمام الطبري في تفسيره وذلك بعد تتبعه لمعظم الأقوال في هذه الآية الكريمة، واستدل على ذلك أن الله تعالى قد أوعد عقب قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾أهل الغلول حيث قال: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ وما بعدها من الآية، فكان في وعيده عقيب ذلك أهل الغلول، وهذا هو الدليل البين على أنه إنما نهى بذلك عن الغلول، حيث أخبر عباده أن الغلول ليس من صفات أنبيائه؛ لأنه لو كان كذلك فإنه سينهى أصحاب الرسول ﷺ أن يتهموا رسولهم بالغلول، ولعقب ذلك بالوعيد على التهمة وسوء الظن بنبيهم، لا بالوعيد على الغلول، ففي تعقيبه بالوعيد على الغلول إنما ليبين للمؤمنين وغيرهم من عباده أن الغلول منتف عن الأنبياء عليهم السلام وأنه ليس من أخلاقهم فعله أبداً. **أما المعنى الثاني:** وهذا المعنى على القراءة بالبناء للمفعول: أي ما صح لنبي أن يغله أحد من أصحابه، أي: أن يخونه في الغنيمة، فلا ينبغي ولا يحق لأحد من الناس أن يغل الأنبياء في الغنيمة بأن يأخذ أي شيء منها، وفي هذا الصدد يقول الإمام الرازي: "واعلم أن الخيانة مع كل أحد محرمة، وتخصيص النبي بهذه الحرمة فيه فوائد: أحدها: أن المجني عليه كلما كان أشرف وأعظم درجة كانت الخيانة في حقه أفحش، والرسول أفضل البشر فكانت الخيانة في حقه أفحش. وثانيها: أن الوحي كان يأتيه حالاً فحالاً، فمن خانه فربما نزل الوحي فيه فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا. وثالثها: أن المسلمين كانوا في غاية الفقر في ذلك الوقت فكانت تلك الخيانة هناك أفحش". الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج413/9)، وعلى هذه القراءة تكون الآية نهياً ووعيداً للناس عن الغلول في المغانم خاصة إذا كانت الخيانة للأنبياء، فلا يخان الأنبياء ولا يخان غيرهم، وإنما خص خيانة الأنبياء بالذكر مع كون خيانة غيرهم من الأئمة والأمراء حراماً؛ لأن خيانة الأنبياء أشد وقعاً، وأعظم وزراً وذنباً، والمعاصي تعظم بحضرتهم. انظر: الطبري، جامع البيان (ج348/7 – 355)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (256/4)، والشوكاني، فتح القدير (452/1).

أفاء الله عليهم من المغانم، فليس من أفعال الأنبياء خيانة أممهم، والغلول ليست من صفات الأنبياء، ولا يكون نبياً من غل[1].

يقول الإمام الرازي: "المراد أن النبوة والخيانة لا يجتمعان؛ وذلك لأن الخيانة سبب للعار في الدنيا والنار في الآخرة، فالنفس الراغبة فيها تكون في نهاية الدناءة، والنبوة أعلى المناصب الإنسانية فلا تليق إلا بالنفس التي تكون في غاية الجلالة والشرف، والجمع بين الصفتين في النفس الواحدة ممتنع، فثبت أن النبوة والخيانة لا تجتمعان، فنظير هذه الآية قوله: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ [مريم:35] يعني: الإلهية واتخاذ الولد لا يجتمعان"[2].

كما يستدل من الآية – الحادية والستين بعد المئة في سورة آل عمران السابقة الذكر – إثبات صفة الأمانة التي هي من الصفات والشروط التي لا بد من توافرها في النبي، فانتفاء صفة الخيانة عنهم وعصمتهم منها هي في الوقت نفسه إثبات لصفة الأمانة، فأنبياء الله ورسله عليهم السلام هم المثل الأعلى في الأمانة والأخلاق الحميدة، فهم المعصومون من المعاصي والذنوب، وهذا ما يسمى بعصمة الرسل أو يسمى بصفة الأمانة[3].

ومما سبق يتبين أن من الشروط الواجب توافرها في أنبياء الله ورسله الواردة في سورة آل عمران بشريتهم، وذلك باتصافهم بصفات لا تنفك عنها البشرية، كالأكل والشرب، وإنجاب الذرية، والتعرض للابتلاءات والمحن، والتعرض للموت وغيرها من الصفات اللازمة للبشر، بجانب اتصافهم بالكمال البشري في أعلى مراتبه، كالكمال في الأخلاق، والخيرة في النسب بين الناس، كما وورد شرط آخر في السورة غاية في الأهمية لا بد من توافره فيهم، وهو شرط العصمة، عصمتهم في التبليغ التي تقتضي الصدق والأمانة فيما أخبر الله تعالى به من الأوامر والنواهي، وكل ما يتعلق بالرسالة والدعوة، وقد شهد لهم سبحانه بتبليغهم رسالته على أتم وجه، وعدم كتمانهم لأي شيء يتعلق بها، وأيضاً عصمتهم من المعاصي والذنوب، عصمتهم من كبائر الذنوب سهواً وعمداً، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها، وعصمتهم – أيضاً – من صغائر الذنوب الخسيسة كسرقة حبة أو لقمة مثلاً؛ إذ إنه ممتنع وقوعه في حقهم عمداً، وجواز وقوعهم بصغائر الذنوب غير الخسيسة سهواً وعمداً من غير إصرار عليه، مع عصمتهم من الإقرار عليها، فسبحانه ينبههم ويعاتبهم عليها، وهذا من رحمة الله تعالى عليهم، وبفضل منه قد منَّ عليهم بالتوبة، والاستغفار، والإنابة إليه ووفقهم بذلك، وهذا لا يتنافى مع شرط العصمة الوارد في حقهم، كما أن الأمة الإسلامية مجمعة على العصمة الواردة في حقهم عليهم السلام، فهم الأكمل إيماناً، والأطهر قلوباً،

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج348/7 – 354)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (ج156/4).

(2) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج413/9).

(3) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص382).

والأعظم أخلاقاً، والأكثر صبراً، فاستحقوا بهذه الصفات، التي هي من الشروط الواجب توافرها لمن اصطفاهم الله تعالى، لأن يكونوا أنبياء ورسلاً إلى خلق الله ﷻ.

المطلب الخامس: وظيفة الأنبياء والرسل.

لقد تحمل أنبياء الله ورسله ألواناً من المشاق في سبيل تبليغ دعوتهم إلى الخلق، فكان لهم وظائف ومهام عديدة قد أوكلهم الله تعالى بها، ومن تلك الوظائف والمهام التي تضمنتها سورة آل عمران ما يلي:

أولاً: التبليغ والدعوة إلى الله.

أرسل الله رسله إلى خلقه لهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وكانت أولى مهمات الرسل عليهم السلام التبليغ والدعوة إلى الله، ولقد شهد سبحانه لهم بتبليغها كما أمرهم، حيث قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران:79]، ومن هؤلاء الأنبياء والرسل محمد ﷺ فقد قال تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران:64]، حيث أمره سبحانه بتبليغ أهل الكتاب كلمة التوحيد، وعدم الإشراك بالله، والتبرؤ من كل معبود سواه، وعدم طاعة بعضهم بعضاً في معصية الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق(1).

كما أمر سبحانه نبيه محمداً ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، وهو الإسلام، والإخلاص، والخضوع لله وحده دون سواه إن جادله المحبطون المعاندون، وأن يدعو الدخول في شرعه وما بعثه الله به كل من الكتابيين اليهود والنصارى، والأميين من المشركين، وأن من استجاب لدعوة الحق هذه فقد اهتدى، وأما من أعرض فما عليه إلا البلاغ، وتلك هي الوظيفة التي أوكلها الله لجميع أنبيائه ورسلهم، فقال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج6/483).

وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران:20].

ولقد ذكرت السورة – أيضاً – دعوة عيسى عليه السلام لقومه، حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده وأقر بأنه سواء معهم في العبودية، فقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: 51– 54]، فأخبرت الآيات أنه عندما شعر عيسى عليه السلام من قومه التصميم على الكفر وعدم الاستجابة لدعوته وجحودها، طلب النصرة لدين الله وتطبيق شرعه؛ حتى يتميز المؤمن من الكافر، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، وكان تأييد الله لمن نصر دينه من المؤمنين، كما ورد كيد من كفر به وبرسله[1].

ثانياً: التبشير والإنذار.

إن التبشير والإنذار أمران متلازمان في دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام لأقوامهم؛ لأنه المنهج الأفضل في نجاح دعوتهم التي قد أوكلوا بها، فالأنبياء والرسل قد كانوا مبشرين ومنذرين لأقوامهم، فهي إحدى الوظائف الأساسية التي من أجلها بعثوا، ولقد شملت سورة آل عمران آيات كثيرة تدل على التبشير والترغيب، والإنذار والترهيب، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [آل عمران:162].

وقوله تعالى في مقام التبشير: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[آل عمران:195]، فقد تضمنت الآية الكريمة البشرى للمؤمنين والمؤمنات الذين

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص131– 132).

تركوا الأوطان والأموال وجاهدوا في سبيل الله أن يكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلهم جنات النعيم ثواباً وجزاء منه سبحانه.

وقوله تعالى في مقام الإنذار: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:85]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران:56]، وقوله تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو ينذر قومه: ﴿ ...وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: 50 – 51].

ثالثاً: تزكية النفوس وتهذيبها.

إن من الوظائف المهمة التي أوكلها الله تعالى لأنبيائه ورسله تزكية النفوس وتهذيبها، وذلك بإصلاحها وتطهيرها بالأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة، بحيث تنشغل النفس لكل ما هو خير لها من الأعمال الصالحة، وتتجنب عن كل ما هو شر لها بترك الأعمال السيئة(1).

قال الإمام ابن القيم: "تزكية النفوس: أصعب من علاج الأبدان وأشد. فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجئ بها الرسل: فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم. وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم"(2).

ولقد ورد في السورة أن تزكية النفوس وتهذيبها يعد من الأمور الأساسية في وظيفة الرسل، التي امتن الله بها على عباده، وأنها من أكبر النعم، بل هي أصلها، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران:164]، فقد امتن سبحانه على المسلمين بأن بعث إليهم رسول كريم يزكي نفوسهم ويطهرها من الشرك والمعاصي، والرذائل، وعن سائر مساوئ الأخلاق، وهي أولى خطوات إعدادهم، وأن هذه المهمة العظيمة هي أمر لازم

(1) انظر: الفوزان، إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (ج246/2).

(2) ابن القيم، مدارج السالكين (ج300/2).

لتعليمهم أمور دينهم؛ لأن تربية النفس على الأخلاق الحميدة يسبق تعليمها وتثقيفها، وبدوه يعد أحد العوامل المهمة في نجاح الدعوة، والارتقاء بها، وإعلائها[1].

رابعاً: تعليم الناس أمور دينهم وسياستهم.

إن تعليم الناس أمور دينهم، وسياستهم، وتدبير شؤونهم الدنيوية يعد الوظيفة الأساسية التي يقوم بها الأنبياء والرسل عليهم السلام فقد قال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ**﴾[آل عمران:164]، فقد علَّم النبي محمد ﷺ أمته أمور الدين وأصوله المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة التي سنها الله على لسانه، بعدما كانوا قبل بعثته في ضلال عن الطريق الموصلة إلى ربهم[2].

كما ذكرت السورة أن نبي الله عيسى عليه السلام قام بتعليم بني إسرائيل أمور دينهم، فرسالته التي بعث بها متممة للتوراة مع بعض التشريعات الجديدة التي شرعها الله لبني إسرائيل للتخفيف عنهم، فقد علَّمهم أحكام الشريعة حيث أحل لهم بعض الذي حرم عليهم في التوراة، كما أمرهم بتقوى الله وطاعته فيما جاء به عنه، فقال تعالى على لسان عيسى عليه السلام في دعوته لقومه:﴿**وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ**﴾[آل عمران: 50][3].

خامساً: إقامة الحجة والبرهان على المخالفين.

من أهم العوامل التي ساعدت على نشر دين الله وإعلائه إقامة الحجة والبرهان على المخالفين، ودحض أباطيل المعاندين وضلالاتهم، والحجة هي غلبة الخصم ودفع ما جاء به بالدليل والبرهان، وهي الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة[4].

---

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص155).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج7/369).

(3) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج3/257).

(4) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج2/30)، وابن منظور، لسان العرب (ج2/228).

ولقد ذكرت سورة آل عمران أن الرسول ﷺ حاجج أهل الكتاب وكشف زيف ما يدعون بالبراهين والأدلة الربانية، ومن ذلك ما يلي:

- إقامته الحجة على النصارى في ادعائهم ألوهية عيسى عليه السلام، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [آل عمران:59- 63]، حيث أثبت ﷺ عقيدة التوحيد الصحيحة، وذلك باستحقاق الألوهية لله وحده لا شريك له، وأن عيسى عليه السلام مثله عند الله كمثل آدم عليه السلام في بشريته، خلقه الله من تراب، وأنه مربوب لله عز وجل، وإن الحجة قد أقيمت عليهم من خلال دعوته لهم إلى المباهلة(1) التي أمره الله عز وجل بها؛ ليحاجج من عاند الحق بعد بيانه، ولكنهم سرعان ما تراجعوا عن هذه المباهلة، وفي هذا دلالة واضحة على كذبهم وافتراء ما يدعون به من الباطل.

- إقامته الحجة على أهل الكتاب في محاجتهم لإبراهيم عليه السلام من خلال آيات القرآن الكريم التي أثبتت كذبهم وادعاءهم الباطل فيه – كما سيتم بيانه في المبحث التالي(2) –، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران:65-68].

---

(1) إن سبب الدعوة إلى هذه المباهلة قدوم وفد من نصارى نجران، ومحاجتهم في أمر عيسى عليه السلام، وزعمهم الباطل عليه في البنوة والإلهية. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/49- 50).

(2) انظر: (ص160) من هذا البحث.

كانت هذه وظائف الأنبياء والرسل التي تضمنتها سورة آل عمران، التي من أعظمها وأشرفها التبليغ والدعوة إلى الله، والتبشير والإنذار، وتزكية النفوس وتهذيبها، وتعليم الناس أمور دينهم وسياستهم، وإقامة الحجة والبرهان على المخالفين أعداء الدين.

المبحث الثاني

الأنبياء والرسل الوارد ذكرهم في سورة آل عمران

المطلب الأول: إبراهيم عليه السلام في سورة آل عمران.

من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في سورة آل عمران إبراهيم عليه السلام، وهو إبراهيم بن آزر وذلك كما أخبرنا القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: 74].

ولقد كثر ذكر إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم، حيث ورد اسمه في القرآن تسعاً وستين مرة، أما وروده في سورة آل عمران فقد ورد سبع مرات(1).

ونبي الله إبراهيم عليه السلام يعد من أولي العزم من الرسل الذين تحملوا المشاق والصعاب في تبليغ دعوة الله ودينه، وصبرهم على أذى أقوامهم، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13](2).

والحديث عن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يطول المقام ذكره؛ لما تميز بالكثير من الفضائل والخصال التي وردت عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية، وسنقتصر على ما تناولته السورة عنه، وهو كالآتي:

1 – دين إبراهيم عليه السلام:

إن الحنيفية هي دين إبراهيم عليه السلام، والملة التي اتبعها هي الإسلام، وذلك بإخبار المولى عز وجل وشهادته، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ

---

(1) انظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص2 – 3).

(2) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص213).

ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[آل عمران: 65- 68]، وقد نزلت هذه الآيات لإبطال دعوى اليهود والنصارى في ادعاء كل منهم أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم، حيث اجتمعت نصارى نجران وأحبار اليهود عند رسول الله ﷺ وتتنازعوا عنده بشأنه، فقالت اليهود: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله تعالى هذه الآيات رداً لأهل الكتاب على ادعائهم الباطل بالدليل العقلي المفحم لهم، إذ كيف يزعمون بأن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وزمانه قبل زمن نزول التوراة والإنجيل؟ وإن هذه المحاجة إنما هي محاجة بغير علم، وتأويل منهم بما لا علم لهم به، فأنكر عليهم المولى سبحانه ذلك؛ لأن الأولى أن يردوه إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم وهم لا يعلمون، ثم شهد بعد ذلك لإبراهيم عليه السلام خلاف محاجتهم به، وهو أنه كان متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان، وأن أولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته على الحقيقة لا مجرد الادعاء والقول، وأولاهم به كما أخبرنا سبحانه هو نبي الله محمد ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين[1].

وإن هذه الآيات تمثل حجة بينة على اليهود والنصارى، إذ أنزل التوراة والإنجيل قد أنزلا من بعده، كما أنه ليس فيهما اسم لواحد من الأديان، وأما اسم الإسلام فهو في كل كتاب، فحق أن يكون أولى الناس به هم الذين اتبعوا ملته[2]، وقال الطبري عن هذه الآيات: "وهذا تكذيب من الله ﷻ دعوى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهود والنصارى، وادعوا أنه كان على ملتهم وتبرئة له منهم، وأنهم لدينه مخالفون، وقضاء منه ﷻ لأهل الإسلام ولأمة محمد ﷺ أنهم هم أهل دينه، وعلى منهاجه وشرائعه، دون سائر أهل الملل والأديان غيرهم"[3].

قال ابن تيمية: "والقرآن كله يدل على أن الحنيفية هي ملة إبراهيم، وأنها عبادة الله وحده والبراءة من الشرك. وعبادته سبحانه إنما تكون بما أمر به وشرعه، وذلك يدخل في الحنيفية. ولا يدخل فيها ما ابتدع من العبادات، كما ابتدع اليهود والنصارى عبادات لم يأمر بها الأنبياء، فإن موسى وعيسى وغيرهما من أنبياء بني إسرائيل ومن اتبعهم كانوا حنفاء بخلاف من بدل دينهم فإنه

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج57/2 – 58).

(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج107/4)، نقلاً عن الزجاج.

(3) الطبري، جامع البيان (ج493/6).

خارج عن الحنيفية. وقد أمر الله أهل الكتاب وغيرهم أن يعبدوه مخلصين له الدين حنفاء، فبدلوا وتصرفوا من بعد ما جاءتهم البينة"[1].

ولقد أكد سبحانه في موضع آخر في السورة نفسها على ملة إبراهيم أنها الدين الحق الحنيف القائم على الإسلام لله والخضوع له، وأن الله قد برأه من كل شرك، حيث إنه دحض دعوى المفترين على ملته، حيث قال تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 95]، ففي الآية أمر من الله لنبينا ﷺ ولأمته باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، وهي الملة الحنيفية التي شرعها الله تعالى في القرآن الكريم على لسان الرسول ﷺ، وإن هذا إنما هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما أنها الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها، ولا أبين ولا أتم من ذلك[2].

ولقد كان رسولنا ﷺ يقول إذا أصبح وإذا أمسى: "**أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرَةِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَى كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ، وَعَلَى دِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَعَلَى مِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا مُسْلِمًا، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**"[3]، وفي هذا دلالة بينة بأن دين نبينا محمد ﷺ على ملة إبراهيم عليه السلام، وأنه هو الأولى به؛ وذلك لاتباعه إياه هو ومن تبعه من المؤمنين، حيث قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيِّي أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي**"، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 68][4].

ونخلص من خلال ما سبق بأن دين إبراهيم عليه السلام ودين جميع الأنبياء هو الإسلام الذي لن يقبل الله غيره، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: 85]، وأن ملته هي الحنيفية السمحة، القائمة على الإخلاص والإيمان بالله وحده لا شريك له، وأن الأجدر بولايته هو من سار على دربه واتبع منهجه الذي شرعه الله

(1) ابن تيمية، جامع المسائل (ج180/5).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج77/2).

(3) [أحمد: مسند الإمام أحمد بن حنبل، مسند المكيين، 77/24: رقم الحديث 15360]، قال الأرنؤوط: إنه صحيح على شرط الشيخين.

(4) [الترمذي، سنن الترمذي، تفسير القرآن/ومن سورة آل عمران، 223/5: رقم الحديث 2995]، قال الألباني: إنه صحيح.

ﷺ، أما من خالفه من اليهود والنصارى والمشركين فهم ليسوا بأهل لولايته، فهو بريء منهم، كما أنه لم يكن يهودياً أو نصرانياً في يوم من الأيام، ولم يكن على دينهم، فزمانه قبل زمانهم، والمسألة لا علاقة لها بقرابة النسب أو الوراثة، بل هي قرابة الدين التي تجمع كل المؤمنين، المتمثلة بنبينا المصطفى محمد ﷺ وأمته المتبعة لملته.

2 – بناء البيت الحرام:

إن من الأمور التي كلف الله تعالى بها إبراهيم عليه السلام بناء البيت الحرام، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: 96 – 97]، فقد أخبرنا سبحانه أن أول بيت وضع للناس لأداء العبادة والنسك هو البيت الحرام، هذا البيت نال من الشرف ما نال، حيث جعله مكاناً تشتاق إليه القلوب، كما جعله سبحانه آمناً لكل من دخله، وأنه كان من بناء نبي الله إبراهيم عليه السلام بمعاونة ابنه إسماعيل عليه السلام، امتثالاً لأمر الله تعالى، واستجابة لدعاء خليله عندما دعا ربه قائلاً: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: 37]، حيث أمرنا سبحانه بالصلاة عند مقامه عليه السلام[1].

كما أمر سبحانه نبيه إبراهيم عليه السلام أن ينادي الناس داعياً لهم إلى الحج، فقال تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج: 27]، فجعله فريضة لمن استطاع إليه سبيلاً وقدر عليه، لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: 97]، وفي هذا رد على أهل الكتاب الذين يحاجون بإبراهيم عليه السلام، ويزعمون الباطل بأنه على دينهم، كيف ذلك؟ وهم لا يحجون

---

(1) المراد بمقام إبراهيم عليه السلام: هو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء الكعبة عندما ارتفع البناء عن قامته، فاستعان به على رفع القواعد منه والجدران، فقد كان إبراهيم عليه السلام يبني الكعبة وابنه إسماعيل عليه السلام يناوله الحجارة، حتى تم بناء جدران الكعبة، وقد كان هذا المقام ملتصقاً بجدار البيت، إلى أن أخره الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إلى ناحية الشرق؛ لئلا يشغل المصلون عنده الطائفين بالبيت، وقد أمرنا سبحانه باتخاذ هذا المقام مصلى. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج79/2)، والمؤلف نفسه، البداية والنهاية (ج379/1).

إلى البيت الذي بناه عن أمر من الله ﷻ[1]، فثبت أن أولى الناس به هم الذين اتبعوه وساروا على المنهج الذي شرعه الله، وهو نبينا محمد ﷺ ومن اتبعه من أمته المؤمنة إلى يوم الدين.

ومن أهم الثمرات التي نتعلمها من قصة إبراهيم عليه السلام من خلال سورة آل عمران ما يلي:

1 – إن من سنن الله أن يبرئ الذين آمنوا وينصرهم، كما أنه مبطل كيد من يدحض الحق ويدعي خلافه، ومن ذلك ما جاء في تكذيب أهل الكتاب بادعائهم الباطل في دين إبراهيم عليه السلام، حيث إنه سبحانه قد برأه من كل تهمة باطلة منسوبة إليه، فأثبت أن دينه إنما كان الحنيفية، وأن ملته قد كانت الإسلام، وأنه ما كان من المشركين، وأن أولى الناس به هم الذين اتبعوه، وساروا على دربه، واهتدوا بهداه، وفي هذا تثبيت للمؤمنين في كل زمان ومكان من أن الله ناصرهم وعقيدتهم ودينهم، وأن كل من يدعي الباطل ويزيف الحقائق سيتم كشفه وفضح أمره، وفي هذا تسلية للشعب الفلسطيني وتثبيت لأفئدتهم، فإن أكاذيب يهود وادعاءاتهم لا حصر لها، ومن ذلك ادعاؤهم بأحقيتهم في أرض فلسطين، فتملكوها ودنسوها، ولكن الباطل لا بد أن ينكشف، فالحقائق حول عدم أحقيتهم في الأرض المقدسة واضحة وضوح الشمس، وذلك بموجب ما جاء في آي القرآن الكريم، بل وفي كتبهم المحرفة فيها من الأدلة التي تنسف قضيتهم المزعومة نسفاً، فينبغي أن يعي هؤلاء وأمثالهم من المدعين بالباطل أن الله يشهد على افتراءاتهم وسيفتضح أمرهم، وأنهم في زوال لا محالة، كما أن هناك ذاكرة لا تبلى ولا تتآكل بمرور الزمن هي ذاكرة التاريخ التي تثبت الحقائق، وإن تحصيل تلك الحقائق يعد من الواجبات الدينية الوطنية التي لا بد منها؛ لأنها السلاح الفتاك لكل من يدعي الباطل ويزور الحقائق.

2 – أن الدين الذي لن يقبل الله سواه هو الإسلام، فهو الدين الذي آمن به إبراهيم عليه السلام ومن تبعه إلى يوم الدين، فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: 85]، وهذا بيان واضح لا مرية فيه وقطع لكل من يتهافت ويدين بدين غيره ويدعي أنه الحق، كأمثال اليهود والنصارى وأصحاب الفرق الضالة الذين يجحدون الحق في عدم إيمانهم به، معتقدين أنهم من زمرة المؤمنين المقربين، ولكن هيهات أن يقبلهم الله وهم أعداء الدين والرسل، فدين الإسلام هو دين الحق، ومن يبتغ غيره فإن مصيره الهلاك والخسران المبين في الدنيا والآخرة.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/77).

3 – الاهتمام ببناء دور العبادة المتمثلة بالمساجد التي هي هدى للعالمين، وأن ذلك من أقرب الطاعات إلى الله، خاصة أنه رمز وحدة المسلمين، وأن أعظم بيت على الإطلاق أول بيت وضع للناس، البيت الحرام، كما وتعظم أهميته بأنه مكان لأداء ركن من أركان الإسلام وهو نسك الحج، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[آل عمران: 96–97]، وهذا إنما هو استجابة لدعاء نبي الله إبراهيم عليه السلام الوارد في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم: 37]، وفي هذا لفت لكل عبد أن يجعل نصيباً من دعواته لأمور الدين والآخرة، وأن لا يكتفي بالدعاء في أمور الدنيا فقط، فأمور الدين والآخرة هي الباقية، ولقد كان النبي ﷺ يقول: "**اللَّهُمَّ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**"[1].

المطلب الثاني: زكريا عليه السلام في سورة آل عمران.

من الأنبياء الذين ورد ذكرهم في سورة آل عمران نبي الله زكريا عليه السلام، حيث ورد اسمه في السورة ثلاث مرات، أما مجموع مرات ورود اسمه في القرآن الكريم فسبع مرات[2]، ولقد تحدثت السورة عن قصته عليه السلام في بضع آيات متضمنة ما يلي:

1 – تكفله مريم بنت آل عمران:

لقد نذرت امرأة عمران ما في بطنها ليكون محرراً في خدمة الدين، فقدر سبحانه أن يهب لها مريم عليها السلام التي تقبلها قبولاً حسناً وجعلها من الصالحات، حيث يسر لها أسباب القبول بأن قرنها بعباده الصالحين لتتعلم منهم الخير والعلم والدين، فقال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ... ﴾[آل عمران: 35 –37]، وقيض الله

---

(1) [البخاري: صحيح البخاري، تفسير القرآن، 28/6: رقم الحديث 4522].

(2) انظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص331).

تعالى لها زكريا عليه السلام ليتكفلها ويربيها على أكمل الأحوال، وذلك كما أخبرنا سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: 37]، ولقد كانوا في ذلك الزمن يتنافسون في تكفل المحرر حتى يكون في رعاية أحد القائمين بأمر المسجد، وقد فعلوا ذلك في مريم عليها السلام، فتنازعوا وتشاحوا في أمر كفالتها، وروي أنهم دخلوا نهر الأردن واقترعوا برمي أقلامهم في النهر، واتفقوا على أن من يثبت قلمه في جري الماء يكون هو كافلها، وعندما ألقى المختصمون فيه الأقلام احتملها الماء إلا قلم زكريا عليه السلام فقد ثبت، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران: 44]، فبأمر الله سبحانه جعل زكريا عليه السلام كافلاً لها، حيث ضمها الله إليه بحكمه وإيجابه؛ وذلك لسعادتها ولتقتبس منه مما علمه الله، فكان في تكفلها خير لها في الدنيا والآخرة، فهو أولاهم بها بحكم قرابته[1] لها وعلمه ونبوته صلوات الله وسلامه عليه[2].

2 – دعاؤه لربه عز وجل أن يهب له الذرية الطيبة:

كان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم عليها السلام المحراب يجد عندها الرزق الكثير، فكان يرى عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وهذا على غير العادة، ولكنه من باب كرامته سبحانه لأوليائه الصالحين، ولما رأى كل ذلك من تفضل الله عليها ورزقه إياها من غير سعي ولا كسب ولا تسبب، طمعت نفسه في طلب الولد من الله تعالى رغم الحال الذي كان عليه هو وامرأته، حيث كان شيخاً كبير السن قد أصابه الضعف، ووهن منه العظم، واشتعل رأسه شيباً، وكانت امرأته كبيرة وعاقراً، لكنه مع هذا كله سأل ربه القادر على كل شيء ودعاه أن يرزقه الذرية الطيبة الصالحة التي طالما كان دوماً يتمنى حصولها، خاصة أنه انقرض أهل بيته في ذلك

---

(1) قرابة زكريا لمريم عليهما السلام أنه زوج أختها، وقيل: إنه زوج خالتها وهذا القول قد ذكره ابن إسحاق وجرير وغيرهما، ولكن الراجح أنه كان زوج أختها لأنه ورد في حديث الإسراء والمعراج أن رسول الله قال: "**إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى، وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ**". [البخاري: صحيح البخاري، المناقب/المعارج، 52/5: رقم الحديث 3887]. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج35/2).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج35/2 – 42)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج425/1).

الوقت، فدخل المحراب يصلي ويناجي ربه في ذلك[1]، فقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[آل عمران: 38].

قال الطبري: "وأما "الذرية"، فإنها جمع، وقد تكون في معنى الواحد، وهي في هذا الموضع الواحد. وذلك أن الله ﷻ قال في موضع آخر، مخبرًا عن دعاء زكريا: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [سورة مريم: 5]، ولم يقل: أولياء – فدل على أنه سأل واحدًا. وإنما أنث "طيبة"، لتأنيث الذرية"[2].

ومن الجدير ذكره أن طلب زكريا عليه السلام للولد ليس كطلب غيره، فكان قصده مصلحة الدين لا مجرد المصلحة الدنيوية، فقد خشي من بعد موته على بني إسرائيل أن لا يقوموا بدين الله حق القيام، خاصة أنه لم ير فيهم من هو أهل لتولي إمامة الدين، فخاف من ضياعه، ودعا الله أن يرزقه الولد ليقوم بالدين من بعده، وذلك في قوله تعالى حكاية عنه: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: 5]، وهذه الولاية إنما هي ولاية الدين، وميراث النبوة هو العلم والعمل[3]، كما قال رسول الله ﷺ: "...**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**"[4].

ولقد استجاب الله تعالى لدعاء زكريا عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: 39 – 41]، حيث أرسل إليه ملائكة – عندما كان قائماً يصلى في محرابه ويناجيه في أن يهبه الولد الصالح– تبلّغه البشرى، حيث خاطبته مشافهة وبشرته[5] بمجيء

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج360/6)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج37/2).

(2) الطبري، جامع البيان (ج362/6).

(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص489).

(4) [الترمذي: سنن الترمذي، العلم/ما جاء في فضل الفقه على العبادة، 48/5: رقم الحديث 2682]، قال الألباني: إنه صحيح.

(5) قال الإمام ابن القيم في استحباب البشارة لمن ولد له ولد وتهنئته: "لما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه... فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته والفرق بينهما إن البشارة إعلام له بما يسره والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به". ابن القيم، تحفة المودود بأحكام المولود (ص27 – 28).

ابن له يدعى يحيى[1]، ويكون مصدقاً بعيسى ابن مريم ﵇ وعلى سننه ومنهاجه[2]، ومن مواصفاته أنه سيكون سيداً ذا مكانة عالية في علمه وفقهه وعبادته لربه ﷻ، ويكون حصوراً لا يأتي النساء، وأعظم ما في هذه البشارة أنه سيكون نبياً من الصالحين، فالبشارة الأولى هي ولادة يحيى ﵇، والثانية وهي الأعلى نبوته، فالله تعالى أعطى زكريا ﵇ أكثر بكثير مما سأل، فقد أعطاه الولد الصالح الذي سأله، كما تفضل عليه بأن جعله نبياً من الصالحين، فهذا هو كرم المولى سبحانه الذي لا تناهي له[3].

ولكنه عندما أُخبر زكريا ﵇ هذه البشارة وتحقق منها عجب عجباً شديداً؛ لأن هذا على غير العادة، فالحال التي عليها هو وامرأته من كبره ووهنه، وعقر امرأته، يعتبر في العادة مانعاً لحصول الولد، فأخبرته الملائكة أن مثل هذا الأمر لا يعجز الله سبحانه على حصوله، فهو يفعل ما يشاء، فالقادر على الخلق من العدم أقدر على خلق الولد من الكبير الذي ضعف، والعاقر التي لا يرجى منها ولدً ثم طلب زكريا ﵇ من ربه علامة يستدل بها على وجود الولد، وهذا ليس شكاً منه – معاذ الله – ولكن ليطمئن قلبه، وكانت الآية أن ينحبس لسانه ثلاثة أيام عن الكلام من غير آفة ولا علة عنده، وأن ليس له إلا الإشارة والرمز في التعبير عما يريد من القول، ثم أمره تعالى بكثرة الذكر، والتسبيح، وشكره بالعشي والإبكار، ولتتم نعمة الله عليه[4].

قال الشيخ السعدي: "وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره"[5].

---

(1) قال قتادة وغيره: سمي يحيى بهذا الاسم لأن الله تعالى أحياه بالإيمان. انظر: الطبري، جامع البيان (ج371/6)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج37/2).

(2) أول من صدق بعيسى ابن مريم ﵇ وشهد أنه كلمة من الله: هو يحيى ﵇ الذي كان ابن خالته وكان أكبر منه، فقد روي أن امرأة زكريا ﵇ قالت لمريم عليها السلام وهما حاملتان: إن الذي في بطني يتحرك للذي في بطنك، وفي بعض الروايات يسجد للذي في بطنك، وذلك هو تصديقه. انظر: الطبري، جامع البيان (ج371/6–372)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج429/1)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج37/2).

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج37/2 – 39).

(4) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج39/2)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص129).

(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص129).

ومن أهم الثمرات التي نتعلمها من قصة زكريا ﷺ من خلال سورة آل عمران ما يلي:

1 – الاهتمام بالعلم والدين وجعله منهجاً في الحياة، إذ إنه المنهج الذي لا بديل له في سياسة أي دولة مهما عظم شأنها.

2 – تربية جيل يحمل لواء الإسلام، ويكون مركز ريادته دور العبادة، وتوجيههم وتثقيفهم من نبع كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ، وتكفل ورعاية الدولة لهم بإمدادهم بكل حاجياتهم النفسية، والعلمية، والاجتماعية، والمادية، ولا يفوتنا ذكر خير نموذج لذلك وهو الشعب الفلسطيني، وقياداته، وريادة حركاته الإسلامية بتسخير كافة الإمكانات المادية والمعنوية في سبيل تنشئة جيل إسلامي ينطلق من مساجد الله صامداً في وجه الاحتلال الإسرائيلي؛ لاستعادة كل المقدسات الإسلامية، وتحرير كل شبر من أرض فلسطين وعاصمتها القدس الشريف.

3– إن الدعاء مفتاح سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة، وسر قضاء حوائجه، وفرج همومه وكروبه، فعلى العبد أن يكون دائم الصلة بالله تعالى، قوي الإيمان به، مؤمناً بالقضاء والقدر خيره وشره، متوجهاً إلى الله وحده في دعائه لقضاء حوائجه، واثقاً من استجابة الله له، سواء كانت تلك الاستجابة في الدنيا أو تأخيرها له في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [سورة البقرة: 186]، وقال رسول الله ﷺ: "**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**"(1)، فالدعاء نعمة من الله لا غنى للعبد عنها.

4 – يستحب للمؤمن عند دعاء الله تعالى أن يدعوه في صلاته لله ﷻ؛ حتى يكون أدعى للإجابة له، فقد قال رسول الله ﷺ: "**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**"(2)، وإذا ما بث العبد شكواه فليبثها لله وحده، بعيداً عن أسماع الناس، ويغتنم خلواته في دعاء الله لآخرته ودنياه.

5 – إن في قصة زكريا ﷺ دروساً وعبراً، منها: غرس الصبر والأمل في نفس العبد، وتسلية لكل من لم يُرزق الولد أو له حاجة من الحوائج التي لا يقدر عليها إلا الله وحده أن يضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَايْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]،

---

(1) [الترمذي: سنن الترمذي، تفسير القرآن/ومن سورة البقرة، 211/5: رقم الحديث 2969]، قال الألباني: إنه صحيح.

(2) [مسلم: صحيح مسلم، الصلاة/ما يقال في الركوع والسجود، ص194: رقم الحديث 482].

"أي: لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه فإنه لا يقطع الرجاء، ويقطع اليأس من الله إلا القوم الكافرون"[1].

المطلب الثالث: عيسى عليه السلام في سورة آل عمران.

لقد تحدثت سورة آل عمران عن نبي الله عيسى عليه السلام، وهو عيسى ابن مريم من آل عمران عليهم السلام الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 33 – 34]، فسميت هذه السورة باسم عائلته الذين ممن اصطفاهم الله تعالى على العالمين.

وعيسى هو اسم أعجمي معرف، وهو بالسريانية إيسوع وقد عدلته العرب إلى عيسى[2]، ولقد كان مجموع مرات ورود اسمه في القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة، أما في سورة آل عمران فقد ورد ذكره خمس مرات[3].

قال الإمام ابن كثير: "يذكر تعالى أنه اصطفى آدم، عليه السلام، والخلَّص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: وآل إبراهيم، فدخل فيهم بنو إسماعيل، وبنو إسحاق. ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب، وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليهما السلام"[4].

ويعد عيسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين فضلهم الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7][5]، والذي وصفه الله تعالى في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: 45].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج4/406)، بتصرف يسير.

(2) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج1/444).

(3) انظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص494 – 495).

(4) ابن كثير، البداية والنهاية (ج2/417).

(5) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص 213).

ولا تخفى علينا مكانة نبي الله عيسى عليه السلام في الإسلام، ومن ذلك ما قاله رسولنا ﷺ: "**مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ**"(1).

ولقد تناولت سورة آل عمران في حديثها عن عيسى عليه السلام حيزاً من آياتها، حيث تضمنت العديد من القضايا المهمة، منها ما يلي:

1 – خلق عيسى عليه السلام وميلاده المعجز:

لقد حملت العذراء البتول مريم بنت عمران بعيسى عليه السلام، وكان حمله وميلاده آية للعالمين؛ حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: 91]، فأرسل سبحانه ملائكة لمريم عليها السلام تبشرها بهذا النبأ العظيم، الأمر الذي أحدث لها مفاجأة وذهولاً، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٤٦) قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ...﴾ [آل عمران: 45 – 49].

ولقد تضمنت هذه البشارة إخبار مريم عليها السلام بأمور عديدة:

أولاً: تبشيرها بمجيء ابنٍ لها يلقب المسيح عيسى ابن مريم، ويكون وجيهاً ذا مكانة عالية في الدنيا والآخرة، ومن المقربين الصالحين عند الله تعالى.

---

(1) [البخاري، صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء/قوله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، 165/4: رقم الحديث 3435]، وبمثله [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، ص34: رقم الحديث 28].

واختلفوا في سبب تسميته بالمسيح، ففسر بعض السلف أنه راجع: لكثرة سياحته في الأرض وعدم إقامته في مكان؛ وذلك فراراً بدينه من الفتن التي كانت في زمانه، ولشدة تكذيب اليهود له وافترائهم الباطل عليه وعلى أمه عليهما السلام، وقيل: لأنه كان ممسوح القدمين أي لا أخمص لهما، وقال ابن عباس ﷺ وغيره: لأنه كان يمسح كل ذي عاهة وعلة كالأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله، وقيل غير ذلك، وحتى لو تعددت الآراء فلا تنافي بينها فكلها حاصل في حقه ﷺ[1].

ثانياً: أنه يكلم الناس في المهد صغيراً قبل أوان الكلام، يدعو إلى عبادة الله وحده، وهي آية عظيمة من الله تعالى.

ثالثاً: ومن تمام البشارة وأعلها فضلاً أنه سيكون نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، عالماً بالكتاب والحكمة والتوراة التي أنزلت على موسى ﷺ والإنجيل الذي أنزل عليه.

أما عن خلق عيسى ﷺالمعجز فقد خلقه سبحانه من غير أب، وكان خلقه بكلمة من الله، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [آل عمران: 45]، أي: بولد يكون وجوده بكلمة من الله، وأن هذه الكلمة هي: (كن) فيكون، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران: 47][2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بعث الله المسيح ابن مريم رسولاً قد خلت من قبله الرسل وجعله وأمه آية للناس؛ حيث خلقه من غير أب؛ إظهاراً لكمال قدرته وشمول كلمته، حيث قسم النوع الإنساني الأقسام الأربعة. فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى. وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى. وخلق المسيح ابن مريم من أنثى بلا ذكر. وخلق سائرهم من الزوجين الذكر والأنثى"[3].

ولقد بيَّن سبحانه أن خلق عيسى ﷺ كخلق آدم ﷺ، فقال في كتابه العزيز: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59]، ففي الآية إخبار بأن عيسى ﷺ مثيل آدم ﷺ في التكوين بجامع ما يشتركان فيه، ذلك المعنى الذي يتعلق به وجود جميع المخلوقات، وهو مجيئها طوعاً لمشيئة الله وتكوينه، فآدم وعيسى عليهما السلام

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج43/2)، والبغوي، معالم التنزيل (ج440/1)، وابن كثير، قصص الأنبياء (ج461/2).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج43/2).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج606/28).

نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به، فكلاهما قد خلقا بأمر من الله بقول (كن)، فكان كل منهما، ولهذا شبه الله عيسى بآدم في هذه الآية[1].

أما عن اختصاص تسمية عيسى عليه السلام بالكلمة دون آدم عليه السلام فقد أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية عن ذلك، حيث قال: "وإنما خص المسيح بتسميته كلمة الله دون سائر البشر؛ لأن سائر البشر خلقوا على الوجه المعتاد في المخلوقات، يخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم ينفخ فيه الروح، وخلقوا من ماء الأبوين: الأب والأم. والمسيح عليه السلام لم يخلق من ماء رجل، بل لما نفخ روح القدس في أمه حبلت به، وقال الله: (كن) فكان... وآدم عليه السلام حين خلق جسده قيل له كن فكان بشراً تاماً بنفخ الروح فيه، ولكن لم يسمَّ كلمة الله؛ لأن جسده خلق من التراب والماء وبقي مدة طويلة يقال: أربعين سنة، فلم يكن خلق جسده إبداعياً في وقت واحد، بل خلق شيئاً فشيئاً... وأما المسيح عليه السلام فخلق جسده خلقاً إبداعياً بنفس نفخ روح القدس في أمه، قيل له: (كن) فكان، فكان له من الاختصاص بكونه خلق بكلمة الله ما لم يكن لغيره من البشر"[2].

ومن الجدير ذكره أن الآية السابقة – الآية التاسعة والخمسين من سورة آل عمران – تعتبر دليلاً مفحماً في الرد على صنفين من الناس:

الأول: وهم النصارى الذين غالوا في عيسى عليه السلام وأوصلوه إلى مرتبة الألوهية، فجاءت هذه الآية لتبين أنه مربوب لله تعالى، وأن مثله كمثل آدم عليه السلام في الخلق، فكلاهما قد خلقه الله بأمر منه، ثم إن عقيدة التثليث الباطلة التي يدين بها النصارى قد نسفت بشهادة المولى عز وجل بوحدانيته لا شريك له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النساء: 171]، وقوله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73]، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ (٦٠) فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمۡ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمۡ ثُمَّ نَبۡتَهِلۡ فَنَجۡعَل لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [آل عمران: 60 – 63].

---

(1) انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين (ج1/104).

(2) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج3/317)، بتصرف يسير.

الثاني: وهو كل مستنكر ومعاند للحق في إنكار خلق عيسى عليه السلام من غير أب، كما فعلت اليهود باتهام أمه زوراً وبهتاناً فيه، فجاءت هذه الآية لتخاطب كل ذي عقل بأن من يقر بوجود آدم عليه السلام من غير أب ولا أم، ووجود حواء من غير أم، فمن باب أولى أن لا يستنكر وجود عيسى عليه السلام من غير أب، فآدم وعيسى عليهما السلام نظيران في الخلق والإيجاد، وهذا هو قياس العلة الذي يستعمل في الاستدلال والإثبات(1).

2 – آيات عيسى عليه السلام الواردة في سورة آل عمران.

لقد امتن الله تعالى على عيسى عليه السلام بآيات عظيمة، التي من أعظمها خلقه من غير أب؛ ليكون آية دالة على عظمة الله وقدرته، وإن معظم آيات عيسى عليه السلام التي أيده الله بها قد ذكرت في سورة آل عمران، وهي كالآتي:

أولاً: كلامه في المهد:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ﴾ [آل عمران: 45 – 46]، فقد أخبرنا سبحانه أن من آيات عيسى عليه السلام كلامه في المهد وهو صغير قبل أوان الكلام.

ولقد كان لكلام عيسى عليه السلام أمام الناس فوائد وعبر، منها: أنه كان تأييداً لأمه الطاهرة التي اصطفاها الله على نساء العالمين، وتبرئة لها مما نُسب إليها من القول الزور والبهتان فيه.

كما أن المراد من كلامه عليه السلام في المهد غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، إنما هو الكلام الذي ينتفع به كل من المتكلم والمخاطب(2)، وهو خير الكلام وأفضله، وهو الدعوة إلى الله

---

(1) انظر: ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين (ج104/1).

(2) ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا** ﴾ [مريم: 29 – 31]، فكلامه في المهد قد أفاد الإقرار والاعتراف بعبوديته لله تعالى، وتضمن الدعوة إلى الله، وبالتالي فإن كلامه عليه السلام لم يكن مجرد كلام إنما هو خير الكلام وأنفعه.

تعالى، كما أنه حاصل له – أيضاً – في حال كهولته[1]، مثله مثل سائر المرسلين، ولكنه قد تميز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، ما يعد آية من الآيات العظيمة[2].

ثانياً: آياته ﷺ الواردة في الآية التاسعة والأربعين من السورة:

يقول الله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49]، حيث تميزت هذه الآية الكريمة في ذكرها لمعظم آيات عيسى ﷺ، وتضمنت ذكر خمس من الآيات العظيمة، هي:

1 – نفخ الروح في الطير المصور من الطين، ثم ينفخ فيه، فيكون طيراً حقيقياً ذا روح بإذن الله.

2 – أنه يمسح على الأكمه فيبرئه أي يشفيه بإذن الله، والأكمه: هو الذي ولد أعمى[3].

3 – أنه يمسح على الأبرص فيبرئه بإذن الله، والبرص: هو داء معروف يصيب الجلد، ينشأ عنه بقع بيضاء شديدة البياض تكون غائرة في الجلد[4].

4 – أنه يحيي الموتى بإذن الله، وهي من أعظم آياته ﷺ.

5 – أنه ينبئ الناس بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، من غير أن يكون مطلعاً عليهم.

ومن الملاحظ أن معظم تلك الآيات من جنس ما اشتهر به قومه، وهو المجال الطبي، حيث كانت بنو إسرائيل لا تؤمن إلا بما هو محسوس ومادي، فأيد الله عيسى ﷺ بآيات مادية لا قدرة لأحد على الإتيان بمثلها.

---

(1) قال جمهور الناس: الكهل هو الذي بلغ سن الكهولة، ولكنهم اختلفوا في تحديد سن الكهولة، فقيل: الكهل ابن أربعين سنة، وقيل: ابن خمس وثلاثين، وقيل: ابن ثلاث وثلاثين، وقيل: ابن اثنين وثلاثين وهو أول حد الكهولة، وقيل: آخرها اثنتان وخمسون، ثم بعدها يدخل سن الشيخوخة. انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج437/1)، بتصرف يسير، وقال مجاهد: "والعرب تمدح الكهولة، لأنها الحالة الوسطى في احتناك السن واستحكام العقل وجودة الرأي والتجربة". البغوي، معالم التنزيل (ج441/1).

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص 248).

(3) انظر: الطبري، جامع البيان (ج431/6)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج440/1)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص 131).

(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج251/3).

قال الإمام ابن كثير: "وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟"(1).

ونخلص إلى أن آيات عيسى عليه السلام التي امتن الله عليه بها، الواردة في سورة آل عمران كثيرة، وأن معظمها ذكرتها السورة، وهي: خلقه من غير أب، وكلامه في المهد، ونفخه الروح للطير فيكون طيراً بإذن الله، ومسحه للأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله، وإحياؤه للموتى وقيامهم من قبورهم أحياء بإذن الله، وإنباؤه الناس بما يأكلون وما يدخرون.

3 – إرساله إلى بني إسرائيل، ودعوته إلى عبادة الله وحده.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (49) وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [آل عمران: 49 – 51].

لقد أرسل الله تعالى عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل بآيات وحجج بالغة، فجاء مصدقاً لما في التوراة مقراً بها، كعادة الرسل في تصديقهم بعضهم البعض، وليحل لهم بعض الذي حرم عليهم، فجاء متمماً لما في التوراة مع بعض التشريعات الجديدة للتخفيف والتيسير عليهم.

ولقد دعا عيسى عليه السلام بني إسرائيل إلى التوحيد الخالص الذي جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، فقال ابن تيمية: "فهذا دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم هو دين الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وعبادته تعالى في كل زمان ومكان، بطاعة رسله عليهم السلام"(2)، فكانت دعوته عليه السلام قائمة على عبادة الله وحده لا شريك له دون توسط بين الخالق والمخلوق،

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج45/2).

(2) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج83/1).

مؤكدة على قضية الإيمان باليوم الآخر، هذه العقيدة التي ينكرها اليهود أو يتجاهلونها؛ لسيطرة المادية الحسية عندهم وجعلها الأساس الذي يستند عليه الإيمان والتصديق، فكانت آية إحياء الموتى، التي جاء بها ﷺ، رسالة لهذه الأمة المادية التي لا تؤمن إلا بالمحسوس المعاين، ثم سرعان ما ينقلب معظمهم على أعقابهم، فهذه هي عادة اليهود في كل زمان ومكان.

ورغم طبيعة هذه الأمة المادية إلا أن عيسى ﷺ واجهها بالصبر والعزم والثبات؛ لتبليغ رسالة ربه ﷻ، مستخدماً أساليب متنوعة في تبليغ دعوته، التي كان من بينها أسلوب الترغيب والترهيب؛ لما له من تأثير في نجاح الدعوة، وقد ذكرت السورة هذا الأسلوب الذي يتجلى في قوله تعالى على لسان عيسى ﷺ: ﴿... وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: 50 – 51]، حيث أمرهم بتقوى الله ومخافته، واتباعه فيما يدعوهم به وطاعته، وأن هذا هو الصراط المستقيم الذي لا بديل له عند الله، خاصة أنه جاء لهم بآيات عظيمة من عند الله، لا يكذبها إلا كافر ومعاند، فكان لا بد من مقابلتها بالإيمان الصادق.

ولقد استدل عيسى ﷺ بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الألوهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الخالق، الرازق، المدبر، المنعم علينا من النعم ما لا يعد ولا يحصى، فهو المستحق وحده بجميع أنواع العبادة، وهذا ما أقره وأثبته في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾[آل عمران: 51][1].

وفي الآية السابقة رد على النصارى القائلين بألوهية عيسى ﷺ، ودحض لافتراءاتهم الباطلة عليه، فقد نصت الآية على إقرار عيسى ﷺ بعبوديته لله، وأنه معهم سواء في ذلك، وأنه مربوب مخلوق، فهو لم يَدْعُ إلا بالنبوة والرسالة القائمة على التوحيد الحق الذي جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، وقال الطبري: "هذه الآية، وإن كان ظاهرها خبراً، ففيه الحجة البالغة من الله لرسوله محمد ﷺ على الوفد الذين حاجوه من أهل نجران، بإخبار الله ﷻ بأن عيسى كان بريئاً مما

(1) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص 131).

نسبه إليه من نسبه إلى غير الذي وصف به نفسه، من أنه لله عبد كسائر عبيده من أهل الأرض"[1].

ولقد استمر عيسى عليه السلام ينصح قومه ويدعوهم إلى التوحيد الكامل، ولكن التعاليم والمبادئ التي كان ينادي بها خالفت أهواء بني إسرائيل، فلاقى منهم جحوداً لنبوته، وتكذيباً لما جاء به من الحق، رغم تأييد الله له بآيات عظيمة، فهم كعادتهم يكذبون أنبياء الله ورسله، ويجحدون الحق بعد بيانه، فاستحكم بهم العناد والإصرار على الكفر، وأرادوا قتله وسعوا في ذلك، عندها تيقن عيسى عليه السلام أنه لا بد من تصفية الفئة المؤمنة من الكافرة حتى يواصل دعوته، فاستنصر لدين الله ودعوته، فقام الحواريون[2] حماة الدين ليعلنوا إيمانهم وولاءهم، ويشهدوا بخضوعهم واستسلامهم لله، فتابعوه وآووه وناصروه على أعدائه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران: 52 – 53].

4 – رفع عيسى عليه السلام إلى السماء.

إن من قضايا العقيدة التي يدين بها المسلمون رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وذلك بتصريح من القرآن الكريم والسنة النبوية، التي تلقتها أمة الإسلام بالقبول والتسليم، وقد قال الإمام ابن تيمية: "أجمعت الأمة على أن الله رفع عيسى إلى السماء"[3]، وقال الإمام ابن القيم في قصيدته:

"**وكذاك رفع الروح عيسى المرتضى ... حقاً إليه جاء في القرآن**"[4]

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج442/6)، بتصرف يسير.

(2) الحواريون، قيل: إنهم كانوا قصارين صباغين يحورون الثياب ويبيضونها، وقيل: إنهم كانوا صيادين يصطادون السمك، وقيل: وسموا بذلك لبياض ثيابهم، وقيل غير ذلك، والصحيح أن الحواريين هم الأنصار، والحواري في كلام العرب هو الرجل الذي يستعين به فيما ينويه، ومما يدل على أن الحواري هو الناصر ويرجحه ما ثبت في الصحيح أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ندب النبي ﷺ الناس يوم الخندق، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، قال النبي ﷺ: "**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**" قال سفيان: الحواري: الناصر. [البخاري: صحيح البخاري، الجهاد والسير/السير وحده، 57/4: رقم الحديث 2997]. انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج444/1)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج46/2).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج226/3).

(4) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ج77/1).

ولقد دلت سورة آل عمران على رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[آل عمران: 54 – 55]، فأخبرنا سبحانه بتآمر الفئة الكافرة ومكرها برسوله عيسى عليه السلام، حتى وصل الأمر بهم للفتك به، والسعي في قتله، فحرض كفار بني إسرائيل ملك زمانه بتلفيق التهم الباطلة له، واستثاروا غضب الملك عليه، حتى أمر بالقبض عليه وصلبه، فأحاطوا بمنزله لتنفيذ مكرهم به، ظانين أنهم قد ظفروا به، ولكن الله ناصر رسله ومنجيهم، حيث نجاه الله من بين أظهرهم برفعه إلى السماء[1]، فصدق المولى عز وجل حيث قال: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: 21].

والأدلة على رفع عيسى عليه السلام إلى السماء عديدة، كما أن الأدلة التي أثبتتها النصوص على نزوله عليه السلام في آخر الزمان هي نفس الأدلة التي يستدل بها على رفعه؛ فلولا الرفع لما كان النزول، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "**وَاللهِ، لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ، وَلَتُتْرَكَنَّ الْقِلَاصُ**[2] **فَلَا يُسْعَى عَلَيْهَا، وَلَتَذْهَبَنَّ الشَّحْنَاءُ وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، وَلَيَدْعُوَنَّ إِلَى الْمَالِ فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ**"[3]، وقال رسولنا ﷺ أيضاً: "**كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟**"[4].

ومن خلال ما سبق يتضح أن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء هو أحد عقائد الدين وقضاياه، وما لا يتم إيمان عبد إلا بالإيمان به، وذلك كما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج46/2).

(2) ولتتركن القلاص: القلاص جمع قلوص بفتح القاف، والقلوص كل أنثى من الإبل الفتية، وسميت قلوصاً لطول قوائمها ولم تجسم بعد، وهي بمنزلة الفتاة من النساء، والحدث من الرجال، والمعنى أنه يزهد فيها ولا يرغب أو يسعى في اقتنائها لكثرة الأموال في ذلك الوقت، والعلم بقرب القيامة من خلال ظهور بعض علامات القيامة الكبري التي أخبرنا بها رسولنا ﷺ، وذكرت القلاص في الحديث لكونها أشرف الإبل التي هي أنفس الأموال عند العرب. انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج285/8)، وابن منظور، لسان العرب (ج81/7)، والنووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (ج192/2).

(3) [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، ص76: رقم الحديث 155].

(4) [المصدر السابق/نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، ص77: رقم الحديث 155].

ولكن لا بد من الإشارة إلى مسألة قد وقع الخلاف فيها بين العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ [آل عمران: 55]، إذ اختلفوا في المقصود من الوفاة المذكورة في الآية، وهل كان رفعه عليه السلام بجسده وروحه معاً؟ أم رفعت روحه فقط من غير جسده؟ وجوابه كالآتي:

أولاً: لقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 157 – 159]، وفي هذا بيان بأن الله قد رفع عيسى عليه السلام حياً ونجاه من القتل، وأنه لم يمت بعد، وقوله:﴿ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ ﴾ فعل مقسم عليه يكون حدوثه في المستقبل، وعند أكثر العلماء أن إيمان كل أهل الكتاب من اليهود والنصارى يكون إذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض قبل يوم القيامة، فيؤمنون الإيمان الحق الذي عليه أمة الإسلام؛ لأن المسيح عليه السلام يضع الجزية ولا يقبل منهم إلا الإسلام ثم يموت بعد ذلك، وذلك كما ورد في الأحاديث النبوية – ومنها ما قد تم ذكره–[1].

ثانياً: أن المقصود من لفظ التوفي الوارد في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ [آل عمران: 55]، أن معناه في لغة العرب الاستيفاء والقبض، وهو على ثلاثة أنواع: توفي النوم، وتوفي الموت، وتوفي الروح والبدن جميعاً، ولفظ التوفي لا يلزم منه توفي الروح دون البدن ولا توفيهما جميعاً إلا بقرينة منفصلة دالة على ذلك، والمراد من التوفي في الآية – والله أعلم – هو توفي النوم كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ... ﴾ [الأنعام: 60]، وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ

---

(1) انظر: ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج4/34 – 36).

﴿ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر:42][1]، ولقد قال الإمام ابن كثير "وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم"[2].

ثالثاً: إن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء كان بروحه وجسده معاً، ولم يكن بالروح فقط، وأنه حي لم يمت، حيث قال الإمام ابن تيمية: "فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت؛ إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن الله يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء فعلم أن ليس في ذلك خاصية. وكذلك: قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء أو غيره من الأنبياء. وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ فقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه؛ بل مات"[3].

قال صاحب كتاب (الطبقات الكبرى): "إن عيسى عليه السلام حين رفع كان ابن اثنتين وثلاثين سنة وستة أشهر. وكانت نبوته ثلاثين شهراً. وإن الله رفعه بجسده. وإنه حي الآن"[4].

ونخلص مما سبق أن نبي الله عيسى عليه السلام من آل عمران الذين ممن اصطفاهم الله من عباده، وأن حمله وميلاده آية للعالمين، حيث خلقه الله من غير أب، وأنه مثله كمثل آدم عليه السلام خلقه من تراب، وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم البتول عليها السلام، حيث قال له (كن) فكان، وأن الله تعالى أرسله إلى بني إسرائيل، وأنه جاء بآيات عظيمة أيده الله بها، منها: كلامه في المهد قبل أوان الكلام، وإحياؤه الموتى بإذن الله، ورفعه إلى السماء بجسده وروحه معاً.

ومن أهم الثمرات التي نتعلمها من قصة عيسى عليه السلام من خلال السورة ما يلي:

---

(1) انظر: ابن تيمية، دقائق التفسير (ج96/2)، والمؤلف نفسه، مجموع الفتاوى (ج323/4)، والمؤلف نفسه، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج38/4).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج47/2).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج322/4 – 323).

(4) ابن منيع، الطبقات الكبرى، (ج45/1).

1 – الصبر على قضاء الله وقدره والرضا به، فقد أثبتت مريم وابنها عليهما السلام أروع المواقف التي يصعب على الإنسان تحملها ومواجهتها؛ فمريم عليها السلام قد خضعت لأمر خالقها في خلق ابن لها من غير أب، ومثلت مثالاً عظيماً لا يقوى عليه إلا عباد الله الصابرين في تحملها اتهامات قومها الباطلة من قول الزور والبهتان عليها في ابنها، وأما عيسى عليه السلام فقد لاقى ما لاقاه إخوانه من الأنبياء من أصناف الابتلاءات والمحن، فتحمل وصبر من أجل نصرة دين الله، فكان من أولي العزم من الرسل، وبهذا حري بكل مسلم الاقتداء بصفوة خلقه وخيرتهم بأن يصبر على قضاء الله وقدره، ويواجه المحن والابتلاءات بقلب ثابت قوي، قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[آل عمران: 186].

2 – كما أن قصة خلقه عليه السلام بكلمة منه وهي (كن) فكان، فيها تسلية للمؤمنين الذين لهم الحوائج، بأن يسألوا خالقهم قضاءها، وأن لا يقنطوا من رحمته وعطائه، فالله وحده الأقدر على ذلك، فلا يعجزه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47].

3 – أن يثق المسلمون بربهم، ويؤمنوا بأنهم منتصرون، مهما بلغ كيد أعداء الدين لهم أو دبروا لهم المكائد، حيث إن قصة رفع نبي الله عيسى عليه السلام إلى السماء ونصرته على من عاداه لها من الثمرات العظيمة التي تدفع أهل الإيمان بعدم الخوف من أعداء الدين مهما كثروا، وكما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[آل عمران: 54 – 55]، فحري بكل مؤمن حُسْن الظن بالله، فالله ولي الذين آمنوا، وهو خير الناصرين، حيث قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾[آل عمران: 150]، فنصره سبحانه يكون لحملة دينه وأتباع رسله الذين ساروا على دربهم إلى يوم الدين.

المطلب الرابع: محمد ﷺ في سورة آل عمران

محمد رسول الله ﷺ سيد ولد آدم، سيد الأولين والآخرين، فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ**"(1).

وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وحبيب رب العالمين، صاحب الرسالة العامة، الذي أُرسل للناس كافة، قال تعالى: ﴿**وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ**﴾ [الأحزاب: 40]، وقال: ﴿ **وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ** ﴾[سبأ: 28]، وقال سبحانه: ﴿ **قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** ﴾ [آل عمران: 31]، وقال رسول الله ﷺ: "**مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بُنْيَانًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ**"(2).

يقول الإمام ابن تيمية: "أفضل أولي العزم: محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم"(3)، وقال – أيضاً –: "بعث الله رسوله محمداً ﷺ بأفضل المناهج والشرائع وأنزل عليه أفضل الكتب فأرسله إلى خير أمة أخرجت للناس وأكمل له ولأمته الدين وأتم عليهم النعمة وحرم الجنة إلا على من آمن به وبما جاء به ولم يقبل من أحد إلا الإسلام الذي جاء به فمن ابتغى غيره دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"(4).

---

(1) [الترمذي: سنن الترمذي، تفسير القرآن/ومن سورة بني إسرائيل، 308/5: رقم الحديث 3148]، قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقال الألباني: إنه صحيح.

(2) [مسلم: صحيح مسلم، الفضائل/ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين، ص977: رقم الحديث 2286]، وبلفظ آخر [البخاري: صحيح البخاري، المناقب/خاتم النبيين ﷺ، 186/4: رقم الحديث 3535].

(3) ابن تيمية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ج11/1).

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج64/28).

ومحمد ﷺ هو نبي الرحمة والتوبة الذي بعثه الله ليكون رحمة للعالمين، حيث قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: 159].

والتعريف بنبينا المصطفى ﷺ ونسبه العريق فهو: "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وإلى هنا فهو النسب الصحيح الذي لا خلاف فيه بين العلماء بالأنساب"[(1)].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**"[(2)].

ولقد ثبت في الكتاب والسنة بعض الأسماء الصريحة للنبي ﷺ، فسمي في القرآن الكريم باسم (محمد)، حيث ورد ذكره أربع مرات، أما في سورة آل عمران فقد ورد مرة واحدة[(3)]، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾[آل عمران: 144]، كما سمي باسم (أحمد) الذي ورد ذكره مرة واحدة في القرآن الكريم[(4)]، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ ﴾ [الصف: 6]، كما أن له أسماء عدة قد دلت عليها الأحاديث الشريفة، فقال ﷺ: "**إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ**"[(5)].

والحديث عن رسولنا محمد ﷺ خيرة خلق الله يفوق هذا البحث أضعافاً، وسنقتصر بذكر ما ورد عنه ﷺ في سورة آل عمران، والذي يدور حول الحديث عن نبوته ﷺ، وذلك كما سيأتي بيانه:

---

(1) البُرِّي، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة (ج23/1)، بتصرف يسير.

(2) سبق تخريجه: (ص184) من هذا البحث.

(3) انظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (ص218).

(4) انظر: المصدر السابق، ص218.

(5) [البخاري: صحيح البخاري، تفسير القرآن/قوله تعالى:﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾[الصف: 6]، 151/6: رقم الحديث 4896].

1 – ميثاق[1] الله على أنبيائه للإيمان بمحمد ﷺ:

لقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء الذين بعثهم من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام أجمعين للإيمان بنبينا محمد ﷺ ونصرته إذا ما بعث وهم أحياء، وتبليغ أممهم بتصديقه ومتابعته، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 81 – 82].

قال السعدي: "فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قررهم تعالى"[2].

وسبحانه ما بعث نبياً من الأنبياء، من لدن آدم عليه السلام فما بعده، إلا وقد أخذ العهد والميثاق عليه في شأن محمد ﷺ، بأنه لئن بعث في حياة أحدهم ليؤمنن به ولينصرنه، كما أخذ ذلك العهد على قومه الذين بعث فيهم[3].

ولقد اختلف أهل التفسير في الميثاق الذي أخذه الله على أنبيائه على وجهين[4]:

الأول: أن هذا الميثاق أخذه الله على الأنبياء عليهم السلام ليصدق بعضهم بعضاً، فيصدق متقدمهم بمتأخرهم.

الثاني: أن هذا الميثاق أخذه الله على أنبيائه للإيمان بمحمد ﷺ باتباعه ونصرته، وألزمهم دعاء أممهم إليه والإقرار به إذا ما بعث وهم أحياء، وهذا هو قول أكثر العلماء، ومما يؤكد ذلك أن تصديق الأنبياء بعضهم البعض هو أمر معهود بينهم، قد أوجبه الله عليهم كما أوجبه على عباده، وهو ركن من أركان الإيمان الذي لا يصح الإيمان إلا به، فكان المقصود من هذا الميثاق أنه في النبي محمد ﷺ خاصة.

---

(1) الميثاق: هو العهد المحكم والمؤكد. انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج85/6).

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص136).

(3) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج464/1)، نقلاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(4) انظر: الطبري، جامع البيان (ج557/6 – 559)، والبغوي، معالم التنزيل (ج464/1).

كما أن في الآية لفت قد وجهه بعض العلماء في أن ذكر لفظ (النبيين) دون أممهم في الآية السابقة، بأنه "أخذ الميثاق على النبيين وأمتهم فاجتزأ بذكر الأنبياء عن ذكر الأمم؛ لأن في أخذ الميثاق على المتبوع دلالة على أخذه على التابع، وحقيقة الأمر أن الميثاق إذا أخذ على الأنبياء دخل فيه غيرهم لكونه تابعاً لهم، ولأنه إذا وجب على الأنبياء الإيمان به ونصره فوجوب ذلك على من اتبعهم أولى وأحرى؛ ولهذا ذكر عن الأنبياء فقط"[1].

ولكن هناك من نكث العهد مع الله بكتمان نبوة محمد ﷺ وجحودها، رغم تبليغ أنبيائهم لهم بنبوته والتبشير به، وذلك كما فعل أهل الكتاب – وكما سيأتي بيانه في المبحث التالي –؛ حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[آل عمران: 187]، وفي الآية شهادة بتبليغ أنبيائهم لهم بهذا الميثاق الذي أخذه الله عليهم في نبوة محمد ﷺ وتصديقه، ولكن أقوامهم قابلوا ذلك بالكتمان والجحود، ونبذ العهد وراء ظهورهم، وشرائهم دون الدنيا الفانية بنعيم الدار الآخرة.

2 – امتنان الله ﷻ بإرسال النبي محمد ﷺ، ووجوب اتباع رسالته.

لقد امتنَّ الله على عباده المؤمنين بإرسال محمد ﷺ نبياً ورسولاً يعلمهم كتاب الله وسنته، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران: 164]، فهذه المنة الإلهية هي من أعظم النعم على المؤمنين، بأن بعث لهم رسولاً يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه الذي هو من أهل لسانهم؛ ليفقهوا عنه ما يقول، ويتلو عليهم آيات الله، ويطهرهم من ذنوبهم باتباعهم إياه وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم، ويعلمهم كتاب الله الذي أنزله عليه، والسنة التي سنها الله تعالى على لسانه ﷺ، فجمع لهم بين تعليم الأحكام وتطبيقها، وما به تدرك فوائدها وثمراتها، حتى فاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وإن كانوا من قبل أن يمن الله عليهم بإرساله لفي ضلال مبين[2].

ولقد تميزت الرسالة المحمدية بأنها عامة جاءت تدعو الناس كافة، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ

---

(1) ابن تيمية، الرد على المنطقيين (ص451).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج7/369)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص155).

﴿ ... ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:20]، فهذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته ﷺ إلى الناس كافة، كما هو معلوم من الدين بالضرورة[1].

كما أنه هذه الرسالة مصدقة لما جاء به جميع الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ ... ﴾ [آل عمران: 81]، فالدين واحد؛ لأن مصدره من الإله الواحد الذي لا شريك له، كما أكد رسول الله ﷺ على ذلك في قوله: "**أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**"[2].

ولقد أمرنا سبحانه بطاعة رسوله ﷺ واتباع كل ما جاء به، الذي فيه صلاحنا في الدنيا والآخرة، قال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[آل عمران: 132]، بل جعل طاعة الرسول ﷺ واتباع رسالته سبباً لحصول محبة الله تعالى للعبد وغفران ذنوبه، فقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[آل عمران: 31 – 32]، فإن من لوازم محبته سبحانه طاعة نبيه ﷺ في كل ما جاء به.

قال الإمام ابن تيمية: "علم بالاضطرار من دين الإسلام: أن رسالة محمد بن عبد الله ﷺ لجميع الناس: عربهم وعجمهم وملوكهم وزهادهم وعلمائهم وعامتهم، وأنها باقية دائمة إلى يوم القيامة؛ بل عامة الثقلين الجن والإنس وأنه ليس لأحد من الخلائق الخروج عن متابعته وطاعته وملازمة ما يشرعه لأمته من الدين"[3].

ولقد بيَّن سبحانه أن محمداً ﷺ هو رسول كسائر رسل الله الذين أرسلهم الله إلى عباده، الذين حين انقضت آجالهم قبضهم الله، فمثله مثل باقي الخلق الذين خلقهم الله، فالموت على جميع الخلائق حق، مهما بلغت منزلته ودرجته عند الله؛ قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج26/2).

(2) [البخاري: صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء/قول الله﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [مريم: 16]، 167/4: رقم الحديث 3443].

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج422/11 – 423).

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26 – 27]، ولكنه سبحانه، وإن قضى على نبيه محمد ﷺ بالموت مثله مثل سائر المخلوقات، فإن رسالته التي بعث بها باقية وخالدة إلى يوم الدين، وهي مستمرة سواء كان حياً أو ميتاً، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

وفي الآية السابقة معاتبة لما أصاب بعض المسلمين في غزوة أحد من الهلع والجزع، بل وانصراف بعضهم عن أعداء الدين ومواجهتهم، لما قيل: إن محمداً قد قتل، فأخبر سبحانه قضية غاية في الأهمية وهي أن من يرتد عن دينه فإنه لا يوهن عزة الله ولا سلطانه، وأن من يثبت على ما جاء به محمد ﷺ، سواء أمات أو لم يمت، ويتمسك بدينه وملته بعده، فسيجزيه الله خير الجزاء في الدنيا والآخرة(1)، كما ذكر أن هذه الآية قد تلاها أبو بكر الصديق ﷺ يوم مات النبي ﷺ، وقال: "من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت"(2).

قال الإمام ابن تيمية: "بيَّن سبحانه وتعالى أنه ليس بموته، ولا قتله ينتقض حكم رسالته، كما ينتقض حكم الإمامة بموت الأئمة وقتلهم، وأنه ليس من شرطه أن يكون خالداً لا يموت، فإنه ليس رباً، وإنما هو رسول الله قد خلت من قبله الرسل، وقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، فطاعته واجبة بعد مماته. وجوبها في حياته أوكد؛ لأن الدين كمل، واستقر بموته، فلم يبق فيه نسخ، ولهذا جمع القرآن بعد موته لكماله، واستقراره بموته"(3).

ويتبين من هذا المطلب المتعلق بخيرة الخلق وأفضلهم محمد ﷺ العديد من الأمور العظيمة، أهمها، من خلال السورة، ما يلي:

1 – أن النبي ﷺ له من الخصال العظيمة التي تفوق الذكر والبيان، أعظمها أخذ الله الميثاق على جميع أنبيائه للإيمان به، كما أن جميع على الأنبياء والرسل عليهم السلام أن يأخذوا العهد من أقوامهم بالإيمان به ونصرته إذا ما بعث فيه.

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج251/7 – 252).

(2) ابن تيمية، الحسنة والسيئة (ص124)، والمؤلف نفسه، مجموع الفتاوى (ج374/14).

(3) ابن تيمية، منهاج السنة النبوية (ج83/1)، بتصرف يسير.

2 – أن الرسالة التي بعث بها النبي ﷺ خالدة ومستمرة إلى يوم الدين، وأن موت الرسول ﷺ لا ينقضها، فهو رسول الله قد خلت من قبله الرسل، بلغ رسالة ربه على أكمل وجه، وأتم الله الدين على يديه وأكمله.

3 – أن بعثته ﷺ نعمة ومنة قد امتن الله بها على عباده، ولقد أمرنا سبحانه بطاعته ونصرته، فطاعته من طاعة الله تعالى، فكان لزاماً على كل مسلم اتباعه، والاقتداء بسنته، والذب عنه، قولاً وفعلاً، وعملاً لكل من يسيء إليه وإلى رسالته، كالذي صدر من بعض الصحفيين في الدنمارك[1] من إصدار المقالات، والصور الكاريكاتيرية المسيئة لشخص الرسول ﷺ وللإسلام، هذه الأعمال الشنيعة ومثيلها لا بد من محاربتها بكافة الوسائل، والله ناصر الإسلام وأهله ومتم نعمته على الذين آمنوا.

---

(1) الدنمارك: هي إحدى دول أوروبا الإسكندنافية، تقع شمال القارة، وثلث مساحتها عبارة عن جزر، يحدها من الجنوب ألمانيا، ومن باقي الجهات محاصرة غرباً ببحر الشمال، وشرقاً ببحر البلطيق وخليج كاتيكات، أما من الشمال فبحر سكاكيراك، وعاصمة الدنمارك هي مدينة كوبنهاكن، التي تعد المدينة الأكبر في اسكندنافيا. انظر: موقع المعرفة: http://www.marefa.org/index.php، يوم الأحد بتاريخ: 2017/3/13م، الساعة: 1:52.

المبحث الثالث

موقف أهل الكتاب من الأنبياء والرسل في السورة

بيَّن الله تعالى، في كتابه العزيز، موقف أهل الكتاب من الأنبياء والرسل، وما صدر منهم تجاههم باطناً وظاهراً، وكان من بين تلك الأفعال الشنيعة تكذيبهم لأنبياء الله ورسله، كما وصل بهم الأمر إلى ارتكاب الأفظع الذي هو من فعل اليهود أعداء الله بالقيام بإثم عظيم لم يسبقهم به أحد من العالمين وهو قتل الأنبياء، ما أفظعها من جريمة! فبئس العمل عملهم، وبئس المصير مصيرهم، فمثل هذا العمل لا يصدر إلا عن المجرمين الكفار، ولو رسخ الإيمان في قلوبهم – كما يدعون ويزعمون – لما فعلوا ذلك أبداً، فقلوبهم كالحجارة، بل هم أشد، وإن من يفعل مثل تلك الجرائم والأفعال المشينة فإنه لا يستحق إلا الضلالة والغضب، ولعنة الله والناس والملائكة أجمعين، والخلود في نار جهنم.

ولقد حذرنا المولى ﷻ أشد تحذير من اتباع أهل الكتاب وطاعتهم؛ فاتباعهم طريق للهلاك والخسران، وتبديل المرء عن دينه، فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[آل عمران: 100 – 101].

المطلب الأول: تكذيب أهل الكتاب للأنبياء والرسل.

لقد شهدت السورة تكذيب أهل الكتاب، وغيرهم من الكفار، للأنبياء والرسل، حيث قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾[آل عمران: 184]، وفي الآية تسلية لنبينا محمد ﷺ، فله الأسوة بإخوانه الأنبياء الذين قد كُذبوا من قبل، وبما جاؤوا من البينات الواضحة، والحجج القاطعة، وبما نزل عليهم من الزبر[1] والكتاب المنير، وإن

(1) لفظ (الزبر) الوارد في الآية المقصود منه الكتب، أي جميع الكتب المنزلة من السماء، ولا تختص بزبور داوود عليه السلام، فالزبر: جمع زبور وهو الكتاب، وأصله زبرت أي كتبت، فالمزبور هو المكتوب، وكل كتاب فهو زبور، وجمع بين الزبر والكتاب في الآية – وهما بمعنى واحد – لاختلاف لفظهما، وإخباره سبحانه أن الذين جاؤوا من قبله بالبينات والزبر والكتاب من عطف الخاص على العام؛ لاختصاصه بوصف يختص به كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[سورة البقرة: 98]، فإن الزبر من البينات، والكتاب المنير من الزبر. انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج290/12)، والمؤلف نفسه، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج382/6 – 384)، وابن القيم، شفاء العليل (ص39)، والطبري، جامع البيان (ج450/7)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج297/4).

تكذيب أهل الكتاب للأنبياء والمرسلين ليس بغريب عليهم، فهي عادتهم كلما جاءهم رسول من عند الله سارعوا في تكذيبه والكفر به، فقد كذب اليهود عيسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام، كما جحدت النصارى محمداً ﷺ، وفعلهم هذا تجاه رسل الله لن يضر الله شيئاً، بل هو حسرة عليهم وعلى من يتبعهم، فمقامهم ومأواهم نار جهنم(1).

ومعلوم من الدين بالضرورة أن التكذيب برسول واحد تكذيب لسائر الأنبياء والرسل، فهم يحملون رسالة واحدة، ويدعون إلى دين واحد، والله تعالى أوجب على عباده الإيمان بجميع رسله من غير تفريق بينهم(2)، فقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران: 84].

وأما عن تكذيب أهل الكتاب للأنبياء والرسل، الوارد ذكرهم في سورة آل عمران، فقد تضمنت ما يلي:

أولاً: تكذيب أهل الكتاب من اليهود نبي الله عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام وهو يدعو بني إسرائيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: 50 – 51].

ولكن كان موقف اليهود كعادتهم مع سائر أنبياء الله ورسله التكذيب والجحود، رغم قيام الحجج والبراهين عليهم، وإن هذا القول ليس اتهاماً باطلاً في حقهم، أو تزويراً وبهتاناً، بل هو حقيقة قد شهد عليها القرآن الكريم وكتبهم من قبله.

ومما ورد في نصوص كتبهم ما جاء في العهد الجديد: "**قال أبواه هذا لأنهما كانا يخافان من اليهود. لأن اليهود كانوا قد تعاهدوا أنه إن اعترف أحد بأنه المسيح يخرج من المجمع**" [سفر يوحنا: 9: 22]، ففي هذا النص دلالة واضحة تشهد بتكذيب اليهود وجحودهم نبوة عيسى عليه السلام، حيث إنهم يُخْرِجون من المجمع ويطردون كل من يعترف بأن عيسى عليه السلام هو المسيح.

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج7/450 – 451)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/177).

(2) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص16).

أما ما ورد في القرآن الكريم بخصوص موقف اليهود من عيسى عليه السلام فقد دلت عليه العديد من السور، ومن تلك السور سورة آل عمران حيث قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 52 – 53]، فقد شهدت الآيات تكذيب اليهود وكفرهم بعيسى عليه السلام وجحودهم نبوته، وتصميمهم على الضلال، وأن عيسى عليه السلام عندما وجد منهم ذلك طلب العون والنصرة على المكذبين بحجة الله، فهبت طائفة من بني إسرائيل وهم الحواريون لنصرته ونصرة دينه، وتجدد عهدها معه في الإيمان والتصديق به(1).

وعن هذا التآمر الخبيث الذي صدر من اليهود ضد عيسى عليه السلام وتكذيبهم له وكفرهم بدعوته فقد شهدت بهم، حيث ورد في العهد الجديد: "**فقال لهم بيلاطس هوذا الإنسان. فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا قائلين اصلبه اصلبه. قال لهم بيلاطس خذوه أنتم واصلبوه لأني لست أجد فيه علة... فقال لليهود هوذا ملككم. فصرخوا خذه خذه اصلبه. قال لهم بيلاطس أأصلب ملككم. أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر**" [سفر يوحنا: 19: 5 – 15].

وإن هذا الفعل الشنيع الذي صدر من يهود قد أبطله الله ورده ليكون حسرات عليهم، فقد شهدت السورة نصر الله نبيه عيسى عليه السلام ومن تبعه من المؤمنين وإظهارهم عليهم إلى يوم القيامة، وإن هذه هي سنة من سنن الله جل جلاله في نصر رسله وإعلاء دينه، حيث أبطل كيدهم ومكرهم، وذلك برفعه عليه السلام إلى السماوات العلى عندما اشتد أذاهم وأرادوا المكر به وقتله، فقال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: 54 – 55].

ثانياً: تكذيب أهل الكتاب خاتم الأنبياء والمرسلين محمداً صلى الله عليه وسلم:

لقد كذَّب أهل الكتاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وجحدوا نبوته، فتلك هي عادتهم في تكذيب أنبياء الله ورسله من قبل، فقال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج6/442 – 443)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/45 – 46).

﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾[آل عمران: 184]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[آل عمران: 110].

قال الإمام الطبري في الآية السابقة: "لو صدق أهل التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمد ﷺ وما جاءهم به من عند الله؛ لكان خيراً لهم عند الله في عاجل دنياهم وآجل آخرتهم "منهم المؤمنون"، يعني: من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، المؤمنون المصدقون رسول الله ﷺ فيما جاءهم به من عند الله... "وأكثرهم الفاسقون"، يعني: الخارجون عن دينهم، وذلك أن من دين اليهود اتباع ما في التوراة والتصديق بمحمد ﷺ، ومن دين النصارى اتباع ما في الإنجيل، والتصديق به وبما في التوراة، وفي كلا الكتابين صفة محمد ﷺ ونعته ومبعثه، وأنه نبي الله. وكلتا الفرقتان – أعني اليهود والنصارى – مكذبة، فذلك فسقهم وخروجهم عن دينهم الذي يدعون أنهم يدينون به"(1).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]، فأخبرنا سبحانه بنقض أهل الكتاب العهد الذي أخذه الله عليهم من التصديق بمحمد ﷺ، ونبذه وراء ظهورهم، فكتموا نبوته وجحدوها وكذبوا بها، ولأجل هذا الجرم الشنيع استحقوا تهديد ووعيد الله تعالى لهم، فقد تاجروا بما عند الله بشهوات الدنيا الزائلة، فبئس الشراء شراؤهم.

وفي الآية السابقة – أيضاً– تحذير للعلماء الذين يعلمون كتاب الله أن يسلكوا مسلكهم في كتمان العلم ونبذه، فمن يفعل ذلك – والعياذ بالله – استحق غضب الله وسخطه وعذابه، فقد قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**"(2)، فعلى كل عالم آتاه الله علماً أن يبلغه ولا يكتمه، ويؤدي الأمانة فيه كما أمرنا الله ﷻ، ويهدي الناس إلى العلم النافع الدال على الأعمال الصالحة، وليس المقصود بأن يبلغ العلم الذي لا يجني من تبليغه فائدة، كالتحدث مع عامة الناس بأخبار الفتن وغير ذلك، فإن هذا عدم تبليغ هذا النوع من العلم لا

(1) الطبري: جامع البيان (ج107/7)، بتصرف يسير.

(2) [الترمذي: سنن الترمذي، العلم/ما جاء في كتمان العلم، 29/5: رقم الحديث 2649]، وقال الألباني: إنه صحيح.

يعد كتماناً له، فعن أبي هريرة ﷺ قال: "**حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وِعَاءَيْنِ: فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَبَثَثْتُهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَلَوْ بَثَثْتُهُ قُطِعَ هَذَا البُلْعُومُ**"[1][2].

وإن أهل الكتاب لا يخفى عليهم أمر نبينا محمد ﷺ وصفته ونبوته، فقد بلغهم أنبياؤهم بنبوته، وبشرت به كتبهم، فقال صاحب كتاب (أعلام النبوة): "كان بين موسى وعيسى من الأنبياء الذين أوتوا الكتاب، باتفاق أهل الكتابين عليهم، ستة عشر نبياً ظهرت كتبهم في بني إسرائيل فبشر كثير منهم بنبوة محمد ﷺ"[3]، فأهل الكتاب يعرفون محمداً ﷺ كما يعرف الواحد منهم ابنه، وقد أخبرنا المولى ﷻ بذلك في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[سورة البقرة: 146]، وعن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة؟ قال: "**أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي القُرْآنِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: 45]، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المتَوَكِّلَ لَيْسَ بِفَظٍّ وَلاَ غَلِيظٍ، وَلاَ سَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ، وَلاَ يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ المِلَّةَ العَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمْيًا، وَآذَانًا صُمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا**"[4].

ولكنهم رغم بيان الحق أتم بيان قابلوا نبوة محمد ﷺ بالجحود والكتمان، وأنكروا البشارة الواردة في نبوته ﷺ التي جاءت في كتبهم، ومن تلك النصوص ما ورد التوراة: "**هوذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيُخْرِجُ الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يُسْمَع في الشارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يُطفئ إلى الأمان يُخْرِجُ الحق... أنا الرب قد دعوتك بالبر فأُمْسِكُ بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم لتفتح عيون العُمْيِ لِتُخْرِجَ من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة**" [سفر إشعياء: 42: 1 – 7]، حيث أشار النص إلى البشارة بنبي بعد عيسى ؏، ومواصفات تلك النبوة التي

---

(1) [البخاري: صحيح البخاري، العلم/حفظ العلم، 35/1: رقم الحديث 120].

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج180/2 – 181).

(3) الماوردي، أعلام النبوة (ص150).

(4) [البخاري: صحيح البخاري، البيوع/كراهية السخب في السوق، 66/3: رقم الحديث 2125].

طابقت ما ورد في الحديث السابق الذكر، ولكن السؤال هنا: كيف يكفرون بمحمد ﷺ الذي يجدونه في كتبهم وفي الوقت نفسه يشهدون أن ما في كتبهم حق؟! والإجابة واضحة أتم وضوح، هي أن فعلهم هذا إنما فعل من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعضه، وإن مثل هؤلاء الكفرة استحقوا وعيد الله بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[سورة البقرة: 85].

وينبغي أن يعي كل مؤمن أنه حتى لو كتم أهل الكتاب ما بشرت به كتبهم وأنبياؤهم بالنبي المصطفى محمد ﷺ وكذبوه، فيكفينا ما صرح به القرآن الكريم على لسان آخر نبي قبله، وهو عيسى عليه السلام، حين دعا قومه إليه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف: 6]، وأحمد من أسماء النبي محمد ﷺ، وذلك كما أخبرنا رسول الله ﷺ، حيث قال: **"إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ"**(1).

ولم يكتف أهل الكتاب بتكذيب النبي محمد ﷺ وجحود الحق الذي جاء به، بل تعدى الأمر ذلك، فاشتغلوا في كيد لإسلام وأهله وهذا هو ديدنهم منذ بعث المصطفى ﷺ إلى قيام الساعة، فقد صدرت منهم مواقف لا تعد ولا تحصى في هذا الجانب، وسيظل الكبر والعناد والحقد في قلوبهم ماداموا يتبعون أهواءهم، ويعرضوا عن الحق الذي بينه سبحانه على يد أنبيائه، ومن تلك المواقف ما شهد عليها نص القرآن الكريم الوارد في السورة، من أن طائفة من أحبار اليهود قد تشاورت بأن يؤمنوا بما جاء به محمد ﷺ صدر النهار ويرتدوا عنه آخره؛ ليشتتوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، ويكذبوا رسول الله ﷺ في دعوته، خاصة أنهم أهل كتاب وعلم، فيقول الجهلاء من الناس إن خروجهم عن دينه إنما هو نقيصة وعيب في دين المسلمين، وأنهم قد وجدوا الضلالة فيه، ولكن الله يأبى إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فهو وحده الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ

---

(1) سبق تخريجه: (ص184) من هذا البحث. مطلب محمد ﷺ.

﴿تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران: 70 – 73][1].

ومن تلك المواقف – أيضاً – ما فعله النصارى بالنبي ﷺ في أمر عيسى عليه السلام وما يعتقدون به من العقائد الباطلة، وأن الجدل والعناد للحق هو دربهم الذي يسيرون عليه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

ولقد استحق المكذبون لأنبياء الله ورسله والجاحدون للحق اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين، والخلود في عذاب نار جهنم، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [آل عمران: 86 – 88]، وهذا هو عقاب كل كافر ومرتد عن دين الإسلام، وقد فسر أهل العلم هذه الآيات الكريمة بأن استحقاق اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين يكون لفئة من الناس قد دخلوا دين الإسلام ثم ارتدوا عنه، يدخل مع هذه الفئة المستحقة للعنة أهل الكتاب الذين عرفوا صفة محمد ﷺ المكتوبة في كتبهم ثم كفروا به[2].

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج59/2)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص134).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج574/6 – 576)، وقال الإمام الطبري في هذا الصدد: "وأشبه القولين بظاهر التنزيل ما قال الحسن: من أن هذه الآية معني بها أهل الكتاب على ما قال، غير أن الأخبار بالقول الآخر أكثر، والقائلين به أعلم، بتأويل القرآن. وجائز أن يكون الله ﷻ أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذكر أنهم كانوا ارتدوا عن الإسلام، فجمع قصتهم وقصة من كان سبيله سبيلهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد ﷺ في هذه الآيات. ثم عرف عباده سنته فيهم، فيكون داخلاً في ذلك كل من كان مؤمناً بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، ثم كفر به بعد أن بعث، وكل من كان كافراً ثم أسلم على عهده ﷺ، ثم ارتد وهو حي عن إسلامه. فيكون معنياً بالآية جميع هذين الصنفين وغيرهما ممن كان بمثل معناهما". المصدر السابق، ص575 – 576.

يقول سيد قطب بعض العبارات التي تصور مشهد هؤلاء الكافرين المكذبين لدين الإسلام أمثال أهل الكتاب وغيرهم، وما يلاقونه من اللعن الذي هو عقوبة زائدة على عذابهم في النار والخلود فيها: "إنما هو عذاب من لون آخر. عذاب قد تحسه النفوس والقلوب أكثر مما تحسه الأبدان والبطون. إنه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين... ولقد كانت لعنة واحدة من هذه اللعنات تسود حياة إنسان وتعذبه عذاباً شديداً. بل لقد كانت لعنة جيل واحد من الناس تنصب على فرد تصيِّر حياته جحيماً. فكيف بلعنة واحدة مجتمعة من لعنة الله ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين؟ إنه نوع من العذاب لا يطاق. وهو جدير أن يسمى عذاباً، يزيد وقعه أنه خالد دائم، وحاضر لا يؤجل: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾"[1] [آل عمران: 88].

ونخلص مما سبق أن أهل الكتاب قد كذبوا الأنبياء والرسل، ولم يحفظوا عهد الله وميثاقه واشتروا به ثمناً قليلاً، فاستبدلوا الدنيا الفانية بالآخرة الباقية، فكان العقاب والعذاب الشديد في الدنيا والآخرة هو مصيرهم.

ولكن لا بد من التنويه لأمر غاية في الأهمية وهو أن السورة قد أثبتت تكذيب أهل الكتاب للأنبياء والرسل عليهم السلام، إلا أنها قد شهدت – أيضاً – أن بعض أهل الكتاب قد آمن وصدق بالرسول ﷺ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[آل عمران: 110]، وقوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾[آل عمران: 193].

قال الإمام البغوي: "ربنا إننا سمعنا منادياً يعني: محمداً ﷺ، قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما، وأكثر المفسرين"[2].

ولقد أثنى الله تعالى عليهم في كتابه ثناءً حسناً؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾

---

(1) سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن (ص237)، بتصرف يسير.

(2) البغوي، معالم التنزيل (ج557/1).

[آل عمران: 199][1]، وقال سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 113 – 115].

قال الإمام ابن القيم: "فإن هؤلاء ليس المراد بهم المتمسك باليهودية والنصرانية بعد بعث محمد ﷺ قطعاً، فإن هؤلاء قد شهد لهم بالكفر وأوجبت لهم النار فلا يثنى عليهم بهذا الثناء، وليس المراد به من آمن من أهل الكتاب ودخل في جملة المؤمنين وباين قومه؛ فإن هؤلاء لا يطلق عليهم أنهم من أهل الكتاب إلا باعتبار ما كانوا عليه، وذلك الاعتبار قد زال بالإسلام واستحدثوا اسم المسلمين والمؤمنين، وإنما يطلق الله سبحانه هذا الاسم على من هو باق على دين أهل الكتاب هذا "هو" المعروف في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ...﴾ [آل عمران: 70]... ولهذا قال جابر بن عبد الله، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، والحسن،

---

(1) اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية، ومن الأقوال: ما نقل عن ابن عباس وجابر بن عبد الله وأنس وقتادة وغيرهم: أنها نزلت بسبب أصحمة النجاشي سلطان الحبشة، ومعنى أصحمة باللغة العربية: عطية وقد قاله سفيان بن عيينة وغيره، ولقد كان النجاشي نصرانياً ولكنه بعد ذلك آمن بمحمد ﷺ باطناً، ولما مات نعاه جبريل عليه السلام في اليوم الذي مات فيه، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: اخرجوا فصلوا على أخ لكم، فصلى عليه رسول الله ﷺ بالناس، فكبر أربعاً، واستغفر له، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علج نصراني لم يره قط، وليس على دينه، فنزلت الآية. وهناك من وجه نزول الآية بالأعم وهو قول مجاهد: إنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم. انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج559/1)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج559/1)، وقول مجاهد هذا قد رجحه المفسر ابن جرير الطبري؛ لأن الله تعالى لم يخصص النصارى دون اليهود، ولا اليهود دون النصارى في الآية، بل ذكر لفظ أهل الكتاب، الذي يطلق على اليهود والنصارى جميعاً، أما عن تعليله لقول جابر وغيره من أن الآية نزلت في النجاشي وأصحابه فقد قال: "ذلك خبر في إسناده نظر. ولو كان صحيحاً لا شك فيه، لم يكن لما قلنا في معنى الآية بخلاف. وذلك أن جابراً ومن قال بقوله، إنما قالوا:"نزلت في النجاشي"، وقد تنزل الآية في الشيء، ثم يعم بها كل من كان في معناه. فالآية وإن كانت نزلت في النجاشي، فإن الله تبارك وتعالى قد جعل الحكم الذي حكم به للنجاشي، حكماً لجميع عباده الذين هم بصفة النجاشي في اتباعهم رسول الله ﷺ، والتصديق بما جاءهم به من عند الله، بعد الذي كانوا عليه قبل ذلك من اتباع أمر الله فيما أمر به عباده في الكتابين، التوراة والإنجيل". الطبري، جامع البيان (ج499/7 – 500).

وقتـــادة، أن قولـــه تعـــالى:﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ ... ﴾[آل عمران: 199] الآية، أنها نزلت في النجاشي زاد الحسن وقتادة: وأصحابه"[1].

وقال الإمام ابن تيمية: "والله تعالى إنما أثنى على من آمن من أهل الكتاب، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ... ﴾[آل عمران: 199] وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي ﷺ لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ﷺ ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام... ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي ﷺ بمنزلة من يؤمن بالنبي ﷺ في بلاد الحرب ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه"[2]، وقال – أيضاً – في موضع آخر: "فإن هؤلاء ما بقوا من أهل الكتاب وإنما المقصود من هو منهم في الظاهر وهو مؤمن؛ لكن لا يقدر على ما يقدر عليه المؤمنون المهاجرون المجاهدون كمؤمن آل فرعون هو من آل فرعون وهو مؤمن"[3].

وبالتالي إن الذين أثنى الله عليهم في الآيات هم قسم من الناس في الهدى الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ، الذين كتموا إيمانهم في قومهم ولم يتمكنوا من إظهاره لأسباب كالخوف على أنفسهم من القتل وغيره، كالنجاشي ملك نصارى الحبشة، الذي كان في الباطن مؤمناً، فهؤلاء ذكرهم الله بمسمى أهل الكتاب للظروف التي ذكرناها والله أعلم، ولكنهم من المؤكد أنهم لا يدخلون في حكم أهل الكتاب الذين كفروا وكذبوا الأنبياء والرسل، وحكم الله عليهم بالكفر[4].

المطلب الثاني: قتل اليهود للأنبياء وعاقبة ذلك.

دلت سورة آل عمران على تجرؤ اليهود – أعداء الله – بارتكاب إثم عظيم لم يسبقهم به أحد من العالمين ألا وهو قتل الأنبياء، كقتلهم نبي الله زكريا وابنه يحيى عليهما السلام[5].

---

(1) ابن القيم، اجتماع الجيوش الإسلامية (ج77/2، 78)، بتصرف يسير.

(2) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج202/2 – 203)، بتصرف يسير.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج224/19).

(4) ابن القيم، اجتماع الجيوش الإسلامية (ج76/2 – 77).

(5) الطبري، جامع البيان (ج284/6).

هذه الأمة المغضوب عليها في الدنيا والآخرة، التي جحدت كل ما لا تهواه النفوس، فنقضت عهدها مع الله وميثاقه، واستهزأت بآياته وكفرت بها، وكذبت أنبياءه وقتلتهم، وما كانت تهمتهم إلا أنهم أُمروا أن يعظوهم ويذكروهم بما أُنزل إليهم من قبل، وينهوهم عن إتيان معاصي الله التي كانوا يرتكبونها، فقابلوا رسل الهداية بالقتل والتنكيل والتعذيب، فكانوا من أسوأ الكفار عند الله وأشد غضباً عليهم ممن سواهم، فاستحقوا أن يصفهم الله بالأمة المغضوب عليها لفواحش ما فعلوا.

أما عن فضائحهم في قتلهم الأنبياء التي هي من أفظع الجرائم، فقد ذكرت السورة ذلك في ثلاثة مواضع، هي:

1 – قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾[آل عمران: 21 – 22].

2 – قوله سبحانه: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: 112].

3 – قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[آل عمران: 181 – 182].

أولاً: ما تضمنته الآيات من أمور قام بها اليهود، وشهدت عليهم فيها:

1– الكفر والتكذيب بآيات الله، وجحودهم لما جاء في كتبهم المنزلة من الحق بالتحريف، والتبديل، والكتمان.

2- وصف الله ﷻ بصفات النقص والعجز، وقولهم مقولة يتنزه الله تعالى عنها، وهي وصفه بأنه فقير لهم وهم الأغنياء عنه - تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-.

3- افتراؤهم على الله الكذب بقولهم إن الله قد أوصاهم بعدم التصديق لرسول أو الإيمان به حتى يأتي بقربان(1) تأكله النار فتكون دليلاً على صدق دعواه، وبالتالي جمعوا بين الكذب على الله وحصر آية الرسل بما ادعوه(2)، وفي هذا حجة عليهم لا لهم فقد كذبهم الله من فوق سبع سماوات بتأييد رسله بالآيات، والحجج البالغة، وبالذي قالوا من تقديم القربان وقبوله، ولكنهم كذبوهم وقتلوهم، فكيف يشترطون تلك العلامة على أن تكون دلالة على صدق النبوة وعندما تحدث يكذبون الأنبياء ويقتلونهم؟

4- التجرؤ على قتل الأنبياء الذين أرسلهم الله لتذكيرهم حدود الله ومحارمه، والعمل بما جاء في كتبهم، وترك المعاصي والمحرمات التي كانوا يقترفونها، وأيضاً قتلهم لرجال الوعظ والدين الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الذين يذكرونهم بما أوصاهم به أنبياؤهم.

5- أن سبب أفعالهم الشنيعة هو التمادي في التعنت والعصيان، بارتكاب المحرمات والآثام، واتباعهم الهوى، والاعتداء على شرع الله وحدوده.

قال صاحب كتاب (تفسير المنار): "إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، اليهود خاصة... فاليهود هم الذين جروا على الكفر بآيات الله من عهد موسى إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام، وبذلك تشهد عليهم كتبهم قبل القرآن، وعلى قتل النبيين"(3).

وعن شهادة كتبهم على أن اليهود هم قتلة الأنبياء ما ورد في التوراة الموجودة بين أيديهم: "**لباطل ضربت بنيكم. لم يقبلوا تأديباً. أكل سيفكم أنبياءكم كأسد مهلك**" [سفر إرميا: 2: 30]، فهذا النص وحده يكفي لفضح جرائم اليهود وتجرؤهم على الله بقتلهم أنبياءه، فهو يمثل اعتراف لا مرية فيه بأن سيوفهم كانت تأكل أنبياءهم، أي: أنهم قتلوهم بسيوفهم.

---

(1) القربان: كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من صدقة، ونسيكة، وعمل صالح، وكانت القرابين والغنائم في شريعة بني إسرائيل لا تحل أن يأخذوها، فكانوا إذا قربوا قرباناً أو غنموا غنيمة تأتي نار بيضاء من السماء لها دوي وحفيف ولا دخان لها، فتأكل وتحرق القربان أو الغنيمة فيكون ذلك الحدث علامة قبولها، أما إذا لم تُقبل بقيت على حالها كما هي. انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج548/1).

(2) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص159).

(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج215/3)، بتصرف يسير.

كما جاء في العهد الجديد أن اليهود تآمروا على قتل عيسى عليه السلام: "**وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل. لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه**" [سفر يوحنا: 7: 1].

ثانياً: عاقبة قتل اليهود للأنبياء وجزاء ذلك كما بينته آيات سورة آل عمران.

1 – حبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة، وتبرؤ الله منهم وعدم نصرتهم، حيث قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[آل عمران:22]، فاليهود بقتلهم الأنبياء حبطت أعمالهم في الدارين، وإن الهزيمة والخسران هو نصيبهم، فنجدهم في قتالهم مع المسلمين – رغم عدتهم وعتادهم – يولون الأدبار فراراً، والجبن والخوف ملازم لقلوبهم، فقد قال سبحانه عنهم: ﴿ لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[آل عمران: 111]، فتستمر هزيمتهم ولا ينتصرون في وقت من الأوقات، وإذا ما أوهموا الناس بالنصر فإنه لا يكون إلا بالغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق.

2 – إلزامهم الذل والهوان والمسكنة أينما وجدوا، واستحقاقهم غضب الله وسخطه عليهم، فقد قال تعالى عنهم: ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُ ... ﴾ [آل عمران: 112]، وهذا عقاب منه سبحانه لكفرهم وقتلهم النبيين، فأينما وجدوا على وجه الأرض حكم عليهم المولى عز وجل بأن يكونوا في حالة ضعف، وأسر، وقتل، منبوذين من الأمم، مشتتين في البلاد، غير سالمين ولا آمنين إلا بعهد من الله تعالى وعهد من المؤمنين ببذل الجزية أو عقد معاهدات السلام وأخذ الأمان منهم، فلا يستقرون ولا يطمئنون أبداً، وهذا عين الذل والصغار والهوان الذي فرضه الله عليهم وأعقبهم إياه في الدنيا والآخرة، إضافة إلى إلباسهم رداء المسكنة والفقر وظهورهم به حتى لو كانوا من أغنى الناس مالاً، فمثلاً نجد أحبارهم الذين استغلوا ثوب الدين لنهب الأموال، رغم غناهم إلا أنهم يظهرون في مظهر المسكنة والفقر(1).

3 – العذاب الشديد في نار جهنم في الآخرة، وهو أعظم عقاب لهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ

---

(1) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج1/496).

حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[آل عمران: 181]، وهذا تهديد ووعيد منه سبحانه بأنه قد أوجب عليهم النار وعذاب حريقها؛ جزاء لهم على كفرهم وقتلهم الأنبياء بغير حق.

وقوله تعالى ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾: "بيان للواقع بما يقرر بشاعته وانقطاع عرق العذر دونه، وإلا فإن قتل النبيين لا يكون بحق مطلقاً كما قال المفسرون"(1).

وتلك هي عاقبة اليهود قتلة الأنبياء كما بينته السورة، وأن عقاب الله لهم إنما هو عدل منه سبحانه، فهو العادل في حكمه الذي لا يظلم أحداً، فهم بكفرهم وتكذيبهم وقتلهم أنبياء الله ورسله استحقوا ما أصابهم من العقاب في الحياة الدنيا، وما سينالهم من العذاب الشديد في الدار الآخرة، وذلك ما جنته أيديهم وقدمته، فقد قال سبحانه، عقب بيان أشد عقوبة لهم وهي العذاب في نار جهنم: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [آل عمران: 182].

والجدير بالذكر أن تاريخ اليهود الملطخ بالدماء منذ القدم بتقتيلهم أنبياء الله، أنهم لا يزالون يمارسون الجرم والقتل إلى يومنا هذا، ويكفينا ذكر ما يحدث بشعبنا الفلسطيني المناضل وما يلاقيه من عدوان اليهود أعداء الدين، الذين ارتكبوا أفظع الجرائم والمجازر فيهم منذ تدنيسهم أرض فلسطين، فقد شنوا ضدهم العديد من الهجمات الشرسة، وقاموا بتمزيق أجساد الأطفال والشيوخ والنساء شر تمزيق، بحيث تقشعر الأبدان عند سماع ومعاينة جرائمهم، وإذا أردنا أن نذكر جرائمهم وعدوانهم لن يكفينا مجلدات في بيان فضائحهم وكيدهم للإسلام والمسلمين، ولكن الله ناصر الإسلام وأهله، ومتم نوره ولو كره الكافرون، ومؤيد المجاهدين المناضلين الذين وهبوا أرواحهم فداءً للوطن، وكلنا إيمان بتحقيق وعد الله في نصرنا عليهم، وتحرير كل شبر من أرض فلسطين وعاصمتها القدس الشريف، واستعادة كل مقدساتنا الإسلامية وعلى رأسها المسجد الأقصى المبارك، وتطهيرها من أيدي الغاصبين المجرمين – اللهم آمين –.

---

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج215/3 – 216).

المبحث الرابع

وجوب الإيمان بالكتب السماوية

من رحمة الله تعالى بالناس أنه أرشدهم إلى طريق الحق، فبعث النبيين والمرسلين وأنزل على كثير منهم كتباً تحمل بين سطورها أصول العقيدة الصحيحة، والشريعة الربانية التي ارتضاها لعباده، لتكون هذه الكتب المنهاج والسلوك الذي تهتدي به البشرية، وسبيل النجاة لهم في الدنيا والآخرة.

والإيمان بالكتب السماوية ركن من أركان الإيمان الستة، وأصل مهم من أصول العقيدة الإسلامية يجب على كل مسلم الأخذ به وتحقيقه، فلا يتم الإيمان إلا به، وإن صلاح المرء وسعادته يكمن بالإيمان بهذا الأصل العظيم الذي فيه الهدى للناس والخير، حيث قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: 3 – 4].

قال الإمام ابن تيمية: "فإن دين الله هو الإسلام في كل وقت فكل من آمن بكتب الله ورسله في كل زمان فهو مسلم ومن كفر بشيء من كتب الله ورسله فليس مسلماً في أي زمان كان"(1).

وعقيدة الإيمان بالله لا تنفك أبداً عن عقيدة الإيمان بالكتب، فقد قرن سبحانه الإيمان به بالإيمان بكتبه في العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة كحديث جبريل عليه السلام الطويل في سؤاله للرسول ﷺ عن الإيمان، حيث أجاب ﷺ: "**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**"(2)، وفي هذا دلالة واضحة على وجوب الإيمان بعموم الكتب وتصديقها، وأن من كفر بشيء من هذه الكتب كافر مستحق للعذاب الشديد في الدنيا والآخرة.

المطلب الأول: وجوب الإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله.

أولاً: تعريف الكتب لغةً واصطلاحاً.

أ – الكتب لغةً:

الكتب جمع كتاب، والكاف، والتاء، والباء، أصل صحيح واحد دال على جمع شيء إلى شيء(3)، والكتاب هو ما يكتب فيه، ويطلق على: الدواة، والتوراة، والصحيفة، والفرض، والحكم، والقدر(4).

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج228/35).

(2) سبق تخريجه: (ص9) من هذا البحث.

(3) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج158/5).

(4) انظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط (ص128).

والكتاب في الأصل مصدر ثم سمي المكتوب فيه كتاباً، وهو اسم للصحيفة مع المكتوب فيها، وأصل الكَتْب ضم أديم إلى أديم بالخياطة، واستعمل عرفاً فيضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط، وقد تطلق إلى ما هو مضموم باللفظ أيضاً، والأصل في الكتابة النظم بالخط ويستعار كل منهما للآخر، ولهذا سمي كلام الله كتاباً – وإن لم يُكتب – كقوله تعالى:﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [سورة البقرة: 1–2][1].

ب – الكتب اصطلاحاً:

الكتاب في الشرع هو: " كلام من كلام الله تعالى، فيه هدى ونور، يوحي الله به إلى رسول من رسله ليبلغه للناس"[2]، والكتب السماوية هي: "الصحف التي حوت كلام الله ﷻ، الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكونت كتباً، أو بقيت صحفاً لم تجمع، ولم يتكون منها كتاب خاص، فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، والكتب كالتوراة، والزبور، والإنجيل والقرآن العظيم"[3].

ومعنى الإيمان بالكتب هو: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى أنزل على أي نبي من أنبيائه أو رسول من رسله كتاباً أو صحيفة أو لوحاً ليبلغ الناس أوامر الله ونواهيه، ووعده ووعيده، وما شاء من كلامه، بهدف هدايتهم إلى طريق الحق، وأن هذه الكتب هي كلام الله تعالى حقيقة لا كلام غيره، وأنه تكلم بها كما شاء وعلى الوجه الذي أراد، وبأي لغة نزلت، وسواء أكانت كتباً صغيرة أو كبيرة، مكتوبة أو غير مكتوبة، فيها صفة الإعجاز اللفظي أو ليس فيها ذلك، ويجب الإيمان بكل الكتب ما علمنا اسمه وما لم نعلمه، وأن أفضل هذه الكتب وأعظمها على الإطلاق القرآن الكريم الذي هو ناسخها، والإيمان بأن الكتب السابقة قد وقع فيها التحريف والتبديل بخلاف القرآن الذي تكفل الله ﷻ بحفظه[4].

---

(1) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص699).

(2) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص537).

(3) الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص135).

(4) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص537)، و حافظ الحكمي، معارج القبول (ج672/2)، والأثري، الإيمان (ص135– 136).

ثانياً: وجوب الإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله من خلال سورة آل عمران.

إن وجوب الإيمان بالكتب السماوية يؤكد على أن الإسلام هو الدين الذي جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، حيث قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴾ [آل عمران: 19)] وعن أبي هريرةﷺ عن الرسولﷺ أنه قال: "...**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ**"(1).

قال الإمام ابن تيمية: "وأما الكتب السماوية المتواترة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فناطقة بأن الله لا يقبل من أحد ديناً سوى الحنيفية وهى الإسلام العام: عبادة الله وحده لا شريك له والإيمان بكتبه؛ ورسله واليوم الآخر "(2).

ولقد أوجب سبحانه أن نؤمن بجميع الكتب السماوية المنزلة على أنبيائه من غير تفريق بينهم، حيث قال تعالى: ﴿ **قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** ﴾[آل عمران: 84]، والإيمان المقصود في الآية لا يقتصر على قول اللسان ومجرد النطق فحسب، بل لا بد أن يصاحبه تصديق القلب، فالإيمان يقوم على ثلاثة أركان لا ينفك أحدها عن الآخر، هي: اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، فإذا تحققت هذه الأركان الثلاثة كان العبد مؤمناً(3).

ولقد شهد المولى ﷻ في السورة للمؤمنين من أمة محمد ﷺ بإيمانهم بالكتب السماوية كلها، فقال تعالى: ﴿ **هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ﴾ [آل عمران: 119]، "أي: تؤمنون بجميع الكتب وهم لا يؤمنون بقرآنكم، وإنما وقف الله تعالى المؤمنين بهذه الآية على هذه الأحوال الموجبة لبغض المؤمنين لمنافقي اليهود واطراحهم إياهم، فمن تلك الأحوال أنهم لا

---

(1) سبق تخريجه: (ص187) من هذا البحث.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج188/35).

(3) انظر: البدر، التحفة السنية (ص103 – 105).

يحبون المؤمنين وأنهم يكفرون بكتابهم وأنهم ينافقون عليهم ويستخفون بهم ويغتاظون منهم ويتربصون الدوائر بهم"[1].

فأمة المصطفى ﷺ، التي هي خير أمة أخرجت للناس، فقد ميزها الله بالإيمان بجميع الكتب، على خلاف ما فعلته بعض الأمم كاليهود والنصارى في الإيمان ببعض الكتب والكفر ببعض، فمن كان مؤمناً بالله حقاً فلا بد له من الإيمان بجميع كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله دون استثناء لأي منها.

ولكن ينبغي ذكر أن من أهل الكتاب قد أثنى الله تعالى عليهم؛ أولئك الذين آمنوا بالله وأقروا بوحدانيته، وآمنوا بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل عليهم من الكتب كالتوراة والزبور والإنجيل، خاضعين له ومبتغين مرضاته وطاعته، غير مهتمين بعرض الدنيا الزائل، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، حيث قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: 199][2].

فالإيمان بالكتب السماوية يتطلب من المؤمن أن يقر دائماً بإيمانه بالكتب المنزلة كلها، سواء أكان المنزل كتاباً أو لوحاً أو صحيفةً أو غير ذلك، ما سمي منها وما لم يسمَّ، فأسماؤها وعددها لا يعلمه إلا الله تعالى، كما ويجب الإيمان بهذه الكتب إيماناً مجملاً فيما أجمل، ومفصلاً فيما فصل، فما أعلمنا الله به تفصيلاً كصحف إبراهيم عليه السلام، والتوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن الكريم نؤمن به تفصيلاً كما أخبر الله تعالى، وما لم يعلمنا الله به وجب الإيمان به إجمالاً، ولكن الإيمان بالقرآن الكريم خاتم الرسالات قد ميزه الله بالإيمان به على وجه التفصيل إيماناً مفصلاً لكل ما جاء فيه، وذلك باتباعه وتحكيمه، على خلاف الكتب السابقة له التي وقع فيها التحريف والتبديل[3].

---

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج497/1)، بتصرف يسير.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج500/7)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج193/2).

(3) انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص312)، والميداني، العقيد الإسلامية وأسسها (ص537)، والأشقر، الرسل والرسالات (ص226)، و حافظ الحكمي، أعلام السنة المنشورة (ص43)، العبد اللطيف، نواقض الإيمان القولية والعملية (ص198).

قال محمد بن نصر المروزي[1] في تفسير حديث جبريل عليه السلام في الإيمان: "وأما قوله: "وكتبه" فأن تؤمن بما سمى الله من كتبه في كتابه، من التوراة، والإنجيل، والزبور خاصة، وتؤمن بأن لله سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الذي أنزلها، وتؤمن بالفرقان، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الكتب، إيمانك بغيره من الكتب إقرارك به بالقلب واللسان، وإيمانك بالفرقان إقرارك به، واتباعك بما فيه"[2].

فلا بد أن يؤمن العبد أن جميع الكتب السماوية يصدق بعضها بعضاً، فكل كتاب أنزله الله تعالى كان مصدقاً لما قبله من الكتب، ولا يكذب أي منها أبداً، كيف لا؟ وقد خرجت جميعها من مشكاة واحدة، وعليه أن يؤمن بما جاء في الكتب السماوية السابقة، وأن الانقياد لها والحكم بشرائعها كان واجباً على الأمم التي نزلت إليها تلك الكتب، فقد قال تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[آل عمران: 3 – 4][3].

كما يتضمن الإيمان بالكتب التصديق بنسخ الشريعة اللاحقة للشريعة السابقة جزئياً أو كلياً، ومثال الجزئي كنسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل، حيث قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[آل عمران: 48 – 50]، ومثال الكلي نسخ القرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ

(1) هو محمد بن نصر المروزي، أبو عبد الله، فقيه، أصولي، محدث، حافظ، كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم في الأحكام، ولد ببغداد، ونشأ بنيسابور، وتفقه بمصر على أصحاب الشافعي، وسكن سمرقند إلى أن توفي سنة 294هـ، له كتب كثيرة، منها: كتاب(القسامة)، و(قيام الليل)، و(الوتر). انظر: الزركلي، الأعلام (ج125/7)، وكحالة، معجم المؤلفين (ج78/12).

(2) المروزي، تعظيم قدر الصلاة (ج393/1).

(3) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص227).

﴿عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الأعراف: 157][1].

ونخلص مما سبق أن الإيمان بالكتب السماوية المنزلة من عند الله أمر واجب، وأنها ركن من أركان الإيمان الذي لا يتم إيمان عبد إلا به، فمن جحد بأي كتاب من كتب الله فهو كافر، وأن جميع هذه الكتب قد أكدت على الإسلام الذي جاء به الأنبياء والمرسلين، وأنها تصدق بعضها بعضاً؛ فمصدرها واحد، وأنه يتحصل من الإيمان بها الهدى والنور والفلاح في الدنيا والآخرة، وأن أفضل الكتب وأعظمها على الإطلاق القرآن الكريم المنزل على نبينا المصطفى محمد ﷺ الذي تكفل الله بحفظه بخلاف الكتب الأخرى التي أصابها التحريف والتبديل والتغيير.

قال صاحب كتاب (متن درة البيان في أصول الإيمان): "يتعين في الجملة احترامها – الكتب المنزلة – بتعظيم أصولها، ومعرفة حكمة الله في إنزالها وتشريعها، مع الحذر من قراءتها لما تقدم من تحريفها ونسخها... وحق القرآن العظيم: الإيمان به وتحكيمه، والتهجد به وترتيله، وحفظه وتدبره، وتعلمه والعمل به، وتعليمه. وما آمن بالقرآن من كذب شيئاً من أخباره، أو استحل شيئاً من محرماته، أو اعتقد تحريفه أو نقصانه"[2].

المطلب الثاني: الحكمة من إنزال الكتب السماوية.

اقتضت الحكمة الإلهية إنزال الكتب السماوية للناس؛ لتكون النبراس الذي يضيء لهم دربهم، فلولا إنزال الكتب ما استقامت ولا انتظمت حياة البشر، ولا صلح معاشهم ومعادهم، فهي التي تقودهم إلى الهداية والرشاد، ولقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان حاجة الناس للرسالة في مواضع كثيرة من كتبه، ومن ذلك قوله: "الرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء والرسالة روح العالم ونوره وحياته فأي صلاح للعالم إذا عدمت الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وينال من حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ

---

(1) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص227)، وياسين: نسيم، شرح أصول العقيدة الإسلامية (ص158).

(2) يسري، متن درة البيان في أصول الإيمان (ص49)، بتصرف يسير.

مِّنْهَا ﴾"[1][الأنعام: 122]، وقال – أيضاً –: "بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط عبادة الله وحده لا شريك له، ثم العدل على الناس في حقوقهم ثم العدل على النفس"[2].

ولقد جاء في الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: "**لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَرْسَلَ الرُّسُلَ**"[3].

ومن هنا تظهر الحاجة الماسة إلى إنزال كتب سماوية لأمور وحكم، منها:

1 – إن الكتب السماوية مصدرها واحد، وكلها أنزلت لغاية واحدة وهدف واحد، أنزلت لتكون منهج حياة للبشر، وروحاً تحيي نفوسهم وتهذبها، وهدى ونوراً يكشف الظلمات للتائهين والحيارى، ويقودهم إلى السعادة الأبدية، قال تعالى: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ** ﴾ [آل عمران: 3–4][4].

قال سيد قطب: "لقد جاء كل دين من عند الله ليكون منهج حياة، منهج حياة واقعية، جاء الدين ليتولى قيادة الحياة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها، وصيانتها، ولم يجئ دين من عند الله ليكون مجرد عقيدة في الضمير ولا ليكون كذلك مجرد شعائر تعبدية تؤدى في الهيكل والمحراب، فهذه وتلك– على ضرورتهما للحياة البشرية وأهميتهما في تربية الضمير البشري– لا يكفيان وحدهما لقيادة الحياة وتنظيمها وتوجيهها وصيانتها ما لم يقم على أساسهما منهج ونظام وشريعة تطبق عملياً في حياة الناس ويؤخذ الناس بها بحكم القانون والسلطان ويؤاخذ الناس على مخالفتها، ويؤخذون بالعقوبات، والحياة البشرية لا تستقيم إلا إذا تلقت العقيدة والشعائر والشرائع من مصدر واحد يملك السلطان على الضمائر والسرائر، كما يملك السلطان على الحركة والسلوك، ويجزي الناس وفق شرائعه في الحياة الدنيا، كما يجزيهم وفق حسابه في الحياة الآخرة"[5].

2 – إن الرسول غالباً ما يحتاج في إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على أمته التي أرسل إليها؛ حتى يؤمنوا به، ويصدقوه، ويتبعوه، ويعملوا بما جاء به من الشرائع والأحكام التي

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج19/93 – 94)، بتصرف يسير.

(2) ابن تيمية، أمراض القلب وشفاؤها (ص7).

(3) [مسلم: صحيح مسلم، التوبة/غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، ص1149: رقم الحديث 2760].

(4) انظر: الأشقر، الرسل والرسالات (ص231).

(5) سيد قطب، في ظلال القرآن (ج2/896).

أمر الله بها، فكان إنزال الكتب تأييداً للرسل وحجة على الأمم للإيمان بها واتباعها، فقد قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:101–102][1].

3 – تعد الكتب السماوية المرجع للأمم في تحديد عقائد الدين وأحكام شريعة الله مهما تعاقبت العصور، فكل كتاب حسب المدى الذي حدد له بنسخه برسالة أخرى، أو بنسخ بعض ما جاء به، كما نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة، ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما، فكان القرآن خاتم الكتب، المهيمن الحاكم، النور المبين للأمم أجمعين، كما أن وجود الكتاب الرباني بعد وفاة الرسول هو استمرار لوجود الرسول الذي بلغه إليهم بين ظهرانيهم، فلولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين، أو ضاع الكثير منه، فيعتذر الناس إلى الله بعدم وصولهم ما يبين لهم أمور الدين، فتكون الحجة لهم لا عليهم، وهذا ما لم يرده سبحانه فقطع عنهم العذر بإنزال الكتب، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[آل عمران:164][2].

4 – إنزال الكتب السماوية يحفظ عقائد الدين وشرائعه وغاياته، ويصونه من الضلالات والأهواء بعد عصر الرسول، فلا ينسبوا إليها ما ليس منها إرضاءً لشهواتهم وتحقيقاً لمصالحهم الدنيوية الفانية، فكان الحق الذي دعا به الرسل في هذه الكتب إلى أن حرفوا كتبهم؛ حيث بين المولى ﷻ ذلك، إلى أن أنزل القرآن الكريم الناسخ الخاتم الذي تكفل بحفظه من التحريف والتبديل، الأمر الذي ميزه عن سائر الكتب التي أنزلها، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9][3].

5 – إن الكتب المنزلة على الرسل هي الحكم العدل للأمم، فكتاب الله هو الحاكم بين الناس في كل ما يختلفون فيه، فليس فوق حكم الله حكم، وليس فوق عدل الله عدل على الإطلاق، كيف لا؟ وجميع الكتب قد نادت بالتوحيد الخالص المتمثل بدين الإسلام والخضوع لله وأوامره، فالدين واحد وإن تعددت الكتب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

---

(1) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص141).

(2) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص141)، والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص538).

(3) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص539).

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[آل عمران: 19 –20][1].

6 – إن العقل البشري محدود غير قادر أن يصل للحق وحده من غير مرشد له، وطبيعة النفس البشرية متقلبة تنجرف إلى الأهواء والشهوات والميل عن الحق، كما أن العقول مختلفة المدارك، وهذا بدوره يؤدي إلى التضارب والاختلاف، فكانت أعظم منة إنزال الكتب وبعث الرسل لتبليغهم التوحيد وأحكام الله وأوامره.

7 – إنزال الكتب السماوية يضمن لدعوة الرسل تأثيرها وسريانها، وانتشارها في مشارق الأرض ومغاربها، في كل زمان ومكان بغض النظر عن مكان أو زمان نشأة الرسول، خاصة إذا كانت الدعوة عامة شاملة، كرسالة نبينا المصطفى محمد ﷺ الذي أُرسل للناس كافة[2].

كانت هذه بعض الحكم التي من أجلها أنزلت الكتب إلى العباد، ولحكم أخرى لا يعلمها إلا علام الغيوب اقتضت الحاجة إليها؛ حيث إنها كانت ناطقة لدين الله، شاهدة بشريعته وحكمه، تأمر وتنهى، تعظ وترشد، تبشر وتنذر، تهدي إلى طريق جنة الله ونعيمه الدائم الخالد.

المطلب الثالث: عاقبة المكذبين للكتب السماوية.

اقتضت حكمة الله وعدله إثابة المحسن على إحسانه، وغمره بنعم لا تعد ولا تحصى بفضل منه سبحانه، وفي المقابل معاقبة المسيء على إساءته تحقيقاً لكمال عدله بين عباده، ومن أعظم الإساءات عند الله تعالى تكذيب الكتب السماوية التي أنزلها على رسله، ومعاندة ما فيها من الحق ظلماً واستكباراً وعلواً، قال تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [آل عمران: 72 – 73]، فجزاء من يرتكب هذا الإثم العظيم نيل العقاب في الدنيا والآخرة بمختلف ألوانه، ولقد توعد سبحانه المكذبين لكتبه بالعقاب الشديد والعذاب الأليم، وسورة آل عمران

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص539).

(2) انظر: المرجع السابق، ص 540.

إحدى السور التي تحدثت عن سوء عاقبتهم ومصيرهم، ومن صور العقاب التي دلت عليها السورة ما يلي:

1 – اللعنة والخسران:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: 85 – 89].

لقد بينت الآيات حكم الله في كل من لم يؤمن بالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ويتخذه ديناً له، بأنه من الكافرين الخاسرين لآخرتهم، حيث ورد في سبب النزول أن أهل الكتاب الذين استمروا على دينهم المحرف، وكفروا بالكتاب الذي جاء بعد كتابهم، أنهم ادعوا إسلامهم لله، وأنهم على ملة إبراهيم عليه السلام؛ حيث قالوا إنهم مقبولون عند الله ناجون على كل حال، فرد الله عليهم قولهم بأنْ نفى صفة الإسلام عن كل من لم يتخذ الدين الإسلامي ديناً له، وأنه لن ينال الجنة، فلا دين عند الله سواه، وفي هذا تيئيس لأهل الكتاب ولغيرهم من الأمم الذين كذبوا القرآن الكريم ولم يتبعوه من النجاة في الآخرة[1].

كما بيَّن سبحانه أنه من قامت عليه الحجج والبراهين على صدق ما جاء به الرسول ثم ارتد إلى ظلمة الشرك بعد الإيمان، فأمثال هؤلاء استحقوا الحرمان من الهداية الإلهية؛ لأن الله تعالى لا يهدي القوم الظالمين، فهم الذين استحبوا العمى والضلال على الهدى، فكان عدل الله فيهم أن حجب الهدى عنهم، كما عاقبهم عقوبة أشد وهي لعن الله والملائكة والناس أجمعين لهم، ومعلوم أن اللعن أمر عظيم، فهو في اللغة بمعنى الطرد والإبعاد[2]، ولعن الله للعبد يكون بإبعاده عن رحمته وثوابه، مع إذلال وغضب، والتبرؤ منه، بحيث يظهر أثره في الآخرة بحرمانه الجنة،

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج302/3).

(2) انظر: ابن منظور، لسان العرب (ج387/13).

وبالعذاب في نار جهنم، ولعن الملائكة والمؤمنون يكون بالدعاء عليهم بأن يبعدهم الله عن رحمته[1].

قال صاحب كتاب (شرح العقيدة الواسطية): "اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، واللعين والملعون: من حقت عليه اللعنة، أو دعي عليه بها"[2].

وهكذا كان من عقوبات مكذبي الرسل الإضلال واللعن، وهذا من كمال عدله سبحانه، ولكنه استثنى من ذلك من تاب ورجع إلى الإسلام وأخلص فيه، فالله تعالى هو التواب الغفور الرحيم، ومغفرته على من تاب دالة على بره تعالى، ولطفه، ورحمته التي وسعت كل شيء، وأما من استمر في تكذيب الكتب وجحودها فإنه يستحق اللعنة والخسران في الدنيا والآخرة[3].

2 – حبوط الأعمال في الدنيا والآخرة:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: 21 – 22].

لقد تضمنت الآيات ذم أهل الكتاب فيما ارتكبوه من الآثام والمحرمات المتمثلة في تكذيبهم آيات الله وجحودها، وقتلهم الأنبياء حملة رسالات الله، استكباراً وحسداً من عند أنفسهم واستنكافاً عن اتباع الحق، فأمثال هؤلاء قد توعدهم المولى ﷻ بالعذاب الموجع المهين، وحبوط أعمالهم في الدنيا والآخرة وبطلانها، وحبوط العمل في الدنيا بأن لا يُقبل، وحبوطه في الآخرة بأن لا يجازى عليه[4].

---

(1) انظر: الجرجاني، التعريفات (ص192).

(2) هراس، شرح العقيدة الواسطية (ص110).

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج186/2)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (ج68/2)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج71/2).

(4) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج423/1 – 424)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج27/2).

3 – الذلة والمسكنة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾[آل عمران: 112].

لقد كتب الله على الأمة المغضوب عليها يهود الذلة والمسكنة أينما وجدوا على وجه الأرض، وألزمهم إياها، قدراً وشرعاً، فالذلة القدرية هي التي قدرها الله عليها، والذلة الشرعية بمعنى أن الله تعالى أمرنا بإذلالهم، وذلك بضرب الجزية عليهم، وهذه هي عاقبة كل من كفر بآيات الله وجحدها، أو قتل نبياً من أنبياء الله كما فعلت اليهود، فكانت الذلة والمسكنة وغضب الله عليهم ملازمة لهم، إضافة إلى العقاب الأخروي الذي هو نعم الجزاء لهم ولأمثالهم من المجرمين الكفرة[1].

وإن سأل سائل: كيف نوفق معنى الآية الكريمة بحال اليهود اليوم من العز، والغنى، والبأس الشديد، وأن واقعهم في زماننا بخلاف ما ذكرته الآية؟

إن هذا التساؤل وما شابهه من الأسئلة لا يخالف معنى الآية بأي وجه من الوجوه، فكلام الله سبحانه يستحيل أن يكون مخالفاً للواقع، وبيان ذلك من وجهين[2]:

أولاً: إن من خلال النظر في الآية نجد أن الآية مقيدة وليست مطلقة، فضرب الذلة على اليهود لازم لا يتخلف عنهم، إلا باستثناءٍ، ذكره الله تعالى فقال: ﴿إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، "والمعنى لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد من الله، أي ذمة الإسلام، أو إذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم. وهذا من دلائل النبوة فإن اليهود كانوا أعزة بيثرب وخيبر والنضير وقريظة، فأصبحوا أذلة، وعمتهم المذلة في سائر أقطار الدنيا"[3]، وسمي الحبل عهداً؛ لأنه السبب الذي يوصل إلى الأمن والأمان وزوال الخوف[4].

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/104)، وموقع الإسلام سؤال وجواب http://islamqa.info/ar/ref/13245 بتاريخ2015/11/1

(2) انظر: موقع الإسلام سؤال وجواب http://islamqa.info/ar/ref/13245بتاريخ2015/11/1

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج4/56).

(4) الخازن، لباب التأويل (ج1/286).

قال الإمام ابن تيمية: "وأما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون فقد بينا أنه شاذ وليس هو من الآثار المعروفة في هذا الباب، فإن اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب، بل كانوا مغلوبين معهم وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقاً كما كانت قريظة حلفاء الأوس وكانت النضير حلفاء الخزرج. وأما أن اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف، بل المعروف خلافه... فاليهود – من حين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس – لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه. قال تعالى:﴿ **يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ** ﴾"(1) [آل عمران: 55].

وبهذا تتضح حال اليهود، فهم أحقر من أن يكون لهم عز ونصر، وإنه لا يعرف على مدار التاريخ أنهم انتصروا في معركة بمفردهم دون عون، بل بالاستعانة والتحالف مع الشرق والغرب، وما بنيت دولتهم المزعومة إلا بتحالفهم مع دول الكفر ومساندتهم على الدوام، أو تحالفهم مع من تخاذل من بعض المسلمين كما نراه في واقعنا المعاصر، وغير هذه الاستثناءات فإن الذلة والهوان هي لازمة لهم.

ثانياً: إن إلزام الله اليهود للمسكنة – أينما كانوا – على الدوام؛ لأنه قد جاء في الآية مطلقاً من غير استثناء، بخلاف الاستثناء الوارد في عقوبة المذلة، فالمسكنة التي فرضها الله عليهم مطلقة والمذلة مقيدة، والمسكنة هي الفاقة والحاجة، وهي خشوعها وذلها، وأن هذا المعنى نجده فيهم حتى ولو كانوا أغنى الناس، كما هو حالهم اليوم؛ إذ يظهرون فقرهم وبخلهم بما في أيديهم، ولا يمكن أن يبذلوا درهماً إلا وهم في أمل أن يحصِّلوا مقابله قنطاراً، فذل الفاقة وخشوع الفقر ومظهره نجده عليهم مهما أُغنوا، حتى إننا لنجد أحبارهم يستغلون الدين لنهب الأموال، ومع ذلك تجدهم يعيشون حال المسكنة والفاقة رغم غناهم، وصدق رسول الله ﷺ في قوله: "**لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ، وَلَكِنَّ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ**"(2).

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج301/1)، بتصرف يسير.

(2) [البخاري: صحيح البخاري، الرقاق/الغنى غنى النفس، 95/8: رقم الحديث 6446].

4 – الغضب الإلهي:

قال الله تعالى: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾[آل عمران: 112].

لقد بينت الآية الكريمة أن عاقبة كل مكذب لأي كتاب سماوي استحقاقه لغضب الله تعالى، فالأمة الغضبية اليهود، قد كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياءه، وآيات الله التي كفر بها اليهود هي: صفة محمد ﷺ، وآية الرجم التي في التوراة، وكفرهم وتكذيبهم بالإنجيل والقرآن الكريم؛ ولذلك استحقت هذه الأمة غضب الله عليها وسخطه[1].

وغضب الله تعالى هو صفة ثابتة من صفاته التي اتصف بها حقيقة، لا تشابه بينها وبين غضب المخلوقين بأي وجه من الوجوه، لا في الحقيقة ولا في الأثر[2]، ولقد أول البعض هذه الصفة بأنها إرادة الانتقام ممن عصاه[3]، وهذا تأول باطل في غير محله؛ لأنه يؤدي إلى نفي هذه الصفة[4]، إذ إن هناك فرق بين الغضب والانتقام؛ حيث قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾[الزخرف: 55]، و(آسفونا) أي: أغضبونا، فجعل سبحانه الانتقام غير الغضب، إنما هو أثر مترتب عليه[5].

5 – العذاب الشديد في نار جهنم:

إن عاقبة المكذبين للكتب السماوية سوء العاقبة وبئس المصير، أعظمها العذاب الشديد في نار جهنم، فقد قال الله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: 3 – 4]، فالقرآن الكريم يصدق الكتب المنزلة قبله، كما صدقت وبشرت به الكتب

---

(1) انظر: الخازن، لباب التأويل (ج49/1).

(2) انظر: ابن عثيمين، القول المفيد شرح كتاب التوحيد (ج421/1).

(3) انظر: الخازن، لباب التأويل (ج49/1)، (ج58/2).

(4) انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص464).

(5) انظر: ابن عثيمين، القول المفيد شرح كتاب التوحيد (ج422/1).

السماوية من قبل، فالكتب جميعها يصدق بعضها بعضاً؛ كيف لا؟ ومصدرها واحد، فكان مصير من يكذب بالكتب أن يحل عليه انتقام الله وعذابه عذاباً شديداً في النار[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: 105]، وهذا نهي منه سبحانه من التفرق والاختلاف في الكتاب، أي الإيمان ببعضه، والكفر بالبعض الآخر، وذلك كما فعلت اليهود والنصارى من بعد ما جاءتهم الدلائل المانعة من الاختلاف والافتراق، فقد كفرت بالكتاب، الذي لأجله أعد الله لهم عذاباً عظيماً، فاختلافهم هو علة التفرق، والمراد من هذا الاختلاف اختلافهم في أصول الدين الذي يفضي إلى تكفير بعض الأمة بعضاً أو تفسيقها، فهذا هو الاختلاف المذموم المنهي عنه[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (11) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: 10 – 12]، حيث تضمنت هاتان الآيتان الوعيد الشديد للمكذبين بالكتب، الجاحدين لها، وأن أعظم العقوبات التي ستحل بهم العذاب في نار جهنم، حيث إنهم يحشرون إليها يوم القيامة، ويكونون وقوداً للنار وحطبها، ملازمين لها أبداً، ولن ينفعهم حينئذ أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، فهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم، فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم[3].

كانت هذه صور العقاب التي أعدها الله لمن يكذب بالكتب السماوية المنزلة الواردة في سورة آل عمران، فكل من كفر بأي كتاب سماوي أنزل أو كفر بآية منه فإنه سينال هذا العقاب، وعاقبتهم الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج5/2 – 6).
(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج42/4 – 43).
(3) انظر: السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص123).

المطلب الرابع:الكتب السماوية المذكورة في سورة آل عمران.

أولاً: القرآن الكريم.

1 – تعريف القرآن لغة وشرعاً:

- **القرآن لغة:**

قرأ قراءة وقرآناً بمعنى الجمع والضم، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور ويضمها، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: 17]، وسمي بذلك – أيضاً –؛ لجمعه ما فيه من الأحكام، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقصص وغير ذلك، فمعنى القرآن الجمع، وكل شيء جمعته فقد قرأته، والقرآن في الأصل مصدر كالغفران، والكفران، والرجحان ونحوه[1].

واسم القرآن قد خص بالكتاب المنزل على محمد ﷺ، فصار له كالعلم – أي معروف به –، كما أن التوراة تعرف أنها نزلت على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام، وقد فسر بعض العلماء تسمية القرآن بذلك من بين الكتب السماوية؛ لكونه يجمع ثمرة جميع الكتب السماوية، وجمعه ثمرة جميع العلوم بين آياته الكريمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ...﴾ [الروم: 58]، وقال سبحانه:﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[النحل: 89][2].

- **القرآن شرعاً:**

القرآن الكريم هو: "الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته"[3].

ولقد علق صاحب كتاب (مناهل العرفان في علوم القرآن) على التعريف السابق بأنه: "جمع بين الإعجاز والتنزيل على النبي ﷺ والكتابة في المصاحف والنقل بالتواتر والتعبد بالتلاوة. وهي الخصائص العظمى التي امتاز بها القرآن الكريم. وإن كان قد امتاز بكثير سواها"[4].

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج5/79)، الرازي: محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح (ص249)، وابن منظور، لسان العرب (ج1/128 – 129).

(2) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص668 – 669).

(3) الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن (ج1/19).

(4) المرجع السابق (ج1/19).

كما عرف الإمام الطحاوي القرآن بأنه: "كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر"[1].

2 – خصائص القرآن الكريم الواردة في سورة آل عمران:

تميز القرآن الكريم، خاتم الكتب السماوية، وآخرها، عن سائر الكتب السماوية بخصائص متعددة، ومن تلك الخصائص التي دلت عليها سورة آل عمران ما يلي:

أ – تضمنه لخلاصة التعاليم الإلهية التي تضمنتها التوراة والإنجيل، بل جميع ما أنزل الله من وصايا، حيث جاء مصدقاً لما جاء في جميع الكتب وما دعا إليه رسل الله وأنبياؤه من توحيد الله تعالى وعبادته، ووجوب طاعته، والتصديق بالجزاء، ووجوب إقامة الحق، والتخلق بمكارم الأخلاق، قال تعالى: ﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ** ﴾[آل عمران: 3 – 4]، وقال سبحانه: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ** ﴾[آل عمران: 81][2].

ب – لقد تميز القرآن الكريم بأنه جاء رقيباً على جميع الكتب السماوية المنزلة، مقراً بما فيها من حق، ومبيناً لما دخل عليها من تحريف وتبديل، فقد قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[آل عمران: 78]، وقال: ﴿ **كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ** ﴾ [آل عمران: 93][3].

---

(1) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص168).

(2) السيد سابق، العقائد الإسلامية (ص142).

(3) انظر: ياسين: محمد، الإيمان (ص40)، والسيد سابق، العقائد الإسلامية (ص143).

ج – إن القرآن الكريم ناسخ لجميع الكتب السماوية السابقة له، فلا دين يقبل عند الله سواه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: 19]، وقال سبحانه في موضع آخر من السورة: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85]، فالقرآن نسخ جميع الكتب المتقدمة له لفظاً وحكماً، وعليه فإنه لا يجوز قراءة تلك الكتب للتعبد بها، كما لا يُعمل بما فيها من شرائع وأحكام، ومن لم يعتقد بنسخ القرآن الكريم لما تقدم عنه من كتب فإنه من الكافرين الخاسرين في الآخرة مهما فعل من الفضائل، ولن ينال الجنة إلا بالعمل بما جاء في القرآن[1].

د – اشتمال القرآن الكريم على أخبار الرسل والأمم الماضية وقصصهم بأسلوب معجز لم يسبق إليه كتاب سماوي من قبل، ومن تلك القصص والأخبار ما ورد في السورة من قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ... إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 55 – 62]، فبآية واحدة – وهي الآية الخامسة والخمسون– قد أُخبرنا عن عقيدة مهمة في قصة نبي الله عيسى عليه السلام، التي هي آية من الآيات التي قد أيده الله بها، وهي: رفعه إلى السماء، وأنه حي لم يمت بعد حتى ينزل إلى الأرض ويموت فيها كسائر خلق الله، وأنه لولا الرفع لما كان النزول، وهذا ما أكدت به النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

هـ – إن القرآن الكريم تميز بتعدد أسمائه، وفي هذا دلالة على شرفه وعلو منزلته، فقال صاحب كتاب (بصائر ذوي التمييز): "اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، أو كماله في أمر من الأمور. أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدتها وصعوبتها، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايته. وكذلك كثرة أسماء الله تعالى

(1) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص142).

دلت على كمال جلال عظمته؛ وكثرة أسماء النبي ﷺ دلت على علو رتبته، وسمو درجته. وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته"[1].

ولقد أفرد العلماء مؤلفات مستقلة في أسماء القرآن الكريم وصفاته، ولكن الاختلاف وقع بينهم في تحديد عدد أسمائه، فمنهم من ذكر أنها ستة وأربعون اسماً، ومنهم من قال بأنها نيف وتسعون اسماً وغير ذلك، ومن أسباب اختلافهم هذا أن بعضهم أرجع عدداً من أسماء القرآن على أنها أوصاف وليست أسماء له[2]، ولكن الذي يهم في الحديث عن خصائص القرآن الكريم أن من خصائصه تعدد أسمائه وكثرتها –بغض النظر عن ضبط عددها–.

ومن أسماء القرآن الكريم التي ورد ذكرها في سورة آل عمران ما يلي:

1 – **الكتاب:** حيث ورد هذا الاسم نحو ثلاثين مرة في سورة آل عمران، ثمانية وعشرين مرة مضافاً إليه أل التعريف، ومجردة منها مرتين، ولفظ (الكتاب) الدال على اسم القرآن خاصة قد ورد أربع مرات في السورة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: 3].

وإن اسم (الكتاب) من الأسماء المشتركة بين التوراة والقرآن[3]، فقد يطلق اسم الكتاب ويراد به القرآن كما في الآية السابقة، وقد يطلق على التوراة كما في قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾[الإسراء: 2].

ولقد قال الإمام ابن عاشور عما اشتهر إطلاقه من أسماء للقرآن الكريم: "والذي اشتهر إطلاقه عليه منها ستة: التنزيل، والكتاب، والفرقان، والذكر، والوحي، وكلام الله"[4]، ولكن تسمية

---

(1) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (ج88/1)، بتصرف يسير.

(2) الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم (ص25– 26).

(3) ورد في سورة آل عمران قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: 23]، حيث فسر بعض العلماء أن المراد من لفظ (الكتاب) في الآية: القرآن الكريم، ومنهم من فسره بالتوراة، حيث قال الإمام البغوي في تفسيره: "يدعون إلى كتاب الله، اختلفوا في هذا الكتاب، فقال قتادة: هم اليهود دعوا إلى حكم القرآن فأعرضوا عنه. وروى الضحاك عن ابن عباس ﷺ في هذه الآية: إن الله تعالى جعل القرآن حكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحكم القرآن على اليهود والنصارى، أنهم على غير الهدى، فأعرضوا عنه، وقال آخرون: هو التوراة"، البغوي، معالم التنزيل (424/1).

(4) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج72/1).

القرآن أشهر أسمائه، وأكثرها وروداً في آياته، فجُعل علماً على الوحي المنزل على محمدﷺ، ولم يسبق أن أطلق على غيره من الكتب السماوية من قبل[1].

كما قال صاحب كتاب (النبأ العظيم): "روعي في تسميته قرآناً كونه متلواً بالألسن، كما روعي في تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه. وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته، التي وضع عليها أول مرة. ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر. وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز، إنجازًا لوعد الله الذي تكفل بحفظه؛ حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9]، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند"[2].

2- **الفرقان:** فقد وردت هذه التسمية مرة واحدة في السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿... **وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ** ﴾[آل عمران: 3 – 4]، والفرقان: مصدر، وهو اسم لما يفرق به بين الحق والباطل، وهو علم على الكتاب المنزل على محمد ﷺ، ووجه تسميته بالفرقان؛ أنه امتاز عن باقي الكتب السماوية بكثرة ما فيه من بيان التفرقة بين الحق والباطل، فالقرآن الكريم يعضد هديه بالدلائل والأمثال ونحوها[3].

كما قال الإمام الرازي عن وجه تسميته بالفرقان: "سمي بذلك لأن نزوله كان متفرقاً أنزله في نيف وعشرين سنة، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء: 106] ونزلت سائر الكتب جملة واحدة... وقيل: سمي بذلك لأنه يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والمجمل والمبين، والمحكم والمؤول، وقيل: الفرقان هو النجاة... وذلك لأن الخلق في ظلمات الضلالات، فبالقرآن وجدوا النجاة"[4].

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج71/1)، بتصرف يسير.

(2) دراز، النبأ العظيم (ص41 – 42).

(3) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج72/1).

(4) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج261/2).

3- **الذكر**: حيث ورد هذا الاسم مرة واحدة في سورة آل عمران، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58]، وسمي بذلك؛ لأنه ذكر من الله تعالى، ذكر به العباد بما يجب عليهم من معرفة تكاليفه وأوامره اعتقاداً وعملاً، أو لأنه ذكر وشرف وفخر لكل من آمن بالقرآن، فهو شرف لمحمد ﷺ وأمته[1].

أما عن أوصاف القرآن الكريم الواردة في سورة آل عمران فقد ورد بأنه بيان، وهدى، وموعظة، حيث قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138]، كما وصفه سبحانه بأنه حكيم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58].

ثانياً: التوراة.

وردت لفظة التوراة في سورة آل عمران ست مرات، والتوراة عند المسلمين: هي الكتاب السماوي الرباني المنزل على موسى عليه السلام؛ لهداية بني إسرائيل والمتضمنة – على الأرجح – الصحف التي أنزلت عليه، والألواح التي تلقاها بعد مناجاته لله ﷻ من جانب جبل الطور بسيناء[2].

والتوراة – كما وصفها سبحانه – أن فيها الهدى للناس، مثلها مثل سائر الكتب السماوية المنزلة، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: 1 – 4]، والتوراة التي صدق بها القرآن الكريم إنما هي الأصول الأولى المنزلة على موسى عليه السلام، لا التوراة الموجودة حالياً عند أهل الكتاب، التي لا سندَ متصلاً لها يصح نسبتها إليه، التي أصابها التحريف والتبديل، من غير تمييز للأصل الذي أنزله الله تعالى والمحرف الذي حرفه أهل الكتاب لكتبهم[3]– كما سيأتي بيانه في المطلب التالي من هذا البحث –.

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج73/1)، والرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج261/2).

(2) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص546).

(3) انظر: المرجع السابق (ص ص546 – 547).

وكلمة التوراة عبرانية معناها: التعاليم الدينية، أو الشريعة، أو الناموس، وهي أعظم كتب بني إسرائيل المبينة للعقيدة والشريعة والأحكام الواجب عليهم اتباعها[1].

ولقد أنزلت التوراة مكتوبة خطها الله سبحانه بيده، ودليل ذلك ما قاله الرسول ﷺ: "**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ، تَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ، مُوسَى**"[2].

وفي اصطلاح أهل الكتاب المعاصرين أن التوراة تعني عند اليهود أسفار موسى عليه السلام الخمسة[3]، ويعتقدون أن موسى عليه السلام كتبها بيده، ويسمونها (البنتاتوك) وهي مأخوذة من الكلمة

---

(1) انظر: شلبي، مقارنة الأديان (اليهودية) (ص 230)، والخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص65)، والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص546).

(2) [أبو داود: سنن أبي داود، السنة/القدر، 226/4: رقم الحديث 4701]، وقال الألباني: إنه صحيح، وبلفظ آخر [البخاري: صحيح البخاري، القدر/تحاج آدم وموسى عند الله، 126/8: رقم الحديث 6614]، و[مسلم: صحيح مسلم، القدر/حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ص1110: رقم الحديث 2652].

(3) يطلق على أسفار موسى عليه السلام الأسفار الخمسة أو كتب موسى أو (البانتاتيك)، وهي القسم الأول من أسفار العهد القديم، حيث إن هذه الأسفار الخمسة تغطي فترة من التاريخ، تبدأ منذ بدء الخليقة وتنتهي بوفاة موسى عليه السلام، وهذه الأسفار الخمسة هي: سفر التكوين الذي يحتوي على خمسين فصلاً أو إصحاحاً يعرض فيه تاريخ العالم من تكوين السماوات والأرض، وقصص آدم عليه السلام، ونوح عليه السلام، والطوفان، وأبناء نوح عليه السلام سام، وحام، ويافث وما حدث بعد الطوفان، وإبراهيم عليه السلام مركزة على سلالته متحدثة عن إسحاق عليه السلام، ويعقوب عليه السلام، منتهياً بقصة يوسف عليه السلام ومجيئه إلى مصر واستقراره فيها، ولحاق يعقوب عليه السلام وأبنائه الأحد عشر به، أما السفر الثاني: فهو سفر الخروج ويحتوي على أربعين إصحاحاً، ويتحدث عن تاريخ بني إسرائيل في مصر، واضطهاد الفراعنة لهم، وقصة موسى عليه السلام ودعوته، وخروجه مع قومه بني إسرائيل من مصر، وتاريخهم أثناء مرحلة التيه التي قضوها في صحراء سيناء، ويشمل هذا السفر الوصايا العشر التي أعطاها الله لموسى عليه السلام، وكثير من المسائل التشريعية والتعاليم الدينية الخاصة بإله بني إسرائيل مطلقين عليه اسم (يهوه)، والسفر الثالث: هو سفر اللاويين نسبة إلى بني لاوي أو ليفي، ولاوي هو أحد أبناء يعقوب عليه السلام، وهي القبيلة التي ينتمي إليها موسى وهارون عليهما السلام، ويحتوي هذا السفر على سبعة وعشرين إصحاحاً، ويسمى هذا السفر أيضاً بسفر الأحبار؛ لأن الشرائع والطقوس الكهنوتية تشغل الحيز الأكبر، ويتضمن هذا السفر أموراً تتعلق باللاويين، والتشريعات والوصايا والأحكام، والسفر الرابع هو سفر العدد الذي يحتوي على ستة وثلاثين إصحاحاً، وسمي بذلك؛ للتعداد الدقيق في إصحاحاته لأسباط بني إسرائيل، ومعلومات مبنية على الأعداد للذبائح والمدن والقرى وغير ذلك، ويتحدث هذا السفر على مسيرة بني إسرائيل بعد الخروج، إلى جانب الأحكام الشرعية والمسائل الفقهية، أما السفر الخامس فهو سفر التثنية أو تثنية الشريعة، أي الإعادة والتكرار لتثبيت التشريعات والتعاليم، ويضم هذا السفر أربعة وثلاثين إصحاحاً، ويذكر أحكاماً مختصة بالعبادات والمعاملات، والسياسة، ويتحدث عن الكهنة والنبوة، وينتهي هذا السفر بموت موسى عليه السلام ومكان دفنه. انظر: وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام (ص13 – 14)، وظاظا، الفكر الديني الإسرائيلي (ص 13 – 15)، وشلبي، مقارنة الأديان (اليهودية) (ص 233 – 235)، والخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص 65 – 66).

اليونانية (بنتا) التي تعني خمسة، أما في اصطلاح النصارى فهي عندهم الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى ﷺ والكتب الملحقة بها[1]، ويسمونها بالعهد القديم[2][3].

ثالثاً: الإنجيل.

الإنجيل عند المسلمين هو الكتاب الرباني المنزل على عيسى ﷺ، وهو رابع ما أنزله الله تعالى من الكتب، وذلك مما تحقق به من العلم اليقيني[4].

وكلمة إنجيل (Gospel) كلمة يونانية معناها (الحلوان)، وهو: ما يعطى من أتى ببشرى، أي: الخبر السار، ثم أصبح يراد إطلاقها على البشرى، والمسيح ﷺ قد استعملها بمعنى (بشرى الخلاص) التي حملها إلى الناس، ثم استعمل لفظ الإنجيل بمعنى الكتاب المتضمن لهذه البشرى[5].

---

(1) هذه الكتب هي باقي أسفار العهد القديم وهي: 1 – الأسفار التاريخية: وهي اثنا عشر سفراً تعرض تاريخ بني إسرائيل بعد استيلائهم على بلاد الكنعانيين وبعد استقرارهم في فلسطين، وتعرض تاريخ قضاتهم وملوكهم والحوادث المهمة لديهم، وهذه الأسفار هي: يوشع، القضاة، راعوث، صموئيل (سفران)، الملوك (سفران)، أخبار الأيام (سفران)، عزرا، نحميا، وإستير، 2 – أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية: وتتكون من أناشيد ومواعظ، المعظم منها ديني، مؤلفة تأليفاً شعرياً، وعددها خمسة، هي: سفر أيوب، مزامير داود، أمثال سليمان، الجامعة، ونشيد الأناشيد، 3 – أسفار الأنبياء: وعددها سبعة عشر سفراً، هي: إشعياء، إرميا، مراثي إرميا، حزقيال، دانيال، هوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونس أو يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجي، زكريا، وملاحي أو ملاخيا، وتهتم هذه الأسفار بذكر الرؤى والتنبؤات بما سيكون لبني إسرائيل، وفيها – أيضاً – تهديدات لهم، ووعود بالعودة والنصر. انظر: وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام (ص 14 – 16)، والخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص 67).

(2) يطلق على الأسفار المقدسة عند اليهود العهد القديم، مع العلم أن التوراة جزء منه، وقد تطلق التوراة كمسمى له، وذلك من باب إطلاق الجزء على الكل، أو لأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى ﷺ؛ حيث يبدأ تاريخهم الحقيقي به، أما الأسفار المقدسة عند النصارى فتسمى بالعهد الجديد، وهاتان المجموعتان من الأسفار – العهد القديم والعهد الجديد – تسمية متأخرة جاءت بعد ظهور المسيحية، والمراد بكلمة العهد في كلتا التسميتين ما يرادف معنى الميثاق، أي الميثاق الذي أخذه الله على الناس، الأول يمثل ميثاقاً قديماً يعود إلى عصر موسى ﷺ، والثاني يمثل ميثاقاً جديداً مع عيسى ﷺ، وجرت العادة جمع أسفار العهدين في كتاب يطلق عليه اسم الكتاب المقدس. انظر: وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام (ص3 وص63)، وشلبي، مقارنة الأديان (اليهودية) (ص 230).

(3) انظر: الطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان (ص14)، والخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص 65 – 66).

(4) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص 544).

(5) انظر: شلبي، المسيحية (ص204).

والإنجيل عند النصارى المعاصرين يطلق عرفاً على القصص التي كتبت بعد رفع المسيح عليه السلام التي تقص أحواله، وأعماله، وأقواله التي وعظ ونصح بها، والآيات التي أجراها الله تعالى على يديه[1]، ويتكون العهد الجديد – الإنجيل – عندهم من سبعة وعشرين سفراً معتمدة[2][3].

ولقد ورد لفظ الإنجيل في سورة آل عمران ثلاث مرات، كما تحدثت السورة عن بعض ما جاء في الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، ومن ذلك ما يلي:

1- تضمن الإنجيل الهدى للناس، والتصديق بالتوراة.

يشهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: 3 – 4]، فقد كان في نزول الإنجيل على بني إسرائيل الهدى الذي فيه الصلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، وهذه حال كل الكتب السماوية المنزلة وأعظمها القرآن الكريم.

ولقد بينت الآيات السابقة تصديق القرآن الكريم بالتوراة والإنجيل، أما عن تصديق الإنجيل بالتوراة فقد قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام وهو يدعو قومه:﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: 50].

كما أخبرنا سبحانه أنه علم عيسى عليه السلام التوراة والإنجيل، حيث قال تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران: 48]، وهذا من تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام، بأنه رسول من رب العالمين إلى بني إسرائيل، موحىً إليه بشريعة، ومنزلٌ إليه

(1) انظر: طويلة، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق (ص107).

(2) انظر: وافي، الأسفار المقدسة (ص63)، وشلبي، المسيحية (ص205).

(3) هناك من العلماء من قسم العهد الجديد ضمن ثلاثة أقسام: 1- الأسفار التاريخية ويشمل خمسة أسفار، هي: الأناجيل الأربعة (إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا)، ورسالة أعمال الرسل التي كتبها لوقا. 2 – الأسفار التعليمية وتشمل إحدى وعشرين رسالة. 3 – رؤيا يوحنا اللاهوتي. انظر: شلبي، المسيحية (ص205 – 206)، وهناك من قسمها إلى ثلاث مجموعات وسفرين، فالمجموعات هي: 1 – مجموعة الأناجيل وعددها أربعة. 2 – مجموعة رسائل بولس أربع عشرة رسالة. 3 – مجموعة الرسائل الكاثوليكية وعددها سبع. أما السفران فهما: 1- سفر أعمال الرسل للوقا. 2 – سفر رؤيا يوحنا أو (الأبوكاليبس) ليوحنا. انظر: وافي، الأسفار المقدسة (ص64).

كتابٌ اسمه الإنجيل، مصدقاً للتوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام من قبل، وموافقاً لها، ولقد كان عيسى عليه السلام حافظاً للتوراة والإنجيل فضلاً من الله عز وجل[1].

قال الإمام ابن القيم: "وأما المسيح فكان عنده علم بما جاء به موسى قبله يشارك به أهل الكتاب، تلقاه عمن قبله، ثم جاءه وحي خاص من الله فوق ما كان عنده، قال تعالى: ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فأخبر سبحانه وتعالى أنه يعلمه التوراة التي تعلمها بنو إسرائيل، وزاده تعليم الإنجيل الذي اختص به، والكتاب الذي هو الكتابة"[2].

2- تضمن الإنجيل مجموعة من الأحكام والشرائع الربانية.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[آل عمران: 50].

لقد بينت الآية اشتمال الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام للأحكام والشرائع الربانية، ومن ذلك ما أحله الله في الإنجيل لبعض الأمور التي كانت محرمة على بني إسرائيل، والجدير ذكره أن معظم الأحكام التي جاءت في الإنجيل كانت متفقة كثيراً مع أحكام التوراة إلا ما حرمه الله لبعض الأمور، فقد كان عيسى تبعاً لموسى عليهما السلام، فالإنجيل تابع لكتاب التوراة وإن كان مغايراً لبعضه، ولكن فيه من التوسع في باب الأحكام، وأنه أكثر تيسيراً مما في التوراة، فالأحكام الموجودة في الإنجيل بعضها مكمل، وبعضها معدِّل للأحكام الموجودة في التوراة، مع العلم أن الأحكام التي جاءت فيه قليلة، وأكثر الأحكام المتبعة فيه ما جاءت بها التوراة؛ لذلك نجد النصارى متفقين على حفظ التوراة وتلاوتها مع حفظهم للإنجيل، بل هم مأمورون بإقامة التوراة والإنجيل معاً، مضافاً إليه كل ما أنزله الله إليهم، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[المائدة:68]، وفي هذا دلالة على أن كلاً من التوراة والإنجيل يكمل بعضه بعضاً، ولولا أن عيسى عليه السلام كان متبعاً لبعض ما في التوراة لم يكن ليتعلمها، فالإنجيل من وجهٍ أصل، ومن وجه تبع، أصل في اتباع ما جاء به من شريعة جديدة، مثل: ما أحله الله لبني إسرائيل في بعض ما حرمه عليهم، وتبع في اتباعه لكثير من الأحكام التي جاءت بها التوراة[3].

---

(1) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج44/2).

(2) ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص 332).

(3) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج43/16 – 45)، والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص 553 – 554).

المطلب الخامس: إثبات تحريف أهل الكتاب للكتب السماوية المنزلة عليهم.

أنزل الله تعالى الكتب السماوية على الرسل لهداية الناس، وكانت الرسالات السابقة مرهونة بوقت وزمان بخلاف الرسالة الخاتمة – القرآن الكريم – الذي تكفل الله بحفظه من أيدي الغادرين، فلم يُكتب لتلك الكتب بقاء ولا خلود؛ لعدم تكفل الله ﷻ بحفظها، فقد أوكل حفظها إلى الربانيين والأحبار، فلم يستطع البعض منهم تحمل هذه الأمانة، حيث خانوا أماناتهم ونقضوا عهودهم مع الله، وحرفوا وبدلوا في كتبهم؛ لتكون طوعاً لهم بما يتناسب مع أهوائهم ومصالحهم الدنيئة لشراء هذه الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

قال الإمام ابن القيم: "فقاتل الله أصحاب التحريف والتأويل وأصحاب التخييل وأصحاب التجهيل وأصحاب التشبيه والتمثيل، ماذا حرفوه من الحقائق الإيمانية والمعارف الإلهية وماذا تعوضوا به من زبالة الأذهان ونخالة الأفكار فما أشبههم بمن كان غذاؤهم المن والسلوى بلا تعب ولا كلفة فآثروا عليه الفوم والعدس والبصل، وقد جرت عادة الله سبحانه أن يذل من آثر الأدنى على الأعلى ويجعله عبرة للعقلاء"[1].

ولقد بينت سورة آل عمران تحريف أهل الكتاب للكتب السماوية المنزلة عليهم، وينبغي قبل الخوض في هذا المطلب بيان معنى التحريف لغةً واصطلاحاً.

أولاً: التحريف لغةً.

التحريف مشتقة من (حرَّف)، والحاء، والراء، والفاء تعود إلى ثلاثة أصول، هي: حد الشيء، والعدول، وتقدير الشيء، والانحراف عن الشيء هو الميل عنه وعدله عن جهته، وذلك كتحريف الكلام عن مواضعه[2].

قال ابن منظور: "تحريف الكلم عن مواضعه: تغييره. والتحريف في القرآن والكلمة: تغيير الحرف عن معناه والكلمة عن معناها، وهي قريبة الشبه كما كانت اليهود تغير معاني التوراة بالأشباه فوصفهم الله بفعلهم فقال تعالى:﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾"[3][النساء: 46].

---

(1) ابن القيم، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (ج433/2).

(2) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج42/2 – 43).

(3) ابن منظور، لسان العرب (ج43/9).

ثانياً: التحريف اصطلاحاً.

التحريف في الكلام: "إمالته عن المعنى المتبادر منه إلى معنى آخر لا يدل عليه اللفظ إلا باحتمال مرجوح، فلا بد فيه من قرينة تبين أنه المراد"[1].

فالمقصود بالتحريف أنه التغيير والتبديل، وذلك كتحريف بعض المبتدعة ألفاظ الأسماء الحسنى والصفات العلى، أو تحريف معانيهما. ومن العلماء من قسم التحريف إلى نوعين[2]:

الأول: تحريف بالزيادة أو النقصان، أو التغيير بالحركات الإعرابية، كالقول في صفة الاستواء بالاستيلاء بزيادة اللام، أو نصب لفظ الجلالة بدلاً من الرفع في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[النساء: 164].

الثاني: تحريف المعنى وذلك بإبقاء اللفظ على حاله مع تغيير معناه الحقيقي – تحت مسمى التأويل – أي تفسير النصوص بالمعاني الباطلة، كتأويل صفة الغضب بإرادة الانتقام، واليد بالنعمة أو القدرة، وكتأويل (نفسه) تعالى بالغير في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[آل عمران: 28].

ولقد ذكر الإمام ابن القيم أن تأويل التحريف ممتنع وقوعه في الخبر والطلب، وأما تأويل التفسير فيقع فيهما، حيث قال: "ذكر الله سبحانه التحريف وذمه، حيث ذكره وذكر التفسير وذكر التأويل، فالتفسير هو إبانة المعنى وإيضاحه... وهذا غاية الكمال أن يكون المعنى في نفسه حقاً والتعبير عنه أفصح تعبير وأحسنه، وهذا شأن القرآن وكلام الرسول. والتحريف العدول بالكلام عن وجهه وصوابه إلى غيره، وهو نوعان: تحريف لفظه وتحريف معناه، والنوعان مأخوذان من الأصل عن اليهود فهم الراسخون فيهما وهم شيوخ المحرفين وسلفهم فإنهم حرفوا كثيراً من ألفاظ التوراة وما غلبوا عن تحريف لفظه، حرفوا معناه؛ ولهذا وصفوا بالتحريف في القرآن دون غيرهم من الأمم... والمقصود أن التأويل يتجاذبه أصلان: التفسير والتحريف، فتأويل التفسير هو الحق وتأويل التحريف هو الباطل"[3].

ولإثبات تحريف أهل الكتاب للكتب السماوية المنزلة عليهم من خلال سورة آل عمران ما يلي:

---

(1) هراس، شرح العقيدة الواسطية (ص 66).

(2) انظر: حافظ الحكمي، معارج القبول بشرح سلم الوصول (ج1/ 358 – 359)، والسلمان، مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (ص 23 – 24).

(3) ابن القيم، الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (ج215/1 – 217)، بتصرف يسير.

1 - يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78].

لقد دلت الآية الكريمة على شكل من أشكال التحريف وهو: التحريف بليّ اللسان، وأصل اللي من الفتل والقلب[1]، حيث كان أهل الكتاب يحرفون كتبهم المنزلة بليّ ألسنتهم بالكتاب حسب أهوائهم، فكانوا يضعون كلاماً من عندهم بدلاً من آيات الله ثم ينسبونه إلى الله؛ ليتلبس السامع ويحسبه من الكتاب وما هو منه، ويظن أن هذا التحريف من كتب الله وتنزيله، ولكن الله ﷻ بيَّن من فوق سبع سماوات باطل ما يدعون من افترائهم الكذب عليه، خاصة أنهم يعلمون ما يفعلون من التحريف بالكتب السماوية المنزلة، وأن ما حرفوه ليس من كلام الله ولا مراده[2].

قال الإمام ابن القيم: "يلويها ويحرفها، اللّيّ مثال الفتل وهو التحريف، وهو نوعان: ليٌّ في اللفظ وليٌّ في المعنى، فالليُّ في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق، إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها، ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي ﷺ وغيره، فهذا أحد نوعيّ الليّ. والنوع الثاني منه: لي المعنى وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم، وبجهالة ما لم يرده أو يسقط منه لبعض المراد به، ونحو هذا من ليِّ المعاني... والليّ نظير تغييرها وتبديلها"[3].

2 - يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[آل عمران: 93 -94].

لقد تضمنت هذه الآيات تكذيباً لليهود الذين يدعون الكذب على الله ورسله وكتبه، حيث حرفوا ما جاء في كتبهم وأخفوه، فعن سبب نزول هذه الآيات أن رسول الله محمداً ﷺ عندما قال إنه على ملة إبراهيم عليه السلام جاءته اليهود لتنقض عليه قوله، مستندين إلى حجة واهية، لا أساس لها

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج536/6).

(2) انظر: ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص312)، والطبري، جامع البيان (ج535/6)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج65/2).

(3) ابن القيم، الرسالة التبوكية (ص35،36)، بتصرف يسير.

من الصحة وهي أنه ﷺ ليس على ملة إبراهيم ﷺ؛ لأنه كان ومن تبعه محرماً عليهم أكل طعام وهو لحوم الإبل وألبانها، وكان رسول الله ﷺ يأكلها ويحلها، ولأجل هذا نفوا أن يكون ﷺ على ملته، فرد الله عليهم هذا القول الباطل، وبيَّن زيف ما يدعون، فدين اليهودية ليس من الحنيفية في شيء، حيث لم يكن ما حرم من الطعام بنص التوراة محرماً فيها، وأن الذي حرمها على نفسه هو إسرائيل – أي يعقوب ﷺ – من قبل أن تنزل التوراة، وكان فعل يعقوب ﷺ تقرباً إلى الله حيث كانت أحب شيء إليه، فأراد أن يحرمها على نفسه من باب التقرب للمولى ﷻ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم، ثم تبعه بنوه وحرموها على أنفسهم مستنين بفعل أبيهم من غير تحريم من الله عليهم في ذلك، ولكن التوراة لم يرد فيها نص على تحريمها، فجاءت الآيات القرآنية مفحمة لهم، تحمل التهديد والوعيد على كذبهم، وتحريفهم لكتب الله، وتطالبهم بإتيان التوراة وقراءتها؛ حتى يبينوا ما يزعمون إن كانوا صادقين، وأن الاستمرار في الافتراء على الله بالكذب سيؤدي بهم إلى الهلاك[1].

3 – قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: 19].

لقد بينت هذه الآية حال أهل الكتاب من سوء تلقيهم دين الإسلام، وسوء فهمهم لدينهم، وبغيهم بعدما جاءهم العلم، فبدلوا وحرفوا ما جاءت به كتبهم، حيث كان اختلافهم من أجل السعي إلى المطالب الدنيوية كالسلطة والرياسة والسيادة، وأن هذا الاختلاف حدث مع قيام أسباب العلم بالحق، ومن جملة ما وقعوا فيه من التحريف والتبديل لكتبهم كتمانهم الآيات الدالة على بعثة نبينا محمد ﷺ، فاختلافهم وبغيهم إنما هو كفر أوصلهم إلى نقض قواعد دينهم، ونكران دين الإسلام، وأن من يجحد ما أنزله الله في كتابه سيجازيه على ذلك سوء الجزاء[2].

4 – يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 71].

ذكرت الآية الكريمة أشكالاً من التحريف التي كان يقوم بها أهل الكتاب، فشهدت على تحريفهم لكتبهم المنزلة عليهم، ومن ذلك إلباسهم الحق بالباطل؛ حيث كانوا يكتبون في كتبهم ما

---

(1) انظر: الواحدي، أسباب النزول (ص 118)، والطبري، جامع البيان (ج6/6 – 10)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج76/2)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (ج8/4).
(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج196/3 – 199).

ليس فيها، فيدخلون عليها الأكاذيب والتأويلات الباطلة، فبينت الآية كتمانهم الحق الذي في كتبهم مع تيقنهم به، ككتمانهم صفة محمد ﷺ ونبوته الموجودة في كتبهم، حيث جحدوا بها وأخفوا النصوص المتعلقة بها، وحرفوها كفراً وحسداً من عند أنفسهم(1).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وما يذكره أهل الكتاب مما يناقض خبر محمد ﷺ فهو – عامته – مما حرفوا معناه وتأويله، وقليل منه حرف لفظه، وأهل الكتاب – اليهود والنصارى – مع المسلمين متفقون على أن الكتب المتقدمة وقع التحريف بها، إما عمداً وإما خطأً في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها"(2).

وقال الإمام ابن القيم: "تواترت البشارات بصحة نبوة محمد ﷺ في الكتب المتقدمة، ولكن سلطوا عليها التأويلات فأفسدوها، كما أخبر سبحانه عنهم من التحريف والتبديل والكتمان، فالتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم بها، والتبديل تبديل لفظ بلفظ آخر، والكتمان جحده. وهذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان والملل"(3).

5 – قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[آل عمران: 23 – 25].

إن في هذا النص القرآني شهادة واضحة على تحريف أهل الكتاب لكتبهم، حيث أخبر سبحانه عن طائفة من اليهود كانت في عهد النبي ﷺ وقد أوتوا علماً بالتوراة، أنهم دعوا إلى حكم كتابهم – التوراة – في أمور تنازعوا بها مع الرسول ﷺ، فأبوا الإجابة والاحتكام إليه وكتمانهم ما فيه، فهم المكذبون لما جاء به الأنبياء عليهم السلام، ولا يقتصر تكذيبهم للقرآن الكريم، بل تعدى تكذيبهم لكتابهم التوراة الذي جاء به نبيهم موسى عليه السلام، ونقضهم العهد مع الله بافتراءاتهم الباطلة وتحريف كتبهم، فمن ضمن مقولاتهم المفترية قولهم إن النار لن تمسهم أو تحرق أجسادهم سوى أيامٍ معدودة – وهي عندهم أربعون يوماً، الأيام التي عبدوا فيها العجل –، وأن الله وعد أباهم

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج506/6)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج59/2)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (ج279/3).

(2) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج123/5).

(3) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين (ج192/4).

يعقوب ﷺ أنه لن يدخل النار أحد من ولده إلا تحلة القسم[1]– أي أن النار لا تمسهم إلا مسة يسيرة–، ومقولتهم هذه مبنية على زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه –تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً–، ولكن الله رد مقولتهم الباطلة، مخبراً عنهم أنهم من أهل النار خالدون من دون المؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله وما جاؤوا به من التنزيل[2].

ومن خلال هذه الأدلة الربانية السماوية ثبت أن أهل الكتاب حرفوا كتبهم المنزلة عليهم، وأن كتبهم الحالية الموجودة بين أيديهم هي كتب محرفة ومبدلة، فلا يميز بين الأصل الذي أنزله الله تعالى وبين المحرف الذي حرفه أهل الكتاب لكتبهم.

قال صاحب كتاب (الكتب السماوية وشروط صحتها): "لا نزاع بين المسلمين والنصارى في وجود التحريف المعنوي، ألا وهو ليّ الكلام عن مواضعه. لأن النصارى يسلمون بصدوره عن اليهود في تفسير النصوص التي فيها إشارة في زعمهم إلى المسيح ﷺ في العهد القديم، وفي تفسير الأحكام التي هي أبدية عند اليهود. وعلماء الكاثوليك والبروتستانت يرمي كل منهما الطرف الآخر رمياً شديداً بالتحريف في كتب العهدين. أما التحريف اللفظي، ألا وهو تبديل الألفاظ أو زيادتها أو نقصانها، فهو ثابت – أيضاً– في كتبهم. وقد اعترف به كثير من علمائهم"[3].

ويكفي لكل من له عقل متدبر أن يطلع إلى كتب أهل الكتاب فإنه سيحكم بتحريفها، واستحالة نسبتها إلى الله ﷻ؛ بما احتوته من القبائح والعظائم المنسوبة إليه تعالى وإلى أنبيائه، وهناك الكثير من الأدلة العقلية القاطعة التي تثبت تحريفها؛ لذا ينبغي ذكر بعض الأدلة التي تثبت تحريف التوراة والإنجيل، وهي كما يلي:

أولاً: الأدلة على تحريف التوراة.

لقد ثبت وقوع التحريف في التوراة بأمور كثيرة، منها:

1 – أن التوراة الموجود حالياً قام بكتابتها أكثر من كاتب، وفي أزمان مختلفة، ففي القسم الأول من التوراة – أسفار موسى الخمسة أو كتب موسى – أكثر من سبعمائة جملة فيها إثبات قاطع أن الله لم يكن كاتبها، وحتى موسى ﷺ لم يكن له علاقة فيها، فكاتبها تارة يقول: "**وقال الرب لموسى...**" [سفر الخروج: 6: 1]، وتارة يقول: "**فقال موسى للرب...**" [سفر العدد: 11: 11]، وبهذا يتضح

---

(1) التحلة هي ما تكفر به اليمين، ويقال لم يفعل هذا إلا تحلة القسم – أي بمقدار ما يحلل قسمه ويخرج منه، غير مبالغ في ذلك الفعل. انظر: الطبري، جامع البيان (ج292/6).

(2) انظر: المصدر السابق (ج290/6 – 292).

(3) طويلة، الكتب السماوية وشروط صحتها (ص253)، بتصرف يسير.

أنها ليست كلمات الرب ولا كلمات موسى، حيث إن الضمير المذكور هو ضمير الغائب، وإنما هذه الكلمات لشخص آخر يسمع الأخبار والأحداث ويسجلها، ولو كانت من كلام موسى عليه السلام لكان عبر عن نفسه بصيغة المتكلم، بل وهناك ما هو أدهى من ذلك وهو أن موسى عليه السلام في أحد هذه الأسفار يكتب تفاصيل موته فيقول: "**فمات هناك موسى... ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم. وكان موسى ابن مئة وعشرين سنة حين مات... فبكى بنو إسرائيل موسى...**" [سفر التثنية: 5: 8]، والسؤال – هنا – هل بعد هذا الكلام يشك عاقل أن يكون موسى هو مؤلف الجزء الذي يذكر فيه تفاصيل موته؟!(1)، ولقد علق الإمام ابن حزم على هذا النص بقوله: "هذا آخر توراتهم وتمامها، وهذا الفصل شاهد عدل وبرهان تام ودليل قاطع وحجة صادقة في أن توراتهم مبدلة، وأنها تاريخ مؤلف كتبه لهم من تحرض بجهله أو تعمد بفكره، وأنها غير منزلة من عند الله تعالى؛ إذ لا يمكن أن يكون هذا الفصل منزلاً على موسى في حياته فكان يكون أخباراً عنهما لم يكن بمساق ما قد كان"(2).

2 – لقد ورد في التوراة ذكر أسماء أماكن لم تعرف بها في زمن موسى عليه السلام، ولكنها عرفت بها بعده بزمن طويل، مثل ذكر اسم مكان يدعى (حبرون(3) في التوراة: "**فنقل أبرام خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التي في حبرون. وبنى هناك مذبحاً للرب...**" [سفر التكوين: 13: 18]، علماً أن في السفر نفسه قد ورد: "**وجاء يعقوب إلى إسحاق أبيه إلى ممرا قرية أربع التي هي حبرون. حيث تغرب إبراهيم وإسحاق...**" [سفر التكوين: 35: 27]، ومن المعلوم أن بني إسرائيل غيرت

---

(1) انظر: ديدات، هل الكتاب المقدس كلام الله؟ (ص35)، والسيد سابق، العقائد الإسلامية (ص145).

(2) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج1/141).

(3) أطلق اسم (حبرون) على قرية بناها الكنعانيون اسمها قرية (أربع)، نسبة إلى بانيها أربع وهو: أبو عناق أعظم العناقيين، الذين كانوا يوصفون بالجبابرة، وفي عهد يوشع بن نون تغير اسم القرية إلى حبرون نسبة إلى أحد أولاد كالب بن يفنة، ثم سميت حبرون بعد ذلك بالخليل نسبة إلى نبي الله إبراهيم عليه السلام؛ حيث سكنها في أوائل القرن التاسع عشر قبل الميلاد سنوات عديدة تحت بلوطات (ممرا) التي تقع شمال العراق، وتعتبر الخليل من أقدم مدن العالم حيث يعود تاريخها إلى (5500) عام في العصر البرونزي المبكر، والخليل مدينة فلسطينية، حيث تعتبر أكبر مدن الضفة الغربية من حيث عدد السكان والمساحة، وتبلغ مساحتها (42) كم2، وتقسم حالياً إلى البلدة القديمة والبلدة الحديثة، ولها أهمية اقتصادية ودينية، ويتوسطها المسجد الإبراهيمي الذي يحوي مقامات للأنبياء إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وزوجاتهم عليهم السلام، ويحيط بالمدينة الكثير من المستوطنات الإسرائيلية، أكبرها مستوطنة كريات أربع. انظر: موقع https://ar.wikipedia.org/wiki يوم الخميس بتاريخ: 2016/3/10م.

اسم قرية (أربع) إلى (حبرون) بعدما فتحوا فلسطين في عهد يوشع بن نون – أي بعد عصر موسى عليه السلام – فهذه النصوص قطعاً ليست من كلام موسى عليه السلام على الإطلاق، بل من كلام شخص آخر كان يعيش بعد هذا الفتح والتغيير، كما ذكر – أيضاً – بلدة تدعى (دان) حيث ورد: "**فلما سمع أبرام أن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان**" [سفر التكوين: 14: 14]، و(دان) اسم بلدة عمرت في عهد القضاة، عندما قام بنو إسرائيل بعد موت يوشع بن نون بفتح بلدة (ليث)، حيث قتلوا أهلها وأحرقوها ثم عمروها وسموها (دان)، فكيف يكون هذا من كلام موسى عليه السلام في حين أن تسميات هذه الأماكن وتلك الأحداث كانت بعد عصره؟![1].

3 – استحالة أن يكون هذا الكتاب توراة موسى عليه السلام الحقيقية التي جعلها الله نوراً وهدى للناس؛ لاحتوائها على النقائص والعيوب ما لا يحصى في حق الله عز وجل –تنزه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً–، حيث نسبت إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله وعظمته، منها[2]:

– أن الله خلق الإنسان على صورته؛ فقد ورد فيها: "**وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا... فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه**" [سفر التكوين: 1: 26 – 28]، فالخالق أعظم من أن يشبهه أحد من خلقه، والله تعالى يتنزه عن ذلك فلا يشابهه أحد مهما بلغ من درجة وبأي حال من الأحوال، ولقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: 11].

– نسبتهم الولد لله إلى عز وجل – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – حيث ورد في التوراة: "**أنتم أولاد الرب إلهكم**" [سفر التثنية: 14: 1]، والله سبحانه فرد صمد غير مفتقر لولد أو صاحبة متنزه عن ذلك، وتكفينا سورة الإخلاص لتبطل قولهم الباطل، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[الإخلاص: 1– 4].

– ادعاؤهم رؤية الله، ووصفه بالضعف، والتعب، ونسبة الجهل إليه– تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً – فقد ورد في التوراة: "**فبقى يعقوب وحده. وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر. ولما رأى أنه**

---

(1) انظر: الهندي، إظهار الحق (ج2/477– 479).

(2) انظر: طويلة، الكتب السماوية وشروط صحتها (ص254 – 256)، والبار، الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم (ص14 – 18).

لا يقدر عليه ضرب حق فخذه. فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه. وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك. فقال يعقوب. فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل. لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك. فقال لماذا تسأل عن اسمي. وباركه هناك فدعا يعقوب اسم المكان فنيئل. قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي" [سفر التكوين: 32: 24– 30]، وهذا النص المحرف فيه ما لا يعقل في حق الله ﷻ من التجسيم بحيث يجيزون فيه رؤية الله تعالى في الدنيا، ويصورونه كإنسان يصارع في حالة ضعف وقلة حيلة، حيث إن هذا النص قد أثبت أن يعقوب عليه السلام قدر على الإله وأطلقه، وانتزع البركة منه بالقوة – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً –، كما ينسبون إليه الجهل وذلك يتضح في سؤاله يعقوب عليه السلام عن اسمه – تنزه الله عن ذلك –، وورد – أيضاً – وصفهم لله بالتعب – تعالى الله علواً عن ذلك – فقد ورد في التوراة: "**فأكملت السموات والأرض وكل جندها. وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. وبارك الله اليوم السابع وقدسه؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمله الله خالقاً**" [سفر التكوين: 2: 1– 3]، وكل هذا وغيره من النصوص الكثيرة في التوراة إنما يعبر عن نفسية اليهود المريضة، التي لا تتصور خالقاً يتصف بصفات الكمال، ولا تؤمن إلا بالمحسوس المادي المجرد، وأن توراتهم الحالية محرفة ومبدلة؛ إذ يستحيل أن يكون الخالق متصفاً بالنقائص والعيوب التي تقشعر لها الأبدان عند سماعها، وكفى بقوله ﷻ: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ**﴾[الأنعام: 91].

4– لقد وصفت التوراة أنبياء الله عليهم السلام بأفظع الصفات التي تطعن في نبوتهم، وأعظم الرزايا والقبائح التي يترفع عنها صاحب الخلق والدين، فضلاً عن النبوة التي تعصمهم من ارتكاب مثل تلك الأمور، وبمجرد الاطلاع على بعض النصوص التي تتحدث عن أنبياء الله فإن العاقل سيحكم على تحريف توراتهم، واستحالة أن تكون ما في هذه النصوص صادرة من صفوة البشر أنبياء الله عليهم السلام، ومن تلك النصوص(1):

– أنهم جعلوا بعض أنبياء الله مشركين بالله، كالذي نسبوه إلى نبي الله سليمان عليه السلام من عبادة الأصنام إرضاءً لزوجاته، حيث مال قلبه عن عبادة إلهه إلى عبادة آلهة نسائه من دون الله، فورد في التوراة: "**وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه**

(1) انظر: سعفان، دراسة في التوراة والإنجيل (ص 10 – 19)، والخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية (ص94 – 95).

كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورت إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس الموابيين على الجبل الذي تجاه أورشليم ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذي تراءى له مرتين. وأوصاه في هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب" [سفر الملوك الأول: 11: 4 – 9]، وهذا هو وصف سليمان عليه السلام في التوراة؛ إذ وصفوه وصفاً شنيعاً لا يليق بمقام النبوة، فهو متزوج من نساء مشركات يعبدن آلهة من دون الله، بل إن قلبه مال عن التوحيد إلى الشرك بالله طاعةً لزوجاته، كما أنه عمل الشر ولم يحفظ ما أوصاه الله تعالى من وصايا، والغريب أن فعله هذا وهو في سن الشيخوخة، السن التي تستقيم فيها حال المرء، وتميل فطرته إلى التدين والالتزام، لا إلى الشرك والانحراف، إن هذا لهو التحريف بعينه، فحاشا أنبياء الله أن يصدر منهم مثل هذه الرزايا، ويكفينا شهادة المولى عز وجل لسليمان عليه السلام أنه عبد أواب، أي كثير الذكر والطاعة، رجاع إلى طاعة الله تواب إليه مما يكرهه منه[1]، فقال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص:30].

– اتهامهم لبعض أنبياء الله عليهم السلام بشرب الخمر والتعري، فقد ورد: "**وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر وسكر وتعرى داخل خباءه**[2]" [سفر التكوين: 9: 20– 21]، أيعقل هذا أن يصدر من نبي من أولي العزم؟ – حاشاه أن يفعل ذلك – وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: 59]، بل ونسبت التوراة افتراءات وأكاذيب لبعض الأنبياء عليهم السلام فجعلتهم نماذج مشينة حيث نسبت إليهم ارتكاب أصنافاً من المحرمات، كالزنا بالمحارم مما يستحي المرء ذكره وعرض تلك النصوص– حاشاهم أن يفعلوا ذلك –، وفي هذا دلالة على أن كتبهم محرفة ومبدلة؛ إذ يستحيل أن يكون مثل هذا الكلام وحياً منزلاً.

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج/191).

(2) وردت هذه الكلمة في النص الأصلي (خباءه)، وهي خطأ لغوي، والصواب: (خبائه).

ثانياً: الأدلة على تحريف الإنجيل.

لقد لحق بالإنجيل ما لحق بالتوراة من التحريف، حيث ثبت وقوع التحريف فيه بالكثير من الأدلة، منها:

1 – إن الإنجيل، كونه رسالة شفوية صرفة، قد ذكرها المسيح ﷺ أمام تلاميذه، ثم قاموا بكتابتها بعد ذلك سراً أثناء حدوث المحن المحيطة بهم، كفيلة لأن يدخل التحريف القصدي وغير القصدي، فدخول التحريف إلى الأناجيل كان منذ القرن الأول الميلادي، منذ رفع المسيح عيسى ﷺ حتى أوائل القرن الرابع الميلادي حين وقعت الاضطهادات، وهذه الاضطهادات أدت إلى فقدان الكثير من كتبهم، خاصة أن تدوينها قد كان متأخراً عن عصر عيسى ﷺ، فجعلت دينهم عرضة للضياع والتحريف، خاصة من أعدائهم اليهود الذين كانوا يتظاهرون بالمسيحية، حتى جعلتهم طوائف عديدة وفرقاً مختلفة في مذاهبها الاعتقادية[1].

2 – إن الأناجيل المتداولة والمأخوذ بها بين النصارى حالياً هي أربعة أناجيل تم اختيارها من أصل سبعين إنجيلاً، ممثلة لعقائد النصارى ومرجعاً أساسياً لهم، فجمعت الكنيسة الأناجيل والرسائل من مختلف البلدان في مجمع نيقية[2]، وأقرت بالذي يتفق مع أهوائها واعتمدته، وتخلصت من كل ما يخالفها وأحرقته، وهذا دليل واضح على دخول التحريف فيها، حيث إن الأسفار التي أقرها هذا المجمع قسم قليل، مقارنة بما قُدم من أصل عشرات الكتب ومئات الرسائل[3].

قال صاحب كتاب (العقائد الإسلامية): "قرر نقاد المسيحيين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هي رأي بولس دون سائر الحواريين ودون أقرب الأقربين إلى عيسى، وقد وجد في مكتبة أمير من

---

(1) انظر: طويلة، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق (ص125)، والمؤلف نفسه، الكتب السماوية وشروط صحتها (ص427)، والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص577 – 578).

(2) مجمع نيقية: عقدت النصارى هذا المجمع عام 325م، وكان انعقاده رداً على الوحدانية الذي تزعمها شخص يدعى أريوس، وإن هذا المجمع يعد من أهم المجامع المسيحية وأعظمها؛ لاتخاذها فيه أخطر القرارات التي تخص عقائدهم الدينية، وكان عقده بأمر الإمبراطور قسطنطين الكبير، وكانت القضية المتباحث بها في هذا المجمع بخصوص القول بألوهية المسيح، حيث اشتد الخلاف فيه بينهم وكان رأي الأغلبية الساحقة رأي أريوس، فأصدر الإمبراطور قراراً بفضه، ثم أعيد عقد الاجتماع بعد ذلك بحضور الأعضاء القائلين بالتثليث وبألوهية المسيح، التي اعتمدوها لتكون الأساس الذي يقوم عليه دينهم إلى يومنا هذا. انظر: شلبي، المسيحية (ص198).

(3) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص578 – 580)، والسيد سابق، العقائد الإسلامية (ص146)، وطويلة، الكتب السماوية وشروط صحتها (ص427).

الأمراء في باريز نسخة من إنجيل برنابة، وقد طبعته مطبعة المنار بعد ترجمته إلى العربية، وهو يخالف الأناجيل الأربعة مخالفة كبيرة"[1]، وهذا وحده كفيل بإثبات وقوع التحريف في الإنجيل.

3 – من الثابت علمياً وتاريخياً أن النصارى فقدوا السند التاريخي الذي يربط بين كتبهم ونقولهم، وبين من تنسب إليه هذه الكتب أو النقول، فنجد مثلاً كل بشارة تبدأ بجملة [كما دوَّنه...] ثم يدرج اسم الحواري، وهذا معناه أن مؤلف الرواية ليس المسيح عليه السلام أو الحواري، بل هو شخص آخر قد قام بتسجيلها، حتى إننا لا نجد في أي نسخة من أناجيلهم تحمل توقيع المؤلف الأصلي، أي أنها لم تصل من طريق قطعي معصوم من النبي المبلغ عن الله تعالى ولا ممن تلقاها عنه، وما دام الأمر كذلك، ما هو الضمان على إثبات صحتها؟ وكيف نقبله ككلام من الله؟ كما أن هذه الأناجيل لم يحدد العصر الذي دونت فيه تحديداً قاطعاً، وبفقد السند التاريخي تفقد النصوص حجيتها بشهادات البحث العلمي المتجرد التي أثبتها الباحثون والمؤرخون من علماء منصفين وعلماء من أهل الكتاب[2].

4 – إن الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى لا توجد حالياً إلا محررة باللغة اليونانية، وهي مخالفة للغة المسيح عليه السلام، وحوارييه، وتلاميذه الذين كانوا يتكلمون بها، وإن التدوين قد جاء متأخراً– كما ذكرنا – فكيف يوثق بعد هذا كله بتلك الأناجيل؟[3]

5 – إن اضطراب متن الإنجيل شاهد على تحريفه، حيث يعتقد النصارى أن الأناجيل الأربعة متفقة في الجوهر والعقيدة والتشريع والأخلاق وإن كانت تختلف في بعض التفاصيل، ويزعمون أنها إنجيل واحد في أربعة صور، ولكن المطلع على أسفار العهد الجديد ورسائله فإنه سيجده كتاباً متناقضاً، وشتاتاً، مجمعاً، قد اضطربت أقوال مؤلفيها وتضاربت، فيروى الخبر الواحد في إنجيل ما يخالف غيره من الأناجيل، أو يزيد عليه، أو ينقص عنه[4].

6 – لقد أثبت العلماء والباحثون – من المسلمين وغيرهم – وجود أخطاء وتناقضات كثيرة في كتب العهدين القديم والجديد، وأن الأناجيل المعتمدة لدى طوائف النصرانية محرفة، احتوت العديد من المخالفات والتناقضات للحقائق العلمية، وفي هذا دلالة على التحريف الذي أصاب كتبهم، ولو

---

(1) السيد سابق، العقائد الإسلامية (ص146 – 147).

(2) انظر: طهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان (ص72)، وديدات، هل الكتاب المقدس كلام الله؟ (ص38)، والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص578، ص582).

(3) انظر: السقار، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص3)، وطهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان (ص73).

(4) انظر: طويلة، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق (ص136).

كانت هذه النصوص صحيحة غير محرفة لما وجد فيها أخطاء أو تناقضات مع الحقائق العلمية بأي حال من الأحوال[1].

7 – إن المتأمل لأقوال علماء النصارى عندما يواجههم النقاد والباحثون بوجود أخطاء وتناقضات في الأناجيل، يجدهم يتبنون دعوى الإلهام – أي الوحي – وأن ليس كل ما في كتابهم إلهامي، فبعضه إلهامي، والبعض الآخر غير إلهامي، ومثل هذه الإجابة كافية لأن تثبت تسليمهم بتحريف كتابهم[2]، مع العلم أنه لم يدع أحد من كتبة العهد الجديد لنفسه الإلهام – عدا بولس–، وأنهم لم يقصدوا أن يسجلوا من خلال كتاباتهم كتباً مقدسة، إنما هي جهد بشري خالص، فإذا كان الحواريون والتلاميذ لا علم لهم بإلهامية ذواتهم أو بعضهم، فكيف يؤكد النصارى دعوى الإلهام وقد جهله أصحاب تلك الكتابات؟! فلا دليل في الأناجيل على دعوى ثبوت الإلهام لأحد منهم، وإذا استمروا على عنادهم فنطالبهم بإقامة الدليل على النصوص الإلهامية وغير الإلهامية، وإلا وجب التوقف في شأنها، وبمجرد وجود عمل بشري فيها فلا يجوز اعتبارها وحياً إلهياً ومصدراً دينياً[3].

8 – إثبات التحريف في كتابهم فقد ثبت نصاً على ألسنة مؤلفيها، فالإقرار هو سيد الأدلة، حيث ورد على لسان بطرس[4] في رسالته الثانية أنه قال: "**كما في الرسائل كلها أيضاً متكلماً فيها عن**

---

(1) انظر: جبر، البيان الصحيح لدين المسيح (ص190 – 191)، من المهم ذكره أنه يجب التفريق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية، فالنظرية العلمية تحتمل الصواب والخطأ بخلاف الحقيقة العلمية التي هي من المسلمات، وإذا ما وقع التعارض بين النظرية العلمية والكتاب الموحى به فإن النظرية العلمية حتماً هي الخاطئة، وأما الحقيقة العلمية فلا تعارض بينها وبين الكتاب الموحى به بأي حال من الأحوال، وتعارض نصوص من كتب أهل الكتاب مع الحقائق العلمية وحدوث التناقض بينهما إنما هو التحريف الذي دخل إلى تلك الكتب. للاستزادة في هذا الموضع ينظر: المرجع السابق (ص ص190 – 191).

(2) انظر: طهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان (ص72)، والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص582، 585).

(3) انظر: الهندي، إظهار الحق (ج358/2– 359)، والسقار، هل العهد الجديد كلمة الله؟ (ص114، 118).

(4) ترجمة لبطرس بحسب ما ترويه أسفار النصارى: هو بطرس كبير الحواريين ورئيسهم، وأشدهم ملازمة للمسيح ﷺ، وكان اسمه الأصلي سمعان، وكانت مهنته صيد الأسماك، وسماه المسيح ﷺ (كيفا) وهي كلمة آرمية باللغة التي كان يتكلم بها السيد المسيح ﷺ، وتعني الحجر أو الصخرة، ثم ترجم هذا الاسم إلى اللاتينية في كلمة معناها الصخرة في هذه اللغة وهي (بطرس)، وكانت جهوده كبيرة في التبشير بالمسيحية سواء أكان في عهد المسيح ﷺ أو بعده في كثير من البلاد، وهو الذي أنشأ كنيسة روما التي يتولى رياستها باباوات الكنيسة الكاثوليكية، بحيث يعتبرون أنفسهم خلفاء بطرس؛ ولذلك تسمى كنيستهم بالكنيسة البطرسية، وله رسالتان من الرسائل السبع التي يسمونها بالرسائل الكاثوليكية وهي إحدى مجموعات العهد الجديد، وينسب إليه أنه أشرف على تدوين إنجيل مرقس– أحد الأناجيل الأربعة المعتمدة لدى النصارى –، وهناك من المؤرخين من ذهب إلى أنه هو الذي ألفه ونسبة إلى تلميذه مرقس. انظر: وافي، الأسفار المقدسة (ص55 – 66).

هذه الأمور. التي فيها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين كباقي الكتب أيضاً لهلاك أنفسهم" [رسالة بطرس الثانية: 3: 16][1].

9 – إن نصوص الأناجيل شواهد صريحة وأدلة مؤكدة على أنها ليست كلاماً إلهياً، وإنما هي كلام كتابها وأقوال الناس المنسوبة إليهم، فهي كتب بشرية المتحدث بها مؤلفوها الذين رووا حكايات وأخباراً متعلقة بالمسيح عليه السلام ودعوته وأتباعه، ومن تلك النصوص: ما ورد في بداية إنجيل لوقا: "**إذ كانوا كثيرون[2] قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداماً للكلمة رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالي إليك أيها العزيز ثاوفيلس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا...**" [لوقا: 1: 1:5]، فهذا ومثله ليس كلاماً موحَياً به، وإنما هو نقولات من تسجيل كتَّابها باعترافهم، إضافة إلى أن نصوص الأناجيل نجدها تتكلم بالضمير الغائب وليس بضمير المتكلم، وهذا يؤكد أنها ليست من كلام الله، فالقرآن الكريم نجد أن المتكلم فيه هو الله تعالى وأنه يعبر عن نفسه بضمير المتكلم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81][3].

10 – إن المتأمل في أسفار العهد الجديد والعهد القديم يجده كتاباً تاريخياً، معظمه سرد لقصص وأحداث أنبيائهم، ولو كان كل ما فيه وحياً حقيقياً لكان التركيز فيه على العقائد والتشريعات، والمبادئ والقيم، أما سرد تاريخ الأشخاص فيكون في حدود الموعظة، وهذا خلاف ما عليه أسفار العهدين – القديم والجديد –[4].

---

(1) انظر: حلمي، الإسلام والأديان (ص184).

(2) وردت هذه الكلمة في النص الأصلي (كثيرون)، وهي خطأ لغوي، والصواب: (كثيرين).

(3) انظر: علال، الكتاب المقدس ليس وحياً إلهياً (ص59– 61).

(4) انظر: طهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان (ص72).

11 – إن الأباطيل التي دعت إليها الأناجيل من الشرك بالله، المتمثلة في عقيدة التثليث[1]، التي هي الأساس الذي يقوم عليه دينهم، كافية لأن تنسف تلك الأناجيل نسفاً، فهناك النصوص الكثيرة الدالة على هذا المعتقد الفاسد – وسنقتصر في إثباتها دون التوسع في مضمون هذه العقيدة الباطلة؛ لأن هذا البحث ليس محله تناولها–، منها ما ورد: "**فقال لهم الملاك لا تخافوا. فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب. أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب**" [إنجيل لوقا: 10: 11]، وفي بداية إنجيل مرقس ورد: "**بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله**" [إنجيل مرقس: 1: 1]، وورد – أيضاً –: "**أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد**" [إنجيل يوحنا: 10: 29 – 30].

ومما سبق تبين إثبات تحريف أهل الكتاب لكتبهم المنزلة عليهم بالأدلة الربانية السماوية من خلال سورة آل عمران، وبالأدلة العقلية القاطعة من خلال كتبهم – التوراة والإنجيل –، ومن خلال شهادات الباحثين – من المسلمين ومن المنصفين من علماء أهل الكتاب أنفسهم –، لدرجة أن من أدباء الغرب المنصفين قد وصفوا الكتاب المقدس بأنه من أخطر الكتب الموجودة على وجه الأرض، ونادوا بأن يحفظ في خزانة مغلقة بالمفتاح، ويكون بعيداً عن متناول الأطفال[2]، وأن هذه الكتب محرفة لا يحتج بها ولا يميز بين الصحيح من المحرف، وهي ليست الكتب التي صدق بها القرآن الكريم، فتصديقه جاء للأصول الأولى غير المحرفة، وأن الدين المتبع هو الدين الإسلامي الذي تكفل الله بحفظه من التحريف والتبديل والتغيير، والذي لن يقبل الله سواه، فهو خير الأديان وأكملها، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

---

(1) يعتقد النصارى المعاصرون أن الله وإن كان واحداً إنما هو مؤلف من ثلاثة أقانيم، أي ثلاثة أشخاص، هي: (الآب، والابن، والروح القدس)، وهي ظواهر لحقيقة واحدة – أي واحد في ثلاثة وثلاثة في واحد –، فالله عندهم هو الآب وهو الخالق، والمسيح هو الابن، والمخلص، والفادي الذي جمع بين اللاهوت والناسوت، والروح القدس هو الرب المحيي، لاهوت محض، وهو المظهر المنبثق من الآب في رأي فريق منهم، أو منبثق من الآب والابن معاً على رأي فريق آخر. انظر: طهطاوي، الميزان في مقارنة الأديان (ص143).

(2) انظر: ديدات، هل الكتاب المقدس كلام الله؟ (ص63).

الفصل الثالث

الغيبيات في سورة آل عمران

المبحث الأول

الملائكة في سورة آل عمران

يعد الإيمان بالملائكة الركن الثاني من أركان الإيمان الستة، حيث بيَّن النبي ﷺ أركان الإيمان لجبريل عليه السلام عندما سأله عن الإيمان حيث قال: "**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**"(1).

فالإيمان بالملائكة أصل من أصول الدين الذي لا يتحقق إيمان عبد إلا به، ومن أنكر وجودهم أو جحد بهم كان كافراً، فقد قال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

قال صاحب كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها): "فمن أنكر وجود الملائكة فهو منكر لكلام الله ورسوله، كافر لا محالة؛ إذ لا مجال للتأويل، فالنصوص واضحة صريحة قاطعة، والعلم بوجود الملائكة مما هو معلوم من الدين بالضرورة عند جميع المسلمين"(2).

وقال الإمام ابن تيمية: "إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة والجن، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة"(3).

والملائكة من عالم المغيبات التي لم يطلعنا الله عليها، فحقيقتهم – أي: كنههم –، وكيفية خلقهم، وتفصيلات أحوالهم، ودقائق أمورهم هو أمر محجوب عنا استأثر الله سبحانه به، وهي خصيصة من خصائص العقائد الإسلامية، التي تتناول الحقائق الكونية والتعريف بها، ضمن حدود ما يحتاجه البشر وما تطيقه عقولهم، كبيان بعض صفاتهم وأعمالهم ووظائفهم التي أوكلهم الله بها، والمؤمن الحق هو الذي يقر ويسلم بكل ما أخبر به خالقه، مجملاً أو مفصلاً دون الخوض في الكيفية، فلا يزيد ولا ينقص عن ذلك أبداً، مثبتاً كل ما دل عليه الكتاب والسنة(4).

---

(1) سبق تخريجه: (ص9) من هذا البحث.

(2) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص265).

(3) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج24/5).

(4) انظر: ياسين: محمد، الإيمان (ص20).

المطلب الأول: تعريف الملائكة لغةً واصطلاحاً.

أولاً: تعريف الملائكة لغةً.

الملائكة مشتقة من لفظ الْأُلُوكِ وقيل: من الْمَأْلَكُ، وهي أصل الكلمة بتقديم الهمزة من الألوك، وهي: الرسالة وسميت بذلك لأنها تؤلك في الفم، ومنه قول العرب: "ألكني إلى فلان" بمعنى: تحمل رسالتي إليه، وألكته أليكه إلاكة: أي إذا أرسلته، ثم قلبت الهمزة وقدمت اللام فأصبحت مَلْأَك، ثم حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرة الاستعمال فصارت مَلَك، فالمَلْأَك هو المَلَك، ولما جُمع اللفظ رُدت الهمزة إليه فقالوا: ملائكة وملائك أيضاً، والملائكة لفظ يقع على الواحد والجمع[1].

ثانياً: تعريف الملائكة اصطلاحاً.

قال جمهور أهل الكلام من المسلمين إن الملائكة: أجسام نورانية لطيفة، لها القدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السماوات، موكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم ناشئة منهم لقول الله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5]، وقوله أيضاً: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: 4][2].

قال ابن حجر[3]: "أبطل من قال إنها الكواكب أو إنها الأنفس الخيرة التي فارقت أجسادها وغير ذلك من الأقوال التي لا يوجد في الأدلة السمعية شيء منها"[4].

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج132/1 – 133)، وابن منظور، لسان العرب (ج496/10)، والفيومي، المصباح المنير (ج18/1)، والفيروزآبادي، القاموس المحيط (ص952).

(2) انظر: ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص299)، والجرجاني، التعريفات (ص229)، وابن حجر، فتح الباري (ج306/6).

(3) هو أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، أصله من عسقلان (بفلسطين)، ومولده بالقاهرة سنة 773هـ، وهو من أئمة العلم والتاريخ، وكان عنده اهتمام شديد بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى العديد من البلدان لطلب العلم، واشتهر وذاع صيته فقصده الناس للأخذ عنه، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، وولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل، وله مؤلفات كثيرة جليلة، منها: كتاب (لسان الميزان)، و(الإصابة في تمييز أسماء الصحابة)، و(بلوغ المرام من أدلة الأحكام)، و(فتح الباري في شرح صحيح البخاري)، وتوفي بالقاهرة سنة 852هـ. الزركلي، الأعلام (ج178/1).

(4) ابن حجر، فتح الباري (ج306/6).

ثالثاً: معنى الإيمان بالملائكة.

هو الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودون حقيقة، مخلوقون من نور، وأنهم عباد مكرمون، سفرة بين الله تعالى ورسله عليهم السلام، وأنهم طاهرون ذاتاً وصفة وأفعالاً، لا يعصون الله ما أمرهم، قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها(1).

ومن خلال معنى الإيمان بالملائكة فإنه ينتظم في معان عديدة، منها(2):

1- الإيمان الجازم بوجودهم حقيقةً.

2- الإيمان بأصنافهم، وأوصافهم، وأعمالهم، ووظائفهم التي يقومون بها كما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية.

3- الإيمان بفضلهم وشرفهم ومكانتهم عند الله ﷻ، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم إياها، فهم عباد الله وخلقه، مأمورون مكلفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، ليس لهم شيء من خصائص الربوبية، كما أنهم ليسوا بآلهة كما دعتهم الأوائل – تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً –.

4- الاعتراف بأن منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وجواز أن يرسل بعضهم إلى بعض.

المطلب الثاني: وظائف الملائكة.

إن الملائكة من أعظم جنود الله، ولقد جعل الله لها وظائف ومهامَّ يقومون بها؛ لتدبير أمر العالم العلوي والسفلي بإذنه ومشيئته وأمره؛ ولهذا يضاف التدبير للملائكة وينسب إليهم تارة؛ لكونهم المباشرين للتدبير، والممتثلين لأمره كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5]، ويضاف التدبير – أيضاً – لله تعالى في آيات أخرى؛ لكونه سبحانه المدبر أمراً وإذناً ومشيئة، كما في قوله تعـــــالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: 3](3).

---

(1) انظر: حافظ الحكمي، معارج القبول (ج2/656)، والسلمان، مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية (ص17).

(2) انظر: الفوزان، الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص167)، والسيوطي، الحبائك في أخبار الملائك (ص9–10)، نقلاً عن البيهقي في كتابه (شعب الإيمان)، كما ووثق الأشقر في كتابه هذه المعاني من السيوطي الذي نقل عن البيهقي، عالم الملائكة الأبرار، ص8.

(3) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ج2/130).

قال الإمام ابن القيم: "فخلق الملائكة جميعاً لطاعته وجبلهم على عبادته، فمنهم ملائكة بقدرته للعرش حاملون، وطائفة منهم حول عرشه يسبحون، وآخرون بحمده يقدسون، واصطفى منهم رسلاً إلى رسله، وبعض مدبرون لأمره"[1].

والأعمال التي كلف الله بها الملائكة كثيرة ومتنوعة، فلكل منهم عمل موكل به، يقومون بما أمرهم الله به، فهم مجبولون على طاعة الله، وليس لديهم قدرة على عصيانه أبداً، فقد قال سبحانه: ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [التحريم: 6]، ولقد قيل: إن خلق الملائكة من نور كما هو ثابت عن النبي ﷺ في قوله: "**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**"[2] من شأنه الانقياد والطاعة[3].

ولقد أشارت سورة آل عمران إلى بعض الوظائف والمهام التي يقوم بها الملائكة، وهي كما يلي:

1 – الشهادة على وحدانية الله ﷻ.

يقول الله تعالى: ﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران: 18].

تتضمن هذه الآية الكريمة الشهادة على وحدانية الله ﷻ، فقد شهد سبحانه، وكفى به شهيداً، بتفرده بألوهيته لجميع الخلائق، وأن كل ما سواه عبيده وخلقه، ثم قرن بشهادته شهادة الملائكة وأولي العلم على وحدانيته، وفي هذا دلالة على عظم قدر وشرف الملائكة عند الله تعالى، ومكانة وخصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام[4].

قال الإمام ابن تيمية: "وقد تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إله إلا الله وأنه قائم بالقسط وأنه العزيز الحكيم؛ فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمنت عدله المنافي للظلم، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه ففيها إثبات التوحيد وإثبات العدل وإثبات الحكمة وإثبات القدرة"[5].

فشهادة الله تعالى تتضمن بيانه للعباد، ودلالته لهم، وتعريفهم بما شهد به لنفسه، أي بمعنى الإخبار والإعلام، وشهادة الملائكة وأولي العلم تعني الإقرار، فهذه الشهادة من أعظم الشهادات؛

---

(1) ابن القيم، اجتماع الجيوش الإسلامية (ج167/2).

(2) [مسلم: صحيح مسلم، الزهد والرقائق/أحاديث متفرقة، ص1243: رقم الحديث 2996].

(3) انظر: الخلوتي، روح البيان (ج83/1).

(4) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج24/2).

(5) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج180/14 – 181).

حيث إنه سبحانه شهد شهادة للتبيين والعلم بها، وإلا فلو شهد شهادة لم يتم الإعلام بها لم ينتفع بذلك ولم تقم الحجة على المكلفين بتلك الشهادة[1].

والشاهد هنا أن الملائكة من المخلوقات التي ارتضاها سبحانه من خلقه، وأن من أعمالهم طاعة الله تعالى في كل ما يأمر، وشهادتهم على كل ما يقول به سبحانه، ومن ضمن ذلك شهادة الملائكة على أعظم الشهادات ألا وهي وحدانية المولى ﷻ، واقترانهم بشهادة الله تعالى على نفسه إنما هو من باب عظم قدرهم عند الله، وأن الملائكة منزهون عن كل ما ينسبه إليهم أهل الشرك من عبادتهم وتعظيمهم، وأن الله وحده لا شريك له وحده المعبود دون سواه، فالملائكة عباد الله وخلقه، ومن أولى مهامهم الشهادة على وحدانية خالقهم.

2 – تبليغ الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام.

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: 44].

جاءت هذه الآية الكريمة عقب ما أخبر به سبحانه نبينا محمداً ﷺ من القصص والأنباء والأخبار، التي هي من الغيب الذي لم يطلع عليه ﷺ ولا قومه، بل لم يعلم به إلا القليل من أهل الكتاب، حيث أوحى الله تعالى به إليه؛ ليكون حجة على نبوته، وتحقيقاً لصدقه بأن هذا العلم إنما جاء به وحياً من عند الله ﷻ[2].

ومقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله ﷻ، أنه سبحانه: تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله تعالى، وتارة من وراء حجاب، كما كلم موسى عليه السلام، حيث سأل عليه السلام رؤية الله تعالى بعد التكليم فحجب عنها ولم يره، وتارة يرسل رسولاً كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام، حيث قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: 51][3].

فالملائكة هم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه في تبليغ الوحي والرسالة، ويختص بهذه المهمة الملك جبريل عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة البقرة: 97].

قال شارح الطحاوية: "ورؤساؤهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبرائيل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به

---

(1) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج420/1)، وابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج14/ 186).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج404/6).

(3) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج217/7).

حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصُّوْر الذي به حياة الخلق بعد مماتهم، فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر "[1].

وعن كيفية نزول جبريل عليه السلام بالوحي على النبي ﷺ فقد جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: "**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ[2] الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ[3] عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**"[4]، وقد ينزل بالوحي على الأنبياء غير جبريل عليه السلام – وهذا قليل –، أو جبريل عليه السلام ومعه غيره من الملائكة، كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه، فقال: "**هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ[5]، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ**"[6][7].

---

(1) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص300 – 301).

(2) الصلصلة هي: صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أطلقت الصلصلة على كل صوت له طنين، وقيل: هو صوت متدارك لا يدرك في أول وهلة، والصلصلة المذكورة في الحديث هي صوت الملك بالوحي. انظر: ابن حجر، فتح الباري (ج20/1).

(3) الفصم: أصله من القطع، والفصم القطع من غير إبانة، والمقصود من الفصم في الحديث أن الملك فارقه ليعود. انظر: ابن حجر، فتح الباري (ج21/1)، والنووي، شرح صحيح مسلم (ج88/15).

(4) [البخاري: صحيح البخاري، بدء الوحي/كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، 6/1: رقم الحديث 2].

(5) قال الإمام المباركفوري في شرح عبارة (ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم) من الحديث: "هذا يدل على أنه نزل بالفاتحة وخواتيم سورة البقرة ملك غير جبريل. وقيل: إن جبريل نزل قبل هذا الملك معلماً ومخبراً بنزول الملك فهو مشارك له في إنزالها. وقال القرطبي: إن جبريل نزل بها أولاً بمكة ثم أنزل هذا الملك ثانياً بثوابها"، وبالتالي ليس في الحديث ما ينافي من أن مهمة تبليغ الوحي مختصة بالملك جبريل عليه السلام، فالملك الذي أخبر عنه جبريل عليه السلام نزل للتبشير، وجبريل عليه السلام قد نزل بالوحي. انظر: المباركفوري: عبيد الله، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (ج196/7).

(6) [مسلم: صحيح مسلم، صلاة المسافرين وقصرها/فضل الفاتحة، وخواتيم سورة البقرة، والحث على قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة، ص313: رقم الحديث 806].

(7) انظر: الأشقر، عالم الملائكة الأبرار (ص46).

3 – **حمل البشريات وتبليغها للأنبياء عليهم السلام والصالحين.**

قال الإمام ابن تيمية: "فقد أخبر أنه ينزل الملائكة بالوحي على الأنبياء؛ لينذروا يوم القيامة، وذلك لا يمنع أن يكونوا نزلوا بالبشارة للمؤمنين والأمر والنهي بالشرائع"(1).

ولقد دلت السورة على حمل الملائكة البشريات للأنبياء عليهم السلام حيث بشرت نبي الله زكريا عليه السلام بمجيء ولد له اسمه يحيى عليه السلام، وأنه من الصالحين، ذو منزلة عالية في خلقه ودينه وعلمه، ونبي من أنبياء الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿**هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ**﴾ [آل عمران: 38 – 39].

ومن العلماء من أوَّل لفظ الملائكة على أن المقصود منه جبريل عليه السلام وأنه هو الذي حمل البشرى بنفسه لزكريا عليه السلام وليست جماعة الملائكة، وهذا جائز استعماله في لغة العرب أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، ونظيره في قوله تعالى: ﴿**ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ**﴾ [آل عمران: 173]، فالمراد بالناس الذين قالوا للمؤمنين إن الناس قد جمعوا لكم شخص يدعى نعيم ابن مسعود ومن وافقه فأذاع قوله، وأما الناس الذين جمعوا جموعهم لقتال المسلمين فهم أبو سفيان ابن حرب وأعوانه، وهناك من العلماء من حمل معنى الآيات ﴿ **فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ** ...﴾ على ظاهرها وذلك بأن الذي حمل البشرى جماعة من الملائكة دون الواحد، وجبريل عليه السلام واحد، وأن هذا القول هو الأرجح(2).

وحمل الملائكة للبشريات ليس مقصوراً على الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، بل إنها تبشر – أيضاً – المؤمنين الصالحين، ففي القرآن الكريم والسنة النبوية العديد من الأدلة التي تؤكد ذلك، منها: ما دلت عليه سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ **وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ**

---

(1) ابن تيمية، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج429/1).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج365/6)، والبغوي، معالم التنزيل (ج435/1)، محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج196/4).

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ... ﴾ [آل عمران: 45 – 49].

فتضمنت الآيات العديد من البشريات التي بشرت بها مريم عليها السلام بواسطة الملائكة في خطابها لها، التي تم ذكرها في مطلب عيسى عليه السلام من هذا البحث، وهي:

1 – اصطفاؤها وتطهيرها وتفضيلها على نساء العالمين، وما خصها به سبحانه من كرامات.

2 – تبشيرها بآية عظيمة، وهي إنجاب ابن لها من غير أب اسمه عيسى عليه السلام، حيث خلقه سبحانه بكلمة منه، هي: (كن) فكان.

3 – تبشيرها بأن ابنها سيكون وجيهاً ذا منزلة عالية في الدنيا والآخرة، ومن المقربين الصالحين عند الله عز وجل، ويكلم الناس في المهد صغيراً قبل أوان الكلام المتعارف عليه عند البشر، داعياً إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

4 – وتمام هذه البشارات العظيمة أن يصطفي الله تعالى ابنها عليه السلام للنبوة والرسالة إلى بني إسرائيل.

وأيضاً مما ورد في السنة النبوية من حمل الملائكة للبشريات لصالحي البشر ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "**إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ، مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ**"(1).

فالملائكة الكرام من وظائفها حمل البشريات وتبليغها للأنبياء عليهم السلام كالنبي زكريا عليه السلام، وكذلك للصالحين من البشر من غير الأنبياء، كما حصل مع الصديقة مريم عليها السلام.

4 – النزول لقتال أعداء الله في الحروب، وتأييد الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ

---

(1) [مسلم: صحيح مسلم، البر والصلة والآداب/فضل الحب في الله، ص1081: رقم الحديث 2567]، وتم تعديل أن إلى إن في بداية الحديث؛ لأن قواعد اللغة العربية تقتضي أن الكلام عندما يبدأ يكون بإن وليس أن.

﴿لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١٢٦ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾ [آل عمران: 123 – 127]، وقال تعالى – أيضاً –: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9][1].

---

(1) اختلفت آراء العلماء في الإمداد المذكور في سورة آل عمران بالثلاثة آلاف، والذي بالخمسة آلاف الواردة في الآيات (123 – 125) على قولين: **القول الأول:** أن هذا الإمداد يختص بيوم أحد، حيث كان الإمداد المذكور في الآيات معلقاً على شرط – إن صبر المسلمون واتقوا –، فلما فات الشرط بانهزام المسلمين يوم أحد فات الإمداد، وقالوا: القصة في سورة آل عمران إنما في سياق غزوة أحد، وإنما أدخل ذكر غزوة بدر اعتراضاً في أثنائها، تذكيراً بنعمته عليهم لما نصرهم ببدر وهم أذلة قلة في العدد، ثم عاد بعد ذلك إلى قصة أحد، ومن المعلوم أن إمداد غزوة بدر بألف من الملائكة كان من قول الله سبحانه وتعالى، حيث قال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]، أما وعد الإمداد بخمسة آلاف من الملائكة من قول الرسول ﷺ، فالقصة في سورة آل عمران هي قصة غزوة أحد، وغزوة بدر ذكرت فيها اعتراضاً، والقصة في سورة الأنفال قصة غزوة بدر، فالسياق في سورة آل عمران غير السياق في سورة الأنفال، **أما القول الثاني:** أن هذا الإمداد كان في يوم بدر، وأيضاً قد اختلف العلماء في تحقق الوعد بالمدد المذكور في سورة آل عمران الثلاثة آلاف والخمسة آلاف؛ لأنه معلق على شرط، فقال البعض: إن الله تعالى قد وعد المؤمنين يوم بدر أن يمدهم بالملائكة إن أتاهم العدو من فورهم، فلم يأتهم، ولم يمدوا بالمدد المذكور في الوعد، وقال آخرون: إن المؤمنين قد صبروا يوم بدر واتقوا فأمدهم بالمدد على ما وعدهم سبحانه، حيث إنهم استغاثوا بالله فأمدهم سبحانه بتمام ثلاثة آلاف ثم أمدهم بتمام خمسة آلاف، فكان هذا من باب التدريج ومتابعة الإمداد، لما له من حسن الوقع في النفوس، وأبلغ للسرور للمؤمنين من أن يأتي المدد لهم دفعة واحدة، وهذا بمنزلة تتابع الوحي ونزوله مرة بعد مرة. انظر: الطبري، جامع البيان (ج7/173 – 180)، وابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد (ج3/158 – 159)، وقال الإمام الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مدداً لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله. ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم. وقد يجوز أن يكون الله ﷻ أمدهم، على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك. ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف. وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به. ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله. غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة... فأما في يوم أحد، فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا. وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا، وينال منهم ما نيل منهم. فالصواب فيه من القول أن يقال كما قال تعالى ذكره". الطبري، جامع البيان (ج7/180 – 181)، بتصرف يسير، ولقد وفق الإمام الطبري في الجمع بين الآراء بطريقة لم يسبقه بها أحد، ومن المهم ذكره في سوق هذه الآراء والتفصيل في ذلك؛ كان لسبب الخلاف الموجود بين العلماء في آيات سورة آل عمران حول المدد المذكور فيها، خاصة أنها موضوع البحث، ولكن نزول الملائكة وتأييدهم للأنبياء عليهم السلام ومن تبعهم، التي هي إحدى وظائف الملائكة، قد أثبتته السورة بلا خلاف.

إن هذه الآيات وأمثالها صريحة بإثبات وظيفة من وظائف الملائكة التي كلفهم الله سبحانه بالقيام بها وهي: نزولهم في الحروب للقتال ونصر الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم، وهذا من عظائم الأمور التي لا يؤهل لها إلا الأنبياء والرسل عليهم السلام ومن تبعهم، فهم أحق الناس بمعونة الملائكة لهم بأمر من الله تعالى، كما بينت قضية إيمانية مهمة وهي أن تأييد الملائكة للمؤمنين في القتال معهم يتناسب طردياً مع صبرهم وقوة إيمانهم، فكلما زاد الصبر والثبات عند المؤمنين في قتالهم أعداء الله كلما زاد تأييد الملائكة لهم في المشاركة بالقتال معهم، حيث دل عليه قوله تعالى: ﴿ **بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ** ﴾ [آل عمران: 125].

ولقد حاربت الملائكة في غزوات عديدة، منها: غزوة بدر؛ حيث كان المسلمون قلة في العدد والعتاد، ولكنهم قد امتلكوا قلوباً مطمئنة واثقة بنصر الله، فأمدهم الله بمدد من الملائكة منزلين؛ لتثبيت المؤمنين وبشرى لهم، وللمحاربة معهم وقتال أعداء الدين، وتوجيههم إلى وسائل تحقيق النصر، علماً بأن النصر إنما هو من عند الله تعالى.

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر، فقد ورد في صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع الزرقي أنه قال: جاء جبريل إلى النبي، ﷺ فقال: "**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ، قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ المُسْلِمِينَ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، قَالَ: وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلاَئِكَةِ**"[1].

والحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ، مع أن جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه؛ وذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً ومساعدة على عادة مدد الجيوش، وحتى يكون رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله تعالى في عباده، والله سبحانه هو فاعل الجميع، وكل شيء بأمره وبإقداره[2].

---

(1) [البخاري: صحيح البخاري، المغازي/شهود الملائكة بدراً، 80/5: رقم الحديث 3992].

(2) انظر: السيوطي، الخصائص الكبرى (ج345/1)، نقلاً عن السبكي.

5 – لعن الكفار:

إن من أعمال الملائكة التي كلفهم الله بها لعن الكفار، واللعن هو: الإبعاد، والإقصاء، والطرد من الخير، واللعن من الله يكون بمعنى: الطرد والإبعاد من رحمته واستحقاق عذابه، واللعن من الخلق يكون بمعنى: السب والدعاء عليهم بسخط الله وإقصائهم من رحمته[1].

ولقد دلت سورة آل عمران على لعن الملائكة للكفار؛ حيث قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 86 – 89].

فالمرتدون الذين كفروا بعد إيمانهم وجحدوا النبي ﷺ بعد إقامة الحجج والدلائل عليهم، وظلوا على حالة الكفر ولم يتوبوا، استحقوا الحرمان من هداية المولى ﷻ لهم، كما أن عليهم اللعنة من الله والملائكة وجميع الناس، ولعنة مخلوقاته تحل عليهم بقولهم – لعنة الله عليهم – التي تفيد الدعاء بما يسوؤهم من العقاب بسخط الله لهم، وإقصائهم من رحمته وعطفه، حيث تستقر هذه اللعنة عليهم ويخلدون فيها على وجه التأبيد؛ جزاء لهم على كفرهم، ولا يؤخر عنهم العذاب ولا ينقص شيئاً في حال من الأحوال[2].

فإن الكفر وعدم التوبة تستوجب لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فلا ينفعهم معها شفاعة ولا وسيلة، والسر في ذكر لعنة الملائكة والناس للكفار في هذه الآيات وأمثالها، مع أن لعنة الله وحده كافية في إذلالهم وخزيهم والنكال بهم، هو بيان أن جميع من يعلم حالهم من أهل العالم العلوي والسفلي يراهم محلاً للعنة الله وسخطه، فلا يرجى رأفة رائف بهم، ولا شفاعة شافع لهم؛ لأن اللعنة التي صبت عليهم كانت باستحقاق عند كل من يعقل ويعلم، ومن استحق اللعنة والعذاب والحرمان من رحمة الرؤوف الرحيم، فماذا يرجو من سواه؟![3]

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج252/5)، وابن منظور، لسان العرب (ج387/13)، والجرجاني، التعريفات (ص192).

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج576/6 – 577)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج190/2).

(3) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج43/2).

كانت هذه بعض المهام والوظائف التي كلفت بها الملائكة بأمر من بارئها، التي وردت في سورة آل عمران ودلت عليها، فمهام الملائكة ووظائفهم أكثر من أن تحصى وتحصر، فالله وحده أعلم بمخلوقاته وما أقدرها من أعمال ومهام للقيام بها بأمر منه سبحانه.

ولقد قال شارح الطحاوية: "دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكَّل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم تخلّقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة. فالملائكة أعظم جنود الله... ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله للواحد القهار، وهم ينفذون أمره"[1].

المطلب الثالث: نفي عبادة الملائكة.

إن أفضل ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله، ولكنهم عباد مكرمون، فهم المتصفون بكل صفات العبودية، القائمون على طاعة الله وعبادته وتنفيذ أوامره التي أقدرهم عليها، لا يستطيعون أن يتجاوزوا ما أمروا به، ولا أن يخالفوا أو يعترضوا على أمر من أوامره، بل هم عاملون بأمره، خائفون وجلون من بارئهم، لا يفعلون إلا ما يؤمرون به، مسارعون مجيبون لأمر الله وتعاليمه، وهذا من تمام عبودية الملائكة لله ﷻ [2].

ولقد أنكر الإمام ابن تيمية مقالة من يجعل تحقيق التوحيد تنقصاً بالملائكة والأنبياء وغيرهم، فكل ما يدعى من دون الله فهو الشرك بعينه، حيث قال: "ولم يكن هذا القول ونحوه تنقصاً بالملائكة ولا سباً لهم ولا معاداة لهم بل الملائكة والأنبياء يعادون من أشرك بهم ويوالون أهل التوحيد الذين ينزلونهم منازلهم، وهم برآء ممن يغلون فيهم ويشرك بهم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ الآية [سورة سبأ: 40 – 41]"[3].

---

(1) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص299 – 300)، بتصرف يسير.

(2) انظر: الأشقر، عالم الملائكة الأبرار (ص36).

(3) ابن تيمية، الإخنائية (ص220 – 221).

وسورة آل عمران من إحدى السور القرآنية التي نفت عبادة الملائكة، فقد تضمنت دليلاً يشير إلى بطلان عبادتهم بأي شكل كان؛ لأن ذلك يؤدي إلى الكفر – والعياذ بالله –، حيث قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 79 – 80].

فإن العبادة الصحيحة لا تنبغي أن تكون إلا لله وحده دون سواه، بحيث لا تتحقق إلا إذا أخلصت له من غير أن تشوبها شائبة، فمن دعا إلى عبادة نفسه فقد دعا إلى أن يكون معبوداً من دون الله، وإن لم ينه عن عبادة الله، بل وإن أمرهم بعبادة الله، فهذا إنما هو الكفر بعينه، وحاشا لأنبياء الله وملائكته أن ينسبوا لأنفسهم عبادة، أو يدعوا إليها من دون الله، فالملائكة مجبولون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان، فهم مأمورون بعبادة الله وطاعته، يخافون ربهم، حيث قال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: 50]، والخوف من الله ﷻ من أعلى أنواع العبودية[1].

فلا يأمر بعبادة أحد غير الله، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، فحاشاهم أن يفعلوا ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، وهم منزهون مبرؤون من ذلك، إنما يفردون مولاهم ﷻ بالعبادة، بتخصيصه بالعبودية وحده دون غيره، ينادون بالإيمان، ويفعلون ما يؤمررون، يبلغون رسالة ربهم، رسالة التوحيد الخالص الذي جوهره عبادة الله وحده لا شريك له[2].

وعليه فإن كل من عبد الملائكة وغيرهم، وخصهم بأي نوع من أنواع العبادة من دون الله، كالتوجه إليهم بالدعاء وطلب الحاجات والتوسل بهم، واتخاذهم واسطة إلى الله، فإنهم عابدون لغير الله، قد حكم الله عليهم بالكفر، وجزاؤهم جهنم وبئس المصير.

فالملائكة تحب ما أحبه الله من عبادته وحده وإخلاص الدين له، وتوالي من كان كذلك، وتعادي كل من أشرك حتى لو كان هذا المشرك معظماً لها مغالياً فيها، فهناك من يتخذهم نداً لله فيحبونهم كحب الله، كما يتخذونهم شفعاء يستشفعون بهم، ويوجهون إليهم عبادات، ظانين بأنهم يقربونهم إلى الله، وما ذلك كله إلا ظنون المشركين، فقد أمرنا سبحانه أن لا نعبد إلا إياه وحده ولا

---

(1) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج3/285)، والأشقر، عالم الملائكة الأبرار (ص35).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/67).

نشرك به شيئاً، ولا نتخذ الملائكة ولا النبيين أو غيرهم أرباباً من دونه، حيث فرق بين حقه سبحانه الذي يختص به ولا يشاركه فيه أحد من خلقه، وبين الحق الذي أوجبه علينا لملائكته وأنبيائه من الإيمان بهم وبما جاؤوا، واتباعهم موالاتهم، ومعاداة من خالفهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها[1].

ولكن الملائكة عباد مكرمون يستحقون المحبة، والموالاة، والتكريم، والثناء من غير إفراط ولا تفريط، فالغلو بهم والزيادة في تعظيمهم – على ما يستحقونه – هو الشرك بعينه، كما أن التقصير عما يجب لهم من الحق يؤدي إلى الكفر – والعياذ بالله –، والصراط المستقيم هو ما أمرنا به المولى ﷻ في حقهم وما جاء به رسله وأنبياؤه[2].

وأما عن سورة آل عمران التي بينت نفي عبادة الملائكة في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 79–80]، فقد قال الإمام ابن تيمية: "فبين سبحانه: أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر. فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات: فهو كافر بإجماع المسلمين"[3].

وكل من له عقل متدبر وقلب خاشع فإنه يستحيل أن يتخبط في مثل هذا الضلال، أو أن يقع في مثل هذه البدعة، كيف لا؟ ولو أنه آمن بالله وبما أنزل حق الإيمان لم يعتقد في هذا المعتقد الباطل ونحوه من المعتقدات الفاسدة شرعاً وعقلاً، فبيان حال الملائكة الذين هم أقوى وأعظم ممن عبد من دون الله، ومما يعلم من حالهم مع الله تعالى من عبادتهم له، وطاعته في كل ما يأمر، وعدم عصيانه في أمر أبداً، بل وشدة خشيتهم من الله وهيبتهم منه، وتسبيحهم له بالليل والنهار ولا يفترون، وأصناف من العبادات والطاعات التي يقومون بها، التي حاصلها يرجع إلى الطاعة والعبودية المطلقة لله ﷻ، أمر يستوقف كل ذي عقل كيف يدعوهم ويعبدهم أحد من دون

---

(1) ابن تيمية، الإخنائية (ص227 – 228).

(2) المصدر السابق، ص485.

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج124/1).

الله؟! فلقد أعطاهم الله من القوة العظيمة التي لا يعلمها إلا هو، ومع هذا فقد نفى عنهم الشفاعة بغير إذنه، فقال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: 26]، ولقد أخبرنا سبحانه أنهم لا يملكون أن يكشفوا الضر عمن دعاهم ولا تحويله، فقال: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء: 56]، فالله تعالى ينهى عن دعائهم، والتوسل والاستغاثة بهم، أو التوجه إليهم بأي عبادة وغيرها، مما يؤدي بالمرء إلى الشرك، وبهذا تبطل دعوى من يدعي عبادة الملائكة رغم أنهم أحياء ناطقون مقربون عند الله تعالى، فالملائكة مع عظم خلقها وخصائصها ليس لديها أدنى قدر من خصائص الربوبية والألوهية، ولا يستحقون العبادة من دون الله سبحانه، بل ذلك لله وحده لا شريك له، فهي مخلوقات عابدة لله تعالى، ومن يكون عابداً لله يستحيل أن يكون إلهاً معبوداً من دون الله. والسؤال هنا كيف بعد ذلك يدعوهم أحد من دون الله؟! وإذا كانت الملائكة لا يدعون مع الله تعالى لا استقلالاً، ولا وساطة بالشفاعة، فدعاء غيرهم ممن لا يقدر من الأموات والأصنام الذين لا يستطيعون سمعاً، ولا يملكون ضراً ولا نفعاً أولى بالبطلان، وفي هذا رد – أيضاً – على جميع فرق المشركين الذين يدعون مع الله من لا يداني الملائكة ولا يماثلهم في صفة من صفاتهم[1].

ونخلص إلى أن العقيدة الإسلامية تقوم أركانها على أساس وحدانية الله ﷻ في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وتؤكد على تفرده وحده بالعبادة دون سواه، فلا يشاركه في حقه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وأن من ادعى لغير الله عبادة، أو اتخذ من دونه رباً، كما ادعى بعض رؤوس الجهل والكفر عبادة الملائكة، وغلوا فيهم حتى جعلوهم لله نداً – والعياذ بالله – فهو كافر عند الله، وله العذاب الأليم والهلاك في الدنيا والآخرة.

(1) انظر: ابن عبد الوهاب، تيسير العزيز الحميد (ص218، 226 – 227).

المبحث الثاني

الشيطان في سورة آل عمران

المطلب الأول: تعريف الشيطان لغةً واصطلاحاً.

أولاً: تعريف الشيطان لغةً.

الشيطان: اسم لكل عات متمرد من الجن والإنس والحيوان، وقد قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ ﴾[الأنعام: 112]، والمقصود بالشيطان في هذا الموضوع المتمردون من عالم الجن[1].

ولقد اختلف أهل اللغة في أصل كلمة الشيطان على قولين[2]:

أحدهما: أن النون أصلية في هذه الكلمة وقد قال به الأكثر ورجحه[3]، فكلمة الشيطان مأخوذة من الشطن بمعنى: البعد عن الخير والحق، ومنه شطنت الدار تشطن شطوناً: أي بعدت، وبئر شطون أي: بعيدة القعر، والشطن: مصدر شَطَنَه يَشْطُنُه شَطْناً أي: خالفه عن وجهه ونيته، والشيطان: فَيْعال من شطن إذا بعد، فسمي الشيطان بذلك لبعده عن الخير والحق وتمرده، والشطن: هو الحبل الطويل، وسمي الشيطان بذلك لأنه طال في الشر.

والثاني: أن النون في كلمة الشيطان زائدة، وهي مأخوذة من شاط يشيط أي: هلك، أو احترق، أو ذهب، أو بطل، فإذا كان من شاط يشيط بمعنى احترق: فهو على حقيقته، وإن كان من الشَّيْط بمعنى الذهاب والبطلان والهلاك: فإنه مجاز، ومن المجاز: شاط دمه أي: ذهب هدراً وبطل، وكل ما ذهب فقد شاط، وأيضاً: شاطت القدر إذا لصق بأسفلها شيء محترق، واستشاط فلان عليه: إذا التهب غضباً، والشيطان فعلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق.

وبالرغم من اختلاف أهل اللغة في اشتقاق لفظة الشيطان، وأن النون في الكلمة أصلية أم زائدة؟ إلا أن أكثرهم يرجح القول الأول، ومنهم من صحح المعنيين مع قولهم بأن الأول أصح، وفي هذا الصدد يقول الإمام ابن كثير: "والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد

---

(1) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص454).

(2) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج183/3 – 185)، وابن منظور، لسان العرب (ج237/13 – 239)، والزبيدي، تاج العروس (ج430/19 – 433)، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (ج475/2).

(3) للتوسع في بعض أدلة الترجيح من أن النون أصلية في كلمة الشيطان وأن أكثرهم قد قال بذلك، انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج185/3)، وابن منظور، لسان العرب (ج238/13 – 239)، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (ج475/2)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج115/1).

بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل: مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول: كلاهما صحيح في المعنى، ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب" [1].

ونخلص مما سبق أنه إذا جعلت نون الشيطان أصلية كان ذلك من (شطن) أي: البعد عن الخير والحق، أو من الحبل الطويل أي: كأنه طال في الشر، وهذا المعنى دال على البعد والعوج، وإن جعلت النون زائدة كان من (شيط) الذي يرجع معناه إلى الهلاك والبطلان، وكل هذه المعاني قد دل عليها الشرع في مفهوم الشيطان؛ لأن الشيطان متحقق فيه كل هذه المعاني والصفات، فهو الأكثر بعداً عن الحق، والأقرب إلى الباطل، فكان الهلاك مصيره، والاحتراق والخلود في النار عقابه.

ثانياً: تعريف الشيطان اصطلاحاً.

لقد ورد لفظ الشيطان بصيغة الإفراد ثلاث مرات في سورة آل عمران، وإن كلمة الشيطان في الاصطلاح مستنبطة من معناها اللغوي، حيث عرفها أهل الاصطلاح مقيدين إياها ببعض الإضافات أو ما قصد به الشرع من مفهومه لها، ومن تلك التعريفات أن الشيطنة هي: "مرتبة كلية عامة لمظاهر الاسم المضل"[2]، والشيطان هو: "الشديد البعد عن محل الخير"[3]، وأنه: "الكافر من الجن"[4]، كما تطلق كلمة الشيطان ويراد بها معنيان[5]:

معنى عام:

ويراد به كل مخلوق عاتٍ متمردٍ من الإنس والجن والدواب[6]، ويكون من جانب الإنس والجن التمرد والعصيان لأوامر الله، والعمل على الغي والفساد في الأرض بمختلف أشكاله وصوره، ويكون من جانب الدواب الخبث والأذى الذي تميزت به عن جنسها.

معنى خاص:

وهو أن لفظ الشيطان يراد به إبليس اللعين وذريته الكافرة بأوامر الله وتعاليمه، فالشياطين هم: المتمردون من عالم الجن، والذين لا خير فيهم البتة[7]، والذين طبعوا بفطرتهم على الوسوسة

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج115/1).

(2) الجرجاني، التعريفات (ص129).

(3) المناوي: عبد الرؤوف، التوقيف على مهمات التعاريف (ص210).

(4) قلعجي وقنيبي، معجم لغة الفقهاء (ص268).

(5) انظر: عبيدات، عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة (ص468).

(6) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص454)، والكفوي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية (ص523).

(7) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص127)، والسيد سابق، العقائد الإسلامية (ص120).

والإغــواء، فقــال تعــالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 175].

المطلب الثاني: أعمـال الشيطان.

لا شك أن الشيطان حريص أشد الحرص على إضلال بني آدم وإيقاعهم في حبائله وشراكه، فهو يعمل جاهداً للصدّ عن سبيل الله وإغوائهم، ولا يترك سبيلاً من سبل الخير يسلكه العباد إلا وقعد فيه؛ ليفسد عليهم دينهم بشتى الأساليب والأعمال الشيطانية ابتداءً، وينتهي بهدفه الوحيد الذي يسعى إلى تحقيقه وهو: إلقاء الإنسان في نار جهنم، وتحريم الجنة عليه، ولكي يستدرج الإنسان في مصائده اتبع أعمالاً شتى لإيقاعه وإيذائه، ولقد تضمنت سورة آل عمران بعض هذه الأعمال الخبيثة، علماً بأن أعمال هذا اللعين كثيرة ومتنوعة، كالإفساد في الأرض، والتبرؤ من أوليائه بعد كفرهم، والأمر بالسوء والفحشاء والقول على الله بغير علم، وغيرها، ولكن سيتم الحديث عن الأعمال الواردة في السورة فقط، وهي:

أولاً: التزيين.

يدل التزيين في اللغة على حسن الشيء وتحسينه، والزين نقيض الشَّيْن، ويقال زينت الشيء تزييناً، وأزينت الأرض وازدانت إذا حسنها عشبها[1]، وهو تصيير الشيء زيناً أي حسناً، وتحسين الشيء المحتاج إلى التحسين بإزالة ما يعتريه من القبح أو التشويه[2].

ويعتبر التزيين من أخطر الأعمال الشيطانية وأنجحها، التي تجر المرء وتستدرجه في شباك الشيطان اللعين، وذلك بتحسين الشيء وجعله في مظهر حسن، فيزين له الباطل ويحسنه في نظره حتى يزله عن الحق، وإذا ما استسلم الإنسان للشيطان وإغوائه، وانجرف وراء أهوائه وشهواته، ونسي تعاليم الله ومنهجه، فإنه سيقع حتماً في المعصية تلو المعصية؛ لأنه وقع في حبائل الشيطان من تزيينها له، واستحسانها في نفسه، فالشيطان يحاول دائماً بوسوسته، وتزيينه، وإغوائه أن يقلب الأمور الشائنة إلى الحسنة في نفس الإنسان.

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج41/3).

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج179/3).

وللتزيين معان، هي:

الأول: إيجاد الشيء حسناً مزيناً في نفس الأمر كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الصافات: 6]، والثاني: جعله مزيناً من غير إيجاد كتزيين الماشطة العروس، والثالث: جعله محبوباً للنفس مشتهى للطبع وإن لم يكن في نفسه كذلك، وهذا يكون إما بمعنى خلق الميل في النفس والطبع، وإما بمعنى التزويق والترويج بالقول ونحوه كالوسوسة والإغواء، وعلى هذا يبنى أمر إسناد التزيين، فقد جاء إسناده في القرآن الكريم تارة مسنداً إلى الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 43]، وتارة مسنداً إلى الله تعالى، كما في قوله سبحانه:: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام: 108]، وتارة مسنداً إلى البشر كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: 137]، فإن كان بالمعنى الأول فيكون إسناده إلى الله تعالى حقيقة، وأيضاً إذا كان بالمعنى الثالث، بناءً على المراد منه أولاً، وإن كان بالمعنى الثاني أو الثالث، بناءً على المراد منه ثانياً فإسناده إلى الشيطان أو البشر حقيقة، ولا يمكن إسناد ما يكون بالوسوسة والإغواء إلى الله تعالى[1].

وتزيين الشيطان للإنسان يقوم على أمرين غاية في الخطورة، هما: الأول: تحسين الباطل وتزيينه، والثاني: التنفير من الحق وتشنيعه، بحيث يقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً.

يقول الإمام ابن القيم في هذا الصدد: "ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء، وينفر من الفعل الذى هو أنفع الأشياء له، حتى يخيل له أنه يضره، فلا إله إلا الله. كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟ وكم جلا الباطل وأبرزه فى صورة مستحسنة، وشنع الحق وأخرجه فى صورة مستهجنة؟... وسلك بهم فى سبل الضلال كل مسلك وألقاهم من المهالك فى مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصنام... ووعدهم الفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشرك فى صورة التعظيم، والكفر بصفات

---

(1) انظر: الألوسي، روح المعاني (ج143/4).

الرب تعالى وعلوه على عرشه وتكلمه بكتبه فى قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم"(1).

ولقد تحدثت سورة آل عمران عن تزيين الشهوات للناس بحبها حباً جماً، والتعلق الشديد بها، فقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾[آل عمران: 14 – 15]، فهذه الآيات هي عظة للمسلمين بعدم الاغترار بحال الكفار الذين أعجبتهم زينة الحياة الدنيا مفرطين في حبها حتى ألهتهم عن الآخرة، فالتحذير من الغايات يستدعي التحذير من البدايات، حيث أطلقت الشهوات هنا على الأشياء التي تشتهيها الأنفس على وجه المبالغة في قوة الوصف، وتعليق التزيين بالحب واقترانه به جرى على خلاف مقتضى الظاهر؛ لأن المزين للناس هو الشهوات لا حبها، فإذا زينت لهم أحبوها وتعلقوا بها، فإن الحب ينشأ عن الاستحسان، وليس الحب بمزين(2).

ولقد تعددت آراء المفسرين في إسناد التزيين الوارد في آية آل عمران الرابعة عشرة على قولين(3):

الأول: منهم من أسند التزيين إلى الله تعالى، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب ﷺ.

الثاني: ومنهم من أسنده إلى الشيطان، وهو ظاهر قول الحسن البصري.

ومن خلال النظر في القولين يتبين أنه لا خلاف بينهما؛ لأن كلاً منهما قصد تفسيره للإسناد بمعني لا يعارض كل منهما الآخر، فالميل إلى متاع الحياة الدنيا وما فيها من شهوات أمر جبلّي خلقه الله في الإنسان، فتزيينها من قبل خالقها، إذا ما كان في إطار المباحات، وهذا ما قصده عمر بن الخطاب ﷺ، أما إذا كانت داخلة في المحرمات والمحظورات فتزيينها يكون من قبل الشيطان، بمعنى التسويل والترغيب بالوسوسة للشهوات الذميمة والفساد، وهذا ما قصده الحسن

---

(1) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ج110/1 – 111).

(2) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج178/3 – 179).

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج28/4)، محمد رشيد رضا، المنار (196/3)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (ج180/3).

البصري، ولكن ينبغي الإشارة إلى أمر مهم هو أنه إذا كان إسناد التزيين إلى الشيطان يكون بوسوسته وإغوائه، ولكن المزين هو الله حقيقة بخلقه لا بدعوته إليه، فلا خالق إلا الله، ولكن لا ينسب إليه سبحانه وسوسة أو إغواء، فينسب الخلق لله تعالى وينسب الإغواء والوسوسة للشيطان(1).

قال ابن عطية: "وإذا قيل زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة لانتفاع وإنشاء الجبلة عن الميل إلى هذه الأشياء، وإذا قيل زين الشيطان فمعناه بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتمل هذين النوعين من التزيين، ولا يختلف مع هذا النظر"(2).

وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب (دراسات قرآنية): "وهذا هو المجال الذي يعمل فيه الشيطان: تزيين هذه الشهوات بقدر زائد عن الحد وتخذيل الضوابط عن العمل وتخديرها، حتى تخفف قبضتها فيتسنى للشهوات أن تنطلق بلا ضوابط، ومن هنا يأتي الفعل "زيّن" مبنياً للمجهول ليتسع للمعنيين معاً في ذات الوقت! ففي صورتها الطبيعية الملتزمة بحدود الله، هي مزينة من عند الله.. وفي صورتها الفاحشة، غير الملتزمة بحدود الله، هي مزينة من عند الشيطان، والتلميح هنا إلى المعنى الثاني؛ لأنها هنا تصد عن الإيمان"(3).

وإن سبل الشيطان للتزيين كثيرة ومتنوعة، فهو يزين للإنسان الحلال على أنه حرام، والحرام على أنه حلال، كما يتضح في قوله تعالى: ﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 93 – 94]، فقد كان اليهود يحرمون على أنفسهم أشياء، ويدعون أنها حرمت عليهم بأمر من الله في التوراة، فافتروا على الله الكذب، واتبعوا ما تملي عليهم أهواؤهم وشياطينهم(4).

كما يعمل الشيطان جاهداً على إيقاع العباد في الشرك والكفر، ودعوتهم إليه بتحسينه وتزيينه في قلوبهم، وهذا العمل الباطل لا يفلح إلا مع أولياء الشيطان، الذين آثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، بمسارعتهم إلى الكفر، واستبدالهم الكفر بالإيمان، وهذا ما يفعله المنافقون في كل زمان ومكان، فكان عاقبتهم نار جهنم وعذابها العظيم، فبئس التابع والمتبوع، فقال المولى ﷻ:

---

(1) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج180/3).

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز (ج408/1).

(3) محمد قطب، دراسات قرآنية (ص327 – 328)، بتصرف يسير.

(4) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج472/1).

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 176 – 177].

فمغفرته سبحانه على عباده إنما هي فضل ورحمة، وسبيل نجاة من الشيطان وكيده، فقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: 135]، فمهما طال تزيين الشيطان في تحسينه الكفر والمعاصي، والدعوة لكل ما يغضب الرحمن، فإن هذا اللعين حتماً سيبوء خائباً مهزوماً، ما دام هناك عباد مؤمنون يستغفرون الله تائبين إليه، غير يائسين من رحمة الله وفضله، كيف لا؟ وخالقهم سيغفر لهم إذا ما استغفروه.

ثانياً: التخويف.

إن لفظ التخويف في اللغة يدل على الذعر والفزع، ويقال خاوفني فلان فخفته بمعنى كنت أشد خوفاً منه[1]، والتخويف هو إحدى وسائل الشيطان في إسقاط العباد وإضلالهم؛ ولذلك فإنه يستعمل في سبيل هزيمتهم بأساليب متعددة، ومن تلك الأساليب تخويفهم من الموت خاصة عند ملاقاة أوليائه الكفار والقتال معهم.

والشيطان في عمله الخبيث يقابله صنفان من الناس: صنف يؤثر الحياة الدنيا والعيش فيها، ويهاب الموت وذكره، فيتهرب من جهاد أعداء الله ويتقاعس، وهؤلاء هم ضعاف الإيمان الذين نسوا الآخرة وما أعده الله للمؤمنين والمجاهدين في سبيله، ومثل هؤلاء فإن الشيطان يقدر على تخويفهم، والصنف الآخر: يهبون من أجل نصرة دين الله مضحين بأرواحهم الغالية، لا يخافون الموت مهما وسوس لهم الشيطان؛ لأنهم يؤثرون الآخرة على الدنيا الفانية، وهؤلاء هم أقوياء الإيمان، فقضية الموت محسومة عندهم وذلك من خلال إيمانهم العميق بعقيدة القضاء والقدر اعتقاداً وقولاً وعملاً، المتمثلة في قول الله:ﷻ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: 145].

هذان الصنفان ذكرا في مواضع عديدة من القرآن الكريم، ومن ذلك ما ورد في سياق السورة في الحديث عن غزوة أحد وما كان من المسلمين، وتحمل – أيضاً – المعاني العظيمة للمؤمنين من الدروس والعبر، كما تتوعد كل منافق أثبطه الشيطان عن الجهاد وأخافه من الموت، وتعظ كل

---

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج230/2).

من وقع في حبائل الشيطان بتخاذله في مواجهة العدو بأن يتوجه إلى بارئه بالإنابة والتوبة طمعاً في عفو الله عنه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 152].

ويبين سبحانه أن الشيطان يوجه جهوداً عظيمة لاستزلال المجاهدين في ساحات القتال، حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 155]، واستزلال الشيطان معناه: أنه طلب منهم أن يزلوا، أي: جعلهم زالين، فذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه، واستزل من (الزلة)، والزلة من الخطيئة، والمراد بالزلل: الانهزام، وإطلاق الزلل على الانهزام معلوم مشهور، فبينت الآية أن سبب الهزيمة الخفي الذي لحق بالمؤمنين في غزوة أحد إنما هو استزلال الشيطان لهم، علماً أن ذلك كله بقدر الله، وإن تمكن الشيطان من استزلالهم كان بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب، فعاقبهم الله عليها بهذا الاستزلال، أو سبب تولي فئة من المؤمنين إنما سببه تذكير الشيطان لهم بذنوب متقدمة، فكرهوا الموت قبل التوبة منها والإقلاع عنها، ثم أخبر تعالى بعفوه عنهم لإنابتهم إليه[(1)].

ومن الأدلة التي تضمنتها سورة آل عمران على التخويف، تخويف المؤمنين من أولياءه وأعوانه، فقال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 172 – 175]، والمعنى عند جمهور المفسرين: يخوفكم بأوليائه، فيعظم بأسهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج327/7)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج530/1)، وابن عاشور، التحرير والتنوير (ج139/4 – 140).

خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم[1]، وفي ذلك دلالات لا بد من الإشارة إليها، فالآية – وهي الآية الخامسة والسبعون بعد المائة – دلت على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوِّفين ويجعل ناساً خائفين منهم، كما دلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف غير الله، فخوف الله قد أمر به، أما خوف أولياء الشيطان فقد نهي عنه، فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته سبحانه وحده، فينبغي لأولياء الله عدم مخافة أولياء الشيطان وجنوده خاصة أنه سبحانه قرن ذلك وجعله من علامة الإيمان [2].

وللإمام ابن تيمية عبارات قيمة ترد على كل من يبرر لنفسه خوف بعض الناس، كخوف العتاة والظالمين وحكمه، حيث قال في هذا الصدد: "بعض الناس يقول: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك فهذا كلام ساقط لا يجوز؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً فإن من لا يَخاف الله أذل من أن يُخاف، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان فالخوف منه قد نهى الله عنه وإذا قيل قد يؤذيني، قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله؛ وإنما يسلط على العبد بذنوبه، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر ولم يسلطه عليك فإنه قال:﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[الطلاق: 3] وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه. فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك"[3].

وبهذا يتبين أن المؤمنين حقاً هم الذين لا يخشون إلا الله في كل أوقاتهم وأحوالهم، وأنهم يخافونه وحده دون سواه، فنجدهم في حربهم لأعداء الله متوكلين عليه، واثقين بنصر الله لهم، مؤمنين بالقدر خيره وشره، لا يخوفهم حال الكفار مهما امتلكوا من عدة وعتاد، ومثل هذه الأحوال الإيمانية لن يفلح الشيطان وأولياؤه بتحقيق أهدافهم، وخير قدوة لنا في مخافة الله وحده دون سواه صحابة رسول الله ﷺ الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[آل عمران: 173]، فمن يفرد الله بالمخافة وحده فإن الله كافيه، ومنزل آياته وعظائم قدرته لينصر من والاه ويهزم من عاداه، فقد قال تعالى: ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ... ﴾
[آل عمران: 151 – 152]، وقال صاحب كتاب (مفاتيح الغيب): "هذه الواقعة تدل دلالة ظاهرة

---

(1) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ج110/1)، نقلاً عن قتادة.

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج57/1).

(3) المصدر السابق (ج57/1 – 58).

علـى أن الكـل بقضـاء الله وقـدره؛ وذلـك لأن المسـلمين كـانوا قـد انـهزمـوا مـن المشـركين يـوم أحـد، والعـادة جاريـة بأنـه إذا انهـزم أحـد الخصـمين عـن الآخـر فإنـه يحصـل فـي قلـب الغالـب قـوة وشـدة استيلاء، وفـي قلـب المغلـوب انكسـار وضـعف، ثـم إنـه سـبحانه قلـب القضـية هاهنـا، فـأودع قلـوب الغالبين، وهم المشركون، الخوف والرعب، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصـلابة، وذلك يدل على أن الدواعي والصوارف من الله تعالى، وأنها متى حدثت في القلوب وقعت الأفعال على وفقها"[1].

ونخلص مما سبق أن الشيطان يسعى جاهداً لإيقاع بني آدم في شراكه وحبائله، فهو يقوم بأعمال لا حصر لها، ومن الأعمال الشيطانية الواردة في سورة آل عمران أنه يعمل على زعزعة عقيدة المؤمنين بما يلقيه فيهم من وساوس ومخاوف وشكوك، فيخوفهم بصنوف من المخاوف، أهمها تخويفهم من الموت ولقاء الله، كما ويضعف نفوسهم ببث الخوف في قلوب المؤمنين من أولياءه وجنوده، ومن أعماله – أيضاً – أنه يزين للناس الباطل ويحسنه، وينفرهم من الحق ويشنعه، فيقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً؛ ليوقعهم في المعاصي والذنوب، والشرك والكفر، فالأعمال الشيطانية تصل لأبعد ما يتخيل المرء، ولا يسلم منه إلا من شاء الله، والسبيل الوحيد للنجاة منه ومن أفاعيله إفراد الله بالعبودية والمخافة وحده دون سواه، فكلما قوي الإيمان لم يخف العبد الشيطان وأولياءه، وكلما ضعف إيمان العبد قوي خوفه منهم.

ولا بد من التذكر دائماً أن كل عبادة محبوبة لله فإنها مكروهة إلى الشيطان، وكل معصية مكروهة للرحمن فإنها محبوبة للشيطان، فهذا هو منهج الشيطان وديدنه، فأعماله تتجه دائماً إلى التمرد على الله، والتفريق، والتخريب، والتدمير، وقطع ما أمر الله به أن يوصل، ووصل ما أمر الله به أن يقطع، فهو يأمر بكل شر، فما من شر في الأرض ولا فساد إلا وله به صلة، فإبليس اللعين ومن انحدر من ذريته الخبيثة هم الذين زينوا للأمم السابقة سوء العمل، وأوقعوهم بالكفر والمعاصي، ودعوهم إلى مخالفة أوامر الله، ولا تزال هذه أعمالهم، ولا يزال هذا منهجهم[2].

---

(1) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج434/9).

(2) انظر: السيد سابق، العقائد الإسلامية (ص120)، والأشقر، عالم الجن والشياطين (ص75).

المطلب الثالث: طرق الوقاية من الشيطان.

حري بكل إنسان يعلم أن له عدواً أن يحذره ويقي نفسه منه، بل ويستعد لمحاربته ودفع شروره وأذاه، فسبحانه حذرنا أشد تحذير من الشيطان، وبين لنا عداوته منذ عهد أبينا آدم ﵇ واستمرارها إلى يوم الدين، فكل إنسان مهدد من مكائده ما دامت الروح في الجسد، ولا عاصم منه إلا الله، ولا يسلم منه إلا عباد الله المخلصون، فالحذر الحذر من هذا اللعين؛ لذا ينبغي للعبد أخذ الحيطة والأسباب المناسبة للوقاية من شر فتنته، ولقد دل الكتاب والسنة على طرق ووسائل تقي الإنسان من الشيطان ومكره، وهذا من باب رحمته سبحانه على عباده، فمن أخذ بها نجا بإذن الله تعالى، ومن تركها خسر في الدنيا والآخرة، وإن طرق الوقاية من الشيطان كثيرة، منها ما يلي:

أولاً: الإخلاص.

يعد الإخلاص السد المنيع الواقي من الشيطان ومكائده، فهو حجر الأساس الذي يقوم عليه الإسلام، فلا سبيل للشيطان مع عباد الله المخلصين، وهذا ما صرح به إبليس اللعين عندما أخذ على نفسه العهد بإغواء العباد إلا المخلصين منهم، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: 39 – 40]، فالشيطان لا قِبَل له ولا طاقة على عباد الله المخلصين، فمن يخلص طاعة الله من غير فساد ولا رياء فلا سبيل للشيطان عليه، والمخلصون لله هم الذين يعملون ولا يحبون أن يحمدهم الناس[1].

ولقد أمر سبحانه بالإخلاص له، وهو الخلق الذي تحلى به الأنبياء والمرسلون ومن تبعهم، فقال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمران: 20]، وقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67].

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج28/10)، والطبري، جامع البيان (ج103/17).

فالإخلاص هو أهم أعمال القلوب فلا قبول للعمل إلا بالإخلاص فيه، وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**"(1).

وقال الإمام ابن تيمية في بيان أهمية أعمال القلوب: "وهي من أصول الايمان وقواعد الدين، مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك"(2).

ثانياً: تحقيق العبودية لله وحده.

يقول الله تعالى: ﴿**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[آل عمران: 64]، فلا يتم إيمان عبد إلا بتحقيق العبودية لله وحده لا شريك له، فالمؤمن الذي يوجه كافة أنواع العبادات والطاعات لله وحده يعجز الشيطان عن فتنته.

ولقد عرف الجرجاني العبادة والعبودية فقال: "العبادة: هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه. العبودية: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود"(3).

وجوهر دعوة الأنبياء والمرسلين يقوم على تحقيق العبودية لله وحده ونشر كلمة التوحيد، فقال تعالى على لسان عيسى ﵇: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾ [آل عمران: 51]، فالعبودية الخالصة المجردة لله تعصم الإنسان من الشيطان وشركه.

يقول الإمام ابن تيمية: "فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيباً إلى الله خائفاً منه راغباً راهباً... ومن لم يكن خالصاً لله عبداً له قد صار قلبه معبداً لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ويكون ذليلاً له خاضعاً، وإلا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين، وكان من

(1) [البخاري: صحيح البخاري، بدء الوحي، 6/1: رقم الحديث 1].

(2) ابن تيمية، أمراض القلوب وشفاؤها (ص36).

(3) الجرجاني، التعريفات (ص146)، بتصرف يسير.

الغاوين إخوان الشياطين وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه؛ فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عما سواه وإلا كان مشركاً"[1].

ومن تمام تحقيق العبودية لله التي هي من أصول الإيمان وقواعد الدين التوكل عليه، فقد قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 159 – 160]، فبين سبحانه وجوب التوكل عليه بعد المشاورة والعزيمة المبنية على أخذ الأهبة والاستعداد بما يستطيع به المرء. كما يكون التوكل مع الأخذ بالأسباب، فترك الأسباب بدعوى التوكل إنما هو جهل بالشرع أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الجوارح[2].

كما يجب على العبد تقوى الله ومخافته وحده دون سواه؛ حتى يعصم نفسه من الشيطان ووسوسته وتخويفه، فمن كان في قلبه خوف لغير الله كان ذلك مدخلاً عظيماً للشيطان لإضعاف الإنسان، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]، وقال سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123]، وقال –أيضاً–: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

فكل العبادات والطاعات لا تكون إلا لله وحده لا شريك له، وهذا من كمال وتمام عبوديته سبحانه، التي يجني منها المؤمن الثمرات العظيمة إذا ما حققها، فهي حصن حصين له من الشيطان، وسعادة له في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: الاستعاذة.

إن الاستعاذة بالله من أقوى طرق الوقاية من الشيطان، ومن غيرها لن يفلح العبد التغلب على الشيطان وكيده، فمن لجأ واستعان بالله تعالى لا يمكن أن يكون للشيطان عليه سبيلاً.

يقول الإمام ابن كثير: "ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث، وتطييب له وتهيؤ لتلاوة كلام الله وهي استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه"[1].

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج215/10 – 217)، بتصرف يسير.

(2) انظر: محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج169/4 – 170).

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج114/1).

والاستعاذة هي: "الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر، والعياذة تكون لدفع الشر... ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي، أو يصدني عن فعل ما أمرت به، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه؛ فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله؛ ولهذا أمر الله تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه، ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن؛ لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل؛ لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذي خلقه"[1].

وقال سبحانه حكاية عن امرأة عمران[2] عليها السلام: ﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴾[آل عمران: 35 – 36].

فامرأة عمران لما وضعت ابنتها مريم عليها السلام أعاذتها وذريتها بالله من الشيطان الرجيم، فاستجاب الله تعالى لها، فأعاذها وذريتها من الشيطان ولم يجعل له عليها سبيلاً[3]، وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: "**مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا**"، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿ **وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ** ﴾[آل عمران: 36][4].

ومن أجل هذا حري بكل إنسان يعلم عدوه أن يستعيذ بالله تعالى منه، فالاستعاذة هي الحصن الحصين الذي أمرنا الله ورسوله ﷺ به، لما لها من الآثار العظيمة في حياة العبد، فهي تبطل وسوسة الشيطان وشره، وتقيه من فتنته وأفاعيله، كيف لا؟ وما دام العبد يلجأ بصدق إلى خالقه ويستجير به، فلا خاب من استعاذ بالله من الشيطان الرجيم في أمور دينه ودنياه، ولا ملجأ

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج114/1).

(2) امرأة عمران هي: أم مريم ابنة عمران، أم عيسى ابن مريم عليهم السلام أجمعين وكان اسمها على حسب ما ذكر: حنة ابنة فاقوذ بن قتيل، وأما زوجها: فهو: عمران بن ياشهم، وقد سبق التعريف بنسبه في التمهيد من هذا البحث تحت عنوان: (تعريف عام بسورة آل عمران) (ص12). انظر: الطبري، جامع البيان (ج328/6– 329).

(3) انظر: الطبري، جامع البيان (ج336/6).

(4) [البخاري: صحيح البخاري، تفسير القرآن/﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: 36]، 34/6: رقم الحديث 4548].

ولا عاصم للإنسان من الشيطان إلا بالاستعاذة بالله تعالى فإنه عليه قادر، فإذا أجار سبحانه عبده فلا سبيل للشيطان عليه.

رابعاً: الاعتصام بالكتاب والسنة، ولزوم الجماعة.

إن أعظم طرق الوقاية من الشيطان الاعتصام بالكتاب والسنة والتمسك بهما علماً وعملاً، فالكتاب والسنة قد جاءا بالصراط المستقيم، ويليهما أمر غاية في الأهمية وهو لزوم جماعة المسلمين الذي هو أحد قواعد الإسلام، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران: 101 – 103].

فتضمنت الآيات قضايا لا بد من بيانها، تمثل سلاحاً فتاكاً للمسلم في معركته ضد الشيطان، وبدورها تحقق له السعادة الدنيوية والأخروية، ومن هذه القضايا:

1 – الاعتصام:

وهو نوعان: اعتصام بالله كقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [آل عمران: 101]، واعتصام بحبل الله كقوله سبحانه: ﴿**وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟**﴾ [آل عمران: 103](1).

والاعتصام يدل على التمسك، والالتجاء، والملازمة، فالاعتصام الامتساك بالشيء، وأصل العصمة الحبل، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ**﴾ أي: تمسكوا بعهد الله(1).

قال الإمام ابن القيم: "مدار السعادة الدنيوية والأخروية على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين. فأما الاعتصام بحبله فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به يعصم من الهلكة، فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج

(1) ابن القيم، مدارج السالكين (ج457/1).

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج331/4)، وابن منظور، لسان العرب (ج404/12 – 405).

إلى هداية الطريق، والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها. فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله، يوجب له القوة والعدة والسلاح، والمادة التي يستلئم بها في طريقه"[1].

وإن الاعتصام بحبل الله يحمي العبد المؤمن من البدع وآفات العمل، كما أن الدفاع عن العبد هو ثمرة الاعتصام بالله، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: 38]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [آل عمران: 101]، فالله يدفع عن المؤمن، إذا اعتصم به، كل سبب يفضي به إلى السوء ويحميه منه، كدفع الشبهات والشهوات، وكيد العدو ظاهره وباطنه، وشرور النفس، ويدافع عنه من مقتضى أسباب الشر بعد انعقادها، يكون ذلك الدفع بحسب قوة الاعتصام بالله وتمكنه في قلب العبد[2].

والاعتصام يكون بالالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واستجابة المسلم قولاً وعملاً، فقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: 172]، فينبغي على العبد طاعتهما في كل أمر، قال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٣١) قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 31 – 32].

2 – لزوم الجماعة:

إن إحدى الوسائل التي تطرد الشيطان وتقطع حبائله لزوم الجماعة، وهناك ركيزتان تقوم عليهما جماعة المسلمين، الأولى: ركيزة الإيمان والتقوى التي دل عليها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 102]، والثانية: ركيزة الأخوة، وهي الأخوة في الله وعلى منهج الله، فقال تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا ﴾ [آل عمران:103]، والأخوة تنبثق من التقوى والإسلام، التي أساسها الاعتصام بحبل الله، وهذه نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة، فالإسلام وحده يجمع أصحاب القلوب المتنافرة ليصبحوا بنعمة الله إخواناً[1].

---

(1) ابن القيم، مدارج السالكين (ج458/1).

(2) انظر: المصدر السابق (ج459/1 – 460).

(1) انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (ج442/1).

قال الإمام ابن القيم: "الاجتماع بالإخوان قسمان، أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت، والثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها"[1].

فينبغي للمؤمن لزوم الجماعة، فالشيطان أقدر ما يكون على العبد إذا فارق الجماعة وبعد عنها، فقد قال النبي ﷺ: "**عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ**"[2]، وقال – أيضاً –: "**مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**"[3].

وهكذا فإن قضية لزوم الجماعة محسومة في الإسلام، حيث قال تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ [آل عمران: 103]، وإن العناية الإلهية توجب على العبد لزوم جماعة المسلمين وعدم مفارقتها بأي حال كان، فلزوم العبد الجماعة يقيه من الشيطان وشروره، ولا قيمة للجماعة في الإسلام إلا بالتزامها بالكتاب والسنة، فالاعتصام بهما هو الفيصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فالجماعة التي قصدها رسول الله ﷺ هي الجماعة المتمسكة بكتاب الله وسنة نبيه، وهي التي تجعل العبد الذي في ظلها في حصن حصين من الشيطان وأفاعيله.

خامساً: الاشتغال بذكر الله ﷻ.

إن ذكر الله ﷻ من أهم سبل النجاة من الشيطان، فلا يحرز العبد نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، فمتى ذكر العبد ربه بقلب صادق تصاغر الشيطان وخنس، ومتى كان غافلاً عن الذكر تعاظم الشيطان وغلب[4]، ولقد أخبرنا النبي ﷺ في الحديث أن الله أمر نبيه يحيى عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، ومن هذه الكلمات: "**وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ**

---

(1) ابن القيم، الفوائد (ص51 – 52)، بتصرف يسير.

(2) [الترمذي: سنن الترمذي، الفتن/ما جاء في لزوم الجماعة، 465/4: رقم الحديث 2165]، قال الألباني: إنه صحيح.

(3) [البخاري: صحيح البخاري، الفتن/قول النبي ﷺ: "**سترون بعدي أمورا تنكرونها**"، 47/9: رقم الحديث 7054].

(4) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج539/8).

فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللَّهِ"[1].

يقول الإمام ابن القيم: "فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى وأن لا يزال لهجاً بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه. فإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع[2] وكالذباب، ولهذا سمي الوسواس الخناس أي يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالى خنس أي كف وانقبض"[3].

ولقد وصف الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾ [آل عمران: 191]، "والذكر في الآية على عمومه لا يخص بالصلاة، والمراد به ذكر القلوب، وهو إحضار الله – تعالى – في النفس وتذكر حكمه، وفضله، ونعمه في حال القيام، والقعود، والاضطجاع، وهذه الحالات الثلاث التي لا يخلو العبد عنها تكون فيها السماوات، والأرض معه لا يتفارقان، والآيات الإلهية لا تظهر من السماوات والأرض إلا لأهل الذكر... ثم إن ذكر الله – تعالى – لا يكفي في الاهتداء إلى الآيات، ولكن يشترط مع الذكر التفكر فيها، فلا بد من الجمع بين الذكر، والفكر، فقد يذكر المؤمن بالله ربه، ولا يتفكر في بديع صنعه، وأسرار خليقته ؛ ولذلك قال: ويتفكرون في خلق السماوات والأرض... فيا طوبى لمن جمع بين الأمرين واستمتع بهاتين اللذتين، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة، فتلك النعمة التي لا تفضلها نعمة، واللذة التي لا تعلوها لذة؛ لأنها هي التي يهون معها كل كرب، ويسلس كل صعب، وتعظم كل نعمة، وتتضاءل كل نقمة، تلك اللذة التي تتجلى مع الذكر في كل شيء"[1].

---

(1) [الترمذي: سنن الترمذي، الأمثال/ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، 148/5: رقم الحديث 2863]، قال الألباني: إنه صحيح.

(2) الوصع: من مادة وصع، والوصع هو الصغير من أولاد العصافير، ويقال: هو طائر شبيه بالعصفور الصغير في صغر جسمه. انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج54/3) و(ج47/12).

(3) ابن القيم، الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص36 – 37)، بتصرف يسير.

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج245/4 – 246)، بتصرف يسير.

وإن المؤمنين الذاكرين الله في جميع أحوالهم وأوقاتهم، نجدهم أحرص ما يكونون لذكر الله إذا ما أصابهم نزغ من الشيطان، فقال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: 135].

قال الإمام ابن القيم: "الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً وأحاطوا به، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل"(1).

ولقد حثنا الرسول ﷺ على المداومة للذكر وما له من الفضائل العظيمة في حفظ الإنسان من الشيطان ومكائده، فهو الدرع الواقية التي تدحر الشيطان وتصرف شروره، والأذكار أكثر من أن تحصى، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**"(2).

وثمرات ذكر الله على العبد كثيرة جداً، لا يدركها إلا من كان لسانه دائماً رطباً بذكر الله، فالذكر سبب السعادة في الدنيا والآخرة، ووقاية من الشياطين وكيدهم، وحصن حصين من كل شر وأذى، وسبب لنيل رضى الرحمن وتوفيقه.

كانت هذه بعض الطرق والوسائل للوقاية من الشيطان التي تضمنتها سورة آل عمران، والتي يتعين على كل مسلم الأخذ والعمل بها، فهي السلاح الذي يواجه به عدوه ويبطل كيده، بل ويغلق عليه كل باب يفتح عمله الخبيث، فمتى كان العبد أقرب إلى الله ملتجئاً إليه كان الشيطان أبعد عنه كل البعد، والمتأمل في الكتاب والسنة يجد الكثير من النصوص التي تشير إلى طرق الوقاية من الشيطان ومكائده.

---

(1) ابن القيم، الوابل الصيب (ص82).

(2) [البخاري: صحيح البخاري، بدء الخلق/صفة إبليس وجنوده، 126/4: رقم الحديث 3293].

المبحث الثالث

اليوم الآخر في سورة آل عمران

المطلب الأول: معنى الإيمان باليوم الآخر.

يعد الإيمان باليوم الآخر ركناً من أركان الإيمان الستة، لا يتم إيمان عبد إلا بالإيمان به، إيماناً يقينياً لا ريب فيه ولا شك على وجه الإجمال والتفصيل، فقد قال سبحانه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9].

وهو أحد الأصول الثلاثة التي جاء بها الدين، فقال الإمام ابن تيمية: "فهذه الأصول الثلاثة: توحيد الله والإيمان برسله وباليوم الآخر – هي أمور متلازمة... فأهل هذا الإيمان والعمل الصالح: هم أهل السعادة من الأولين والآخرين، والخارجون عن هذا الإيمان: مشركون أشقياء"[1].

فاليوم الآخر هو أحد القضايا المهمة التي تُشغل بها الأذهان، فبهذا اليوم يتحدد مصير الإنسان النهائي وما يكون به مآله إما الجنة أو النار، فهو يوم الحساب والجزاء لجميع الخلائق، ومن يؤمن بهذا اليوم حق الإيمان يدرك أن الحياة الدنيا دار ممر والآخرة دار المستقر، فقد قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

وحري بكل مسلم الاستعداد لليوم الآخر أتم الاستعداد؛ لما له من أهمية كبرى في تقرير مصيره، ولهذا اهتم القرآن الكريم كثيراً بذكر اليوم الآخر وما يدور به من الأهوال والأحداث، فلا تكاد تخلو صفحة من صفحاته إلا وفيها ذكر له، كما يربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله تعالى ويقرنه به كثيراً دلالة على أهميته البالغة، حيث قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءًۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: 113 – 114].

قال صاحب كتاب (العقائد الإسلامية): "الإيمان بالله يحقق المعرفة بالمصدر الأول الذي صدر عنه الكون، والإيمان باليوم الآخر يحقق المعرفة بالمصير الذي ينتهي إليه هذا الوجود.

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج32/9)، بتصرف يسير.

وعلى ضوء المعرفة بالمصدر والمصير يمكن للإنسان أن يحدد هدفه، ويرسم غايته، ويتخذ من الوسائل والذرائع ما يوصله إلى الهدف، ويبلغ به الغاية"[1].

كما يكمن هذا الارتباط الوثيق بينهما في أن الثمرة النهائية للإيمان بالله تعالى، وهي الطاعة الكاملة له سبحانه، لا يتم تمامها عند كثير من الناس بمجرد الإيمان بالله، إنما يكمل إيمانهم بالله بالإيمان الراسخ بأن هناك بعثاً وحساباً وثواباً وعقاباً، وبذلك يتجه المؤمن إلى الأعمال التي تقربه من الله اتقاءً لعذابه، وطمعاً في ثوابه، فلا عجب أن يرتبط الإيمان باليوم الآخر مباشرة بالإيمان بالله[2].

أما عن معنى الإيمان باليوم الآخر فمعناه الإجمالي بأنه: الاعتقاد الجازم بكل ما أخبر به الله تعالى في كتابه، أو أخبر عنه رسوله ﷺ في سنته، مما يكون بعد الموت من فتنة القبر، وعذابه ونعيمه، وبعث الناس من قبورهم وحشرهم، وتطاير الصحف، والحساب، والميزان، والحوض، والصراط، والشفاعة، والجنة، والنار، وما أعده الله لأهلهما جميعاً[3].

وهو: "أن تؤمن بالبعث بعد الموت والحساب والميزان والثواب والعقاب والجنة والنار وبكل ما وصف الله به يوم القيامة"[4].

وإن بداية اليوم الآخر تكون بفناء هذا العالم، وموت كل من فيه من الأحياء، وأن تتبدل الأرض والسماوات، ثم ينشئ الله النشأة الآخرة، ويبعث الناس جميعاً من قبورهم، ثم يكون حسابهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية في دنياهم من خير أو شر، ويكون انتهاء اليوم الآخر وختامه بدار القرار، بدخول أهل الجنة في الجنة، ودخول أهل النار في النار، فاليوم الآخر يراد منه أمران: الأول: فناء العوالم كلها وانتهاء الحياة بأكملها، والثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتداؤها[5].

المطلب الثاني: أسماء اليوم الآخر في سورة آل عمران.

تعظم أهمية اليوم الآخر بكثرة أسمائه، فكثرة الأسماء دلالة على عظم المسمى، فقد ذكر القرآن الكريم أسماء كثيرة لليوم الآخر، واعتنى العلماء بجمعها وبيان معانيها، ومن أشهر أسماء هذا اليوم: يوم القيامة، ويوم البعث، ويوم الفصل، ويوم الحساب، ويوم الدين، والآخرة، والساعة،

---

(1) السيد سابق، العقائد الإسلامية (ص227).

(2) انظر: محمد قطب، دراسات قرآنية (ص66).

(3) ياسين: محمد، الإيمان (ص43).

(4) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج313/7).

(5) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص185)، والسيد سابق، العقائد الإسلامية (ص228).

والغاشية، والقارعة، والحاقة، والواقعة، وغيرها من الأسماء الكثيرة التي يدل كل اسم منها على معنى سيقع فيه من أهوال وأحداث في هذا اليوم(1).

ولقد سمى أهل العلم اليوم الآخر بأسماء الأوصاف التي وصفه الله بها، ومن ذلك أنه: يوم عسير، ويوم مشهود، ويوم عظيم، ويوم عبوس قمطرير، ويوم عقيم(2).

وفي هذا الصدد يقول الإمام القرطبي: "وكل ما عظم شأنه تعددت صفاته وكثرت أسماؤه، وهذا جميع كلام العرب، ألا ترى أن السيف لما عظم عندهم موضعه وتأكد نفعه لديهم وموقعه جمعوا له خمسمائة اسم. وله نظائر. فالقيامة لما عظم أمرها، وكثرت أهوالها، سماها الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة"(3).

ولقد ذكرت سورة آل عمران ثلاثة أسماء لليوم الآخر، وهي كما يلي:

1 – اليوم الآخر: وقد وردت هذه التسمية مرة واحدة في السورة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 113 – 114]، وسمي اليوم الآخر بهذا الاسم؛ لأنه آخر الأيام فلا يوم بعده، وبه تنقضي الأيام وتنتهي(4)، فلفظ اليوم الآخر يدل على آخر يوم من أيام هذه الحياة، وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية، فهو يوم واحد لا ثاني له البتة(5).

2 – الآخرة: ووردت هذه التسمية تسع مرات في السورة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، وفي قوله تعالى: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 148]، وسمي اليوم الآخر بالآخرة؛ لأنها آخر المنازل فلا انتقال عنها البتة ولا منزلة ولا دار بعدها(6).

---

(1) انظر: السيد سابق، العقائد الإسلامية (ص229 – 231).

(2) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص20).

(3) القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص544).

(4) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص12)، والكردي: إيمان، اليوم الآخر أحداث وعبر (ص10).

(5) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص185).

(6) انظر: الكردي: إيمان، اليوم الآخر أحداث وعبر (ص10).

3 – يوم القيامة: وردت هذه التسمية ست مرات في السورة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: 180]، وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: 55]، وقد تعددت آراء العلماء في سبب تسمية اليوم الآخر بيوم القيامة على أقوال منها: بسبب قيام الناس من قبورهم كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج: 43]، أو بسبب قيام الناس بين يدي رب العالمين وطول ذلك عليهم، فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المطففين: 6]، أو لقيام الملائكة والروح فيه صفاً كما قال سبحانه: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: 38][1]، وربما تكون كل الأقوال غير مستبعدة وجميعها تفيد سبب التسمية بيوم القيامة، فمن العلماء من جمع هذه الأقوال وجعلها جميعاً متضمنة لسبب التسمية بذلك، كما فعل صاحب كتاب (القيامة الكبرى) حيث قال: "وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين"[2]، فجميع الآراء لهذه التسمية هي أحداث وأمور عظيمة واقعة في اليوم الآخر.

المطلب الثالث: الحكمة من اليوم الآخر.

إن الخالق الذي خلق العوالم كلها ودبر شؤونها بدقة متناهية بما يفوق العقل البشري تصورها هو الإله المعبود الحق الذي له الأولى والآخرة، فقال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: 189]، وقال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: 180].

والله ﷻ له حكم في خلقه وما أعده لهم، بدءاً بخلقهم وانتهاءً بآخرتهم، واليوم الآخر هو أحد مظاهر قدرة الله وسلطانه في ملكوته، والمتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لهذا الركن الاعتقادي الإيماني يستطيع أن يدرك العديد من تلك الحكم، مع مراعاة أن الحكمة الإلهية لأمر من الأمور لا يستطيع إدراكها أو الإحاطة بها أي مخلوق مهما عظم شأنه من جميع جوانبها، فسبحانه

(1) انظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج168/2 – 169)،

(2) الأشقر، القيامة الكبرى (ص12).

وحده يهدي خلقه بأنوار حكمته، والمؤمن الذي أشرق قلبه بهدى القرآن الكريم وامتلك عقلاً متدبراً لآيات الله فإنه يدرك العديد من تلك الحكم، والحكمة من اليوم الآخر تتضمن أموراً عديدة، منها:

1 – أن اليوم الآخر يظهر الحكمة من خلق الخلق، وإلا كان هذا الخلق ضرباً من العبث، وحاشاه تبارك وتعالى من ذلك فهو منزه عنه، فلا يكون في شيء من أفعاله وأحكامه وأوامره ونواهيه، وشرائعه وسننه عبث، بل لا بد في كل ذلك من غايات حكيمة، فاليوم الآخر هو المظهر البارز الذي يظهر فيه تطبيقات الغاية من الحياة الأولى، وهذه حقيقة لا ينكرها عاقل أبداً[1]، فقال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: 191].

يقول محمد قطب: "إن أولي الألباب يهتدون إلى أن الله لم يخلق هذا باطلاً فيسبحون لله: "سبحانك!". وإذ يعلمون أن الكون خلق بالحق، فهم يدركون أنه لا يمكن أن تكون الحياة الدنيا هي نهاية المطاف.. وإلا فهو العبث الذي يتنزه عنه الخالق سبحانه، والباطل الذي نفوه ابتداء عن خلق الله.. إذن فلا بد أن تكون هناك رجعى إلى الله، وأن يكون حساب على ما تم في الحياة الدنيا من أعمال: "﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟ ﴾" [المؤمنون: 115] كلا! إنما هي الرجعى والحساب، هي التي تنفي العبث عن خلق الله، وتتمم الصورة فتستقيم"[2].

2 – إن الثواب والعقاب من لوازم الأوامر والنواهي، ومعلوم أنه لا يستوي من خالف وتجاهل تلك الأوامر والنواهي ممن استقام واتبع ما أمر به سبحانه واجتنب نواهيه، ولأجل هذا وغيره كانت الحكمة من اليوم الآخر في بعث الخلائق أجمعين للحساب والجزاء، فالمعاد الأخروي هو تحقيق للعدل المطلق؛ حيث تظهر فيه العدالة الربانية وإقامتها على جميع الخلائق من غير ظلم لأحد منهم، فيجازيهم على كسبهم الإرادي الاختياري الذي كسبوه في الحياة الدنيا، فالدنيا هي دار عمل واجتهاد والآخرة هي دار حساب وجزاء، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران: 25]، وقال – أيضاً –: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص623 – 624).

(2) محمد قطب، دراسات قرآنية (ص417)، بتصرف يسير.

﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمـران: 55 – 57]، ففـي هذا اليوم تفصل الأمور، ويجازى كل امرئ على ما عمل، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذه هي قمة العدالة بأكمل صورها.

قال صاحب كتاب (عقيدة المؤمن): "فالناس يعيشون في هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً في أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وفي سعادتهم وشقائهم، فمنهم الظالم الغشوم، ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغني الثري، ومنهم الفقير الشقي، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن، ومنهم المسيء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يبعثون لكان ذلك منافياً للحكمة، مجانباً للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء، وحكم بهما، فهما كائنان لا محالة"(1).

3 – اليوم الآخر هو تحقيق لسنة من سنن الله في خلقه وهي: أن لكل ثمرة نجاح جهد مسبوق، فالعبد الذي امتثل أوامر الله ونواهيه، وعبد خالقه وحده لا شريك له، وتحمل المشاق والصعاب من أجل مرضـاة الله تعـالى وطاعتـه، استحق جـزاءً حسـناً أعـده المـولى ﷻ لـه، فكانـت الجنـة داره ومستقره، فاليوم الآخر هو سلم الوصول إلى الغاية الكبرى، وهي الخلود في الجنة ونعيمها، فمتى علم العبد أن عمله الصالح هو سبيل رضا الله وفوزه بالجنة كان أشد حرصاً على العمل به، فتستقيم لـه أمور دنياه وآخرتـه، فقال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمـران: 142]، وقـال سـبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 132 – 133].

4 – يعد اليوم الآخر عاملاً مهماً في انتظام الحياة الدنيا وصلاح المعاش فيها، وانتظام الحياة في الدنيا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بخلافة الإنسان وعمارته فيها، ونجاح هذه المهمة يحتاج إلى الاستقامة والتوازن في كل أمور الحياة، ولا يتم هذا إلا بالإيمان باليوم الآخر، الذي يعمل على ضبط الشهوات ويجعلها في إطار المباح بأخذ القدر المعقول منها بما يتناسب مع حدود الله؛ لأن طبيعة الخلقة البشرية وفطرتها تميل إلى الشهوات ميلاً عظيماً، فكان لا بد لها من ضابط يضبطها لصلاح الحياة في هذه الدنيا، وقد قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ

---

(1) الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص189 – 190).

﴿جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[آل عمران: 14 – 15]، وهكذا فاليوم الآخر هو الثقل الذي يعادل جاذبية هذه الشهوات ويضبطها حتى لا تطغى على الإنسان، وتكون سبباً في هلاكه، ومعيقاً في عمارة الأرض التي أمر بها المولى ﷻ، فاليوم الآخر ينمي وازعاً داخل الإنسان في إتيان الخير الذي فيه صلاح الحياة الدنيا، والصد عن الشر الذي فيه فساد الحياة وتعطيلها، كيف لا؟ والله يعد عباده المتقين بالجنة ونعيمها، وينذر الكافرين النار وعذابها.[1].

قال صاحب كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها): "فإنه لما كان الإنسان مفطوراً على طلب المصلحة لنفسه ودفع المفسدة عنها كان الإيمان باليوم الآخر مقوياً للوازع النفسي عنده، ذلك الوازع الذي يرغب في الخير ويصد عن الشر. ولذلك كانت عناية القرآن بكثرة التذكير به والتفنن في تصويره حتى يتعمق... في قلب المؤمن ويشتد تأثيره"[2]، وقال محمد قطب: "فحينما تكون الحياة في حس الناس هي الحياة وحدها، ولا بعث ولا حساب، ولا حياة بعد الموت، فهي إذن فرصة واحدة إن ضاعت فلن تعود... وإذن فمن الحتم عليهم أن يملؤوا بكل لحظة أكبر قدر من المتاع في طوق أيديهم قبل أن تذهب تلك الفرصة الواحدة المحدودة! ولذلك يتكالب الناس على المتاع في الجاهلية التي لا تؤمن باليوم الآخر، ويؤدي بهم التكالب إلى الصراع.. أما حين يكون هناك إيمان باليوم الآخر، وبنعيم دائم للمتقين، ومتاع خالد لا ينفد، فهنا تخف حدة الشهوة، ويخف وزن المتاع الأرضي في حس الإنسان، فلا يصبح ذلك الثقل المرهق يثقل الناس إلى الأرض حتى يلصقوا بالطين! ويستطيعون عندئذ أن يكتفوا منه بالقدر المعقول الذي أباحه الله ويلتزموا بحدوده"[3].

وهذا التوازن في الحياة الدنيا هو كفيل لانتظامها، وسبيل مهم لعمارة الأرض وخلافتها على الوجه الذي أمرنا به سبحانه، فكانت الحكمة من اليوم الآخر والإيمان به سبباً في صلاح الدنيا والمعاش فيها.

5- اليوم الآخر يمثل الكمال المطلق لسلسلة الخلق المعجز، وهي منة إلهية وفضل رباني لعباد الله المتقين بمنح حياة خالدة في جنات النعيم، حياة لا زوال فيها بخلاف الحياة الأولى الفانية، وقد قال سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾[آل عمران: 198].

---

(1) انظر: محمد قطب، دراسات قرآنية (ص67 – 69).

(2) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص44)، بتصرف يسير.

(3) محمد قطب، دراسات قرآنية (ص328)، بتصرف يسير.

ولأجل هذه الأمور وغيرها كانت الحكمة من اليوم الآخر بمقتضى ما دلت عليه النصوص الكثيرة، وحري بكل مسلم الاستعداد لآخرته الخالدة طمعاً في ثواب الله، واتقاءً لعذابه، ففي الحياة الآخرة المنتهى والمآل.

المطلب الرابع: الحياة البرزخية.

مما لا شك فيه أن الإيمان بالغيبيات، ومنها الحياة البرزخية، أمر واجب في الدين، فهي جزء من العقيدة الإسلامية، والمرحلة التي يمر بها الإنسان بعد الحياة الدنيا يطلق عليها أسماء عديدة، منها: القيامة الصغرى، والبرزخ، والموت(1).

وحياة البرزخ مرحلة تتوسط الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي مظهر من مظاهر اليوم الآخر ومقدمة له، فبعد انتقال الإنسان من دار الدنيا فإنه ينتقل إلى دار البرزخ، ثم ينتقل إلى دار القرار وهي دار الآخرة التي لا دار بعدها.

والبرزخ في اللغة:

البرزخ هو الحاجز بين الشيئين، والبرزخ والحاجز متقاربان في المعنى، وذلك كأن تقول بينهما حاجزاً أن يتزاورا، فتنوي بالحاجز المسافة البعيدة، كما وتنوي الأمر المانع، مثل اليمين والعداوة، فصار المانع في المسافة كالمانع من الحوادث، فوقع عليها البرزخ(2).

فالمسافة التي هي أحد معانيه، والأمور المانعة أيضاً كاليمين والعداوة، كلها تمنع التزاور واللقاء وحدوث ذلك، وهذا ما ينطبق على البرزخ ويدل عليه.

أما البرزخ في الاصطلاح:

فهو الدار التي تعقب الموت إلى البعث، وهو محل عذاب القبر ونعيمه، فمن مات فقد دخل البرزخ، يقول الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 100](3)، "ففي هذه الآية تصريح بأن بين الموت والبعث برزخاً"(4).

---

(1) انظر: الأشقر، القيامة الصغرى (ص13).

(2) انظر، الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح (ج32/1)، وابن منظور، لسان العرب (ج8/3).

(3) انظر: القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص477)، والأشقر، القيامة الصغرى (ص15).

(4) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص643)، بتصرف يسير.

"وقال عطاء الخراساني[1]: "البرزخ مدة ما بين الدنيا والآخرة... وقيل للشعبي[2]: مات فلان قال: ليس هو في الدنيا ولا في الآخرة هو في برزخ، وسمع رجلاً يقول مات فلان أصبح من أهل الآخرة قال: لا تقل من أهل الآخرة، ولكن قل من أهل القبور"[3].

وحياة البرزخ حقيقة من الحقائق الغيبية التي يتعين على العبد إثباتها كما جاء في النصوص من غير خوض في كنهها، وكيفيتها، وحقيقتها التفصيلية، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة فيها، فتصور هذه الأمور على حقائقها أمر يستحيل إدراكه بالعقل، فهو أمر محجوب عنا ولا طريق لإثباته إلا عن طريق الكتاب والسنة، ويقول شارح الطحاوية: "وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به في هذه الدار، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول. فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا"[4].

والحياة البرزخية هي حياة يحياها جميع العباد بلا استثناء، المؤمن والكافر منهم، ولكن شتان بين حياة كل منهما، فالمؤمن ينعم في البرزخ بنعيم حسب درجته عند الله تعالى، والكافر يعذب في البرزخ بأصناف وألوان من العذاب كل على حسب ما عمل، فأرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها وهذا ما دلت عليه النصوص، ولقد دلت سورة آل عمران على حياة البرزخ ونعيمه، حيث تحدثت عن فئة من أرواح العباد وهم الشهداء، فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: 169-171].

---

(1) هو عطاء بن أبي مسلم الخراساني، المحدث، المفسر، وله تفسير، سكن الشام، وتوفي بأريحا، ودفن ببيت المقدس سنة 133هـ - 755م. انظر: كحالة، معجم المؤلفين (ج6/283).

(2) هو عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي، أبو عمرو، من شعب همدان، كان مولده عام جلولاء أي: سنة سبع عشرة في أثناء خلافة عمر ﷺ، وهو علامة التابعين، وفي ما قيل عنه: إنه كان إماماً، حافظاً، فقيهاً، متفنناً، ثبتاً، متقناً، ولقد نقل عن الكثير أنهم قالوا: مرسل الشعبي صحيح لا يكاد يرسل إلا صحيحاً. انظر: الذهبي، تذكرة الحفاظ (ج1/63 - 66).

(3) الحنبلي: عبد الرحمن، أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور (ص6).

(4) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص399)، بتصرف يسير.

قال السعدي: "وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً"[(1)]، ففضيلة الشهداء وكرامتهم عند الله تعالى وما تميزوا به عن سائر المؤمنين أكثر من أن تحصى.

والشهداء عند جمهور العلماء أحياء حياة محققة وليسوا أمواتاً، كما هو ثابت في الآية السابقة وغيرها من الآيات؛ حيث وصفهم سبحانه بأنهم يرزقون، ويأكلون، ويتمتعون في حياتهم البرزخية، فدلالة قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾ تأكيد لكونهم أحياء وتحقيق لهذه الحياة، فالرزق لا يكون إلا لمن كان حياً[(2)].

وقد يسأل سائل: كيف يتفق كون الشهداء أحياءً وليسوا أمواتاً كما في الآية السابقة مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185]؟

فجوابه هو أن هذه الآية تفيد العموم، والشهداء يدخلون ضمناً في هذا العموم، وهو الموت المشاهد المحسوس، فهذا الموت المثبت في الآية الذي هو للجميع دون استثناء لأحد غير الموت المنفي عن الشهداء في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169]، فالموت المثبت هو فراق الروح الجسد، وهذا حاصل للجميع بما فيهم الشهداء، ولكن الموت الذي نفاه الله عن الشهداء هو زوال الحياة بالكلية من الروح والبدن، فموت النفس فراقها للبدن ليست هي في نفسها ميتة بمعنى زوال حياتها عنها، وهذا كما هو الحال في النوم، فيسمى النوم بالوفاة، وتارة أخرى يسمى بالموت، وإن كانت الحياة موجودة فيهما[(3)]، ولقد كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه، يقول: "**بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا**" وَإِذَا قَامَ قَالَ: "**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**[(4)]"[(5)].

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص156).

(2) انظر: الشوكاني، فتح القدير (ج457/1)، والمراغي، تفسير المراغي (ج132/4).

(3) انظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج110/10)، ومجموعة من علماء نجد الأعلام، الدرر السنية في الأجوبة النجدية (ج544/1 – 545).

(4) لفظ النشور يفسر على أربعة وجوه: الأول: بمعنى الحياة كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: 11]، والثاني: بمعنى البعث، أي: بعث الأموات يوم القيامة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: 3]، وإلى هذا المعنى يُفسر لفظ النشور الوارد في الحديث: "**الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**"، والثالث: بمعنى البسط كقوله تعالى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: 28]، والرابع: بمعنى التفرق كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: 10]. انظر: القيرواني، التصاريف لتفسير القرآن (ص255 – 256).

(5) [البخاري: صحيح البخاري، الدعوات/ ما يقول إذا نام، 69/8: رقم الحديث 6312].

وقال الإمام ابن القيم: "وفي هذه المرتبة تعلم حياة الشهداء، وأنهم عند ربهم يرزقون، وأنها أكمل من حياتهم في هذه الدنيا، وأتم وأطيب، وإن كانت أجسادهم متلاشية، ولحومهم متمزقة، وأوصالهم متفرقة، وعظامهم نخرة، فليس العمل على الطلل إنما الشأن في الساكن، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [سورة البقرة: 154] وإذا كان الشهداء إنما نالوا هذه الحياة بمتابعة الرسل وعلى أيديهم، فما الظن بحياة الرسل في البرزخ؟ ولقد أحسن القائل: فالعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال سارٍ فللرسل والشهداء والصديقين من هذه الحياة التي هي يقظة من نوم الدنيا أكملها وأتمها، وعلى قدر حياة العبد في هذا العالم يكون شوقه إلى هذه الحياة، وسعيه وحرصه على الظفر بها"[1].

فالأنبياء والشهداء يحيون حياة حقيقية ولكنها ليست من جنس الحياة الدنيوية، فلا يعلم حقيقتها إلا الله ﷻ، وأرواح الأنبياء تكون في خير المنازل في أعلى عليين، في الرفيق الأعلى، ولقد سمعت السيدة عائشة ؓ النبي ﷺ في آخر كلماته التي تكلم بها في الحياة الدنيا أنه قال: "**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**"[2]، أما أرواح الشهداء فهم عند ربهم يرزقون، ينعمون في البرزخ بأصناف النعيم كما جاء في الآيات السابقة من سورة البقرة وسورة آل عمران[3]، وكما ورد في السنة المطهرة الأحاديث العديدة عن نعيم البرزخ للشهداء، وأن أرواحهم في أجواف طيور خضر، فقال النبي ﷺ: "**إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي طَيْرٍ خُضْرٍ تَعْلُقُ مِنْ ثَمَرِ الجَنَّةِ أَوْ شَجَرِ الجَنَّةِ**"[4]، وقال ﷺ: "**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ، قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ، فَقَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ "، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: 169] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**"[5].

ووجه تخصيص الشهداء بإطلاق صفة الحياة عليهم دون غيرهم من سائر البشر، رغم أن الحياة البرزخية ثابتة للجميع بلا استثناء، فهذا ما أجابه الإمام الطبري في تفسيره وأبدع فيه، حيث

(1) ابن القيم، مدارج السالكين (ج264/3)، بتصرف يسير.

(2) [البخاري: صحيح البخاري، الرقاق/من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، 106/8: رقم الحديث 6509].

(3) انظر: الأشقر، القيامة الصغرى (ص107).

(4) [الترمذي: سنن الترمذي، فضائل الجهاد/ثواب الشهداء، 176/4: رقم الحديث 1641]، قال الألباني: إنه صحيح.

(5) [أبو داود: سنن أبي داود، الجهاد/فضل الشهادة، 15/3: رقم الحديث 2520]، قال الألباني: إنه حسن.

قال: "إن الذي خص الله به الشهداء في ذلك، وأفاد المؤمنين بخبره عنهم تعالى ذكره، إعلامه إياهم أنهم مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومنعمون بالذي ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر، من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمه الله أحداً غيرهم في برزخه قبل بعثه. فذلك هو الفضيلة التي فضلهم بها وخصهم بها من غيرهم"(1).

وقال شارح الطحاوية: "وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره...، فهي: أن الله تعالى جعل أرواحهم في أجواف طير خضر... فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم منها في البرزخ أبدانا خيراً منها، تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان، أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن في صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد في جوف طير... فقوله نسمة المؤمن تعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: هي في جوف طير خضر، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير صدق عليها أنها طير، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم"(2).

وفي السنة الأحاديث الكثيرة التي تثبت نعيم البرزخ وما يناله أهل الإيمان فيه، ومن ذلك ما جاء عن البراء بن عازب ﷺ في حديث طويل أن النبي ﷺ قال في شأن المؤمن إذا أجاب الملكين في القبر: "**فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، قَالَ: وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ**"(3).

أما بالنسبة لعذاب البرزخ فقد تظاهرت الدلائل – أيضاً – من الكتاب والسنة على ثبوته، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة، والأدلة على عذاب البرزخ كثيرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ** ﴾[غافر: 45 – 46].

فهذه الآية هي حجة واضحة لإثبات عذاب البرزخ، ورد مفحم لكل من أنكره أو تأوله بتأويلات فاسدة، فقد قال الإمام ابن كثير: "وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج216/3)، بتصرف يسير.

(2) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص403 – 404)، بتصرف يسير.

(3) [أبو داود: سنن أبي داود، السنة/المسألة في القبر وعذاب القبر، 239/4: رقم الحديث 4753]، قال الألباني في حديث آخر ذكر نحوه: إنه صحيح.

عذاب البرزخ في القبور"[1]، وقال الإمام القرطبي: "والجمهور بأن هذا العرض في البرزخ. احتج بعض أهل العلم في تثبيت عذاب القبر"[2].

وكفى بثبوته ثبوتاً لا ريب فيه دلالة قوله تعالى وذلك في الآية نفسها: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾[غافر: 45 – 46]، فهذه الإشارة القرآنية الواضحة تؤكد أن الإدخال في النار غير العرض عليها، فالعطف بينهما يقتضي المغايرة، وإذا كان الإدخال في يوم القيامة كان العرض في غير هذا اليوم قطعاً، ومعلوم أن العرض لا يكون بعد يوم القيامة اتفاقاً، فيثبت أن العرض قبله حقيقة لا شك فيها، كما أن عرضهم على النار غدواً وعشياً لم يكن في الحياة الدنيوية فهو غير جائز وما كان حاصلاً فيها، فتبين أن هذا العرض إنما حصل بعد موتهم وقبل يوم القيامة، وهذا يدل على إثبات عذاب البرزخ في حق هؤلاء – آل فرعون –، وإذا ثبتت هذه الحقيقة الغيبية في حق آل فرعون الكافرين ثبت في حق غيرهم من الكفار؛ لأنه لا قائل بالفرق[3].

ومما جاء في السنة عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**"[4].

ولقد روت عائشة ﷺ: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: "**نَعَمْ، عَذَابُ القَبْرِ**" قالت عائشة ﷺ: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر"[5].

ومن الأدلة – أيضاً – ما جاء عن النبي ﷺ أنه مر بقبرين، فقال: "**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**"، ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها بنصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، فقالوا: يا رسول الله، لِمَ صنعت هذا؟ فقال: "**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**"[6].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج146/7).

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج318/15 – 319)، بتصرف يسير.

(3) انظر: الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج521/27)، وخليفة، الحياة البرزخية من الموت إلى البعث (ص114).

(4) [مسلم: صحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة/ما يستعاذ منه في الصلاة، ص230: رقم الحديث 588].

(5) [البخاري: صحيح البخاري، الجنائز/ما جاء في عذاب القبر، 98/2: رقم الحديث 1372].

(6) [المصدر السابق، الجنائز/الجريد على القبر، 95/2: رقم الحديث 1361].

وقال شارح الطحاوية: "واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير"[1].

وهكذا فإن العبد إذا مات فإنه يحيا حياة أخرى هي حياة البرزخ التي لها أحكام خاصة بها، وتكون حياته فيه إما في نعيم أو عذاب، فهناك الأرواح المنعمة ومنها المعذبة، ولقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن عذاب البرزخ ونعيمه هل يقع على الروح والبدن؟ فأجاب: "بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها فيكون النعيم والعذاب عليهما – في هذه الحال – مجتمعين كما يكون للروح منفردة عن البدن"[2].

قال الإمام ابن القيم في هذا الصدد: "فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب"[3].

فالنعيم أو العذاب في الحياة البرزخية يقع على الروح والبدن جميعاً، كما ويقع على الروح منفردة عن البدن أحياناً، فتنعم النفس وتعذب متصلة بالبدن ومنفردة عنه، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ونخلص مما سبق أن الحياة البرزخية ونعيمها وعذابها حقيقة غيبية لا ريب فيها، وأنها حياة يحياها جميع العباد، فهي ثابتة للجميع دون استثناء لأحد منهم، ولكن هناك فرق في هذه الحياة بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون ينعمون بالنعيم، والكافرون لهم معيشة ضنكاً معذبين، كل على حسب ما عمل إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فأرواح العباد في البرزخ متفاوتة في منازلها، وإن حقيقة هذه الحياة وكنهها لا يعلمها إلا الله ﷻ، وإنه لا خبر لنا بها إلا ما جاء عن طريق الوحي، فيتعين على المسلم الإيمان اليقيني بها، فهي جزء من عقيدته الإسلامية، وحري بكل مسلم الاستعداد للآخرة الباقية ومقدمتها الحياة البرزخية، كي يكون النعيم والسرور ثوابه وجزاءه فيهما.

---

(1) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص400).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج282/4).

(3) ابن القيم، الروح (ص67).

المطلب الخامس: مظاهر اليوم الآخر.

إن أهمية اليوم الآخر ورهبته، بل وذهول الأذهان عند ذكره إنما تنبع من تضمنه المظاهر والأحداث العظيمة التي تدور فيه، فهو الأكثر طولاً بين الأيام التي قدرها سبحانه في حياة خلقه، فهو اليوم الذي ليس كأي يوم، حيث يتعرض العباد فيه إلى المواقف والأمور والأهوال الشديدة التي لا يلاقون مثلها أبداً.

ومظاهر اليوم الآخر كثيرة ومتعددة كما بينتها النصوص، تبتدئ ببعث الخلائق وإخراجهم من قبورهم أحياء، ثم حشرهم وسوقهم للحساب والجزاء، كما تتضمن الأحداث الأخرى كالحوض، والميزان، والصراط، والشفاعة، منتهية بأهم المظاهر وأكملها، وهي: الوصول إلى دار القرار الجنة أو النار.

ولقد تضمنت سورة آل عمران بعض مظاهر اليوم الآخر وأحوال الناس فيه، وذلك كما يلي:

أولاً: الحشر.

إن من جملة المظاهر والأحداث لهذا اليوم العظيم الحشر، الذي لا يتم إيمان عبد إلا بالإيمان بكل مظاهره، وذلك كما أثبتته نصوص الكتاب والسنة.

والحشر في اللغة:

هو الجمع مع سَوْق، وكل جمع حشر، ومنه يوم المحشر، والحشر: جمع الناس يوم القيامة، والمحشر هو المجمع الذي يحشر إليه القوم، ويقال أذن حشرة، إذا كانت مجتمعة الخلق[1].

وفي الاصطلاح:

الحشر هو سَوْق جميع الخلائق وجمعهم بعد بعثهم أحياء إلى الموقف العظيم، وهو المكان الذي يقفون فيه انتظاراً لفصل القضاء والحكم فيما بينهم؛ من أجل مجازاتهم وحسابهم[2].

وسمي اليوم الآخر بيوم الجمع؛ لأن الله يجمع العباد فيه أجمعين، وهذا الجمع إنما هو الحشر، قال الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٍ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج66/2)، وابن منظور، لسان العرب (ج190/4).

(2) الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص201)، والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص653)، وياسين: محمد، الإيمان (ص63).

﴿ ٱلۡمِيعَادَ ﴾[آل عمران: 9][1]، كما ويستوي في هذا الجمع الأولون والآخرون بلا استثناء لأحد منهم، حيث قال سبحانه: ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ٤٩ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴾ [الواقعة: 49 – 50][2].

فالحشر حقيقة ثابتة تعم جميع الخلائق، فهو لا يقتصر على الإنس والجن وإنما يعم أيضاً الملائكة، وكل دواب الأرض وطيورها، فجميعهم يحشرهم الله يوم القيامة ولا يُضل منهم أحداً، وحشر الإنس والجن إنما لكونهم مكلفين، وحشر الملائكة حتى يقوموا بوظائفهم ومهامهم التي أوكلها الله إليهم، وفق سنة الله في خلقه، وأما حشر دواب الأرض وطيورها فهو لفوائد وحكم مستنبطة من الأحاديث النبوية الشريفة، منها: أن حشرها يكون للقصاص من البهائم الظالمة في الدنيا للمظلومة منها، وكذلك مشاهدتها عقاب من ظلمها من الناس في الدنيا وتعويضها عن ذلك، وفي هذا دلالة على العدل الرباني المطلق في إعطاء كل ذي حق حقه مهما قلت مداركه العامة، كما أن حشرها يكون لتأدية وظيفة الشهادة على الناس بحسب مشاهدتها في الدنيا – أي كباقي الشهود على المكلفين كالأرض ونحوه –، ويكون حشرها أيضاً مصدر تعذيب للعصاة الذين عصوا الله فيها بالدنيا، بعدما كانت مذللة مسخرة لهم وفق مصالحهم، ثم إذا تمت الحكمة الإلهية من حشرها يقضي الله عليها بأمره، فتسوَّى وتكون تراباً[3]، وقال الإمام ابن تيمية: "وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ

---

(1) لقد ورد لفظ الجمع في سورة آل عمران مرتين في آياتها، مرة بلفظ (جامع) كما في الآية التاسعة التي في متن البحث، ومرة بلفظ (جمعناهم) وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[آل عمران: 25]، وإن معظم المفسرين قد فسروا الجمع الوارد في الآيتين على أن المراد منه الحشر، ومن أقوالهم التي فسرت هذا الجمع بالحشر في الآية التاسعة، انظر: الطبري، جامع البيان (ج222/6)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج406/1)، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج189/3)، أما الآية الخامسة والعشرون من السورة، فانظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج51/4)، وهناك من فسر الجمع الوارد في الآيتين السابقتين أن المراد منه البعث، وهذا ما فسره الإمام الشوكاني، حيث قال في الآية التاسعة من السورة: "وقوله: ربنا إنك جامع الناس أي: باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم ليوم هو يوم القيامة، أي: لحساب يوم، أو لجزاء يوم". انظر: الشوكاني، فتح القدير (ج365/1)، وقال في الآية الخامسة والعشرين من السورة: " أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وهو يوم الجزاء الذي لا يرتاب مرتاب في وقوعه". انظر: الشوكاني، فتح القدير (ج377/1)، ونخلص بأن سورة آل عمران قد تضمنت أدلة الحشر وأثبتته، حيث صرحت بلفظ الحشر في الآيتين: (12)، (158) من السورة، وبلفظ الجمع الذي فسره معظم المفسرين على أنه المراد به الحشر في الآيتين: (9)، (25) من السورة.

(2) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص48).

(3) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص654 – 655)، والأشقر، القيامة الكبرى (ص48 – 49).

﴿ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[الأنعام:38]... ومن قال إنها لا تحيا فهو مخطئ في ذلك أقبح خطأ؛ بل هو ضال أو كافر والله أعلم"[1].

ولقد أشارت سورة آل عمران إلى الحشر في بعض مواضع من آياتها، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١١ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[آل عمران: 9–12]، والحشر هو الجمع والإحضار، وجمع الناس وحشرهم بمعنى واحد، والمقصود هو حشر الناس يوم القيامة للحساب والجزاء[2].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾[آل عمران: 157 – 158]، "أي إنكم بأي سبب كان هلاككم فإنكم إلى الله تحشرون لا إلى غيره، فيجزي كلا منكم بما يستحق من الجزاء، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته... والمراد من الحشر إلى الله فى مثل هذا مما جاء فى القرآن الكريم، أن الإنسان فى ذلك اليوم الذي يحشر فيه الناس يستقبل ما يلاقيه من الله جزاء عمله، لا يشغله عنه شيء، فيكون بذلك راجعاً عن كل شيء فيه إلى الله، محشوراً مع سائر الناس"[3].

وفي هاتين الآيتين السابقتين لطائف قد بينها الإمام ابن عطية، حيث قال: "قدم القتل في قوله تعالى: ولئن قتلتم، لأنه ابتداء إخبار، فقدم الأشرف الأهم، والمعنى: أو متم في سبيل الله، فوقع أجركم على الله، ثم قدم الموت في قوله تعالى: ولئن متم أو قتلتم؛ لأنها آية وعظ بالآخرة والحشر، وآية تزهيد في الدنيا والحياة، والموت المذكور فيها هو موت على الإطلاق في السبيل وفي المنزل وكيف كان، فقدم لعمومه وأنه الأغلب في الناس من القتل"[4]، فتقديم القتل على الموت

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج248/4)، بتصرف يسير.

(2) انظر: الطبري، جامع البيان (ج222/6)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج406/1)، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج189/3).

(3) المراغي، تفسير المراغي (ج110/4 – 111)، بتصرف يسير.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز (ج532/1).

في الآية الأولى؛ لأنه أكثر ثواباً وأعظم عند الله تعالى، خاصة أن ترتيب المغفرة والرحمة عليه أقوى، وتقديم الموت في الآية الثانية؛ لأنه الأكثر بين الناس، وكلاهما مستويان في الحشر[1].

ثانيا: الحساب والجزاء.

ويراد بالحساب والجزاء أن يقف العباد بين يدي رب العالمين للمحاكمة العادلة، قبل الانصراف من المحشر، حتى يعرفهم سبحانه بأعمالهم التي عملوها، وأقوالهم التي قالوها، وما كانوا عليه في الحياة الدنيا من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف، وطاعة وعصيان، وما يستحقونه على ما قدمت أيديهم من إثابة وعقوبة، وإعطاء كل واحد منهم كتابه مكتوباً فيه ما عمل، ومن يعطى كتابه بيمينه ومن أمامه كان من السعداء، ومن يعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره كان من الأشقياء[2].

فالجزاء قد يكون في الخير بمعنى الثواب أو في الشر بمعنى العقاب، وهذا ما أشارت إليه كتب اللغة في تعريفها لمعنى الجزاء[3]، ولقد ذكر صاحب كتاب (العين) أن: "جزي: جزى يجزي جزاء، أي: كافأ بالإحسان وبالإساءة... وتَجازيتُ ديني: تقاضيته"[4]؛ حيث قال:ﷻ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: 135 – 136]، وقال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [آل عمران: 86 – 87].

ولقد وصفت سورة آل عمران بعض مشاهد الحساب والجزاء يوم القيامة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: 55]، حيث أفادت الآية أموراً، منها: الفصل والقضاء بين العباد فيما اختلفوا فيه،

(1) انظر: القاسمي، محاسن التأويل (ج446/2).

(2) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص203)، والأشقر، القيامة الكبرى (ص185)، وياسين: نسيم، شرح أصول العقيدة الإسلامية (ص210).

(3) انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج98/11).

(4) الفراهيدي، العين (ج164/6).

فمصيرهم ومآلهم جميعاً إلى الله تعالى يوم القيامة، فحينئذ يحكم سبحانه ويقضي بينهم يوم الحساب بالحق فيما اختلفوا فيه من الدين وأمر عيسى عليه السلام[1].

كما تضمنت السورة بعض القواعد التي يحاسب العباد على أساسها، منها ما يلي[2]:

1 – العدل المطلق الذي لا يعتريه ظلم:

إن الله تعالى متصف بصفات الكمال المطلق، التي منها العدل والحكمة، فسبحانه الحكم العدل الذي لا يظلم أحداً، فقال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[آل عمران: 182]، ومن تمام حكمته تعالى وكمال عدله ألا يسوي بين المؤمنين والكافرين، وبين المحسنين والمسيئين، فكان الحساب والجزاء فيصلاً بين هذين الفريقين، فلا يستوي الصالحين مع الطالحين أبداً، عدلاً من الله وفضلاً، فقضى الحق تبارك وتعالى أن يوفي عباده أجورهم يوم القيامة، حيث قال المولى ﷻ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[آل عمران: 185]، وأنه يوفيهم أجورهم كاملة من غير نقص فيها، ودون ظلم أو جور لأحد منهم – فحاشا الله عن هذا وتنزه –، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل، وقد قال سبحانه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[آل عمران: 25].

فتوفى كل نفس على ما قدمت من أعمال في الحياة الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يضيع أجر عمل عامل من عباده قد عمل خيراً، فقال تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 171]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 115]، "أي: لا يضيع عند الله بل يجزيكم به أوفر الجزاء... لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً"[3].

وسواء أكان هذا العامل ذكراً أو أنثى كل يوفى حقه من غير فرق لأحد منهم، فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: 195].

---

(1) انظر: البغوي، معالم التنزيل (ج448/1).

(2) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص195 – 207).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج105/2).

2 – عدم محاسبة أحد على وزر غيره:

إن الحساب والجزاء يقوم على قاعدة أساسية تمثل قمة العدل الإلهي وهي مجازاة العباد بأعمالهم لا بأعمال غيرهم، فلا يحمل الحق تبارك وتعالى أحداً وزر غيره، فالمهتدي إنما يهتدي لنفسه، والضال ضلاله على نفسه، فقال تعالى: ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: 15]، وإن هذه القاعدة العظيمة تمثل إحدى الشرائع التي اتفقت الرسالات السماوية على تقريرها وإثباتها؛ حيث قال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: 36 – 41][1].

ومن رحمته وعدله سبحانه أنه أمر أنبياءه بتبليغ رسالاته إلى العباد دون تحمل وزر من تولى عنهم، وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه، وقد قال تعالى مخاطباً النبي ﷺ: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 20]، "أي: والله عليه حسابهم، وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وله الحكمة في ذلك، والحجة البالغة"[2].

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: "أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى، أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، بل كل نفس مأخوذة بجرمها ومعاقبة بإثمها. وأصل الوزر الثقل"[3]، وقال الإمام ابن كثير في تفسيرها – أيضاً – إنها: "إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأنه لا يُحمل من خطيئة أحد على أحد"[4].

3 – إطلاع العباد على ما قدمته أيديهم من أعمال:

من عدل الله تعالى في عباده إطلاعهم على ما قدموه من أعمال، صغيرها وكبيرها، سرها وجهرها، صالحها وطالحها؛ كي يحكموا على أنفسهم، ويعاينوا ما قد سلف منهم من أعمال، فلا

---

(1) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (196 – 197).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج26/2).

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ج157/7).

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (383/3 – 384).

يكون لهم بعد ذلك عذر، فقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30][1].

ولقد تحدث سيد قطب عن هذه الآية الكريمة التي هي مشهد من مشاهد يوم القيامة، فقال: "فها هي ذي النفوس تنظر في يوم القيامة، فإذا الذي عملته في الدنيا محضر بخيره وشره، وكأنما هو شيء مجسم يحضر، وتواجه به مواجهة حسية لا سبيل منها إلى الفرار. عندئذ تنبعث من هذه النفوس تلك الظلال النفسية التي ترسمها لنا مشخصة واضحة: إنها لتنفر مما عملته هي ذاتها نفوراً شديداً، وإنها لتود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. وإنها للحظات بائسة من الخزي والإشفاق والتمني الخائب، ترتسم شاخصة في هذه الكلمات القصار"[2].

وإطلاع العباد على ما قدمته أيديهم يكون بإعطائهم صحائف أعمالهم، وقراءتهم لها فيعاينوا ما قدموه بأنفسهم، ومعلوم من النصوص أن الله سبحانه قد أوكل بكل عبد ملكين يسجلان عليه أعماله صالحها وطالحها، وأنه إذا مات ختم على كتابه، فإذا جاء اليوم الآخر أعطي كتابه، وقيل له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً؛ حيث قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 13 – 14][3].

4 – إقامة الشهود على الكافرين والمنافقين:

إن أعظم الشهداء في يوم الحساب على العباد هو الله جل جلاله، فهو ربهم وخالقهم الذي لا يخفى عليه شيء أبداً، فإحاطته بأحوال عباده وأعمالهم حق لا ريب فيه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33].

وأهل الكفر والنفاق يشهد على أعمالهم الشهود يوم القيامة، مبتدئة بأعظم شهادة عليهم وهي شهادة الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 98]، ولكن الله يحب الإعذار إلى خلقه، فيبعث من مخلوقاته شهود على المكذبين الجاحدين حتى ينقطع العذر إليهم، ويكون إمعاناً لهم في تكذيبهم، وإهانتهم، وخزيهم، ولقد أشارت النصوص الكثيرة في الشهداء الذين يشهدون على العباد، فأول من يشهد على الأمم أنبياؤها

---

(1) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص198).

(2) سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن (ص236).

(3) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (198).

ورسلها، فيشهدون عليهم بالتبليغ وإقامة الحجة عليهم؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: 89]، وقوله: ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ هم الرسل عليهم السلام؛ لأن رسول كل أمة منها، كما قال تعالى: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[آل عمران: 164]، ولقد جاء في النصوص أن الكافرين يكذبون رسلهم، فيقولون ما جاءنا من نذير، فيشهد عليهم رسلهم بالتكذيب كما شهدوا عليهم بالبلاغ من قبل، بل وتشهد أمة محمد ﷺ للرسل بتبليغهم رسالات ربهم، ويكون الرسول محمد ﷺ عليهم شهيداً، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة: 143] فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة: 143]**"(1)(2).

ومن الشهود على العباد ملائكة الرحمن التي تشهد على ما كانوا يعملون في الحياة الدنيا، فقد جعل الله لكل عبد من عباده ملائكة يسجلون أعماله كلها، صغيرها وكبيرها، صالحها وطالحها، فإذا كان يوم القيامة وجدت كل نفس ما عملت محضراً في الصحائف والكتب، فإذا لج العبد في الخصومة، وأنكر وكذب الشهود الذين شهدوا عليه ختم الله على فيه، وأقام الله تعالى عليه شاهداً منه؛ حتى تقام الحجة الكاملة عليه، فتشهد عليه أركانه وجوارحه، فيجعل خالقها القدرة فيها على النطق والكلام، فتشهد عليه بما كسب في دنياه(3)، فعن أنس بن مالك ﷺ، قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: "**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**" قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: "**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ**

---

(1) [البخاري، صحيح البخاري، تفسير القرآن/قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [سورة البقرة: 143]، 21/6: رقم الحديث 4487].

(2) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص204 – 206).

(3) انظر: المرجع السابق (ص207).

شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ"[1].

وهكذا ينقطع على الكفرة والمنافقين كل الأعذار، وتغلق عليهم كل الحجج بإفحامهم بشهادة كل الشهود عليهم، حتى شهادتهم لأنفسهم القائمة على التكذيب والجحود لكل الدلائل والبراهين، فإنها سرعان ما تبطل وتفضح بشاهد من أنفسهم، وهي الجوارح الأعضاء التي تشهد عليهم بأمر من خالقها.

كانت هذه بعض القواعد الأساسية التي يحاسب العباد على أساسها يوم القيامة وتضمنتها سورة آل عمران، التي تمثل قمة العدل الإلهي في حسابه وجزائه لعباده، فلا تظلم نفس في الحساب والجزاء أبداً، فكل يوفى حقه كاملاً من غير نقصان أو ظلم لأحد منهم.

والحساب أنواع عند الله تعالى، فالناس في الحساب متفاوتون، والمحاسبون يوم القيامة أصناف، فمنهم من يحاسب حساباً عسيراً، ويسألون عن كل صغيرة وكبيرة، ويناقشون في كل جزئية من أعمالهم، وهؤلاء هم الكافرون المجرمون، وبعض عصاة الموحدين الذين قد يطول حسابهم ويعسر؛ بسبب كثرة آثامهم وعظمها، وتكون عاقبتهم بأن لا يقبل الله تعالى منهم الأعذار والحجج، ثم يأمر سبحانه منادياً ينادي على كل منهم بسيئاته وذنوبه، فيفتضح أمرهم بين الخلائق، ويلحقهم الخزي والهوان بهم، ويهلكون مع الهالكين[2].

ومن الناس من يحاسب حساباً يسيراً وهؤلاء هم المؤمنون، فلا يناقشون في الحساب، ولا يدقق ولا يحقق معهم، وإنما تعرض عليهم أعمالهم عرضاً لا مناقشة، ويطلعهم الله على سيئاتهم وذنوبهم، ويكرمهم بسترها وعدم اطّلاع غيرهم من الخلائق عليها، ثم يعفو عنهم، ويأمر بهم إلى الجنة، فعن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: "**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ**" فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا**﴾ [الانشقاق: 7 – 8]، فقال رسول الله ﷺ: "**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ**"[3]، فالمراد بالحساب المذكور في الآية العرض وهو: إبراز الأعمال وإظهارها له، فيعرف صاحبها بذنوبه وآثامه، ثم يتجاوز عنه، فالمؤمن لا يناقش الحساب؛ رحمة به وشفقة عليه، وحتى يعرف فضل الله ﷻ ومنته عليه في العفو والمغفرة[4].

---

(1) [مسلم، صحيح مسلم، الزهد والرقائق، ص1235: رقم الحديث 2969].

(2) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص215)، وياسين: محمد، الإيمان (ص65 – 66).

(3) [البخاري، صحيح البخاري، الرقاق/من نوقش الحساب عذب، 112/8: رقم الحديث 6537].

(4) انظر: السيد سابق، العقائد الإسلامية (ص252)، والمباركفوري: محمد، تحفة الأحوذي (ج96/7)، والأشقر، القيامة الكبرى (ص215 – 216).

ونقل ابن حجر عن القرطبي في معنى قوله ﷺ: "**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ**" أنه قال: "إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه حتى يعرف منة الله عليه في سترها عليه في الدنيا وفي عفوه عنها في الآخرة"[1].

فشتان بين حساب المؤمنين الصادقين المقرّين بذنوبهم يوم القيامة، وبين حساب الكافرين الكاذبين الجاحدين بذنوبهم، وهذا المشهد يوضحه حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: "**يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ**"[2].

وهناك صنف آخر من الناس دلت عليه النصوص – وهم طائفة من أمة محمد ﷺ – قد منَّ الله عليهم باستقصائهم من هذا الحساب، وإدخالهم الجنة من غير حساب ولا عذاب، فقد جاء عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: "**يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ**"[3].

ومما سبق يتبين أن الحساب والجزاء حق وهو مظهر من مظاهر اليوم الآخر، ويتعين على كل مسلم الإيمان به، من غير خوض في كيفيته، ومن غير زيادة عما جاء في النصوص أو نقصان، وأن الله ﷻ هو من يتولى حساب عباده، وأن الحساب يقوم على قواعد ارتضاها سبحانه لمحاسبة عباده، حيث يوفي كل نفس حقها كاملاً من غير نقص فيها، وأنه لا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً، فحكمه تعالى حكم يقوم على العدل المطلق الذي لا يشوبه ظلم أبداً، وأن كل نفس تحاسب على ما قدمت ولا تؤخذ بجريرة غيرها، ومن كمال عدله تعالى إطلاعه عباده على ما قدموه من أعمال، وأن الحساب أنواع فإن كان حساب بمناقشة فهو عسير وشديد، ويتبعه عقاب وعذاب، وإن كان حساب عرض فهو سهل ويسير لا عذاب فيه، وأن هناك أناساً وهم من أمة محمد ﷺ، استثناهم الله ﷻ من الحساب، فيدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قال صاحب كتاب (القيامة الكبرى): "ويشمل الحساب ما يقوله الله لعباده، وما يقولونه له، وما يقيمه عليهم من حجج وبراهين، وشهادة الشهود ووزن الأعمال. والحساب منه العسير، ومنه اليسير، ومنه التكريم، ومنه التوبيخ، والتبكيت، ومنه الفضل والصفح، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين"[4].

---

(1) ابن حجر، فتح الباري (ج402/11).

(2) [مسلم، صحيح مسلم، التوبة/قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ص1153: رقم الحديث 2768].

(3) [المصدر السابق، الإيمان/الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، ص107: رقم الحديث 216].

(4) الأشقر، القيامة الكبرى (ص185).

ثالثاً: أحوال الناس في يوم القيامة[1].

ذكرت سورة آل عمران بعض الأحوال التي يكون فيها الناس يوم القيامة، وهي كالآتي:

الأولى: حال الكفار.

1 – الخسران وإحباط أعمالهم:

إن أعمال الكفار في الحياة الدنيا قسمان[2]:

القسم الأول: أعمال قائمة على الطغيان، والبغي، والفساد في الأرض والعلو فيها، فلا يرجو أصحابها من ورائها خيراً، ولا تجني لهم ثماراً ولا يتوقعون عليها ثواباً، وأمثال هؤلاء اليهود الذين تجرّؤوا على الله وقتلوا أنبياءه وكل من يدعو إليه من رجال الدعوة والدين، الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأعمالهم الشنيعة هذه إنما سببها الكفر والعصيان واتباع الهوى، فاستحق من عمل هذه الأعمال ونحوها أن يكون مصيره سوء العاقبة والخسران، وحبوط أعماله، والعذاب الشديد في نار جهنم، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[آل عمران: 21 – 22].

القسم الثاني: أعمال يظن أصحابها أنها ستغني عنهم من الله شيئاً، كفعل الخيرات، وصلة الأرحام، والعتق، والصدقة وغيرها، فهذه الأعمال وإن كانت خيراً فهي لن تنفعهم؛ لكفرهم وإشراكهم بالله وما أنزل من التعاليم والأوامر، وأمثال هؤلاء أهل الكتاب بعد البعثة النبوية، الذين لم يؤمنوا بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، ولم يتبعوا الدين الذي جاء به، وفي الوقت نفسه فإن فريقاً منهم يجهدون أنفسهم بالعبادة وفعل الخيرات، ويظنون أنها تنفعهم عند الله تعالى، ولكن هذه الأعمال لا وزن لها ولا قيمة يوم القيامة؛ لأنها قامت على غير أساس، والأساس عند الله هو الإسلام، فإذا لم يكن المرء مسلماً موحداً كانت أعماله مردودة عليه غير مقبولة، فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران: 85]، فكل من كان كافراً بدين الإسلام أو انتسب إليه ثم أشرك بالله ما لم ينزل به سلطاناً حبطت أعماله وكانت عليه هباءً منثوراً، وهو في الآخرة من الخاسرين.

---

(1) لقد تم الاستعانة بطريقة التقسيم في أحوال الناس يوم القيامة التي دلت عليها سورة آل عمران من الأشقر صاحب كتاب (القيامة الكبرى)، وذلك بالاستفادة من عنونة بعض العناوين الفرعية لكل صنف من الناس، علماً بأن مضمون هذه العناوين لم يقتصر على هذا الكتاب بل شمل الاستعانة بمصادر أخرى تمت الإشارة إليها في هوامش هذا الموضوع من البحث. انظر: الأشقر، القيامة الكبرى، (ص107 – 156).

(2) انظر: الأشقر، القيامة الكبرى (ص113 – 115).

ولقد جاء في السنة المطهرة أن عائشة ﵂ قالت: قلت: يا رسول الله! ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: "**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**"[1].

2 – عدم قبول الفداء منهم يوم القيامة وعذابهم عذاباً أليماً:

"الفدية والفداء: البدل الذي يتخلص به المكلف عن مكروه توجه إليه"[2]، وهي: حفظ الإنسان عن النائبة بما يبذله عنه من مال ونفس ونحوه، فيتحامى من شيء بذله، ويقال افتدى: أي إذا بذل ذلك عن نفسه[3].

ولقد دلت السورة على عدم قبول الفداء من الكفار يوم القيامة وعذابهم عذاباً أليماً؛ حيث قال المولى ﷻ: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ** ﴾ [آل عمران: 91]، أي: إن مات الإنسان على الكفر فإنه لن يقبل منه خير أبداً، حتى لو أنفق ملء الأرض ذهباً، ويرى في إنفاقه أنه قربة، وكذلك لو افتدى الكفار عن أنفسهم من الله بملء الأرض ذهباً عن كفرهم ما قبل منهم فداءهم أبداً، ولن ينقذهم من عذاب الله شيئاً[4].

قال الإمام الطبري: "فلن يقبل ممن كان بهذه الصفة في الآخرة جزاء ولا رشوة على ترك عقوبته على كفره، ولا جعل على العفو عنه، ولو كان له من الذهب قدر ما يملأ الأرض من مشرقها إلى مغربها...؛ لأن الرشا إنما يقبلها من كان ذا حاجة إلى ما رشى. فأما من له الدنيا والآخرة، فكيف يقبل الفدية، وهو خلاق كل فدية افتدى بها مفتد من نفسه أو غيره؟"[5].

الثانية: حال عصاة المؤمنين.

وهؤلاء هم الذين ارتكبوا ذنوباً في الحياة الدنيا فأوقعتهم تلك الذنوب في اليوم الآخر بأحوال عسيرة وشاقة، ومن ذلك ما يلي:

1 – حال الذين لا يؤدون الزكاة:

إن الزكاة أحد أركان الإسلام، وهي حق من حقوق الله العظمى التي ينبغي أداؤها، فالمسلم الذي لا يؤدي زكاة أمواله أعد الله له عذاباً شديداً يوم القيامة، فيجعل ما بخل به من المال طوقاً

---

(1) [مسلم، صحيح مسلم، الإيمان/الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، ص107: رقم الحديث 214].

(2) الجرجاني، التعريفات (ص165).

(3) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن (ص627).

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج72/2).

(5) الطبري، جامع البيان (ج584/6 – 585)، بتصرف يسير.

من نار في عنقه كهيئة الأطواق المعروفة جزاءً نكالاً له، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: 180][1].

كما جاء في السنة المطهرة العديد من الأحاديث التي تصف حال مانع الزكاة يوم القيامة وعذابه بأصناف من العذاب بما بخل به، منها: أنه يمثل لصاحب المال ماله شجاعاً أقرع[2] له زبيبتان[3]، ويطوق عنقه ويأخذ بلهمزتيه[4]، قائلاً له: أنا مالك، أنا كنزك، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - ثُمَّ يَقُولُ أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ، ثُمَّ تَلاَ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾**[آل عمران: 180]"[5]، وقال ﷺ - أيضاً -: "**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**" قيل يا رسول الله، فالإبل؟ قال: "**وَلَا صَاحِبُ إِبِلٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، وَمِنْ حَقِّهَا حَلَبُهَا يَوْمَ وِرْدِهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، بُطِحَ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ[6]، أَوْفَرَ مَا كَانَتْ، لَا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا، تَطَؤُهُ بِأَخْفَافِهَا وَتَعَضُّهُ بِأَفْوَاهِهَا، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ أُولَاهَا رُدَّ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**"[7].

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج7/433)، والشوكاني، فتح القدير (ج1/464).

(2) الشجاع الأقرع: الحية الذكر، فالشجاع هو الحية وسمي بالأقرع؛ لأنه يقرع السم ويجمعه في رأسه حتى تتمعط منه فروة رأسه لكثر سمه، وإذا كان الشجاع أقرع كان أقوى سماً. انظر: الهروي، تهذيب اللغة (ج1/214)، والعيني، عمدة القاري (ج8/253) و(ج18/264).

(3) الزبيبتان: هما النقطتان السوداوان فوق عين الحية، وقيل إن الحية ذات الزبيبتين أخبث ما يكون من الحيات، كما أنهما علامتان للحية الذكر المؤذي. انظر: المصدر السابق، (ج8/253).

(4) بلهزمتيه: جمع اللهازم، واللهمزتان هما: مضيغتان في أصل الحنك، وهي لحم الخدين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان، واللهمزة هي: الشدق أي جانب الفم. انظر، المصدر نفسه، (ج8/253) و(ج18/154).

(5) [البخاري، صحيح البخاري، الزكاة/إثم مانع الزكاة، 2/106: رقم الحديث 1403].

(6) بطح لها بقاع قرقر: إن البطح معناه الإلقاء والبسط والمد وليس شرطاً أن يكون الإلقاء على الوجه، بل قد يكون على الظهر ومنه سميت بطحاء مكة؛ لانبساطها، والقرقر المستوي أيضاً من الأرض الواسع، والمعنى أنه يلقى ويبسط لها ويمد بأرض مستوية. انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج7/64 - 65).

(7) [مسلم، صحيح مسلم، الزكاة/إثم مانع الزكاة، ص382 - 383: رقم الحديث987].

فيكون حال الذين لا يؤدون الزكاة في اليوم الآخر عسيراً عليهم شديداً، حيث يلاقون من ألوان العذاب ما يستحقون على بخلهم بما آتاهم الله في الدنيا، فيكون عليهم مالهم الذي بخلوا به أطواقاً من نار في أعناقهم، ويمثل المال لهم شجاعاً أقرع يطوق أعناقهم، وإذا كان مالهم الذي بخلوا به ذهباً أو فضة جعله الله صفائح من نار تكوى بها أجسادهم، وإذا كان مالهم حيواناً كالإبل وغيره أرسله الله على أصحابه فيعذبهم به، وهكذا يكون بخل مانعي الزكاة حسرات عليهم يوم القيامة ويصب عليهم عذاباً عظيماً.

2 – حال من يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً:

يقــول الله تعــالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: 77].

فكل من كذب على الله، ونقض العهود والمواثيق، وكتم وبدل في الدين تحقيقاً لمكاسب دنيوية خسيسة، فأمثال هؤلاء فقدوا نصيبهم في الآخرة، وأهانهم الله وأذلهم ولحقهم الخسران المبين، فلا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، وذلك كما فعل أهل الكتاب من الأحبار والرهبان والعلماء بكتمان ما عندهم من العلم الذي جاء به أنبياؤهم، ككتمان صفة محمد ﷺ المكتوبة في كتبهم وإنكارهم لنبوته، رغم أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وكل من شابههم في فعلهم الخبيث فهو لاحق بهم[1].

قال الإمام الرازي: "إن الذين يشترون بعهد الله يدخل فيه جميع ما أمر الله به، ويدخل فيه ما نصب عليه الأدلة، ويدخل فيه المواثيق المأخوذة من جهة الرسول، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه؛ لأن كل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به"[2].

وقال سيد قطب عن مشهد أصحاب هذه الذنوب الذين لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم يوم القيامة: "فهو مشهد الإهمال والإهانة والاحتقار لمن عاهدوا ثم أهملوا عهدهم واشتروا به ثمناً قليلاً... أن الله لا يكلمهم ولا يزكيهم فزاد هنا أن الله لا ينظر إليهم أيضاً، والنظر أدنى من الكلام والتزكية، ولكنهم لا ينالونه أيضاً. فليسوا معترفاً بهم أدنى اعتراف. أليسوا قد نقضوا عهدهم مع الله واشتروا به ثمناً قليلاً من الناس؟ ألا إنهم ليستحقون الاحتقار والإهانة والإهمال!"[3].

ولقد جاء في السنة النبوية الكثير من الأحاديث التي تبين الذنوب التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك يوم القيامة، وحرمانه من كلام الله له، والنظر إليه، وتزكيته في هذا اليوم العظيم، ومن ذلك

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج527/6)، والأشقر، القيامة الكبرى (ص133 – 135).

(2) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج266/8).

(3) سيد قطب، مشاهد القيامة في القرآن (ص236)، بتصرف يسير.

ما روي عن أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ**[1] **وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**" قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مراراً، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: "**الْمُسْبِلُ**[2]، **وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**"[3]، وما رواه البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ: "أَنَّ رَجُلًا أَقَامَ سِلْعَةً وَهُوَ فِي السُّوقِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا مَا لَمْ يُعْطِ لِيُوقِعَ فِيهَا رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" فنزلت: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا** ﴾ [آل عمران: 77][4].

3 – الغلول:

يقول الله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾ [آل عمران: 161]، والغلول والإغلال: بمعنى الخيانة، إلا أن الغلول يكون في المغنم خاصة، والإغلال عام في كل شيء[5]، و"الغلول في المغنم أن يخفى شيء منه لا تقع عليه القسمة في ما لأهل المغنم فيه حق"[6].

---

(1) قال جمهور المفسرين في معنى (لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم): بأن معنى لا يكلمهم أي أنه لا يكلمهم كلاماً ينفعهم ويسرهم، وقيل: أي لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية، ومعنى لا ينظر إليهم: أي يعرض عنهم ولا يلتفت إليهم، ونظره سبحانه وتعالى لعباده رحمته ولطفه بهم، أي لا ينظر إليهم بعين الرحمة، أما معنى لا يزكيهم فهو: لا يطهرهم من أدناس الذنوب والخطايا، وقيل: لا يثني عليهم. انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج116/2)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج62/2)، ولقد ساق الإمام ابن كثير العديد من الأحاديث النبوية التي تتعلق بآية آل عمران: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [آل عمران: 77]. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (62/2 – 65).

(2) المسبل: هو الذي يرخي إزاره بحيث يكون جارّاً طرفه بخيلاء. انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج116/2).

(3) [مسلم، صحيح مسلم، الإيمان/ بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمن بالعطية، وتنفيق السلعة بالحلف، وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، ص58: رقم الحديث 106].

(4) [البخاري، صحيح البخاري، البيوع/ما يكره من الحلف في البيع، 60/3: رقم الحديث 2088].

(5) انظر: المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب (ص344)، وقد تم بيان معنى الغلول سابقاً، وتفسير آية آل عمران الحادية والستين بعد المائة المتعلقة بتحريم الغلول والوعيد لفاعله، وذلك في مطلب (الشروط الواجب توافرها في الرسل) (ص151) من هذا البحث.

(6) ابن أبي نصر، تفسير غريب ما في الصحيحين (ص50).

قال ابن الأثير في الغلول: "هو الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة. يقال: غل في المغنم يغل غلولاً فهو غال. وكل من خان في شيء خفية فقد غل. وسميت غلولاً؛ لأن الأيدي فيها مغلولة: أي ممنوعة"(1).

ولقد توعد الله تعالى الغال بفضحه بين الخلائق يوم القيامة، فقد قال تعالى: ﴿**وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾، ففيه تأكيد تحريم الغلول والتنفير من فعله، والوعيد الشديد لصاحبه يوم القيامة، ففاعله يختص بعقوبة على رؤوس الأشهاد، يعاينها ويطلع عليها أهل المحشر، حيث يأتي الغال يوم القيامة بما غله حاملاً له ويجازى عليه(2)، ويقول الإمام القرطبي في تفسيره للآية: "أي يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته، معذباً بحمله وثقله، ومرعوباً بصوته، وموبخاً بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد"(3).

وهكذا يكون حال أهل الغلول يوم القيامة حال الخزي والذل والاحتقار بما كسبت أيديهم وقدمت، فإنهم سينالون فوق جزائهم وعذابهم عقوبة افتضاح أمرهم السوء بين الخلائق أجمعين، ولقد حذر المبلِّغ الأمين ﷺ من ارتكاب مثل هذا الذنب العظيم، وأنه لا يملك لفاعله من الله شيئاً يوم القيامة، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قام فينا النبي ﷺ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره، قال: "**لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**"(4).

الثالثة: حال الأتقياء.

1 – الشهداء والمرابطون.

لقد أثنى الله تعالى على الشهداء والمرابطين في سبيله ثناءً حسناً، وسورة آل عمران هي إحدى السور التي شهدت بفضل الشهداء والمرابطين في سبيل الله وجزائهم خير الجزاء، فقال تعالى: ﴿ **وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا**

---

(1) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر (ج380/3).

(2) انظر: الشوكاني، فتح القدير (ج452/1).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج256/4).

(4) [البخاري، صحيح البخاري، الجهاد والسير/الغلول، 74/4: رقم الحديث 3073].

يَجۡمَعُونَ ﴾[آل عمران: 157]، وقال تعالى ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ** ﴾[آل عمران: 200].

"والرباط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، وأصله أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار لزوم الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً. والرباط: المواظبة على الأمر. قال الفارسي: هو ثان من لزوم الثغر، ولزوم الثغر ثان من رباط الخيل"(1)، فهي: الملازمة في سبيل الله بلزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، ومراقبة العدو ومنعه من الوصول إلى مقاصده، وكل ملازم لثغر من ثغور الإسلام فهو مرابط(2).

ولقد تميز الشهداء والمرابطون دون سائر الخلق بميزات كثيرة، وقد خصهم المولى ﷻ بمنحهم أعلى الدرجات وإكرامهم أفضل تكريم، فللمرابط في سبيل الله أجر عظيم وفضل عند ربه، وللشهيد خصال قد أعطاه الله إياها لم يعطها لأحد من المؤمنين، فكلاهما يضحي بنفسه من أجل مرضاة الله تبارك وتعالى، فكان جزاؤهما خير الجزاء في الآخرة بالتنعم النعيم الأبدي وملذاته، بل ومن كمال إكرامه لهم أنهم يكونون في أمن من الفزع الأكبر يوم القيامة، فإذا فزع الناس في هذا اليوم فإن الشهداء والمرابطين في مأمن من هذا الفزع منة من الله وفضلاً، وما أعظمه من جزاء وما أفضله من حال! فكل النفوس الطاهرة تطمح بهذه المكانة العظيمة وهذا الاختصاص الرباني.

ولقد جاء في السنة المطهرة الأحاديث العديدة في فضل الشهداء والمرابطين في سبيل الله، وأحوالهما في اليوم الآخر، ومن ذلك ما روي عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: "**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**"(3)، وقال ﷺ: "**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ وَرُبَّمَا قَالَ: خَيْرٌ - مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَمَنْ مَاتَ فِيهِ وُقِيَ فِتْنَةَ القَبْرِ، وَنُمِّيَ لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**"(4)، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال أيضاً:

(1) ابن منظور، لسان العرب (ج302/7).

(2) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج560/1)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص162).

(3) [الترمذي، سنن الترمذي، فضائل الجهاد/في ثواب الشهيد، 187/4: رقم الحديث 1663]، وبلفظ آخر [ابن ماجة، سنن ابن ماجة، الجهاد/فضل الشهادة في سبيل الله، 935/2: رقم الحديث 2799]، قال الألباني: إنه صحيح.

(4) [الترمذي، سنن الترمذي، فضائل الجهاد/ما جاء في فضل المرابط، 188/4: رقم الحديث 1665]، وقال الألباني: إنه صحيح. انظر: [الألباني، صحيح الجامع الصغير وزياداته، 655/1: رقم الحديث 3481].

"مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْرَى عَلَيْهِ أَجْرَ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، وَأَجْرَى عَلَيْهِ رِزْقَهُ، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَّانِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفَزَعِ"(1).

كما أن الشهيد يوم القيامة يبعثه الله وجرحه الذي جرح في سبيل الله معه، جرحه يثعب(2) دماً لونه لون الدم وريحه ريح المسك، إكراماً له وبياناً بفضيلته بين الخلائق أجمعين، فقد قال النبي ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ"(3).

يقول الإمام ابن حجر: "قال العلماء الحكمة في بعثه كذلك أن يكون معه شاهد بفضيلته ببذله نفسه في طاعة الله تعالى"(4).

فأهل الجهاد فضلهم ومكانتهم عند الله عظيمة؛ لبذلهم أنفسهم في سبيل الله ونصرة دينه، فاستحقوا الثواب في الدنيا والآخرة كما وعدهم سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 146 – 148]، أي: "فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة بالله في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في الله "ثواب الدنيا"، يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم وعدو الله، والظفر، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد "وحسن ثواب الآخرة"، يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنة ونعيمها"(5).

---

(1) [ابن ماجة، سنن ابن ماجة، الجهاد/فضل الرباط في سبيل الله، 924/2: رقم الحديث 2767]، قال الألباني: إنه صحيح.

(2) يثعب من مادة ثعب، قال ابن فارس: "الثاء والعين والباء أصل يدل على امتداد الشيء وانبساطه، يكون ذلك في ماء وغيره. قال الخليل: يقال ثعبت الماء وأنا أثعبه، إذا فجرته فانثعب، كانثعاب الدم من الأنف". ابن فارس، مقاييس اللغة (ج378/1)، وقال ابن منظور: "ثعب الماء والدم ونحوهما يثعبه ثعباً: فجره، فانثعب كما ينثعب الدم من الأنف... وفي الحديث: يجيء الشهيد يوم القيامة، وجرحه يثعب دما؛ أي يجري". ابن منظور، لسان العرب (ج236/1)، بتصرف يسير.

(3) [البخاري، صحيح البخاري، الجهاد والسير/من يجرح في سبيل الله ﷻ، 18/4: رقم الحديث 2803].

(4) ابن حجر، فتح الباري (ج20/6).

(5) الطبري، جامع البيان (ج275/7).

2 – الكاظمون الغيظ:

وتعريف كظم الغيظ في لغة العرب أي: "تجرعه واحتمال سببه والصبر عليه"[1]، "وهو الإمساك والجمع للشيء. من ذلك الكظم: اجتراع الغيظ والإمساك عن إبدائه، وكأنه يجمعه الكاظم في جوفه. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134] والكظوم: السكوت"[2].

وإن من الأخلاق الحميدة، التي يتحلى بها عباد الله الأتقياء عند تعرضهم للأذى، كظم الغيظ، فلا يخلو عبد مؤمن من التعرض لموقف عصيب يؤدي به إلى التألم والانفعال في نفسه، فيواجه أمرين: إما أن يواجه هذا الموقف ويجابه ويحتد لأجله، أو يضبط نفسه ويتجرع ألمه ويصبر عما يلاقيه من الأذى، ولكن الأتقياء غالباً ما يتجه سلوكهم إلى كظم غيظهم وتحمل ما هم فيه من أجل الآخرة وما أعده الله لهم، ومثل هذا المرء فإنه يستحق التكريم على سلوكه هذا الذي لا يطيقه إلا عباد الله المخلصين، فالجنة التي عرضها السماوات والأرض قد أعدت للمتقين الذين من صفاتهم كظم الغيظ، فقد قال تعالى في حقهم: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 133–134].

ومن إكرام الله تبارك وتعالى لمن كظم غيظه في الدنيا أن يدعوه يوم القيامة على رؤوس الخلائق ويخيره في أي الحور العين شاء، وما أعظمه من حال بأن يكافأ كاظم الغيظ من رب العزة بين الخلائق أجمعين! وما أعظمه من جزاء وتكريم لا يستحقه إلا أهل التقى والإيمان! فعن سهل بن معاذ، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: "**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ**"[3].

كانت هذه بعض أحوال الناس في يوم القيامة، والتي أشارت إليها السورة، فالجزاء من جنس العمل، وشتان بين الذين آمنوا والذين كفروا في هذا اليوم العظيم وما بعده، ويوضحه قوله تعالى الذي يشير إلى حال من تلك الأحوال التي يكون عليها كل من هذين الفريقين: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: 106–107]، والمقصود أن الناس يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوه المؤمنين مبيضة ووجوه الكافرين مسودة،

---

(1) ابن منظور، لسان العرب (ج520/12).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (ج184/5).

(3) [أبو داود، سنن أبي داود، الأدب/من كظم غيظاً، 248/4: رقم الحديث 4777]، وبلفظ آخر [ابن ماجة: سنن ابن ماجة، الزهد/الحلم، 1400/2: رقم الحديث 4186]، قال الألباني: حديث حسن.

كما أن هذه الصفة لكل من هذين الفريقين تكون ملازمة لهم في دار القرار، فتبييض وجوه المؤمنين هو من نعيم الجنة، وأما تسويد وجوه الكافرين فهو أحد صور عذابهم [1].

قال الإمام ابن عاشور: "وفي تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه، فيه تهويل لأمره، وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة، والوجوه المسودة: ترهيباً لفريق وترغيباً لفريق آخر... والبياض والسواد بياض وسواد حقيقيان يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة، وهما بياض وسواد خاصان؛ لأن هذا من أحوال الآخرة... قدم عند وصف اليوم ذكر البياض، الذي هو شعار أهل النعيم، تشريفاً لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته، ولأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم، عقب وعيد بالعذاب، حسرة عليهم، إذ يعلم السامع أن لهم عذاباً عظيماً في يوم فيه نعيم عظيم، ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساءتهم"[2]، وفي هذا الصدد – أيضاً – قال الإمام الرازي: "فهو تعالى ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض؛ لأن تقديم الأشرف على الأخس في الذكر أحسن، ثم ختم بذكرهم – أيضاً – تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب"[3].

ومما سبق نخلص بأن اليوم الآخر يعظم هوله بتضمنه المظاهر العظيمة التي ترهب منها النفوس، وأن من مظاهر هذا اليوم التي دلت عليها سورة آل عمران حشر العباد، وحسابهم وجزاؤهم، وبعض مشاهد يوم القيامة التي تصف أحوال الناس فيه، فقد تضمنت بعض الأحوال التي تخص الأتقياء منهم كالشهداء والمرابطين، والكاظمين الغيظ وما يلاقونه في هذا اليوم من تكريم وحسن جزاء، كما ذكرت حال بعض عصاة المؤمنين كأهل الغلول، والذين لا يؤدون الزكاة، والذين يشترون بعهد الله ثمناً قليلاً، وأما الكافرين فقد تحدثت عن حالهم في الموقف العظيم، الذي يتمثل بالخسران المبين وإحباط أعمالهم، وعدم قبول الفداء منهم وعذابهم عذاباً أليماً، وأن هذه الأحوال وغيرها إنما هي تحقيق للعدالة الربانية التي توفى فيها كل نفس ما كسبت وقدمت، من غير ظلم لأحد منهم، فسبحانه الحكم العدل الذي لا يساوي بين الموحدين المؤمنين والكفرة المجرمين، وهذه الأحداث إنما هي من مظاهر اليوم الآخر للوصول إلى دار القرار الجنة أو النار.

المطلب السادس: الجنة ونعيمها.

الجنة في الأصل هي: البستان من الشجر أو النخل، وهي مأخوذة من جنَّ بمعنى: الستر والتستر، والجنة هنا هي ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وسميت بذلك؛ لأن ثوابها

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج166/4)، والأشقر، الجنة والنار (ص96)، والتويجري، اليوم الآخر (ص62).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج44/4 – 45)، بتصرف يسير.

(3) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج319/8).

ونعيمها مستور عنهم في الدنيا إذ يستحيل تصوره أو تخيله، أو لأن نخيلها الباسقات وأشجارها المورقة تلتف أغصانها بعضها ببعض، فيستر ورقها، فتكون كالظلة تستر ما تحتها[1].

والجنة هي دار الجزاء العظيم، وهي دار النعيم التي أعدها الله لعباده الصالحين، وأوليائه المتقين، فجعلها موعدهم في الآخرة، وفيها مستقر سعادتهم الخالدة، فنعيمها كامل دائم لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، ومهما وُصف بها من وصف فإن العقول لا تدركه، وإن القلوب لا يخطر لها ما وجد فيها، فهذه الجنة التي وعد بها المولى ﷻ هي جنة أهل طاعته ومن فاز برضاه ومحبته، حيث جاء في الحديث القدسي عن رب العزة: "**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾"[2][السجدة: 17].

فالجنة هي أسمى المطالب العالية، التي تطمح إليها النفوس، وتأمل القلوب بالوصول إليها، ولكن طريق الفوز بها طريق صعب شاق، قد حُف بالمكاره والصعاب، وذلك كما أخبرنا المصطفى ﷺ: "**حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات**"[3]، فهو ليس بالأمر الهين اليسير، وحصوله ليس بمجرد التمني، بل يحتاج من الإنسان الجد والاجتهاد وعناية الله وتوفيقه للطاعات والصالحات، فالدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء وثواب، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: 185]، قال محمد قطب: "وتستوقفنا في السياق كلمة "زحزح".. إنها لفظة معبرة.. إنها توحي بالجهد والمشقة التي يتكبدها الإنسان ليبعد عن النار! وكأنما هي تجذبها إليها جذباً عنيفاً يحتاج إلى كل الجهد "ليزحزح" بعيداً عن جاذبيتها... والتعبير كذلك يخيّل أن هناك أيديَ كأنما تجذب الإنسان جذباً شديداً من الناحية الأخرى لتزحزحه عن النار وتدخله الجنة! فهو لا يتزحزح من تلقاء نفسه! ولو ترك وحده لاندفع إليها ووقع فيها.. إنما تأتي هذه الأيدي الخيرة فتجذبه لتنجيه من منطقة الجذب الخطرة التي لا يملك نفسه منها.. وإنها لأيدي

(1) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج421/1)، والسيد سابق، العقائد الإسلامية (ص265).
(2) [البخاري، صحيح البخاري، بدء الخلق، ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، 118/4: رقم الحديث 3244].
(3) [مسلم، صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ص1181، رقم الحديث 2822].

الهداة من الرسل، أو أيدي الملائكة الموكلين بالمؤمنين، أو هي يد الله الرحيمة سبحانه وتعالى تمتد لتنقذ عباده من الوقوع في النار"[1].

لذا كان دخول الجنة والنجاة من النار أمراً يستلزم الكفاح والجهاد، والصبر على التزام الطاعات واجتناب المعاصي للفوز بجنة الرحمن وسلعته، ألا إن سلعة الله غالية ولا تكون إلا لأصحاب الهمم العالية، حيث قال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ** ﴾[آل عمران: 142].

يقول الإمام ابن القيم:

"يا سلعة الرحمن لست رخيصة	**بل أنت غالية على الكسلان**
يا سلعة الرحمن ليس ينالها	**في الألف إلا واحد لا اثنان**
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها	**إلا أولو التقوى مع الإيمان**
يا سلعة الرحمن كيف تصبر ال	**خطاب عنك وهم ذوو إيمان**
يا سلعة الرحمن لولا أنها	**حجبت بكل مكاره الإنسان**
ما كان عنها قط من متخلف	**وتعطلت دار الجزاء الثاني**
لكنها حجبت بكل كريهة	**ليصد عنها المبطل المتواني**
وتنالها الهمم التي تسمو إلى	**رب العلى بمشيئة الرحمن**
فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد	**راحاته يوم المعاد الثاني"**[2]

فلا يدخل الجنة إلا عباد الله الأطهار الأبرار، فبعد اجتياز المؤمنون الصراط يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار؛ لاقتصاص بعضهم من بعض فيما كان بينهم من المظالم في الدنيا، فينقون من ذنوبهم ويهذبون، ثم يؤذن لهم في الدخول إلى الجنة، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: **"يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا"**[3][4].

---

(1) محمد قطب، دراسات قرآنية (ص414)، بتصرف يسير.

(2) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص355).

(3) [البخاري، صحيح البخاري، الرقاق/القصاص يوم القيامة، 111/8: رقم الحديث 6535].

(4) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص117).

قال الإمام ابن القيم: "فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث. فمن تطهر فى الدنيا ولقى الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر فى الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال. وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر فى النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها، حتى إن أهل الإيمان إذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيهذبون وينقون من بقايا بقيت عليهم، قصرت بهم عن الجنة، ولم توجب لهم دخول النار، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة"[1].

ولقد تحدثت سورة آل عمران عن الجنة ونعيمها، تلك المنة الإلهية التي تفضل الله بها على عباده المتقين في آخرتهم، وعن الجنة وصفتها وما يلاقيه أهلها من النعيم ما يلي:

أولا: الجنة وصفتها الواردة في السورة:

1 – الجنة مخلوقة غير فانية:

لقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة مخلوقة موجودة الآن، وأنها باقية لا تفنى أبداً، فالجنة هي دار الخلود والبقاء التي أعدت للثواب، حيث قال الإمام ابن تيمية: "وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك"[2]، وقال شارح الطحاوية: "والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه"[3].

ومن الأدلة التي جاءت في السورة وتثبت أن الجنة مخلوقة موجودة الآن حقيقة قوله تعالى:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾

[آل عمران: 133]، حيث أثبتت الآية أن الجنة مخلوقة ودلالتها في ذلك قوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، ومعلوم أن الإعداد هو تهيئة الشيء مسبقاً[4]، فالجنة مهيأة مخلوقة موجودة قد أعدها الله لأوليائه المتقين.

(1) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ج56/1).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج307/18).

(3) ابن أبي العز، شرح العقيدة الطحاوية (ص420).

(4) انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج29/4).

ولقد قال الإمام القرطبي في هذه الآية: "وعامة العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة: لقوله ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾"[1].

كما جاء في السورة من الدلائل – أيضاً – قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: 169]، فجاء عن مسروق أنهم قد سألوا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية فقال: **"أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: "أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً"، فَقَالَ: "هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا"**[2].

ولقد جاء في نص حديث الإسراء ما يؤكد خلق الجنة وأنها موجودة، حيث قال رسول الله ﷺ: **"فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ، مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهَا فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ، فَلَمَّا جَاءَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ: افْتَحْ، قَالَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ هَذَا جِبْرِيلُ قَالَ: مَعَكَ أَحَدٌ قَالَ: مَعِي مُحَمَّدٌ، قَالَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ فَافْتَحْ،... ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى أَتَى بِي السِّدْرَةَ المُنْتَهَى، فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لاَ أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الجَنَّةَ، فَإِذَا فِيهَا جَنَابِذُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا المِسْكُ"**[3].

ومن الأدلة – أيضاً – قوله ﷺ: **"وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا"** قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: **"رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ"**[4].

أما الدلائل التي تثبت خلود الجنة وأنها باقية لا تفنى أبداً فهي كثيرة جداً، ومن ذلك ما جاء في السورة في قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ [آل عمران: 15]، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: 107]، فدلالة الآيات على خلود الجنة وبقائها في الآية الأولى قوله: ﴿ خَٰلِدِينَ

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج4/205).

(2) [مسلم، صحيح مسلم، الإمارة/بيان أن أرواح الشهداء في الجنة، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، ص818: رقم الحديث 1887]

(3) [البخاري، صحيح البخاري، أحاديث الأنبياء/ذكر إدريس عليه السلام، 4/135: رقم الحديث 3342].

(4) [مسلم، صحيح مسلم، الصلاة/تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما، ص177: رقم الحديث 426].

فِيهَا ﴾، وفي الثانية قوله أيضاً: ﴿ **هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾، فالمؤمنون الذين ابيضت وجوههم هم في رحمة الله خالدون، أي: أنهم في جنته ونعيمها باقون فيها أبداً بغير نهاية أو انقطاع[(1)].

ومما جاء في السنة المطهرة ويدل على خلود الجنة وأهلها الخالدين في نعيمها قول النبي ﷺ: "**يُقَالُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ لاَ مَوْتَ**..."[(2)]، وقوله ﷺ: "**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**" فذلك قوله ﷻ: ﴿ **وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: 43]"[(3)].

2 – درجات الجنة، وتفاوت أهلها فيها:

من صفة الجنة أنها درجات وأهلها متفاوتون فيها بحسب منازلهم فيها[(4)] فقد قال الله تعالى: ﴿ **أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [آل عمران: 162– 163]، فالجنة منازل وكذلك النار، وهي مختلفة عن بعضها البعض، ومنازل الجنة يطلق عليها درجات، والدرجة هي الرتبة وما يرتقى عليه، ومنه الدرج؛ لأنه يطوى رتبة بعد رتبة، فهي للمرتقين من أهل الرضوان، والأشهر في منازل النار دركات، والدركات ما يتدلى فيه، فهي للمتدلين من أهل السخط، فالدرك إلى أسفل، والدرج إلى أعلى، وذكر الدرجات من باب التغلب فهي تشمل الدركات أيضاً، والمؤمن والكافر لا يستويان في الدرجة، ثم المؤمنون يختلفون أيضاً في المنزلة والدرجة، فبعضهم أرفع درجة من بعض، وكذلك الكفار[(5)].

ودرجات الجنة كثيرة بعضها فوق بعض، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا**"، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: "**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ**

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج96/7)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج169/4).

(2) [البخاري، صحيح البخاري، الرقاق/يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، 113/8: رقم الحديث 6545].

(3) [مسلم، صحيح مسلم، صفة القيامة والجنة والنار/في دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿ **وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾، ص1185: رقم الحديث 2837].

(4) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص147).

(5) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج263/4)، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار (ج179/4 – 181).

وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ[1] **– أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**"[2]، وهذا الحديث وغيره مما فيه ذكر لعدد درجات الجنة بأنها مائة لا يفيد الحصر، فالحديث لا ينفي بأن يكون عدد درجات الجنة فوق المائة، وذلك بأن تكون هذه المائة من جملة الدرجات، فهذه المائة ينالها آحاد أمته ﷺ بالجهاد، أي أن هذه الدرجات من جملة درجات الجنة الكثيرة، والجنة مقببة أعلاها وأوسعها ووسطها هو الفردوس وسقفه العرش كما في الحديث، ثم إن منزلة النبي ﷺ فوق هذا كله فيكون في درجة في الجنة ليس فوقها درجة، ونظير هذا التوجيه قوله ﷺ: "**إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ**"[3] أي: من جملة أسمائه تعالى هذا القدر، فالمراد من أحصى هذه الأسماء وحفظها دخل الجنة، لا الإخبار بحصر هذه الأسماء، وهناك تفسير آخر وهو إما أن تكون درجات الجنة نهايتها هذه المائة وفي ضمن كل درجة درجة دونها وذلك كقوله ﷺ: "**يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ اقْرَأْ وَاصْعَدْ، فَيَقْرَأُ وَيَصْعَدُ بِكُلِّ آيَةٍ دَرَجَةً حَتَّى يَقْرَأَ آخِرَ شَيْءٍ مَعَهُ**"[4] فهذا صريح في أن درجات الجنة تزيد على مائة درجة[5].

كما أن أهل الجنة متفاوتون في المنزلة فيها كل حسب درجته في العمل والفضل، وتحصيل هذه الدرجات إنما يكون في الحياة الدنيا، وأما التمتع بها فيكون في دار الآخرة، فأهل الدرجات العلى في الجنة في نعيم أرقى من الذين دونهم، حتى إنه ليراهم من هو أسفل منهم – أي أقل منهم في الدرجة والمنزلة – كالنجوم في السماء، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: "**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**" قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: "**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**"[1]، وقد قال الإمام القرطبي: "اعلم أن هذه الغرف مختلفة في العلو والصفة بحسب اختلاف أصحابها في الأعمال، فبعضها

---

(1) قوله: (أوسط الجنة) أي: أفضلها، ويحتمل أن يراد منه أن الفردوس في متوسط الجنة، والجنة قد حفت بها من كل الجهات، أو أن المراد بالأوسط السعة، وقوله: (وأعلى الجنة) معناه: أرفعها، فالمراد بالأعلى الفوقية، فسبحانه قد مدح الجنان إذا كانت في علو. انظر: العيني، عمدة القاري (ج90/14).

(2) [البخاري، صحيح البخاري، الجهاد والسير/درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال، هذه سبيلي وهذا سبيلي، 16/4: رقم الحديث 2790].

(3) [المصدر السابق، الشروط/ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار، والشروط التي يتعارفها الناس بينهم، وإذا قال: مائة إلا واحدة أو ثنتين، 198/3: رقم الحديث 2736].

(4) [ابن ماجة: سنن ابن ماجة، الأدب/ثواب القرآن، 1242/2: رقم الحديث 3780]، قال الألباني: إنه صحيح، وشرح فؤاد عبد الباقي من هذا الحديث (فيقرأ ويصعد) أي: ارتفع في درجات الجنة.

(5) انظر: ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص66 – 67)، و(ص77 – 79).

(1) [البخاري، صحيح البخاري، بدء الخلق/ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، 119/4: رقم الحديث 3256].

أعلى من بعض وأرفع... وقوله: والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ولم يذكر عملاً ولا شيئاً سوى الإيمان والتصديق للمرسلين، ذلك ليعلم أنه عنى الإيمان البالغ وتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج، وإلا فكيف تنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة، ولو كان كذلك لكان جميع الموحدين في أعالي الغرفات وأرفع الدرجات، وهذا محال، وقد قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان: 75] والصبر بذل النفس. الثبات له وقوفاً بين يديه بالقلوب عبودية، وهذه صفة المقربين... فلا يكون العمل الصالح الذي لا يشوبه فساد إلا مع إيمان بالغ مطمئن صاحبه بمن آمن وبجميع أموره وأحكامه، والمخلط ليس إيمانه وعمله هكذا. فلهذا كانت منزلته دون غيره"[1][2].

وقال الإمام ابن تيمية: "والجنة درجات متفاضلة تفاضلاً عظيماً، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم... قال تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 21]. فبين الله سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا، وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا"[3].

وفي تفاضل أهل الجنة في الدرجات العلى يقول الإمام ابن القيم:

"ويرى الذين بذيلها من فوقهم مثل الكواكب رؤية بعيان
ما ذاك مختصاً برسل الله بل لهم وللصديق ذي الإيمان"[4]

3 – عظم سعة الجنة:

إن الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين تتصف بعظم سعتها التي تفوق كل سعة، ويستحيل معرفة سعتها الحقيقية، فالجنة وغيرها من الأمور الغيبية لا تدرك حقيقتها إلا عن طريق النصوص، فلا يعلم ذلك كله إلا من أحاط بكل شيء علماً، ولكن هناك بعض النصوص التي ذكرت عرض الجنة، ومن ذلك ما جاء في السورة في قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: 133]، وما جاء في السنة المطهرة أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: "**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**"[1]،

---

(1) القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص966)، بتصرف يسير.

(2) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص150 – 151).

(3) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (ج11/188)، بتصرف يسير.

(4) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص314).

(1) [مسلم، صحيح مسلم، الإمارة/ثبوت الجنة للشهيد، ص823: رقم الحديث 1901].

ولكن كان للعلماء في تفسير هذه النصوص، من حيث معنى عرض الجنة، بأنها مثل عرض السماوات والأرض – حقيقة وصف عرض الجنة – وجوه عديدة، أهمها(1):

الأول: أن المراد من ذلك أن تقرن السماوات والأرضون السبع بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض، أي لو جعلت طبقاً طبقاً بحيث تكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحاً مؤلفاً من أجزاء لا تتجزأ، ثم وصل بعضها ببعض بحيث تكون طبقاً واحداً فذلك هو عرض الجنة، ويدل هذا على غاية سعة الجنة وعظمها، وأن طولها لا يعلمه إلا الله، وهذا هو قول ابن عباس ﵄ وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء.

الثاني: أنه لم يقصد تحديد العرض حقيقة إنما المراد بيان سعة الجنة وعظمها، فالكلام جار على مقطع العرب من الاستعارة، فحسنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض، وذلك كما تقول للرجل: هذا بحر، وتشبيه عرضها بعرض السماوات والأرض يقصد منه المبالغة بما هو في تصور السامعين، أي أنها أوسع شيء رأيتموه، فهذا التشبيه إنما في السعة والعظم، كما قال سبحانه: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ [لقمان: 28]، بمعنى: إلا كبعث نفس واحدة، فجرى في عادة العرب أنها إذا وصفت الشيء بالسعة وصفته بالعرض، فكان وصف سعة الجنة وعظمها بوصف عرضها، أي أنها عريضة غاية في السعة.

أما وجه تخصيص العرض بالذكر دون الطول، فجوابه من وجوه(2):

الأول: أنه إذا كان عرض الجنة بذلك الوصف فالظاهر أن يكون طولها أعظم، فذكر العرض دون الطول تنبيهاً على اتساع طولها وعظمه، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ [الرحمن: 54]، فوصف البطائن بأحسن ما يعلم من الزينة – الإستبرق(3) –، وإذا كان هذا هو حال البطائن فما ظنك بالظهائر؟ ومعلوم أن البطائن تكون أقل حالاً من الظهائر، فالظهائر تكون أحسن وأتقن، وهكذا في الجنة فقد ذكر عرضها بهذا الوصف فما الظن بطولها؟

قال الإمام القرطبي: " نبه تعالى بالعرض على الطول؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر العرض"(1)، وهذا كلام غاية في الصحة فقد يكون الطويل يسير العرض، فمثلاً الخيط عندما يكون طويلاً يوصف بأنه طويل ومع ذلك يكون عرضه

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج207/7 – 208)، وابن عطية، المحرر الوجيز(ج509/1)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج204/4 – 205)، والرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج365/9).

(2) انظر: الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج365/9 – 366)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج204/4 – 205)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج117/2).

(3) الإستبرق: هو ما غلظ من الديباج. انظر: ابن كثير (ج503/7).

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج204/4 – 205).

دقيقاً، فاختصاص العرض بالذكر لأنه يدل – متى ذكر – على الطول، والطول – إذا ذكر – لا يدل على قدر العرض[1].

الثاني: ليس المراد بالعرض ما هو خلاف الطول، بل يقصد منه السعة وذلك كما تقول العرب: بلاد عريضة، وفلاة عريضة، أي واسعة، فجعل العرض كناية عن السعة كما ذكر من قول البعض في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة.

الثالث: وهناك من قال إن عرضها كطولها؛ لأنها قبة تحت العرش، ومعلوم أن الشيء المقبب والمستدير عرضه كطوله، وقد دل على ذلك قوله ﷺ: "**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**"[2].

ومما سبق نخلص أنه أياً كان الأمر في مسألة عرض الجنة الواردة في آية آل عمران: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ**﴾ فإن ذلك يدل على عظم سعة الجنة، وينبغي مراعاة أمرين، **الأول:** عدم الخوض والتكلف بالبحث في مسائل الغيبيات من حيث حقيقة كنهها، فهو أمر غيبي محجوب عنا مرجعه إلى الله عالم الغيب والشهادة، فينبغي على العبد التسليم والتصديق لما جاء في النصوص مع فهمه لها فهماً عاماً بما يصل المعني إلى الأفهام، كهذه المسألة إذ الغرض منها إثبات غاية سعة الجنة وعظمها، **أما الأمر الثاني:** تفسير النصوص الشرعية على معناها الظاهر من غير صرف لألفاظها بمعنى آخر – أي التأويل[3] – ما لم توجد قرينة واضحة في النص تصرفه عن هذا المعنى المراد، وذلك كما فعل جمهور العلماء في هذه الآية من إثبات عرض الجنة بعرض السماوات والأرض حقيقة كما ذكر في الآية، من غير خوض في تقدير مساحتها الحقيقية، أو معرفة عرضها حسابياً؛ لأن هذا لا يعلمه إلا الله تعالى، ثم إن الإنسان لو أراد الخوض والتكلف في البحث عن المساحة الحقيقية، خاصة أنه لم يذكر طولها، فهناك سؤال بسيط وهو: أنه هل من المستطاع حسب مساحة السماوات والأرض السبع حتى يعرف عرضها فيعرف عرض الجنة؟ إن من المؤكد استحالة هذه المعرفة، فلا يعلم ذلك كله إلا خالق كل شيء الذي يحيط بكل شيء علماً، والأصح في هذه المسألة القول بما ذهب إليه جمهور العلماء بأن نثبت ما جاء في صفة الجنة من أن عرضها عرض السموات والأرض، وأن طولها لا يعلمه إلا الله تعالى، وذلك كما أخبرت النصوص، وفي هذا دلالة على عظم سعة الجنة.

---

(1) انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج509/1).

(2) سبق تخريجه: (ص317) من هذا البحث.

(3) تأويل الكلام: أي تفسيره وبيان معناه، كالذي يعنيه الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره حين يقول: "القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا" ونحو ذلك، فإن مراده التفسير، فهذا هو معنى التأويل عند السلف، أما التأويل في عرف المتأخرين فهو: "صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به"، وهو التأويل المقصود في العبارة. انظر: القطان، مباحث في علوم القرآن (ص325 – 326).

ولقد جاء في السنة المطهرة الأحاديث الكثيرة التي تبين عظم سعة الجنة، ومن ذلك ما ورد عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: "**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ، وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ** ﴿**وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ**﴾ [الواقعة: 30]"[1]، كما قال ﷺ بخصوص هذه الشجرة العظيمة التي لا يقدر عظمها إلا الذي خلقها: "**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا**"[2].

وعن سعة أبواب الجنة فقد أخبرنا النبي ﷺ أن الذين لا حساب عليهم قد خصهم سبحانه بباب خاص دون غيرهم وهو باب الجنة الأيمن، وهم – أيضاً – شركاء مع بقية الأمم في أبواب الجنة الأخرى، وأن ما بين جانبي الباب كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ**[3] **مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى**"[4][5].

ثانياً: نعيم الجنة الوارد في السورة.

إن نعيم الجنة يفوق الوصف؛ إذ يستحيل للعقل تصوره وتخيله، فنعيمها لا مثيل له على الإطلاق، وليس لنا في معرفة نعيم الجنة إلا ما أخبرت به نصوص الكتاب والسنة، ومن نعيمها ما ورد في سورة آل عمران، وهو ما يلي:

1 – رضوان الله ﷻ:

إن أكبر النعم وأعظمها إحلال رضوان الله ﷻ على أهل الجنة، فهو أفضل نعيم أعطي للمؤمنين فيها، وكذلك رؤيته سبحانه، فهاتان النعمتان لا يضاهيهما نعيم ولذة بجانبهما، ولقد ذكرت السورة إحدى هاتين النعمتين ألا وهي رضوان الله تعالى على أهل جنته؛ فقد قال تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ**

---

(1) [البخاري، صحيح البخاري، بدء الخلق/ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، 119/4: رقم الحديث 3252].

(2) [المصدر السابق، الرقاق/صفة الجنة والنار، 114/8: رقم الحديث 6552].

(3) المصراعان: جانبا الباب، وهجر الواردة في هذا الحديث هي مدينة عظيمة تعد قاعدة بلاد البحرين، وهي غير هجر المذكورة في حديث إذا بلغ الماء قلتين بقلال هجر التي هي قرية من قرى المدينة كانت القلال تُصنع بها، وأما بصرى فهي مدينة معروفة بينها وبين دمشق نحو ثلاث مراحل وهي مدينة حوران، وبينها وبين مكة شهر. انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج69/3).

(4) [مسلم، صحيح مسلم، الإيمان/أدنى أهل الجنة منزلة فيها، ص101: رقم الحديث 194].

(5) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص145).

﴿ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 15]، وقال سبحانه – أيضاً – في سورة أخرى: ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 72].

والرضوان هو مصدر من الرضى، ورضوان الله يعني: رضاه، فرضوانه أعلى منازل كرامة أهل الجنة(1).

يقول الإمام ابن كثير: "﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: يحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم بعده أبداً؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى التي في براءة: ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ ﴾ [التوبة: 72] أي: أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم"(2).

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**"(3).

قال الإمام ابن القيم في كلام الله تعالى لأهل جنته، وإحلال الرضوان عليهم الذي هو أفضل نعيم الجنة:

"أوما علمت بأنه سبحانه — حقاً يكلم حزبه بجنان
فيقول جل جلاله هل أنتم — راضون قالوا نحن ذو رضوان
أم كيف لا نرضى وقد أعطيتنا — ما لم ينله قط من إنسان
هل ثم شيء غير ذا فيكون أف — ضل منه نسأله من المنان
فيقول أفضل منه رضواني فلا — يغشاكم سخط من الرحمان"(1)

2 – الأنهار:

قال الله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: 195]، وأيضاً قال المولى ﷻ بعدها بآيتين: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ

---

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج6/262)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج1/411).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج2/22).
(3) [البخاري، صحيح البخاري، الرقاق/صفة الجنة والنار، 8/114: رقم الحديث 6549].
(1) ابن القيم، متن القصيدة النونية (ص346).

﴿ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: 198]، فالآيات قد تضمنت ذكر الأنهار التي هي من نعيم الجنة، وأن هذه الأنهار لها صفة الجريان فتجري من تحتها.

فالقرآن الكريم قد جاء وتكرر فيه العديد من المواضع التي تفيد أن أنهار الجنة جارية، وهذا يدل على أمور[1]:

الأول: أن الأنهار موجودة في الجنة وأنها حقيقية.

الثاني: وأنها جارية لا واقفة.

الثالث: وأن هذه الأنهار تكون تحت غرف أهل الجنة وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا، وهذا هو المقصود من ذلك الجريان.

يقول الإمام ابن القيم: "وقد ظن بعض المفسرين أن معنى ذلك جريانها بأمرهم وتصريفهم لها كيف شاؤوا، كأن الذي حملهم على ذلك أنه لما سمعوا أن أنهارها تجري في غير أخدود فهي جارية على وجه الأرض، حملوا قوله تجري من تحتها الأنهار على أنها تجري بأمرهم؛ إذ لا يكون فوق المكان تحته، وهؤلاء أوتوا من ضعف الفهم. فإن أنهار الجنة وإن جرت في غير أخدود فهي تحت القصور والمنازل والغرف وتحت الأشجار وهو سبحانه لم يقل من تحت أرضها وقد أخبر سبحانه عن جريان الأنهار تحت الناس في الدنيا فقال ﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَا لَمۡ نُمَكِّن لَّكُمۡ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡهِم مِّدۡرَارٗا وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴾ [الأنعام: 6] فهذا على ما هو المعهود والمتعارف، وكذلك ما حكاه من قول فرعون ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ ﴾ [الزخرف: 51]"[1]، وهذا إنما من آياته تعالى حيث يُجري تلك الأنهار في غير أخدود.

وأنهار الجنة متنوعة فهي غير مقتصرة على الماء، بل فيها أنهار من لبن، وخمر، وعسل مصفى، فقد قال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى ﴾ [محمد: 15].

يقول الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية الكريمة: "﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ ﴾ يقول تعالى ذكره في هذه الجنة التي: ذكرها أنهار من ماء غير متغير الريح... وقوله ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ ﴾ يقول تعالى ذكره: وفيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه؛ لأنه لم يحلب من حيوان

(1) انظر: ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص178).

(1) ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص178).

فيتغير طعمه بالخروج من الضروع، ولكنْ خلقه الله ابتداء في الأنهار، فهو بهيئته لم يتغير عما خلقه عليه. وقوله ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يقول: وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين يلتذون بشربها... وقوله ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ يقول: وفيها أنهار من عسل قد صفي من القذى، وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية"[(1)].

قال الإمام ابن القيم: "فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا فآفة الماء أن يأسن[(2)] ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي في اللذة وشربها، وآفة العسل عدم تصفيتة. وهذا من آيات الرب تعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها... وتأمل اجتماع هذه الأنهار الأربعة التي هي أفضل أشربة الناس، فهذا لشربهم وطهورهم، وهذا لقوتهم وغذائهم، وهذا للذتهم وسرورهم، وهذا لشفائهم ومنفعتهم والله أعلم"[(3)].

ولعل سائلاً يسأل عن فائدة قوله: ﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ وأنهار الجنة جارية، والماء الجاري لا يأسن؟

وجوابه: أن الماء الجاري وإن كان لا يأسن فإنه إذا أخذ منه ماء وطال مكثه أسن، ولكن هذا منتف عن ماء الجنة فلا يعرض له ذلك ولو طال مكثه[(1)].

وجاء في السنة المطهرة أن أنهار الجنة تتفجر من أعلى درجة فيها، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ – أُرَاهُ – فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**"[(2)].

كما جاءت الأحاديث العديدة التي تذكر أسماء أنهار في الجنة، ومن ذلك نهر الكوثر الذي أعطاه الله تعالى لرسولنا ﷺ، بل وسميت سورة من القرآن الكريم باسم هذا النهر، وهي سورة الكوثر، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: 1]، وفي وصف هذا النهر قال ﷺ:

---

(1) الطبري، جامع البيان (166/22 – 168)، بتصرف يسير.

(2) أسن الماء يأسن أي: إذا تغير. انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة (ج104/1).

(3) ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص179 – 180)، بتصرف يسير.

(1) انظر: المصدر السابق، ص180.

(2) سبق تخريجه: (ص317) من هذا البحث.

"**الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمَجْرَاهُ عَلَى الدُّرِّ وَاليَاقُوتِ، تُرْبَتُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَمَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ العَسَلِ، وَأَبْيَضُ مِنَ الثَّلْجِ**"(1).

ومن أسماء أنهار الجنة – أيضاً – ما ورد عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ**"(2).

3 – الأزواج المطهرة:

يقول الله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ [آل عمران: 15].

والأزواج جمع زوج وهي امرأة الرجل، وقد يقال الزوجة ولكنه لم يأت في القرآن، وأما المقصود بالأزواج المطهرة فهنَّ نساء الجنة اللواتي طهرن من كل أذى مما يكون لنساء أهل الدنيا، فنساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات في الخَلْق والخُلُقْ، أي مطهرات تطهيراً مادياً ومعنوياً، فأما تطهيرهنّ المادي في خَلْقهن فيكون بعدم حدوث الحيض، والنفاس، والغائط، والبول، والمخاط، والبُصاق لهن، وما شابه ذلك من الأذى والدنس والمكاره، وأما طهارتهن المعنوية المتمثلة في خُلُقهن أي: أنهن مطهرات من كل خلق ذميم كالغيرة، والحسد، وبذاءة اللسان، والنظر إلى غير أزواجهن، وغير ذلك مما ذم وفحش من الصفات التي لا تليق بنساء الجنة اللواتي جعلهن الله نعيماً من نعيم الجنة، فنساء الجنة ليس كمثلهن أحد، فهن الزوجات الطاهرات المطهرات من كل خبث وأذى(1).

يقول الإمام ابن القيم في نعيم النفس بالأزواج المطهرة إنها: "من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبذاء، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ"(2).

فنساء أهل الجنة مطهرات خَلْقاً وخُلُقاً، متصفات بالحسن والجمال الذي لا مثيل له، فقال سبحانه: ﴿**فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57)**

---

(1) [الترمذي، سنن الترمذي، تفسير القرآن/ومن سورة الكوثر، 449/5: رقم الحديث 3361]، قال الألباني: إنه صحيح.

(2) [مسلم، صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها/ما في الدنيا من أنهار الجنة، 2183/4: رقم الحديث 2839].

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج395/1)، و(ج261/6 – 262)، وابن عطية، المحرر الوجيز (ج411/1)، والسمرقندي، بحر العلوم (ج199/1).

(2) ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص217).

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: 56 – 58]، وقال رسول الله ﷺ عن جمالهن الذي لا نظير له: "**وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا**(1) **عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**"(2)(3).

والأزواج المطهرة التي هي من نعيم الجنة تتفاوت أعدادها بحسب منزلة ودرجة الرجل في الجنة، حيث إن أدناهم منزلة يكون له زوجتان من الحور العين، فقد قال النبي ﷺ: "**إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، رَجُلٌ صَرَفَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ قِبَلَ الْجَنَّةِ، وَمَثَّلَ لَهُ شَجَرَةً ذَاتَ ظِلٍّ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، قَدِّمْنِي إِلَى هَذِهِ الشَّجَرَةِ أَكُونُ فِي ظِلِّهَا، قَالَ: ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، فَتَقُولَانِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا، وَأَحْيَانَا لَكَ**"(4).

أما الشهيد الذي له الكثير من الفضائل والكرامات فإنه يُزوج باثنتين وسبعين من الحور العين، فعن رسول الله أنه قال ﷺ: "**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**"(5).

ومن أهل الجنة من يكون له الزوجات التي لا يعلم عددهن إلا الله، كما جاء في الآية السابقة: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ [آل عمران: 15]، وما جاء في السنة الشريفة أن النبي ﷺ قال: "**مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ اللَّهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ**"(1).

فالأزواج المطهرة نعيم من نعيم الجنة يتصفن بصفات لا مثيل لها على الإطلاق، فهن نساء مطهرات من كل خبث مادي ومعنوي، كما ويتفاوت عددهن حسب منزلة ودرجة الرجل في الجنة، وهن جزء من النعيم الأخروي وملذاته الخالدة.

---

(1) وَلَنَصِيفُهَا: هو الخمار. انظر: ابن حجر، فتح الباري (ج15/6).

(2) [البخاري، صحيح البخاري، الجهاد والسير/الحور العين، وصفتهن يحار فيها الطرف، شديدة سوداء العين، شديدة بياض العين، 17/4: رقم الحديث 2796].

(3) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص238 – 239).

(4) [مسلم، صحيح مسلم، الإيمان/أدنى أهل الجنة منزلة فيها، 175/1: رقم الحديث 188].

(5) سبق تخريجه: (ص309) من هذا البحث.

(1) سبق تخريجه: (ص311) من هذا البحث.

كانت تلك بعض أصناف النعيم التي يلاقيها عباد الله الصالحين في آخرتهم، التي تبين أن الجنة وما فيها من النعيم لا مثيل له على الإطلاق، فنعيمها أفضل بكثير من متاع الحياة الدنيا، بل لا وجه للمقارنة بحقيقة كل منهما أبداً، فما أعده الله من نعيم الآخرة لا يُضاهى جزء منه بكل متاع الدنيا وشهواتها، ومقارنته سبحانه للدنيا والآخرة في الكثير من المواضع، إنما يكون لذم الدنيا وبيان فضل الآخرة عليها، لا لوجود أدنى شبه بما فيهما من المتاع، فطبيعة الإنسان تميل وتتأثر لمتاع الدنيا ذلك الواقع المحسوس المشهود، ونعيم الجنة غيب موعود غير مدرك، وحتى لا يثقل على قلوب الناس ترك ما بين أيديهم في مقابل شيء ينالونه في موعد لاحق، بل موعد سينالونه بعد انتهاء آجالهم في الدنيا، فكانت الحكمة من هذه المقارنة لعدم تفضيل الدنيا على الآخرة والركون إليها، وإنما ينبغي أن يكون أكبر الهم هو العمل للآخرة، فالنعيم الأخروي مفضل على متاع الدنيا القريب العاجل؛ إذ إن نعيم الآخرة باق خالد ومتاع الدنيا زائل فان، علماً بأن هذا لا يعني ترك طيبات الحياة الدنيا التي خلقها الله لعباده، ولا تكون طاغية على الآخرة، بل المذموم هو الانشغال في متاع الدنيا عن الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: 14–15][1].

ويتبين مما سبق، من خلال السورة، أن الجنة هي أسمى المطالب وأعلاها، وأن سبيل الوصول إليها يحتاج إلى الجد والعمل الذي تحفه رعاية الله وتوفيقه، وأنها دار ثواب أعدت لأصحاب الهمم العالية بمشيئة الرحمن، وأنها سلعة الله الغالية التي لا ينالها إلا أهل التقى والإيمان، فلا يدخلها إلا الأخيار الأطهار الأبرار، وأن صفة الجنة ونعيمها حق لا ريب فيه ثابت بالقرآن والسنة، فمن صفة الجنة أنها مخلوقة غير فانية، وأنها درجات وأهلها متفاوتون متفاضلون فيها كل حسب عمله، وأنها متصفة بعظم سعتها بما يستحيل للمرء تخيله أو تصوره، كما أنها مخلوقة موجودة الآن لا تفنى أبداً ولا تبيد، فهي دار خلود وبقاء، أما نعيمها فهو نعيم دائم لا ينقطع أبداً، وأن أهلها متنعمون بأصناف من النعيم أعظمه رؤية الله تعالى وإحلال رضوانه عليهم، بجانب أصناف النعيم والملذات الأخرى التي لا تعد ولا تحصى، كأنهارها التي تجري من تحتها، والأزواج المطهرة التي جعلت متاعاً فيها.

---

(1) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص215 – 216).

قال الإمام ابن القيم في وصف الجنة ونعيمها: "وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده وجعلها مقراً لأحبابه، وملأها من رحمته وكراماته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهي اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة لا من الحطب والخشب، وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال، ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور... وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفي عام... وإن سألت عن حليهم وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ على الرؤوس ملابس التيجان، وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم لؤلؤ مكنون، وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواعب الأتراب"(1).

المطلب السابع: النار وجحيمها.

إن النار هي دار البوار (1) والهلاك، التي أعدها الله للكافرين والمنافقين والعصاة في الآخرة، فهي عذابه الذي يعذب بجحيمه أعداءه من المتمردين المستكبرين على شرعه، المكذبين الجاحدين لأنبيائه ورسله، فهي مأوى وسجن الفجار المجرمين، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[آل عمران: 151]، وهي دار العقاب العظيم، فلا عقوبة أعظم من عقوبتها، وهي دار الشقاء، والآلام، والحسرات، وهي الخزي الأكبر، والخسران المبين، فلا خزي أكبر من خزيها، ولا خسارة أكبر منها، قال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن

---

(1) ابن القيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص280 – 281)، بتصرف يسير.

(1) وذلك من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 28 – 29]. انظر: أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن (ص219)، ولقد وجه المفسرون دار البوار في هذه الآية توجيهات عدة، هي: الهلاك وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: يوم بدر، وقيل: النار بدلالة قوله تعالى بعدها في الآية التي تليها: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، وبالتالي فإن النار يطلق عليها دار البوار. انظر: الطبري، جامع البيان (ج10/16 – 11)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج9/365).

﴿ تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [آل عمران: 192][1]، فبئس الجحيم جحيمها، وبئس المهاد مهادها، فقد قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [آل عمران: 12].

قال الإمام الرازي: "والمهاد: الموضع الذي يتمهد فيه وينام عليه كالفراش، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾ [الذاريات:48] فلما ذكر الله تعالى مصير الكافرين إلى جهنم أخبر عنها بالشر؛ لأن بئس مأخوذ من البأساء وهو الشر والشدة"[2].

ولقد عرف الإمام السفاريني هذه الدار الموحشة ونارها قائلاً: "هي دار البوار ومقر الكفار، وهي جسم لطيف محرق يطلب العلو، تُذكر وتؤنث، وألفها منقلبة عن واو بدليل تصغيره على نويرة، وتجمع جمع قلة على نيرة وأنوار، وجمع كثرة على نيران ونور، والنور ضوؤها وضوء كل نير، وهو ضد الظلمة"[3].

ولقد تحدثت سورة آل عمران عن النار وجحيمها وما يلاقيه أهلها فيها من العذاب، وهذه الأمور كما يلي:

أولاً: أسماء النار.

إن النار واحدة في الذات، ولكنها متعددة الصفات[1]، ومن أشهر أسمائها الواردة في السورة:

1 – النار: وهذه التسمية وردت في سورة آل عمران عشر مرات[2]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 131].

---

(1) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص11)، والتويجري، اليوم الآخر (ص61).

(2) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج155/7)، بتصرف يسير.

(3) السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج219/2)، بتصرف يسير.

(1) انظر: التويجري، اليوم الآخر (ص61).

(2) لقد وردت تسمية النار عشر مرات في سورة آل عمران – أي نار الآخرة – علماً بأنه ورد لفظ النار في الآية الثالثة والثمانين بعد المائة ولم تضف في العد للفظ النار؛ لأنها لم تقصد النار التي أعدت للكافرين في الآخرة وذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: 183]، حيث قال الإمام ابن عطية: "(وقربان) مصدر سمي به الشيء الذي يقرب كالرهن، وكان أمر القربان حكماً قديماً في الأنبياء، ألا ترى أن ابني آدم قربا قرباناً، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا معرفة قبول الله تعالى لصدقة إنسان أو عمله أو صدق قوله، قرب قرباناً شاة أو بقرة ذبيحة أو بعض ذلك وجعله في مكان للهواء وانتظر به ساعة، فتنزل نار من السماء فتحرق ذلك الشيء، فهذه علامة القبول، وإذا لم تنزل النار فليس ذلك العمل بمقبول، ثم كان هذا الحكم في أنبياء بني إسرائيل، وكانت هذه النار أيضاً تنزل لأموال الغنائم فتحرقها، حتى أحلت الغنائم لمحمد ﷺ". انظر: ابن عطية، المحرر الوجيز (ج549/1).

2 – جهنم: كما وردت هذه التسمية في السورة ثلاث مرات، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196 – 197].

وإن اسم النار، وجهنم، وغيره مما ورد في نصوص القرآن الكريم كاسم الجحيم، والسعير، وسقر، والحطمة، ولظى، ودار البوار[1]، هي اسم علم للنار كلها، وليس لجزء منها دون جزء[2] – كما سيتم بيانه لاحقاً –، فالنار واحدة في ذاتها، وتعدد أسمائها إنما لكونها متعددة الصفات، فقد سميت جهنم لبعد قعرها[3]، وسميت الجحيم لشدة تأجج نارها[1]، وسميت السعير لتوقدها فهي موقدة مسعرة[2]، وسميت سقر لإذابتها وإحراقها، أي أنها لا تبقي أحداً إلا وقد أذابته وأحرقته[3]، وسميت الحطمة "لأنها تكسر كل ما يلقى فيها وتحطمه وتهشمه"[4]، وسميت لظى لأنها تتلظى أي لتلهبها[5]، كما أنها دار البوار بمعنى دار الهلاك[6].

ثانياً: النار مخلوقة خالدة لا تبيد، وأهلها فيها خالدون.

لقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن النار مخلوقة وهي خالدة لا تبيد، كما قال شارح الطحاوية: "والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان، وهذا مذهب الجمهور"[7].

---

(1) تعد هذه الأسماء من أشهر أسماء النار، فاسم (الجحيم) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المائدة: 10]، و(السعير) كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7]، و(سقر) كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: 48]، و(الحطمة) كقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: 4 – 6]، و(لظى) كقوله تعالى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: 15 – 17]، و(دار البوار) كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 28 – 29]. انظر: التويجري، اليوم الآخر (ص61).

(2) انظر، الأشقر، الجنة والنار (ص26).

(3) انظر: الخازن، لباب التأويل (ج37/1).

(1) انظر: المصدر السابق (ج74/1).

(2) انظر: المصدر نفسه، (ج345/1).

(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج77/19).

(4) المصدر السابق (ج184/20).

(5) انظر: الخازن، لباب التأويل (ج341/4).

(6) انظر: المصدر السابق (ج37/3).

(7) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية (ص132).

قال الإمام السفاريني: "فثبت بما ذكرنا من الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة خلود أهل الدارين خلوداً مؤبداً كل بما هو فيه من نعيم وعذاب أليم، وعلى هذا إجماع أهل السنة والجماعة، فأجمعوا أن عذاب الكفار لا ينقطع، كما أن نعيم أهل الجنة لا ينقطع، ودليل ذلك الكتاب والسنة"[1].

وسورة آل عمران تضمنت الأدلة التي تثبت ذلك، فعن كون النار مخلوقة موجودة الآن حقيقة قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 131].

قال الإمام القرطبي: "في هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة...؛ لأن المعدوم لا يكون معداً"[2]، ومعلوم – أيضاً – أن الإعداد في لغة العرب – وقد ذُكر ذلك في المطلب السابق[3] – أنه تهيئة الشيء مسبقاً، ولقد أورد الإمام الرازي ما يفيد ذلك – أيضاً – بسؤال وجواب في تفسيره حيث قال: "هل تدل الآية على أن النار مخلوقة الآن أم لا؟ الجواب: نعم؛ لأن قوله: أعدت إخبار عن الماضي فلا بد أن يكون قد دخل ذلك الشيء في الوجود"[4]، فأعدت للكافرين إثبات كونها معدة لهم كما أن الجنة أعدت للمتقين في قوله تعالى بعدها: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133].

وأما عن كون النار خالدة لا تبيد، وأهلها فيها خالدون فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 116]، فخلود أهل النار – كما هو في الآية – هو الدليل نفسه لخلود النار أيضاً، أما المقصود من أصحاب النار فهم أهلها من الكفرة والمشركين دون غيرهم، المخلدون فيها أبداً إلى غير أمد ولا نهاية، المقيمون فيها الماكثون من غير انقطاع في ذلك أبداً، ولذلك هم أصحابها لعدم خروجهم منها أو مفارقتهم لها، وذلك مثل صاحب الرجل الذي لا يفارقه[1].

فأهل النار خالدون فيها لا يرحلون ولا يبيدون– وهؤلاء هم الكفار والمشركون –، ولما كان الأمر كذلك في حقهم فإن النار تعد بالنسبة لهم سكناً ومأوى، كما أن الجنة مسكن المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]، فهي مأواهم تتولى

---

(1) السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج234/2).

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج203/4).

(3) انظر: (ص315) من هذا البحث.

(4) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج364/9).

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج552/1)، والبغوي، معالم التنزيل (ج497/1).

أمرهم كما قال سبحانه: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الحديد: 15]، كما أنها بئس المسكن والمثوى؛ حيث قال تعالى: ﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 197][1].

ولقد جاء في السنة المطهرة الأحاديث الكثيرة في خلود أهل النار، ومن ذلك ما قاله النبي ﷺ: **"يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ[2] – زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ: فَيُوقَفُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الْحَدِيثِ – فَيُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَشْرَئِبُّونَ[3] وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ: وَيُقَالُ: يَا أَهْلَ النَّارِ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ قَالَ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، قَالَ فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ، قَالَ: ثُمَّ يُقَالُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ"[4].**

ثالثاً: صفة النار الواردة في السورة.

وجاء في وصف النار العديد من الأوصاف في القرآن الكريم من ذلك: ما جاء في سورة آل عمران بأن عذابها عظيم، كما وصفه سبحانه بأنه أليم، ووصفه – أيضاً – بأنه مهين، فقال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 176 – 178].

كما أن النار اسم جامع للملتهبة وغير الملتهبة، فهي تشمل كلاً منهما، وفي السورة ورد اسم للملتهبة من النار وهي الحريق، حيث قال تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: 181)، فالحريق صفة لها، أي أن هذه النار محرقة ملتهبة، كما جاء في وصفها أن عذابها أليم، أي أنه: مؤلم[1].

---

(1) الأشقر، الجنة والنار (ص49 – 50).

(2) الكبش الأملح: هو الأبيض الخالص وقد قاله ابن الأعرابي، وقال الكسائي: هو الذي فيه بياض وسواد، وبياضه يكون أكثر. انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج17/185).

(3) فيشرئبون: أى أنهم يرفعون رؤوسهم إلى المنادي. انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج17/185).

(4) [مسلم، صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها/النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ص1188: رقم الحديث 2849].

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج7/447)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج4/295).

قال الإمام الطبري: "﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، يعني بذلك: عذاب نار محرقة ملتهبة"[(1)]، وقال الإمام ابن عطية: "والذوق مع العذاب مستعار، عبارة عن المباشرة، إذ الذوق من أبلغ أنواعها وحاسته مميزة جداً، والحريق معناه: المحرق"، فالنار وما لها من الصفات كالحريق هي عذاب وجحيم لأهلها.

وفي وصف النار قال رسول الله ﷺ: "**نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ**" قالوا: والله إن كانت لكافية، يا رسول الله قال: "**فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا**"[(2)]، فنار الدنيا تمثل جزءاً من سبعين جزءاً من نار جهنم، وفي هذا دلالة على شدة حرها وعظم إيلامها بما يفوق الوصف والإدراك.

وفي صفة النار – أيضاً – تضمنت السورة ما يلي:

1 – دركات النار.

إن من صفة النار أنها متفاوتة في شدة حرها، وأهلها متفاوتون في العذاب، كل بحسب درجته وما عمل من السيئات والذنوب، فالنار ليست درجة واحدة، بل هي دركات بعضها أسفل بعض، فالدرك يكون إلى جهة الأسفل، وكلما ذهبت النار إلى الأسفل كلما علا حرها واشتد لهيبها، فقال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]؛ حيث إن المنافقين لهم النصيب الأكبر من العذاب فهم في الدرك الأسفل من النار؛ وذلك لغلظ كفرهم، وتمكنهم من أذى المؤمنين، وقد تسمى النار – أيضاً – درجات، ولكن الأشهر في منازلها أنه يطلق عليها دركات وأن الجنة درجات، وفي هذا الصدد يقول الإمام القرطبي: "وإنما قال: أدراك ولم يقل درجات لاستعمال العرب لكل ما تسافل درك، ولكل ما تعالى درج، فيقول للجنة درج وللنار درك"[(1)]، فالدرك إلى أسفل والدرج إلى أعلى[(2)].

وفي المطلب السابق تم ذكر أن الدركات هي ما يتدلى فيه، فهي للمتدلين من أهل السخط، حيث قال الله ﷻ: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٦٢ هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: 162– 163]، فذكر الدرجات في هذه

---

(1) الطبري، جامع البيان (ج446/7).

(2) [مسلم: صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها/في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، ص1186: رقم الحديث 2843].

(1) القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص838).

(2) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص25)، والتويجري، اليوم الآخر (ص65).

الآية هو للجنة والنار وذلك من باب التغليب، فهي تشمل الدركات أيضاً، وأهلهما متفاوتون في درجاتهم فيهما، سواء كان ذلك بين المؤمنين، أو الكافرين، باستحالة التسوية بينهما في الدرجة، أو التسوية بين المؤمنين مع بعضهم البعض في الدرجة والمنزلة، وكذلك الكفار فيما بينهم كل حسب آثامه وذنوبه يلقى عذابه[1].

فكما أن النار دركات بعضها أشد عذاباً من بعض كان أهلها متفاوتين في العذاب، وقال صاحب كتاب (عقيدة المؤمن): "إن تفاوت العذاب بين أهل النار في دار البوار ثابت مقطوع به، صرحت بذلك الأحاديث النبوية الصحاح، وهو تابع لتفاوت أعمالهم، وما كسبوا من خير وشر في هذه الحياة الدنيا، كما هو مقتضى العدل الإلهي القاضي بأن تُجزى كل نفس بما عملت، لها ما كسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شر... بحسب كسبهم الإرادي الاختياري في الحياة الدنيا"[2]، ولقد قال رسول الله ﷺ في تفاوت العذاب بين أهل النار: "**مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْزَتِهِ**[3]**، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ**[4]" وفي رواية: "**وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إِلَى عُنُقِهِ**"[5][1].

كما أنه ينبغي التنويه لأمر غاية في الأهمية وهو أن بعض العلماء اعتبر أن جهنم، ولظى، والحطمة، والسعير، وسقر، والجحيم، والهاوية هي أسماء دركات النار، وأن أعلى هذه الدركات جهنم وأدناها الهاوية[2]، ومثل هذا التقسيم لا يصح، كما أنه لم يصح تسمية دركات النار على النحو الذي ذكروه، والصحيح في هذه المسألة أن كل واحد من هذه الأسماء كجهنم، ولظى، والحطمة وغيرها هي أسماء علم للنار كلها، وليس لجزء منها دون جزء، مع صحة ما ذكروه من أن أهل النار متفاوتون في عذابهم بالنار كل على قدر كفره وذنوبه[3].

ولقد علق الإمام القرطبي على هذه المسألة قائلاً: "قلت: ومثله لا يكون رأياً وإنما بدر توقيفاً، ثم من هذه الأسماء ما هو اسم علم للنار كلها بجملتها. نحو جهنم وسقر ولظى وسموم،

---

(1) انظر: (ص317) من هذا البحث.

(2) الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص230)، بتصرف يسير.

(3) حُجْزَتِهِ: "هي معقد الإزار والسراويل". النووي، شرح النووي على مسلم (180/17).

(4) تَرْقُوَتِهِ: "هي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق". المصدر السابق (ج180/17).

(5) [مسلم، صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها/في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين، ص1186 – 1187: رقم الحديث 2845].

(1) انظر: الجزائري: أبو بكر، عقيدة المؤمن (ص230)، والأشقر، الجنة والنار (ص91).

(2) انظر: السفاريني، لوامع الأنوار البهية (ج219/2).

(3) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص26).

فهذه أعلام ليست لباب دون باب فاعلم ذلك. وفي التنزيل ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[الطور: 27] يريد النار بجملتها"[1].

2 – وقود النار.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 10]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة: 24]، وقال الحق تبارك وتعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6]، فوقود النار – أي حطبها الذي تسجر وتوقد به [2] – كما ذكرت الآيات هو الناس والحجارة، والمراد بالناس الذين توقد النار بهم هم الكفرة والمشركون[3]، ولا يمنع أن يدخل هذه النار غير الكافرين من عصاة أهل التوحيد الذين لم يشركوا بالله شيئاً، ولكن لهم من الذنوب الكثيرة التي فاقت حسناتهم وتبعاً لها قد خفت موازينهم، فاستحقوا العذاب ودخول النار مدداً لا يعلمها إلا الله ﷻ، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، كما يخرج الله برحمته أقواماً منهم بعد دخولهم النار[4]، ولقد غلط بعضهم عندما ظن أن مثل هؤلاء لا يدخل في الوعيد المذكور في الآيات: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ مستشهدين بقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ التي في سورة البقرة وأن هذا في حق الكافرين دون غيرهم، وأنها من صلة (التي) في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 131]، ولكن الحقيقة أن التي في سورة البقرة قد وصلت بقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ ولهذا فإنه لا يجوز أن توصل بصلة ثانية، أما الموضع الذي في سورة آل عمران ليس له صلة غير ﴿أُعِدَّتۡ﴾[1].

قال الإمام الرازي في هذا الصدد: "أما قوله: أعدت للكافرين فإنه يدل على أن هذه النار الموصوفة معدة للكافرين، وليس فيه ما يدل على أن هناك نيراناً أخرى غير موصوفة بهذه الصفات معدة لفساق أهل الصلاة"[2]، كما أنه قال – أيضاً – في الموضع الذي جاء في سورة آل عمران: "إن قوله: أعدت للكافرين إثبات كونها معدة لهم، ولا يدل على الحصر، كما أن قوله في الجنة

---

(1) القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص840).

(2) انظر: جامع البيان، الطبري (ج222/6)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج15/2).

(3) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص29).

(4) انظر: المرجع السابق (ص58).

(1) انظر، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج236/1 – 237).

(2) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج353/2).

﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133] لا يدل على أنه لا يدخلها سواهم من الصبيان والمجانين والحور العين"[1].

أما الحجارة التي هي من وقود النار فقد ذهب بعض السلف أنها من الكبريت الذي لا يعلم حقيقته إلا الله ﷻ، وهذا النوع من الأحجار يكون وقوداً للنار لما له من الميزات ما لا يكون لغيره، فهذا النوع – كما قال العلماء – إنه يزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب، هي: سرعة الاتقاد، ونتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرارته[2]، وقال بعض المفسرين إن هذه الحجارة التي توقد بها النار هي الأصنام لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: 98 – 99]، حيث قال الإمام القرطبي في هذه الآية: "أي إنكم يا معشر الكفار والأوثان، التي تعبدونها من دون الله، وقود جهنم، قاله ابن عباس"[3].

فالكفار وما يعبدون هم حصب جهنم أي: وقودها وحطبها[4]، والحكمة من إلقاء هذه الأصنام في النار للاستهزاء بعابديها الذين اعتقدوا أنها تشفع لهم في الآخرة، وتدفع عنهم العذاب، ولكنهم يجدون غير الذي قدروه، فيزدادون حسرة وغماً لكونها سبباً لعذابهم في جهنم، فتكون كالعدو لهم، والنظر إلى وجه العدو يعد باباً من العذاب[1].

وفي جعل الناس والحجارة وقوداً دليل على أن نار جهنم مشتعلة من قبل زج الناس فيها، وأن الناس والحجارة إنما تتقد بها؛ لأن نار جهنم هي عنصر الحرارة كلها، كما دلَّ عليه حديث النبي ﷺ في قوله: "**إِذَا اشْتَدَّ الحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلاَةِ، فَإِنَّ شِدَّةَ الحَرِّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ**"[2]، وإذا اتصل الإنسان بالنار وألقي فيها اشتعل ونضج جلده، وإذا اتصلت بها الحجارة صهرت، وفي هذا من العذاب الشديد ما فيه[3].

---

(1) الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج364/9).
(2) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج235/1)، والأشقر، الجنة والنار (ص29).
(3) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج343/11).
(4) انظر: الطبري، جامع البيان (ج535/18)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج343/11).
(1) انظر: الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج187/22).
(2) [البخاري: صحيح البخاري، مواقيت الصلاة/الإبراد بالظهر في شدة الحر، 113/1: رقم الحديث 533].
(3) انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج345/1).

كما أن قوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ لا يمنع أن يكون غير الناس والحجارة وقوداً للنار أيضاً، فهو غير مقتصر عليهما بدليل أن الجن والشياطين تكون وقوداً للنار كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 119][1].

رابعاً: عذاب أهل النار الوارد في السورة.

إن النار عذابها شديد وأليم فيها من الجحيم والأهوال ما تشيب منه النواصي، وترتعد منه القلوب، ومهما ذكر من عذابها فلن تستطيع العقول إدراك حقيقته، ولا تحمل النفوس مدى وقعه، وكفى بعظمة عذاب النار وما فيها من الجحيم ما ورد في وصف أخف أهل النار عذاباً أن رسول الله ﷺ قال: "**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ، تُوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ[2] جَمْرَةٌ، يَغْلِي مِنْهَا دِمَاغُهُ**"[3]، وقال ﷺ أيضاً: "**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ[4] مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ[5]، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**"[1]، وإذا كان هذا هو حال أخف أهل النار عذاباً فما هو حال أشدهم عذاباً؟! ولو امتثل الكافرون لرسالات ربهم في حياتهم الدنيا ما كان الله ليعذبهم، وإنما عنادهم، وكبرهم، وإعراضهم عن الحق أدى بهم إلى سوء العاقبة في أخراهم، فكان الجزاء من جنس العمل، حيث قال الحق تبارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 25]، فعذابهم في النار هو تحيق للعدالة الربانية.

وإن هؤلاء الكفار المجرمين لن يدفع عنهم شيء من عذاب نار جهنم حتى لو افتدى الواحد منهم بنفسه ملء الأرض ذهباً، فإنه لن يقبل منه أبداً، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ

---

(1) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج235/1)، والأشقر، الجنة والنار (ص57).

(2) أخمص قدميه هو: "المتجافي من الرجل عن الأرض". انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج86/3).

(3) [البخاري: صحيح البخاري، الرقاق/صفة الجنة والنار، 115/8: رقم الحديث 6561].

(4) شراكان: المفرد منها الشراك "وهو أحد سيور النعل وهو الذي يكون على وجهها وعلى ظهر القدم". انظر: النووي، شرح النووي على مسلم (ج86/3).

(5) الْمِرْجَلُ: هو قدر من حديد أو نحاس أو حجارة أو خزف، وقيل: هو القدر من نحاس، فجعله خاصاً فيه، ولكن الأول هو المعروف والأصح. انظر: المصدر السابق (ج86/3).

(1) [مسلم: صحيح مسلم، الإيمان/أهون أهل النار عذاباً، ص107: رقم الحديث 213].

﴿ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران: 91]، فإنه لن تنفعهم أو تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً.

أما عن صور عذاب أهل النار التي أشارت إليها السورة فقد تحدثت عن عذاب له وقع أليم ومهين على نفوسهم وهو تسويد الوجوه، حيث يسوِّد الله في الدار الآخرة وجوه الكافرين، وهو نوع من أنواع العقاب والعذاب، فقد قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: 106]، حتى إن سواد وجوههم من شدته يكون كأنما حلت ظلمة الليل على وجوههم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: 27][(1)]، فما أعظمه من عقاب، وما أعظمه من ذل وخزي أمام الخلائق أجمعين!

كما أنَّ من عذاب الكفار أن مهادهم في الآخرة بئس المهاد؛ ففراشهم من نار، بل وإن النار محاطة بهم من كل ناحية وجهة، كيف لا؟ وهم الذين أحاطت بهم ذنوبهم ومعاصيهم، مما أدى إلى هلاكهم بالنار وإحاطتها بهم، فإن الجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: 12]، وقال سبحانه في موضع آخر من السورة – أيضاً –: ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: 196 – 197] – بئس المهاد أي: الفراش – كما ذكر –، والدليل على أنه بئس المهاد قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: 41]، أي: "ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع، كالفراش الذي يفرش، والبساط الذي يبسط. (ومن فوقهم غواش). وهو جمع "غاشية"، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم. وإنما معنى الكلام: لهم من جهنم مهاد من تحتهم فرش، ومن فوقهم منها لحف، وإنهم بين ذلك"[(1)]، كما ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ [الزمر: 16]، ففي هذه الآيات دلالة على عظم ما يلاقيه أهل النار من الجحيم، فالنار تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ومن كل جهة وناحية، وفيها دليل – أيضاً – على إحاطة النار بأهلها، ولقد

---

(1) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص96).

(1) الطبري، جامع البيان (ج12/435 – 436).

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: 49]، كما أن الإحاطة تأتي من ناحية أخرى وهي أن للنار سوراً يحيط بهم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29]، وسرادق النار: سورها، وقيل: حائط من نار يحيط بهم (1).

ومن شدة الإمعان في عقوبة أهل النار وعذابهم حرمانهم كلام الله تعالى لهم، أي: كلام الخير والرحمة وكل ما يلطف عنهم، وحجابهم عن رؤيته سبحانه، حيث إنهم محجوبون عن الله تعالى فلا يكلمهم كلام لُطْفٍ بهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، فهم المستبعدون عن هذه النعم التي هي من أعظم الكرامات والنعم في الآخرة؛ فهذه النعم خاصة بأهل التقى والإيمان، وليس لأهل الفجور والعصيان، وهذا هو أشد أنواع العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: 77]، فسبحانه لا يكلمهم بما يسرهم ويحبون، وأما الكلام الذي يسوؤهم ويكرهون فإنه سيكلمهم به، فكلامه سبحانه لهم فيه حق لا ريب فيه، حيث قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ (107) قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:107-108]، كما أنه لا ينظر إليهم نظرة رحمة يوم القيامة، وهم محجوبون عن رؤية ربهم جل وعلا، قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ (15) ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين: 15 – 16](1).

كانت هذه صوراً لعذاب أهل النار الواردة في السورة، التي تمثل جزءاً يسيراً بجانب ما ورد في عذاب أهل النار في الكتاب والسنة، فالنصوص الشرعية مليئة بذكر صور عذابهم كلباسهم، وفراشهم، وطعامهم، وشرابهم فيها، وجل ما يخصهم ويلاقونه من جحيم في هذه الدار الموحشة؛ لذا حري بكل مسلم أن يستعيذ من النار وعذابها، ويكثر من الدعاء لله تعالى بالنجاة منها، فقد كان الرسول ﷺ كثيراً ما يستعيذ منها، ويحث على كل سبل النجاة منها، فعن عدي بن حاتم: أن النبي ﷺ ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم ذكر النار فأشاح بوجهه فتعوذ منها، ثم قال: "**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ**"(2)، كما وشرع لأمته الاستعاذة من عذاب النار عقب كل صلاة، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ**

---

(1) انظر: الرازي: محمد بن عمر، مفاتيح الغيب (ج472/9)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (ج393/10)، والأشقر، الجنة والنار (ص97 – 98).

(1) انظر: الطبري، جامع البيان (ج330/3) و(ج528/6)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم (ج62/2)، والسيد سابق، العقائد الإسلامية (ص260)، والتويجري، اليوم الآخر (ص78).

(2) [البخاري: صحيح البخاري، الرقاق/صفة الجنة والنار، 115/8: رقم الحديث 6563].

أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ"(1).

كما جاء في السورة عن المؤمنين الذين يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم كي يقيهم الله من عذاب النار وجحيمها، فقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: 16]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [آل عمران: 191 – 192].

وقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ"، قال: "فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا"، قال: "فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ"... قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟" قال: "يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ" قال: "يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟" قال: "يَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا" قال: "يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟" قال: "يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً" قال: "فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ"(2)(1)، فلكي يقي المؤمن نفسه من عذاب النار ينبغي أن يكون أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة، واقتران دعائه من النجاة منها بالعمل الجاد، فتقوى الله والإخلاص في دينه سبيل النجاة من النار والفوز بالجنة، وهذا ما يوضحه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: 130 – 132]، وقوله: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

---

(1) [مسلم: صحيح مسلم، المساجد ومواضع الصلاة/ما يستعاذ منه في الصلاة، ص230: رقم الحديث 588].

(2) [البخاري: صحيح البخاري، الدعوات/فضل ذكر الله ﷻ، 86/8: رقم الحديث 6408].

(1) انظر: الأشقر، الجنة والنار (ص107 – 109).

قال محمد قطب: "وتستوقفنا في السياق كلمة "زحزح".. إنها لفظة معبرة.. إنها توحي بالجهد والمشقة التي يتكبدها الإنسان ليبعد عن النار! وكأنما هي تجذبها إليها جذباً عنيفاً يحتاج إلى كل الجهد "ليزحزح" بعيداً عن جاذبيتها"[(1)].

قال ابن عاشور: "ومعنى: زحزح أبعد. وحقيقة فعل زحزح أنها جذب بسرعة، وهو مضاعف زحه عن المكان إذا جذبه بعجلة. وإنما جمع بين زحزح عن النار وأدخل الجنة، مع أن في الثاني غنية عن الأول، للدلالة على أن دخول الجنة يشمل نعمتين عظيمتين: النجاة من النار، ونعيم الجنة"[(2)].

فحري بالعبد المداومة على سؤال الله تعالى دخول الجنة والاستجارة من النار في كل وقت، فقد قال الرسول ﷺ: "**مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ الجَنَّةُ: اللَّهُمَّ أَدْخِلْهُ الجَنَّةَ، وَمَنْ اسْتَجَارَ مِنَ النَّارِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ النَّارُ: اللَّهُمَّ أَجِرْهُ مِنَ النَّارِ**"[(3)].

المطلب الثامن: **ثمرات الإيمان باليوم الآخر**.

إن الإيمان باليوم الآخر يورث الكثير من الثمرات العظيمة التي ترفع المسلم وترتقي به إلى أعلى الدرجات، وتفيده في دينه ودنياه، منها ما يلي:

1 – أن اليوم الآخر يرسخ الإيمان بالله تعالى؛ حيث إن عقيدة الإيمان بالله لا تنفك عن الإيمان باليوم الآخر، فيكون الإيمان بهذا اليوم دافعاً قوياً للمؤمن بأن يتجه إلى الأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله ﷻ، طمعاً في ثوابه، واتقاءً لعذابه، كما قال تعالى في عباده المؤمنين: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [آل عمران: 113 – 116].

قال الشيخ السعدي: "الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه. ومنها: أن العلم بذلك حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها ويحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات

---

(1) محمد قطب، دراسات قرآنية (ص414).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير (ج188/4 – 189)، بتصرف يسير.

(3) [الترمذي: سنن الترمذي، صفة الجنة/ما جاء في صفة أنهار الجنة، 699/4: رقم الحديث 2572]، قال الألباني: إنه صحيح.

النار المفظعة. وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه"[1].

2 – إن الإيمان باليوم الآخر أصل صلاح القلوب، فهو أصل الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، اللذان هما أساس الخيرات[2]، فإن صلح القلب صلح المرء وسعد في دنياه وآخرته، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (162) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[آل عمران: 162 – 163]، كما يصلح المجتمع وتستقيم الحياة، فالإيمان بهذا اليوم العظيم له من الآثار العظيمة التي تعود على الفرد والمجتمع، ولقد قال الشيخ ابن عثيمين في هذا الصدد: "وللإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة منها: الأولى: الرغبة في فعل الطاعة والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم. الثانية: الرهبة عند فعل المعصية والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم"[3].

قال صاحب كتاب (العقيدة الإسلامية وأسسها): "وإذا نظرنا إلى مشكلة السلوك الإنساني، وجدنا أن سعادة الجماعة الإنسانية مرهونة بضوابط سلوك الإنسان. وحينما نبحث عن الضوابط التي يمكن أن تضبط سلوكه، نجد ضوابط ضعيفة وناقصة، إلا ضابطاً واحداً هو مراقبة الله والخوف من عقابه يوم القيامة "يوم الدين". وبهذا تعدو قضية الإيمان باليوم الآخر ضرورة إنسانية لحل مشكلة الجنوح الإنساني، ولمنح المجتمعات الإنسانية أفضل صورة ممكنة من السعادة الجماعية في ظروف هذه الحياة؛ ولدفع الإنسان إلى فعل الخيرات، والارتقاء في سلم الفضائل الفردية والجماعية"[1].

3 – إن الإيمان باليوم الآخر السبيل والحصن المنيع لمواجهة الانغماس في شهوات الحياة الدنيا والغلو فيها، حيث إن جعلها أكبر الهم يؤدي إلى هلاك العبد وإبعاده عن خالقه كل البعد، فسوء اتخاذ هذه الشهوات بما يطغى عن الحدود الشرعية، أو أن تؤدي به إلى حالة عدم التوازن بين متطلبات الدنيا والآخرة، فإنها حتماً ستوقع الإنسان وتكون سبباً في خسارته عن الغاية التي خُلق الخلق لأجلها، فالمؤمن دأبه الاستعداد لليوم الآخر، فيجعل طاعة خالقه وعبادته أولى غاياته وأولوياته، وبالتالي كان الإيمان باليوم الآخر إنذاراً للتعمق في تلك الشهوات والتعلق المبالغ فيها، فمتاع الدنيا زائل وما في الآخرة باق، قال الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ

---

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن (ص37)، بتصرف يسير.

(2) انظر: المصدر السابق، ص963.

(3) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول (ص105).

(1) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص625 – 626).

﴿وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[آل عمران: 14 – 15]، وقال ﷺ: "**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**"[1].

4 – إن في الإيمان باليوم الآخر تسلية للمؤمن عما يفوته من الدنيا ومتاعها بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها[2]، فإذا لم يُقدِّر الله تعالى للعبد الغنى في المال، أو كثرة العيال، أو إيتاء الملك والرياسة والسلطة في الدنيا وغيرها من النعماء المحببة إلى القلوب – خاصة أن طبيعة الخلقة البشرية تميل إلى طلبها وتتمنى حصولها– واسى نفسه بوعد الله وإكرامه له في الآخرة بنعيم الجنة الخالد، فقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران: 57]، وقال سبحانه: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 148]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: 15]، ولقد قال النبي ﷺ فيمن كان حظه قليلاً في متاع الحياة الدنيا وهم الفقراء: "**قُمْتُ عَلَى بَابُ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكِينُ**..."[1]، ففيه دلالة على أن أكثر أهل الجنة فقراء الدنيا من أهل الصلاح والتقوى، كما أن في الإيمان باليوم الآخر ارتقاء بعقيدة القضاء والقدر، التي هي ركن من أركان الإيمان، ولا يتم إيمان عبد إلا بها؛ حيث إنه يورث الرضا بالنفس لما قد قُدِّر، فقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: 26].

5 – إن الإيمان باليوم الآخر سبب الفوز في دار القرار بالجنة ونعيمها، والنجاة من النار وجحيمها، ففيه يشعر العبد بمراقبة الله تعالى له في أقواله وأفعاله، وأن في هذا اليوم العظيم بعث وحساب وجزاء، وبالتالي فإن العبد سيعمل جاهداً للوصول إلى أرقى الأهداف وأعظمها، وهو نيل رضا الله والفوز بجنته، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ

(1) [مسلم: صحيح مسلم، الجنة وصفة نعيمها وأهلها، ص1181: رقم الحديث 2822].

(2) انظر: ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول (ص105).

(1) [البخاري: صحيح البخاري، النكاح/لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه، 30/7: رقم الحديث 5196].

﴿ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: 185].

6 – أن الإيمان باليوم الآخر يورث الأخلاق الفاضلة، أخلاق أهل الإيمان، كالصبر وتحمل العيش في هذه الحياة الدنيا بكل ما فيها من أقدار قد كتبها المولى ﷻ لعباده، التي له فيها الحكمة البالغة؛ حيث قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: 142]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: 146]، كما يحث المسلم على الإنفاق في وجوه الخير؛ لينال الأجر والثواب بالجنة، وينهى عن الشح والبخل الذي يؤدي بصاحبه إلى الهلاك والعذاب بالنار في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ [آل عمران: 180].

7 – إن الإيمان باليوم الآخر يزيد من إيمان العبد بعقيدة الولاء والبراء، الولاء لأهل التقى والإيمان، والبراء من أهل الكفر والعصيان، فحين يؤمن العبد بأن النار وما فيها من الأهوال، والعذاب الشديد، والجحيم معد للكافرين ومن تبعهم ووالاهم، فإنه حتماً سيتبرأ منهم كل التبرؤ؛ حتى لا يلحقه ما هو لاحق بهم من العذاب، فقد قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران: 28]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴾[آل عمران: 100]، ولا ندل على ما يحدث من الأحداث الشنيعة في وطننا الحبيب فلسطين، بتآمر وتكالب الذين كفروا وبمعاونة الغادرين المنتسبين إلى الإسلام الذين لا يتقون الله حق تقاته؛ حيث إنهم يعملون جاهدين على إيذاء المجاهدين في سبيل الله ومحاربتهم، وموالاة من عاداهم، وتضييعهم لهذه الأرض المقدسة بالتنازل عنها لأعداء الله، ومثل هذا الفعل الشنيع إنما هو كفر بهذه العقيدة الربانية – عقيدة الولاء والبراء – التي تؤدي بصاحبها إلى الهلاك وسوء العاقبة في الدنيا والآخرة، ولكن هيهات أن يسوى الله بينهم وبين الذين آمنوا وعملوا بهذه العقيدة قولاً وفعلاً؛ طمعاً في رضا الله، واتقاءً لعذابه في اليوم الآخر، ولقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [آل عمران: 31 – 32].

كانت هذه بعض الثمرات التي يجنيها المسلم من الإيمان باليوم الآخر، فالإيمان بهذا اليوم له من الفضائل والخيرات العظيمة في الدنيا والآخرة، التي من أعظمها نيل رضا الله تعالى، والفوز في دار القرار بدخول الجنة والنجاة من النار.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على نبينا محمد رسول الهدى وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين، وبعد:

فإنه بعد دراسة القضايا العقدية في سورة آل عمران تبين للباحثة جملة من النتائج والتوصيات، هي:

أولاً: النتائج:

1 – شمول السورة معظم قضايا العقيدة، حيث إنها قد فصلتها بشكل واضح ويسير.

2 – شمول سورة آل عمران أركان الإيمان الستة.

3 – الدلالة على أنواع التوحيد الثلاثة: (الربوبية، الألوهية، الأسماء والصفات) في السورة.

4 – تناولت السورة بعض نواقض التوحيد: (الكفر، الشرك، الفسق، النفاق، الظلم).

5 – تناولت السورة ملامح من دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم وأساليبهم الحكيمة والعديدة في سبيل نجاح الدعوة، التي هي منهج لكل الدعاة إلى الله.

6 – آية كلام عيسى عليه السلام في المهد كلام ينتفع به المتكلم لا مجرد الكلام، وهو الدعوة إلى الله تعالى.

7 – التأكيد على تحريف أهل الكتاب للكتب السماوية المنزلة عليهم.

8 – جواز لعن الكفار.

9 – جميع الأنبياء عليهم السلام قد بشروا بنبينا محمد ﷺ وأخذوا العهود والمواثيق من أممهم؛ لاتباعه والإيمان به ونصرته.

10 – ثبوت نزول الملائكة حقيقة لقتال الكافرين مع الأنبياء وأتباعهم؛ تأييداً وبشرى لهم بأمر منه سبحانه وتعالى، وأن هذا التأييد يتناسب طردياً مع صبرهم وقوة إيمانهم، فكلما زاد الصبر والثبات عند المؤمنين كلما زاد تأييد الملائكة لهم في المشاركة بالقتال معهم.

11 – حمل الملائكة البشريات لعباد الله الصاحين ومخاطبتهم.

12 – الجنة والنار مخلوقتان الآن، لا تفنيان ولا تبيدان، وأن أهلهما لا يفنون، وأنهم على منازل ودرجات.

ثانياً: التوصيات:

1 – أوصي الباحثين من طلبة العلم في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بإكمال سلسلة القضايا العقدية في القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية وإفرادها في موسوعة – خاصة أنه قد تم إخراج رسائل علمية في العديد من السور – وكذلك في الأحاديث النبوية وإفرادها في موسوعة أخرى.

2 – عمل مقارنة للموضوعات العقدية بين السور المكية والسور المدنية.

3 – مقارنة بين ذكر الملائكة والشياطين في السور المكية والملائكة والشياطين في السور المدنية.

4 – مقارنة بين اليوم الآخر في السور المكية واليوم الآخر في السور المدنية.

وختاماً أسأل الله ﷻ قبول هذا العمل وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وأن يغفر لي، فما كان من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله منه براء.

والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

أولاً: المراجع العربية:

الأثري، عبد الله بن عبد الحميد. (1424هـ - 2003م). *الإيمان حقيقته، خوارمه، نواقضه عند أهل السنة والجماعة*، مراجعة وتقديم: عبد الرحمن بن صالح. ط1. مدار الوطن للنشر- الرياض.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. (1414هـ-1994م). *أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة*. ط2. عمان – الأردن: دار النفائس.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. (1429م – 2008م). *الرسل والرسالات*. الأردن: دار النفائس.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. (1429هـ – 2008م). *القيامة الصغرى*. دار السلام. جمهورية مصر العربية. ودار النفائس – الأردن.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. (1429هـ – 2008م). *عالم الملائكة الأبرار* . دار النفائس – الأردن. ودار السلام – جمهورية مصر العربية.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. (1429هـ-2008م). *الجنة والنار*. جمهورية مصر العربية: دار السلام، و الأردن: دار النفائس.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. (1431هـ-2010م). *العقيدة في الله*. جمهورية مصر العربية. دار السلام، و الأردن: دار النفائس.

الأشقر، عمر سليمان عبد الله. (1432هـ-2011م). *عالم الجن والشياطين*. دار النفائس-الأردن. ودار السلام – مصر.

الأشقر، عمر سليمان. (1425هـ- 2005م). *القضاء والقدر*. ط13. الأردن: دار النفائس.

الأصفهاني، الحسين بن محمد. (1412هـ). *المفردات في غريب القرآن*. تحقيق: صفوان عدنان الداودي. ط1. دار القلم. الدار الشامية – دمشق. بيروت.

الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح. (1422 هـ - 2002 م). صحيح موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان. ط1. دار الصميعي. الرياض – المملكة العربية السعودية.

الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح. (1422هـ – 2002م). *سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها*. ط1. مكتبة المعارف – الرياض. جـ1 – 4: 1415هـ – 1995م.جـ 6: 1416هـ – 1996م. جـ 7.

الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح. (د.ت). *صحيح الترغيب والترهيب*. ط5. الرياض: مكتبة المعارف.

الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح.(د.ت). *صحيح الجامع الصغير وزياداته*. المكتب الإسلامي. (د.ط).

الألوسي، محمود بن عبد الله. (1415هـ). *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. تحقيق: علي عبد الباري عطية. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

الآمدي، علي بن أبي علي بن محمد بن سالم. (د.ت). *الإحكام في أصول الأحكام*، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، بيروت: دمشق– لبنان: المكتب الإسلامي.

البار، محمد علي. (1410هـ – 1990م). *الله جل جلاله والأنبياء عليهم السلام في التوراة والعهد القديم* . ط1. الدار الشامية – بيروت. دار القلم – دمشق.

البارودي، عماد زكي (د.ت). *أسماء الله الحسنى وصفاته العليا من مؤلفات شيخ الإسلام ابن القيم*، جمع وإعداد وتحقيق: المكتبة التوفيقية، (د.ط).

البخاري، محمد بن إسماعيل. (1422هـ). *صحيح البخاري*. تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر. ط1. دار طوق النجاة.

البدر، عبد الرزاق بن عبد المحسن. (د.ت). *التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحائية*. (د.ط). مطابع أضواء المنتدى.

البركتي، محمد عميم الإحسان. (1424هـ – 2003م). *التعريفات الفقهية*. ط1. دار الكتب العلمية (إعادة صف للطبعة القديمة في باكستان 1407هـ – 1986م)،

البُرِّي، محمد بن أبي بكر. (1403هـ–1983م). *الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة*، تحقيق وتعليق: محمد التونجي. ط1. الرياض: دار الرفاعي.

ابن بطال. علي بن خلف بن عبد الملك. (1423هـ – 2003م). شرح صحيح البخاري تحقيق ياسر بن إبراهيم. ط2. السعودية – الرياض: مكتبة الرشد.

البغوي، الحسين بن مسعود. (1420هـ). *معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي*، تحقيق: عبد الرزاق المهدي. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

البنا، حسن. (1423هـ – 2002م). *العقائد* (ضمن مجموعة الرسائل). ط1. دار الدعوة.

الترمذي، محمد بن عيسى (1395هـ – 1975م). سنن *الترمذي*. أبواب الزهد. تحقيق: أحمد شاكر (ج1. 2). ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج3). وإبراهيم عطوة عوض (ج4.5). ط2. مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر.

التويجري، محمد بن إبراهيم. (1433هـ – 2012م). *اليوم الآخر*. ط5. دار أصداء المجتمع – المملكة العربية السعودية. القصيم – بريدة.

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم. (1399هـ). *التحفة العراقية في الأعمال القلبية*. ط2. القاهرة: المطبعة السلفية.

ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم. (1399هـ). *أمراض القلب وشفاؤها*. ط2. القاهرة: المطبعة السلفية.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1404هـ). *الاحتجاج بالقدر*. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط4. بيروت: المكتب الإسلامي.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1404هـ). دقائق *التفسير*. تحقيق: محمد السيد الجليند. ط2. مؤسسة علوم القرآن – دمشق.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1405هـ–1985م). *الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان*. حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط. دمشق: مكتبة دار البيان.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1406هـ). *الصفدية*. تحقيق: محمد رشاد سالم. مكتبة ابن تيمية. مصر. ط2.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1406هـ–1986م). *منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية*، تحقيق: محمد رشاد سالم. ط1. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1412هـ – 1991م). درء *تعارض العقل والنقل*،، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1416هـ– 1995م). مجموع *الفتاوى*. تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. المدينة النبوية – المملكة العربية السعودية.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1419هـ/1999م). *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*، تحقيق: علي بن حسن، وآخرون، دار العاصمة، السعودية.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1420هـ – 2000م). *الإخنائية أو الرد على الإخنائي*، تحقيق: أحمد بن مونس العنزي. ط1. دار الخراز – جدة.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1422هـ – 2001م). *جامع الرسائل*، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط1، الرياض: دار العطاء.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1422هـ). *جامع المسائل*، تحقيق: محمد عزيز شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد. ط1. دار عالم الفوائد.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (1426هـ– 2005م). *العبودية*. تحقيق: محمد زهير الشاويش. ط7. المكتب الإسلامي – بيروت.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (د.ت). الحسنة والسيئة. (د.ط). بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (د.ط). *الرد على المنطقيين*. بيروت – لبنان: دار المعرفة.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. (د.ط). قاعدة في المحبة. تحقيق: محمد رشاد سالم. (د.ط). القاهرة– مصر: مكتبة التراث الإسلامي.

أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي. (1420 هـ). *البحر المحيط في التفسير*. المحقق: صدقي محمد جميل. بيروت: دار الفكر.

جبر، ياسر. (د.ت). *البيان الصحيح لدين المسيح*، تقديم: عمر بن عبد العزيز القرشي ووديع أحمد فتحي. ط1. الإسكندرية: دار الخلفاء الراشدين، ودار الفتح الإسلامي.

الجرجاني، علي بن محمد. (1403هـ– 1983م). *التعريفات*. ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، ط1، لبنان: دار الكتب العلمية مكتبة بيروت.

الجزائري، أبو بكر. (2004 م). عقيدة *المؤمن*. ط1. دار العقيدة.

الجوهري، إسماعيل بن حماد و عطار، أحمد عبد الغفور. (1407هـ – 1987م). *الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية*. ط4. بيروت: دار العلم للملايين.

ابن حجر ، أحمد بن علي. (1379هـ). *فتح الباري شرح صحيح البخاري*. دار المعرفة – بيروت. رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. وقام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. وعليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

ابن حزم ، علي بن أحمد. (د.ت). *الفصل في الملل والأهواء والنحل*. (د.ط). القاهرة: مكتبة الخانجي.

حافظ الحكمي، بن أحمد. (1410هـ – 1990م). *معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول* . تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر. ط1. دار ابن القيم – الدمام.

الحسيني، محمد خليل بن علي. (1408هـ – 1988م). *سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر*. ط3. دار البشائر الإسلامية. دار ابن حزم.

حلمي، مصطفى. (2004م). *الإسلام والأديان*. ط1. منشورات محمد علي بيضون، بيروت– لبنان: دار الكتب العلمية.

الحوالي، سفر بن عبد الرحمن. *شرح العقيدة الطحاوية*. (د.ط). (د.ن). مرتب حسب ترقيم الشاملة.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد. (1415هـ). *لباب التأويل في معاني التنزيل = تفسير الخازن*، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين. ط1. دار الكتب العلمية – بيروت.

الخطابي، حمد بن محمد. (1412هـ – 1992م). *شأن الدعاء* . ط3. تحقيق: أحمد يوسف الدقاق. دار الثقافة العربية. دمشق – بيروت.

الخلف، سعود بن عبد العزيز (1418هـ – 1997م). *دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية*. ط1. مكتبة أضواء السلف – الرياض.

الخلوتي، إسماعيل حقي بن مصطفى(د.ت). *روح البيان*. (د.ط). دار الفكر – بيروت.

خليفة، محمد عبد الظاهر. (د.ت). *الحياة البرزخية من الموت إلى البعث*.(د.ط). دار الاعتصام.

خليل، عماد الدين. (1412هـ –1991م). *دراسة في السيرة*. ط13. مؤسسة الرسالة. بيروت: دار النفائس .

الخميس، محمد بن عبد الرحمن. (د.ت). *أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة*. (د.ط). المملكة العربية السعودية دار الصميعي.

الداخل، عبد العزيز. (د.ط). *المرتبع الأسنى في رياض الأسماء الحسنى من كتب ابن القيم*. (د.ط). (د.ن).

الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. (1412هـ – 2000م). سنن *الدارمي* . تحقيق: حسين سليم أسد الداراني. ط1. دار المغني – المملكة العربية السعودية.

دراز، محمد بن عبد الله. (1426هـ– 2005م). *النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم*، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية. وقدم له: عبد العظيم إبراهيم المطعني. دار القلم للنشر والتوزيع.

ديدات، أحمد.(د.ت). *هل الكتاب المقدس كلام الله؟* (د.ط).

الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز. (1419هـ- 1998م). *تذكرة الحفاظ*. ط1، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان.

الذهبي، محمد بن أحمد بن قايماز. (1405هـ - 1985م). سير *أعلام النبلاء* . تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة. ط3.

الرازي، محمد بن أبي بكر. (1420هـ- 1999م). *مختار الصحاح*. تحقيق: يوسف الشيخ محمد. ط5. المكتبة العصرية - الدار النموذجية. بيروت - صيدا.

الرازي، محمد بن عمر. (1420هـ). *مفاتيح الغيب = التفسير الكبير*. ط3. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

ابن رجب ، عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي. (1426هـ- 2005م). *أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور*، تحقيق: عاطف صابر شاهين. ط1. المنصورة - مصر: دار الغد الجديد.

الرقب، صالح حسين. (1431هـ - 2010م). *صفة المحبة الإلهية إثباتها*. بحث محكم بكجلة جامعة الأقصى. نشر ضمن مجلة جامعة الأقصى (سلسلة العلوم الإنسانية). *14*(1)، 79 - 109.

الرومي، فهد بن عبد الرحمن. (1424هـ-2003م). *دراسات في علوم القرآن الكريم*. ط12. (د.ن).

الزَّبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق. (د.ت). *تاج العروس من جواهر القاموس*، تحقيق: مجموعة من المحققين. (د.ط). دار الهداية.

الزجاجي، عبد الرحمن بن إسحاق. (1406هـ-1986م). *اشتقاق أسماء الله*. تحقيق: عبد الحسين المبارك. ط2. بيروت: مؤسسة الرسالة.

الزرقاني، محمد عبد العظيم. (د.ت). مناهل العرفان في علوم القرآن. ط3. مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

الزركلي، خير الدين بن محمود. (2002م). *الأعلام*. ط15. مصر: دار العلم للملايين.

الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد. (د.ت). *الفائق في غريب الحديث والأثر*. تحقيق: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم. ط2. لبنان: دار المعرفة.

السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث.(د.ت). سنن *أبي داود*، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد(د.ط). المكتبة العصرية. صيدا – بيروت. وسنة النشر.

ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع. (1410هـ- 1990م). *الطبقات الكبرى*. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

السعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (1420هـ-2000م). تيسير *الكريم الرحمن في* تفسير كلام *المنان*، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. ط1. مؤسسة الرسالة.

سعفان، كامل. (1989م). *دراسة في التوراة والإنجيل*. دار الفضيلة- القاهرة.

السفاريني، محمد بن أحمد. (1402هـ - 1982م.). *لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية*. ط2. مؤسسة الخافقين ومكتبتها – دمشق.

السقار، منقذ بن محمود. (1423هـ). *هل العهد الجديد كلمة الله؟* .

السقاف، علوي بن عبد القادر. (1426هـ - 2005م). *صفات الله ﷻ الواردة في الكتاب والسنة*. دار الهجرة – المملكة العربية السعودية. ط3.

السلمان، عبد العزيز المحمد. (1421هـ-2000م). *الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية*. ط13. الرياض – السعودية.

السلمان، عبد العزيز بن محمد. (1418هـ - 1997م). مختصر *الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية*. ط12.

السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم. (د.ت). بحر *العلوم*. (د.ط). (د.ن).

السيد سابق (1420هـ- 2000م). *العقائد الإسلامية*. ط10. القاهرة: دار الفتح للإعلام العربي.

سيد قطب. (1427هـ - 2006م). مشا*هد القيامة في القرآن*. ط16. القاهرة: دار الشروق.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (د.ط). الخصائص الكبرى، دار الكتب العلمية – بيروت، بدون طبعة

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين. (1405هـ-1985م). *الحبائك في أخبار الملائك*، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

الشحود. علي بن نايف. (1431هـ-2010م). *أركان الإيمان*. ط1. (د.ن).

الشريدة، محمد حافظ. (1404هـ - 1984م). مدخل *لدراسة العقيدة الإسلامية* ط1. (د.ن).

الشريف، حاتم بن عارف بن ناصر. (د.ط) . *الولاء والبراء بين الغلو والجفاء في ضوء الكتاب والسنة.* . الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات.

شلبي، أحمد. (1988م). *مقارنة الأديان (اليهودية)*. ط8. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية .

شلبي، أحمد. (1998م). *المسيحية*. ط10. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار. (1415هـ-1995م). *أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن*. بيروت – لبنان: دار الفكر.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، الصنعاني، محمد بن إسماعيل. (1424هـ). *تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ويليه شرح الصدور في تحريم رفع القبور*، تحقيق: عبد المحسن بن حمد العباد البدر. ط1. مطبعة سفير، الرياض، المملكة العربية السعودية.

الشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل. (1421هـ-2001م). مسند *الإمام أحمد بن حنبل*. تحقيق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد. وآخرون. ط1. مؤسسة الرسالة.

ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد. (1983م). كتاب *الإيمان*. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط2. المكتب الإسلامي.

الصلابي، علي محمد محمد. (1422هـ – 2001م). *الوسطية في القرآن الكريم*. ط1. مكتبة الصحابة. الشارقة – الإمارات. مكتبة التابعين. القاهرة – مصر.

الطبري، محمد بن جرير. (1420هـ-2000م). جامع *البيان في تأويل القرآن*، تحقيق أحمد شاكر، ط1. مؤسسة الرسالة.

الطحاوي، أحمد بن محمد. (1414هـ). متن الطحاوية. شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني. ط2. المكتب الإسلامي – بيروت.

طنطاوي، محمد سيد. (1997). *التفسير الوسيط للقرآن الكريم*. ط1. القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

الطهطاوي، محمد عزت. (1413هـ – 1993م). *الميزان في مقارنة الأديان* . ط1. دار القلم – دمشق. بيروت: الدار الشامية.

طويلة، عبد الوهاب عبد السلام. (1410هـ – 1990م). *الكتب السماوية وشروط صحتها*. جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية. و بيروت: مؤسسة علوم القرآن.

طويلة، عبد الوهاب عبد السلام. (1423هـ - 2002م). *الكتب المقدسة في ميزان التوثيق* – ط2. دار السلام.

ظاظا، حسن. (1971).*الفكر الديني الإسرائيلي*. ط1. (د.ن).

ابن عاشور ، محمد الطاهر بن محمد. (1984م). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.

عاشور، سعد عبد الله. (1426هـ–2006م). *التبيان شرح أركان الإيمان* .ط1. (د.ن).

عبد الباقي، محمد فؤاد. (1422هـ–2001م). *المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم*. دار الحديث – القاهرة.

عبد الجبار، صهيب. (2014م). *الجامع الصحيح للسنن والمسانيد*. (د.م).

عبد الخالق، عبد الغني. (1407هـ - 1986م). حجية *السنة*. ط1. دار الوفاء– المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

العبد اللطيف، عبد العزيز بن محمد بن علي. (1427هـ). *نواقض الإيمان القولية والعملية*. ط3. مدار الوطن للنشر. أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراة.

ابن عبد الوهاب (1423هـ/2002م). *سليمان تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد*. تحقيق: زهير الشاويش. ط1. بيروت – دمشق: المكتب الإسلامي.

عبيدات، عبد الكريم نوفان. (1419هـ - 1999م). *عالم الجن في ضوء الكتاب والسنة*. ط2. دار إشبيليا – الرياض. أصل هذا الكتاب رسالة علمية لدرجة الماجستير تحت إشراف عبد الرحمن بن ناصر البراك.

ابن عثيمين ، محمد بن صالح .(1419هـ). تقريب *التدمرية*. ط1. المملكة العربية السعودية – الدمام: دار ابن الجوزي.

ابن عثيمين ، محمد بن صالح بن محمد. (1421هـ). شرح *العقيدة الواسطية*. ط6. خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل. دار ابن الجوزي. المملكة العربية السعودية.

ابن عثيمين ، محمد بن صالح. (1413هـ). مجموع *وفتاوى ورسائل العثيمين*، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان. دار الوطن – دار الثريا.

ابن عثيمين ، محمد بن صالح. (1421هـ - 2001م). *القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى*. ط3. الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة.

ابن عثيمين ، محمد بن صالح. (1422هـ). عقيدة *أهل السنة والجماعة*. ط4. الجامعة الإسلامية– المدينة المنورة.

ابن عثيمين ، محمد بن صالح. (1424هـ - 2004م). شرح *ثلاثة الأصول*. ط4. دار الثريا.

العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله. (د.ت). *الفروق اللغوية*، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم. دار العلم والثقافة. القاهرة – مصر. (د.ط).

ابن عطية ، عبد الحق بن غالب. (1422هـ). *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

العقل، ناصر. (1412هـ). مباحث *في* عقيدة *أهل السنة والجماعة*. ط1. دار الوطن.

علال، خالد كبير. (2015م). *الكتاب المقدس ليس وحياً إلهياً*. (د.ط). (د.ن).

العمري، محمد بن عبد الله الخطيب. (1985م). مشكاة *المصابيح*. ط3. بيروت: المكتب الإسلامي.

الغزالي، أبو حامد. (1404هـ–1984م). *المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى*. دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت. مكتبة القرآن – القاهرة.

ابن فارس ، أحمد. (1399هـ–1979م). معجم *مقاييس اللغة*. تحقيق: عبد السلام هارون. دار الفكر.

الفراهيدي، الخليل بن أحمد بن عمرو. (د.ت). *العين*. تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي. دار ومكتبة الهلال. (د.ط).

الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله. (1420هـ–1999م). *الإرشاد إلى* صحيح *الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد*. ط4. دار ابن الجوزي.

الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله. (1423هـ–2002م). *إعانة* المستفيد بشرح كتاب *التوحيد*. ط3. مؤسسة الرسالة.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (1416هـ–1996م). *بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز*، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. (1426هـ – 2005م). *القاموس المحيط*. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. ط8. بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. مؤسسة الرسالة. بيروت – لبنان.

الفيومي، أحمد بن محمد بن علي. (د.ت). *المصباح المنير في غريب الشرح الكبير* . المكتبة العلمية – بيروت. (د.ط).

القاسمي، محمد جمال الدين. (1418هـ). *محاسن التأويل* . تحقيق: محمد باسل عيون السود. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

القاضي عبد الجبار، ابن أحمد. (1416هـ – 1996م). *شرح الأصول الخمسة*. ط3. تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم. تحقيق: عبد الكريم عثمان. مكتبة وهبة.

القحطاني، محمد بن سعيد. (د.ط). *الولاء والبراء في الإسلام*، تقديم: عبد الرزاق عفيفي. ط1. دار طيبة. الرياض–المملكة العربية السعودية.

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر. (1384هـ – 1964م). *الجامع لأحكام القرآن*، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط2. القاهرة: دار الكتب المصرية.

القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر. (1425هـ). *التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة*، تحقيق ودراسة: الصادق بن محمد بن إبراهيم. ط1. الرياض: مكتبة دار المنهاج.

القطان، مناع. (1419هـ – 1998م). *مباحث في علوم القرآن*. ط35. مؤسسة الرسالة. بيروت – لبنان.

قطب، محمد. (1414هـ – 1993م). *دراسات قرآنية*. ط7. دار الشروق.

قلعجي، محمد رواس و قنيبي، حامد صادق. (1408هـ–1988م). *معجم لغة الفقهاء*. ط2. دار النفائس.

القيرواني، يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة. (1979م). *التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرفت معانيه*، تقديم وتحقيق: هند شلبي، الشركة التونسية للتوزيع.

ابن القيم ، محمد بن أبي بكر الجوزية. (1408هـ–1988م). *اجتماع الجيوش الإسلامية*، تحقيق: عواد عبد الله المعتق. ط1. الرياض: مطابع الفرزدق التجارية.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب الجوزية. (1416هـ–1996م). *مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين*. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. ط3. دار الكتاب العربي – بيروت.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (د.ت). *الجوزية الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه*، تحقيق: محمد جميل غازي. مكتبة المدني – جدة. (د.ط).

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجوزية . (1415هـ – 1994م). *زاد المعاد في هدي خير العباد* .ط27. مؤسسة الرسالة. بيروت – مكتبة المنار الإسلامية. الكويت.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجوزية. (1394هـ). *طريق الهجرتين وباب السعادتين*. ط2. القاهرة – مصر: دار السلفية.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجوزية. (1408هـ). *الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة*، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. دار العاصمة. الرياض: المملكة العربية السعودية. ط1.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجوزية. (1417هـ). متن *القصيدة النونية*. ط2. مكتبة ابن تيمية. القاهرة.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجوزية. (1422هـ–2001م). مختصر *الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة*. وقد اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن الموصلي. تحقيق: سيد إبراهيم. ط1. القاهرة – مصر: دار الحديث.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجوزية. (1426هـ–2005م). *الصلاة* وحكم *تاركها*. ط1. مؤسسة الرسالة ناشرون.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر. الجوزية.(1426هـ – 2005م). *الروح*. قرأه وخرج أحاديثه: علي صبح المدني. ط4. مطبعة المدني – مصر. ودار المدني – جدة.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الجوزية (1418هـ – 1997م). *الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي*. ط1. المغرب: دار المعرفة.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الجوزية. (1391هـ–1971م). *تحفة المودود بأحكام المولود*، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط. ط1. دمشق: مكتبة دار البيان.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الجوزية. (1393هـ – 1973م). *الفوائد*. ط2. دار الكتب العلمية – بيروت.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الجوزية. (1411هـ– 1991م). *إعلام الموقعين عن رب العالمين*. تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الجوزية. (1999م). *الوابل الصيب من الكلم الطيب*. ط3. تحقيق: سيد إبراهيم. القاهرة دار الحديث.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الجوزية. (د.ت). *مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة*. (د.ط). دار الكتب العلمية – بيروت.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الجوزية. (د.ت). *بدائع الفوائد*. (د.ط). بيروت– لبنان: دار الكتاب العربي.

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر الدمشقي (1388هـ–1968م). *قصص الأنبياء*. تحقيق: مصطفى عبد الواحد. ط1. القاهرة: مطبعة دار التأليف.

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر الدمشقي. (1420هـ– 1999م). *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق: سامي بن محمد سلامة. ط2. دار طيبة.

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر الدمشقي. (1424هـ–2003م). *البداية والنهاية*، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، دار هجر،.

كحالة، عمر بن رضا كحالة الدمشق. (د.ت). معجم *المؤلفين*. مكتبة المثنى – بيروت. دار إحياء التراث العربي– بيروت. (د.ط).

الكتاب المقدس، جمعيات الكتاب المقدس المتحدة، 1966م.

الكردي، إيمان عبد اللطيف. (1428هـ – 2007م). *اليوم الآخر أحداث وعبر*. ط1. مكتبة دار الزمان – المدينة المنورة.

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني. (د.ت). *الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية*، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري. (د.ط). بيروت: مؤسسة الرسالة.

الكفوي، أيوب بن موسى (د.ت). *الكليات*. تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري. مؤسسة الرسالة – بيروت. (د.ط).

الكليني، محمد بن يعقوب. (د.ت). *الكافي*. ط3. تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية.

ابن ماجة ، محمد بن يزيد القزويني. (د.ط). سنن *ابن ماجة*. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي. (د.ط).

الماوردي، علي بن محمد بن محمد بن حبيب. (1409هـ). *أعلام النبوة*. ط1. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

المباركفوري، عبيد الله بن محمد عبد السلام. (1404هـ – 1984م). (مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح). ط3. إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند.

المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم. (د.ت). *تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي*. (د.ط). دار بيروت: الكتب العلمية.

مجموعة من علماء نجد الأعلام. (1417هـ– 1996م). *الدرر السنية في الأجوبة النجدية*. تحقيق وجمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. ط6. (د.ط).

المحمود، عبد الرحمن بن صالح. (1418هـ – 1997م). *القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه*. ط2. و(أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير).

المحمود، عبد الله بن زيد. (1402هـ – 1982م). *الإيمان بالأنبياء بجملتهم وضعف حديث أبي ذر في عددهم*. ط2. دولة قطر– رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية.

المروزي، محمد بن نصر بن الحجاج. (1406هـ). تعظيم قدر *الصلاة*. تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. ط1. مكتبة الدار – المدينة المنورة.

مسلم، ابن الحجاج النيسابوري (1426هـ – 2005م). صحيح مسلم. ترقيم وترتيب: محمد فؤاد عبد الباقي. دار الآفاق العربية. القاهرة: مدينة نصر.

مصطفى، إبراهيم؛ الزيات، أحمد؛ عبد القادر، حامد؛ النجار، محمد. (د.ت). *المعجم الوسيط*. مجمع اللغة العربية بالقاهرة. دار الدعوة. (د.ط).

المطرزِي، ناصر بن عبد السيد أبي المكارم. (د.ت). *المغرب في ترتيب المعرب*. دار الكتاب العربي. (د.ط).

المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوي. (1356هـ). *فيض القدير شرح الجامع الصغير*، علق عليه تعليقات يسيرة ماجد الحموي ط1. المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي. (1410هـ–1990م). *التوقيف على مهمات التعاريف*. ط1. القاهرة: عالم الكتب.

ابن منظور ، محمد بن مكرم بن علي. (1414هـ.). *لسان العرب*. دار صادر – بيروت. ط3.

موقع الإسلام سؤال وجواب. (د.ط). *الذلة والمسكنة–اليهود*. تاريخ الاطلاع: 2015/11/1م. الموقع: http://islamqa.info/ar/ref/13245 .

موقع المعرفة (2017). *الدنمارك*. تاريخ الاطلاع: 2017/3/13م. الموقع: http://www.marefa.org/index.php

موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا (2016). حبرون. تاريخ الاطلاع: 2016/3/10م، الموقع https://ar.wikipedia.org/wiki

النجدي، محمود الحمود. (د.ت). *النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى*. (د.ط). مكتبة الإمام الذهبي – الكويت.

نخبة من العلماء. (1421هـ). *أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة*. ط1. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية.

ابن أبي نصر، محمد بن فتوح بن عبد الله (1415 – 1995م). *تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم*، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز. ط1. القاهرة–مصر: مكتبة السنة.

نوفل، تاج الدين. (1998م). *أسماء الله الحسنى*. ط1. دار الأمين.

النووي، يحيى بن شرف.(1392هـ). *المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج*. ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

النيسابوري، الحاكم محمد بن عبد الله. (1411هـ – 1990م). *المستدرك على الصحيحين*. تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

هراس، محمد بن خليل حسن. (1415هـ). شرح العقيدة الواسطية. ويليه ملحق الواسطية. ط3. ضبط نصه وخرج أحاديثه ووضع الملحق: علوي بن عبد القادر السقاف. دار الهجرة.

الهروي، محمد بن أحمد. (2001م). *تهذيب اللغة*، تحقيق: محمد عوض مرعب. ط1. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الهلاوى، محمد بن عبد العزيز. (2002م). ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها. ط1. مكتبة القرآن.

الهندي، محمد رحمت الله بن خليل الرحمن الكيرانوي. (1410 هـ - 1989م). *إظهار الحق*، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد أحمد ملكاوي. ط1. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد – السعودية.

الواحدي، علي بن أحمد. (1411هـ). *أسباب نزول القرآن*، تحقيق: كمال بسيوني زغلول. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

وافي، علي عبد الواحد. (1996م). *الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام*. مصر: دار نهضة.

ياسين، محمد نعيم. (1410هـ – 1989م). *الإيمان*. ط5. الأردن: دار الفرقان.

ياسين، نسيم شحدة. (1432هـ–2011م). *شرح أصول العقيدة الإسلامية*. ط6. مكتبة ومطبعة دار المنارة.

يسري، محمد. (د.ت). *متن درة البيان في أصول الإيمان*. تقديم جماعة من العلماء. ط4. القاهرة: دار اليسر.

الفهارس العامة

فهرس الآيات الكريمات

م.	الآيـة	رقم الآية	رقم الصفحة
18.	﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾	17	12
19.	﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾	17	12
20.	﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ	18	17 ، 36
21.	﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ...	19	9 ، 16، 59، 72
22.	﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ	20	40 ، 43، 53
23.	﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ	21-22	73
24.	﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾	22	80
25.	﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا	24	73
26.	﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي	26	17، 33، 43، 57، 115، 334
27.	﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ...	27	30
28.	﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ...	27	30
29.	﴿ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	27	31
30.	﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ	28	19
31.	﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ	29	57، 88
32.	﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ	31	42، 65
33.	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ	33	12
34.	﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ	33-35	52
35.	﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي	35	48
36.	﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا	36	19 ، 40، 81

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
37.	﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا	37	31
38.	﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ	38	52
39.	﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي	43–38	45
40.	﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي	43	41
41.	﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ	47	19
42.	﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ	47	31
43.	﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ	51	38
44.	﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ	53–52	40
45.	﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا	53	19
46.	﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا	56	74
47.	﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ	59	30
48.	﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ	61–60	13
49.	﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ	62	43، 55
50.	﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ ...	64	9، 17 ، 24، 29 ، 38، 79
51.	﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ	71–70	16
52.	﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ	72	95
53.	﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن	73	49، 55
54.	﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾	76	65، 66
55.	﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ	80–79	72
56.	﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ	80	18

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
57.	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا	81	84
58.	﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ	85	16، 74
59.	﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾	88	197
60.	﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ	88-86	76
61.	﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ	89-86	76
62.	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ	91-90	76
63.	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ	91	342
64.	﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا	94-93	99
65.	﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ	95	64
66.	﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ	96	163، 165
67.	﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ	97	74
68.	﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ	98	337
69.	﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾	99	72
70.	﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ	100	120، 126، 190، 345
71.	﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ	102-101	374
72.	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ...	102	1، 101، 272، 275، 341
73.	﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا ...	103	10
74.	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا	105	218
75.	﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا	106	339

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
.76	﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾	107	67
.77	﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا	108	73
.78	﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...	109	33
.79	﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ	110	85
.80	﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ ...	110	17
.81	﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن	111	202
.82	﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا	112	67، 200، 202، 215، 217
.83	﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ	115–113	17
.84	﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ	116	332
.85	﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا	117	100
.86	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا	118	130
.87	﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾	119	72
.88	﴿ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾	120	106، 229
.89	﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ	121	106
.90	﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ	127–123	253، 272
.91	﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم	126	35
.92	﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾	126	59
.93	﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ	127–126	75
.94	﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ	128	67، 80،

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
			145
95.	﴿يغفر لمن يشاء ويعذب	129	81، 108
96.	﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون	130	381
97.	﴿واتقوا النار التي أعدت للكافرين﴾	131	341
98.	﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون	132	187، 284
99.	﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة	133	45، 319، 332
100.	﴿والعافين عن الناس﴾	134	63
101.	﴿والله يحب المحسنين﴾	134	65، 66
102.	﴿والذين إذا فعلوا فاحشة	135	39
103.	﴿والذين إذا فعلوا فاحشة	136-135	101
104.	﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين﴾	138	244
105.	﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم	139	94
106.	﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما	142	284، 314، 345
107.	﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله	144	144، 184، 188
108.	﴿وما كان لنفس أن تموت إلا	145	33، 81، 103، 107، 266
109.	﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون	148-146	145
110.	﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر	147	45
111.	﴿فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب	148	281
112.	﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين	150-149	121، 122،

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
			126
113.	﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ	150	94، 182
114.	﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ	151	75، 81، 98، 100
115.	﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ	152	62، 63
116.	﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ	154	34
117.	﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾	154	49، 88
118.	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ	155	55، 62
119.	﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا	156	34، 72، 89، 111، 114
120.	﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ	157	90، 295، 309
121.	﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾	159	66
122.	﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ	159-160	39
123.	﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ ...	160	35
124.	﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ	161	151، 307
125.	﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ	162	317، 334، 343
126.	﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾	163	53
127.	﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ	164	22
128.	﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾	166	103
129.	﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ	167	90
130.	﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾	167	71

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
131.	﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ	168	34
132.	﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا	169	287، 288
133.	﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ	171	297
134.	﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ	173	251
135.	﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ	175-173	38
136.	﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ	175	19، 80
137.	﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ	178-176	75
138.	﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾	179	32 ، 43
139.	﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	180	32
140.	﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ	181	73
141.	﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ	182	203
142.	﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ	183	330
143.	﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ	184	133، 190
144.	﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾	185	279، 288، 297
145.	﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ	186	82
146.	﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ	187	16
147.	﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ	188	91، 94
148.	﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ	189	17 ، 32،
149.	﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ	190	30،
150.	﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا	191	39
151.	﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ	192	100

م.	الآيـة	رقم الآية	رقم الصفحة
152.	﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ	193	40 ، 41
153.	﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ	195	297
154.	﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي	196-197	331
155.	﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾	197	333
156.	﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ	198	285
157.	﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ	199	59، 198، 199
158.	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ	200	115، 309
	سورة النساء		
159.	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ	10	101
160.	﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ	18	76
161.	﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ	33	337
162.	﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾	34	156
163.	﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾	46	229
164.	﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ	116	78
165.	﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ	136	267
166.	﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ﴾	145	88، 98
167.	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ	150-151	133
168.	﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ	157-159	180
169.	﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾	164	250
170.	﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ	171	173
	سورة المائدة		

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
171.	﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا	6	82
172.	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا	10	331
173.	﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ	56	123
174.	﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ	68	228
175.	﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ	72	79
176.	﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ	75	153
	سورة الأنعام		
177.	﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم	6	324
178.	﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا	38	330
179.	﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن	43	263
180.	﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾	59	30
181.	﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا	60	180
182.	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ	74	160
183.	﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾	82	98
184.	﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن ...	88	79
185.	﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾	91	237
186.	﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾	108	263
187.	﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾	112	260
188.	﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي	122	210
189.	﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ	124	148
190.	﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ	137	263
	سورة الأعراف		

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
191.	﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ ...	34	34
192.	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ	59	238
193.	﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا	143	320
194.	﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ	157	209
195.	﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾	180	44
	سورة الأنفال		
196.	﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ	9	253
197.	﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ	73	122
	سورة التوبة		
198.	﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾	1	117
199.	﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ	5	95
200.	﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾	49	340
201.	﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ	72	362
	سورة يونس		
202.	﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	3	247
203.	﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍۭ	27	339
	سورة هود		
204.	﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ	113	121
205.	﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ	119	338
	سورة يوسف		
206.	﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾	55	49، 51
207.	﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا	87	169
	سورة إبراهيم		

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
.208	﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ	26	80
.209	﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ	37	182
.210	﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾	47	60
.211	﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ	48	331
	سورة الحجر		
.212	﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾	9	211، 223
.213	﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي	40–39	270
	سورة النحل		
.214	﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ...	36	9
.215	﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾	50	257
.216	﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... ﴾	68	137
.217	﴿...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا	89	219
.218	﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم	89	300
.219	﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾	106	124
	سورة الإسراء		
.220	﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى	2	222
.221	﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ	14–13	299
.222	﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ		298
.223	﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا	56	259
.224	﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ	106	223
	سورة الكهف		
.225	﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا	29	340

م.	الآيـة	رقم الآية	رقم الصفحة
226.	﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا	50	82، 85
227.	﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا	86	141
228.	﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ ...	110	9
سورة مريم			
229.	: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ	5	167
230.	﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ	11	141
231.	﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ	35	153
232.	﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾	46	304
233.	﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ	56	140
234.	﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ	58	137
235.	﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾	64	270
سورة الأنبياء			
236.	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا	7	137
237.	﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ	8	137
238.	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي	8-7	144
239.	﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ...	25	22
240.	﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ	99-98	337
241.	﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا	91	1
سورة الحج			
242.	﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا	27	163
243.	﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾	38	275
سورة المؤمنون			

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
244.	﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾	100	28
245.	﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا	115	283
246.	﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ	108–107	340
	سورة النور		
247.	﴿وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾	55	83
	سورة الفرقان		
248.	﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾	3	288
249.	﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ	34	332
250.	﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾	75	319
	سورة الشعراء		
251.	﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾	16	130
	سورة النمل		
252.	﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ	59	138
253.	﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ...	65	32
	سورة القصص		
254.	﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا	7	137، 141
	سورة الروم		
255.	﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ	30	72
256.	﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ	58	219
	سورة لقمان		
257.	﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ	13	78، 320
258.	﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا	28	320
	سورة السجدة		

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
259.	﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾	17	313
260.	﴿ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾	22	61
	سورة الأحزاب		
261.	﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ	21	122
262.	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا	45	194
	سورة سبأ		
263.	﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ	24	32
264.	﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا	28	183
265.	﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ	41-40	256
	سورة الصافات		
266.	﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾	6	263
267.	﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾	153	138
	سورة ص		
268.	﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ	30	238
	سورة الزمر		
269.	﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ	16	339
270.	﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي	42	181
271.	﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ ...	65	10
	سورة غافر		
272.	﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ	46-45	290
	سورة الشورى		
273.	﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ	ذ	270
274.	﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا	7	331

م.	الآيـة	رقم الآية	رقم الصفحة
.275	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾	11	28 ، 41، 53
.276	﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا	51	250
	سورة الزخرف		
.277	﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾	26	117
.278	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ	28−26	121
.279	﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ	32−31	135
.280	﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾	55	217
	سورة محمد		
.281	﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ	15	324
.282	﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾	19	101
	سورة الحجرات		
.283	﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾	6	83
	سورة الذاريات		
.284	﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾		246
.285	﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾	48	330
	سورة الطور		
.286	﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾	27	336
	سورة النجم		
.287	﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾	13	268
.288	﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي	26	284
.289	﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ	41−36	336
	سورة القمر		
.290	﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾	48	331

م.	الآيــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الرحمن			
.291	﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾	17	45
.292	﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ (٢٦) وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ﴾	26–25	187
.293	﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ﴾	58–56	366
سورة الواقعة			
.294	﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾	30	322
.295	﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ﴾	50–49	294
سورة الحديد			
.296	﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾	15	333
.297	﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾	20	70
سورة المجادلة			
.298	﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠﴾	21	179
.299	﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾	22	116
سورة الممتحنة			
.300	﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾	4	119
سورة الصف			
.301	﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾	6	184
سورة الطلاق			
.302	﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾	1	102
.303	﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾	3	268
سورة التحريم			
304.	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا﴾	6	375
305.	﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾	11	136

م.	الآيـة	رقم الآية	رقم الصفحة
306.	﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾	12	136
	سورة القلم		
307.	﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾	9	109
	سورة القيامة		
308.	﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾	17	219
	سورة المرسلات		
309.	﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾	23	23
	سورة النازعات		
310.	﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾	5	246، 247
	سورة المطففين		
311.	﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ	6	282
312.	﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ	16-15	340
	سورة الانشقاق		
313.	﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ	8-7	301
	سورة الهمزة		
314.	﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ	6-4	331
	سورة الكوثر		
315.	﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	1	325
	سورة الإخلاص		
316.	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ	4-1	236

فهرس الأحاديث الشريفة

طرف الحديث	ورود الحديث	رقم الصفحة
إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي	صحيح البخاري	184
أَجَلْ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَاةِ بِبَعْضِ	صحيح البخاري	194
أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا	صحيح البخاري	187
أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ	سنن الترمذي	183
الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ	صحيح البخاري	206
الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى	سنن الترمذي	145
إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ	صحيح البخاري	272
إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا	صحيح البخاري	292
أَوْثَقُ عُرَى الْإِسْلَامِ الْحَبُّ فِي اللَّهِ	صحيح البخاري	121
بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا	صحيح البخاري	289
بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ، قَرْنًا فَقَرْنًا	صحيح البخاري	147
بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا	صحيح البخاري	320
تَعْبُدُ اللهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُصَلِّي	مسند الإمام أحمد بن حنبل	119
ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ	صحيح البخاري	121
ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ	صحيح مسلم	308
حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ	صحيح مسلم	345
خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ	صحيح مسلم	249
رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ وَرُبَّمَا قَالَ	سنن الترمذي	310
الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ	سنن الترمذي	126
سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ، وَالْفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ	صحيح مسلم	327
عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ	سنن الترمذي	277
فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ	صحيح البخاري	322
فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا	صحيح مسلم	335
فُرِجَ سَقْفُ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ	صحيح البخاري	317
فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ	صحيح مسلم	323
قُمْتُ عَلَى بَابُ الجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ	صحيح البخاري	346
كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء	صحيح البخاري	136، 139

طرف الحديث	ورود الحديث	رقم الصفحة
	وصحيح مسلم	
الكَوْثَرُ نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَّتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ	سنن الترمذي	327
لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ	صحيح البخاري	309
لاَ تَحَاسُدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القُرْآنَ	صحيح البخاري	110
لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ	صحيح مسلم	305
لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ	سنن الترمذي	103، 114
لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ	صحيح البخاري	292
لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللَّهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي	سنن الترمذي	310، 328
اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَرْبَعِ: مِنْ عِلْمٍ	سنن النسائي	52
لَيْسَ أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ	صحيح مسلم	210
مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ، قَالَ: مِنْ أَفْضَلِ	صحيح البخاري	255
مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا	صحيح مسلم	306
ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه	صحيح البخاري	72
مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ	صحيح البخاري	274
مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي	صحيح مسلم	183
الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ	صحيح مسلم	308
مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ	صحيح البخاري	306
مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الْأُوَلَ مِنْ الْقُرْآنِ فَهُوَ حَبْرٌ	سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها	15
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ	صحيح البخاري	318
مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الجَنَّةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ قَالَتِ الجَنَّةُ	سنن الترمذي	343
مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ	صحيح البخاري	171
مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ	صحيح البخاري	279
مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ	سنن أبي داود	312، 329
مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ	سنن الترمذي	ج
مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا	صحيح مسلم	10
مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَجْرَى	سنن ابن ماجة	311

طرف الحديث	ورود الحديث	رقم الصفحة
مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ	صحيح مسلم	336
الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ	صحيح مسلم	111، 114
نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا	صحيح مسلم	335
هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ	صحيح مسلم	251
هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟	صحيح البخاري	301
وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ	صحيح مسلم	317
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ	صحيح البخاري	311
وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ	سنن الترمذي	15، 43
وَاللهِ، لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَادِلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ	صحيح مسلم	179
وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ	سنن الترمذي	278
وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ	صحيح البخاري	328
يُجَاءُ بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ	صحيح مسلم	334
يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى	صحيح البخاري	315
يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ	صحيح البخاري	301
يُدْنَى الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ	صحيح مسلم	303
يُقَالُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ لاَ مَوْتَ	صحيح البخاري	318
يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ	سنن ابن ماجة	319
يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا	صحيح مسلم	318
يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ، كَيْفَ	مسند الإمام أحمد بن حنبل	77
يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ	صحيح مسلم	14

فهرس الأعلام المترجم لهم